آية الله الشيخ محمد سند

الصحابة

بين العدالة والعصمة



[illegible]

بسم الله الرحمن الرحیم

الصحابة بين العدالة والعصمة

كاتب:

محمد السند

نشرت في الطباعة:

فرصاد

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الصحابة بين العدالة والعصمة

اشارة

شماره کتابشناسی ملی : م۸۴-۲۳۲۷

عنوان و نام پدیدآور : الصحابه بین العداله و العصمه/ محمد سند

مشخصات نشر : تهران : فرصاد، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری : ص ۴۴۲

یادداشت : عربی

یادداشت : فهرستنویسی براساس اطلاعات فیپا

یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس

موضوع : صحابه

موضوع : صحابه -- احادیث

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۴۵۲

رده بندی کنگره : BP۲۲۳/۷/س۹ص۳ ۱۳۸۴

سرشناسه : سند، محمد، - ۱۳۴۰

المقدمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم البحث حول الصحابة و عدالتهم كان و ما يزال من أهمّ البحوث العقائدية بين المذاهب الإسلاميّة و قد عنى الكثير من الباحثين و الكتّاب فى ملابسات هذا الموضوع ممّا يدل على مكانة هذا البحث و أهمّيته- فى دائرة الخلاف-.

من هنا جاء البحث فى- الصحابة بين العدالة و العصمة- يتناول هذا الأمر الخطير، لكنّه هذه المرّة جاء برؤية جديدة و نظرة فاحصة دقيقة تعتمد على تحليل نظرية «عدالة الصحابة» و ما يترتّب عليها من آثار. و قد سلّط الضوء فى هذه الدراسة على جميع زوايا هذه الظاهرة و ملابساتها، ابتداءا بولادتها و سرّ تبلورها.

و مرورا بالآثار المترتّبة عليها، و انتهاء بسلامة هذه النظرية أو فسادها.

و لما كانت هذه النظرية ذات ركنين هما: العدالة و الصحابة، كان من الضرورى كشف الغموض و إزالة اللبس الذى يحايث ظهور المعنى لهذين الركنين و وضوحه؛ فما العدالة التى تستند للصحابة؟

هل المراد منها تلك الصفة المعروفة فى الأذهان؟ أو المراد منها عصمة الصحابى و حجّية قوله و فعله؟

و هل المراد فى حجّية قول الصحابى، حجّية قوله كراو من الرواة؟ أم أنّ حجّية قوله من باب حجّية اجتهاده؟ و رأيه كمجتهد قد يصيب و خطئ، هذا مع مراعاة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰

اجتهاده بموازين الإجتهاد.

أم أنّ حجّية قوله و فعله من باب التفويض؟ و له الحق فى التشريع و إنّه مشرّع يخصص إطلاق و عموم الكتاب و السنّة، فينسخ الأحكام و يحكم بما يراه فيؤخذ به ناسخا لما جاء به الكتاب و السنّة، أو يحكم بكون ما يراه حكما بمنزلة السنّة النبويّة فى ما لم يأت به الكتاب و السنّة!!

من هنا كـان على الباحث المتتبع فى عدالـة الصـحابة أن يقف بإمعان على الآثار المترتبـة عن العدالـة و كيف أنّها تكون فى كثير من الأحيان مساوقة لآثار العصمة عند الإمامية و هذا ما يدعو إلى كثير مراجعة و تأمّل!

و كذلك الحال فى الصـحابة، فهل كان المراد منهم جميع الصـحابة الذين كانوا حول النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم- على أضـيق التعاريف-؟

أم أنّهم الذين اتّفقوا على بيعة أبى بكر و كان هواهم و رأيهم على ذلك؟

إذن فما بال الـذين قاطعوا السـقيفة و لم يحضـروها؟ و كان فيهم خير الصـحابة و أفضـلها. ثمّ ربّما كان بغية أصـحاب هذه النظرية هى مساندة الحزب المؤتمر فى السقيفة!! أو إضعاف الشريعة لهم فى الوقت الذى أقصى الآخرين الذين آزروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و آزرهم عن دورهم الحق فى رسم معالم الدين و مناهجه القويمة!!

هـذا و من المباحث المهمّـة فى دائرة الصـحابة أيضا البحث عن الملاك و الميزان و الضابط لتوثيقات أئمـة الجرح و التعديل من أهل السـنّة و الجماعة، فهل هى قائمة على ضوابط علمية دينية فى تلقّى الخبر؟ أم هى مبتنية على الأهواء الجاهلية و تسير على قاعدة البغض و العـداء لمن أمرنـا له بالطاعـة و الولاء و على قاعـدة الحبّ و الوداد للخوارج و النواصب الـذين جاهـدوا لطمس معالم هـذا الـدّين و تحريف سنّة سيّد المرسلين صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

بعد هذا العرض السـريع لمباحث الكتاب الذى أجاد بها قلم أسـتاذنا العلّامة المحقق الفقيه آية اللّه الشـيخ محمّد السند البحرانى حفظه اللّه تعالى و التى جاءت

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱

ضمن عدّة مقالات نشـرتها مجلة «تراثنا» تحت عنوان «عدالة الصـحابة» حيث لاقت هذه البحوث اهتمام الدارسـين و العلماء و المثقفين كذلك الهيئات و المراكز العلميّة و الدينيّة فى البلاد الإسلامية و خارجها.

و كـان من الطبيعى أن ينقسم القرّاء بين مؤيّـد و مخـالف لأنّ موضوع البحث كـان فى مجـال دائرة الخلاف و الكاتب قـد جاء برؤى جديدة لم تعهدها البحوث السابقة فى هذا المجال.

من هنا كانت أهمّيـة إعداد هذه البحوث و جمعها فى كتاب مسـتقل رجاء أن ينتفع به أخوانى من جميع المذاهب و المدارس الفكرية الإسـلامية آملين أن يتقبّـل المـولى عزّ و جـل جهـدنا المتواضع هـذا و يأخـذ بأيـدينا بعيـدا عن التعصّب و الجحود إلى مـا هو الخير و الصلاح آمين ربّ العالمين.

مصطفى الإسكندرى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳

۱ تبيين محور البحث

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمـد للّه ربّ العـالمين، و الصـلاة و السـلام على أشـرف الأنبيـاء و المرسـلين أبى القاسم محمّـد و على آله الطيّبين الطاهرين.

إنّ من أهمّ المبـاحث الخلافيّـة هو البحث حول صـحابة النبىّ الأـكرم صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و قـد عنون هـذا البحث فى الكتب الكلاميّة تحت عنوان «عدالة الصحابة»، و نحن نريد أن نفتح هذا الملفّ و ننظر فيه لتوضيح بعض الإبهامات و المعمّيات.

و فى البداية لا بدّ أن نلاحظ بعض مفردات هذا البحث.

منها: مؤدّى العدالة المقصودة،

و منها: دائرة الصحابة المتّصفين بذلك،

و منها: ثمرة القول بذلك، و هى: حجّيّة أقوالهم و أفعالهم، و وجوب الاعتقاد بفضيلتهم و موالاتهم.

فإنّ تحرير المقصود فى كلّ نقطة أمر بالغ الأهمّية؛ كى يتّضح أنّ الأدلّة المعتمدة لكلّ قول هل هى مثبتة له؛ أم إنّ هناك تباينا بين الدليل و المدّعى؟ فمثلا يقع الترديد فى المراد من العدالة التى تسند و يوصف بها الصحابة أو بعضهم، فإنّها تستعمل بمعنى يمانع إمكان صدور الخطأ أو المعصية منه، و لا شكّ أنّ هذا المعنى يساوق العصمة!

و كذلك يقع الترديد فى المراد من الصحابة، هل هم الّذين اتّفقوا على بيعة أبى بكر، و كان هواهم و رأيهم على ذلك؛ أم إنّه يشمل من خالف بيعته و لم يبايعه إلى نهاية

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶

المطاف؟ فهل دائرة البحث هى فى الصحابة و الصحبة؟! أم هى فى شرعية بيعة السقيفة؟!!

و كذا الترديد فى معنى الحجّية لقول الصحابى و فعله، هل هى بمعنى حجّية قوله كراو من الرواة و أخبار الآحاد، و كذا فعله من جهة كونه أحد المتشرّعة، الكاشف فعله عن الحكم المتلقّى من الشارع، فلا موضوعية لقوله و فعله فى نفسه ...؟ أم إنّ حجّية قوله و فعله من باب حجّية اجتهاده، و رأيه كمجتهد قد يصيب و قد يخطىء؟! و إنّه هل يحدّد اجتهاده بموازين الاجتهاد، أم لا ينضبط رأيه بقيود الأدلّة و الموازين؟! أم إنّ حجّية قوله و فعله- و لو لبعض الصحابة- هى من باب التفويض له فى حقّ التشريع، و إنّه مشرّع يخصّص إطلاق و عموم الكتاب و السنّة، و قد ينسخ السنّة و يحكم بكون ما يراه من حكم يؤخذ به بمنزلة السنّة النبويّة فى ما لم يأت به الكتاب و السنّة، و على ذلك فلا تصدق على مخالفته و مباينته للكتاب و السنّة أنّها مخالفة، و أنّها ردّ لهما، بل هى نسخ أو تقييد و تخصيص لهما؟!

و المتصفّح لكلمات القوم يلوح له تراوحها بين هذه الاحتمالات، و تقلّبها بين هذه الوجوه، و إليك بعض الكلمات المتعلّقة بالبحث:

قال الشريف المرتضى فى كتابه الذريعة إلى أصول الشريعة عند ردّه للتصويب، و تخطئة الصحابة بعضهم لبعض، قال:

و اعلم أنّنا أسقطنا بهذا الكلام الذى بيّناه إلزام المخالفين لنا فى خطأ الصحابة أن يكون موجبا للبراءة بذكر الكبير و الصغير الذى هو مذهبهم دون مذهبنا، فكأنّنا قلنا لهم: ما ألزمتمونا إيّاه لا يلزمنا على مذاهبكم فى أنّ الصغائر تقع محبطة من غير أن يستحقّ بها الذمّ و قطع الولاية، و إذا أردنا أن نجيب بما يستمرّ على أصولنا و مذاهبنا، فلا يجوز أن نستعير ما ليس هو من أصولنا.

و الجواب الصحيح عن هذه المسألة أنّ الحقّ فى واحد من هذه المسائل المذكورة، و من كان عليه و مهتديا إليه من جملة الصحابة كانوا أقلّ عددا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷

و أضعف قوّة و بطشا ممّن كان على خلافه ممّا هو خطأ، و إنّما لم يظهر النكير عليهم و البراءة منهم تقية و خوفا و نكولا و ضعفا.

فأمّا تعلّقهم بولاية بعضهم بعضا مع المخالفة فى المذهب، و أنّ ذلك يدلّ قعلى التصويب، فليس على ما ظنّوه، و ذلك أنّه لم يولّ أحد منهم واليا لا شريحا و لا زيدا و لا غيرهما إلّا على أن يحكموا بكتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ما أجمع عليه المسلمون، و لا يتجاوز الحقّ فى الحوادث و لا يتعدّاه «۱».

قال ابن السبكى فى جمع الجوامع:

الصحابى من اجتمع مؤمنا بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إن لم يرو و لم يطل، بخلاف التابعى مع الصحابى، و قيل: يشترطان، و قيل: أحدهما، و قيل: الغزو أو سنة ...

و الأكثر على عدالة الصحابة، و قيل: كغيرهم، و قيل: إلى قتل عثمان، و قيل: إلّا من قاتل عليّا «۲».

و شرح ابن المحلّى- المتن- القول الثانى:

فيبحث عن العدالة فيهم، فى الرواية و الشهادة، إلّا من يكون ظاهر العدالة أو مقطوعها، كالشيخين.

و شرح القول الثالث:

يبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن بينهم من حينئذ و فيهم الممسك عن خوضها.

و شرح القول الرابع:

فهم فسّاق؛ لخروجهم على الإمام الحقّ، و ردّ بأنّهم مجتهدون فى قتالهم له

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸

فلا يأثمون و إن أخطأوا، بل يؤجرون كما سيأتى فى العقائد.

و قال ابن السبكى:

قول الصحابى على صحابى غير حجّة وفاقا، و كذا على غيره. قال الشيخ الإمام: إلّا فى الحكم التعبّدى، و فى تقليده قولان لارتفاع الثقة بمذهبه إذ لم يدوّن. و قيل: حجّة فى القياس، فإن اختلف صحابيّان فكدليلين، و قيل:

دونه. و فى تخصيصه العموم قولان. و قيل: إن انتشر. و قيل: إن خالف القياس. و قيل: إن انضمّ إليه قياس تقريب. و قيل: قول الشيخين فقط. و قيل:

الخلفاء الأربعة، و عن الشافعى إلّا عليّا «۱».

و قال فى مسألة الاجتهاد فى عصر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

و الأصحّ أنّ الاجتهاد جائز فى عصره ... و ثالثها: بإذنه صريحا، قيل: أو غير صريح، و رابعها: للبعيد، و خامسها: للولاة، و أنّه وقع ... و ثالثها «۲»: لم يقع للحاضر، و رابعها: الوقف «۳».

و شرح ابن المحلّى ذلك:

و قيل: لا- للقدرة على اليقين فى الحكم بتلقّيه منه، و اعترض بأنّه لو كان عنده وحى فى ذلك لبلّغه للناس، و قد بنى ابن السبكى و غيره من علماء العامّة على جواز الاجتهاد فى عصره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمعنى إبداء الرأى و إن لم يرد نصّ من الكتاب و السنّة فى القول المزبور على معتقدهم فى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و النبوّة، فقد قدم ابن السبكى و غيره على ذلك بقوله: و الصحيح جواز تجزّؤ الاجتهاد، و جواز الاجتهاد للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وقوعه، و ثالثها فى الآراء و الحروب فقط،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹

و الصواب أنّ اجتهاده صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يخطئ.

و شرح ابن المحلّى ذلك:

لقوله تعالى: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ «۱» عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ «۲ ...» عوتب على استبقاء أسرى بدر بالفداء، و على الإذن لمن ظهر نفاقه فى التخلّف عن غزوة تبوك، و لا يكون العتاب فى ما صدر عن وحى، فيكون عن اجتهاد.

و قيل: يمتنع له، لقدرته على اليقين بالتلقّى من الوحى بأن ينتظره، و القادر على اليقين فى الحكم لا يجوز له الاجتهاد جزما. و ردّ بأنّ إنزال الوحى ليس فى قدرته.

و شرح أنّ اجتهاده صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا- يخطئ تنزيها لمنصب النبوّة عن الخطأ فى الاجتهاد. و قيل: قد يخطئ و لكن يتنبّه عليه سريعا؛ لما تقدّم فى الآيتين؛ و لبشاعة هذا القول عبّر المصنّف بالصواب.

و المعروف لدى مفسّرى العامّة و محدّثيهم أنّ الوحى نزل فى موارد بتخطئة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تصويب رأى عمر- و

العياذ باللّه تعالى!- منها ما جرى فى أسرى بدر- و قد رووا فى أحاديثهم أنّه قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لو كان من بعدى نبىّ لكان عمر. و مرادهم من اجتهاده صلّى اللّه عليه و آله و سلم اعتماده على الظنّ و الرأى- و العياذ باللّه-

و قال ابن السبكى:

و نعتقد أنّ خير الأمّة بعد نبيّها محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أبو بكر خليفته، فعمر، فعثمان، فعلىّ، أمراء المؤمنين ... و نمسك عمّا جرى بين الصحابة، و نرى الكلّ مأجورين. «۳»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰

و شرحه ابن المحلّى:

و نمسك عمّا جرى بين الصحابة من المنازعات و المحاربات، التى قتل بسببها كثير منهم، فتلك دماء طهّر اللّه منها أيدينا فلا نلوّث بها ألسنتنا، و نرى الكلّ مأجورين فى ذلك؛ لأنّه مبنىّ على الاجتهاد فى مسألة ظنّية، فيها أجران على اجتهاده و إصابته، و للمخطئ أجر على اجتهاده.

و قال التفتازانى «۱»:

يجب تعظيم الصحابة و الكفّ عن مطاعنهم، و حمل ما يوجب بظاهره الطعن فيهم على محامل و تأويلات، سيّما للمهاجرين و الأنصار و أهل بيعة الرضوان، و من شهد بدرا و أحدا و الحديبية، فقال: انعقد على علوّ شأنهم الإجماع، و شهد بذلك الآيات الصراح، و الأخبار الصحاح، و تفاصيلها فى كتب الحديث و السير و المناقب، و لقد أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بتعظيمهم و كفّ اللسان عن الطعن فيهم، حيث قال: أكرموا أصحابى فإنّهم خياركم...

و توقّف علىّ رضى اللّه عنه فى بيعة أبى بكر كان للحزن و الكآبة، و عدم الفراغ للنظر و الاجتهاد؛ و عن نصرة عثمان بعدم رضاه، لا برضاه، و لهذا قال: «و اللّه ما قتلت عثمان، و لا مالأت عليه» و توقّف فى قبول البيعة إعظاما للحادثة، و إنكارا، و عن قصاص القتلة لشوكتهم، أو لأنّهم عنده بغاة، و الباغى لا يؤاخذ بما أتلف من الدم و المال عند البعض.

قد استقرّت آراء المحقّقين من علماء الدين على أنّ البحث عن أحوال الصحابة و ما جرى بينهم من الموافقة و المخالفة ليس من العقائد الدينية، و القواعد الكلامية، و ليس له نفع فى الدين، بل ربّما يضرّ باليقين، إلّا أنّهم ذكروا نبذا من ذلك لأمرين:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱

أحدهما: صون الأذهان السليمة عن التدنّس بالعقائد الرديّة التى توقعها حكايات بعض الروافض و رواياتهم.

ثانيها: ابتناء بعض الأحكام الفقهية فى باب البغاة عليها، إذ ليس فى ذلك نصوص يرجع إليها.

و قال فى شرح المتن- من توقّف علىّ عليه السّلام عن نصرة عثمان-:

و كذا طلحة و الزبير؛ إلّا أنّ من حضر من وجوه المهاجرين و الأنصار أقسموا عليه و ناشدوه اللّه فى حفظ بقيّة الأمّة و صيانة دار الهجرة، إذ قتلة عثمان قصدوا الاستيلاء على المدينة، و الفتك بأهلها، و كانوا جهلة لا سابقة لهم فى الإسلام، و لا علم لهم بأمر الدين، و لا صحبة مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فقبل البيعة.

و قال:

إنّ امتناع جماعة من الصحابة، كسعد بن أبى وقّاص، و سعيد ابن زيد، و أسامة بن زيد، و عبد اللّه بن عمر، و غيرهم، عن نصرة علىّ رضى اللّه عنه و الخروج معه إلى الحروب لم يكن عن نزاع منهم فى إمامته، و لا عن إباء عمّا وجب عليهم من طاعته؛ بل لأنّه تركهم و اختيارهم من غير إلزام على الخروج إلى الحروب، فاختاروا ذلك بناء على أحاديث رووها...

و أمّا فى حرب الجمل و حرب صفّين و حرب الخوارج، فالمصيب علىّ، لما ثبت له من الإمامة و ظهر من التفاوت، لا كلتا الطائفتين على ما هو رأى المصوّبة، و لا- إحداهما من غير تعيين على ما هو رأى بعض المعتزلة، و المخالفون بغاة لخروجهم على الإمام الحقّ

لشبهة؛ لا فسقة أو كفرة على ما يزعم الشيعة جهلا بالفرق بين المخالفة و المحاربة بالتأويل و بدونه؛ و لهذا نهى علىّ عن لعن أهل الشام و قال: إخواننا بغوا علينا. و قد صحّ رجوع أصحاب الجمل. على أنّ منّا من يقول: إنّ الحرب لم تقع عن عزيمة، و إنّ قصد عائشة لم يكن إلّا إصلاح ذات البين.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲

و قال:

قاتل علىّ رضى اللّه عنه ثلاث فرق من المسلمين على ما قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إنّك تقاتل الناكثين و المارقين و القاسطين:

فالناكثون: هم الّذين نكثوا العهد و البيعة، و خرجوا إلى البصرة، مقدّمهم طلحة و الزبير، و قاتلوا عليّا رضى اللّه عنه بعسكر مقدّمهم عائشة فى هودج على جمل، أخذ بخطامه كعب بن مسعود، فسمّى ذلك الحرب حرب الجمل.

و المارقون: هم الّذين نزعوا اليد عن طاعة علىّ رضى اللّه عنه بعدما بايعوه...

و القاسطون: معاوية و أتباعه الّذين اجتمعوا عليه، و عدلوا عن طريق الحقّ الذى هو بيعة علىّ رضى اللّه عنه و الدخول تحت طاعته، ذهابا إلى أنّه مالا على قتل عثمان حيث ترك معاونته، و جعل قتلته خواصّه و بطانته...

و الذى اتّفق عليه أهل الحقّ أنّ المصيب فى جميع ذلك علىّ رضى اللّه عنه لما ثبت من إمامته ببيعة أهل الحلّ و العقد، و ظهر من تفاوت إمّا بينه و بين المخالفين، سيّما معاوية و أحزابه، و تكاثر من الأخبار فى كون الحقّ معه، و ما وقع عليه الاتّفاق- حتّى من الأعداء- إلى أنّه أفضل زمانه، و أنّه لا أحقّ بالإمامة منه.

و المخالفون بغاة؛ لخروجهم على الإمام الحقّ بشبهة، هى تركه القصاص من قتلة عثمان، و لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية» و قد قتل يوم صفّين على يد أهل الشام، و لقول علىّ رضى اللّه عنه: إخواننا بغوا علينا؛ و ليسوا كفّارا و لا فسقة و لا ظلمة؛ لما لهم من التأويل. و إن كان باطلا، فغاية الأمر أنّهم أخطأوا فى الاجتهاد؛ و ذلك لا يوجب التفسيق، فضلا عن التكفير؛ و لهذا منع علىّ رضى اللّه عنه أصحابه من لعن أهل الشام، و قال: إخواننا بغوا علينا.

كيف؟! و قد صحّ ندم طلحة و الزبير، و انصراف الزبير عن الحرب، و اشتهر ندم عائشة. و المحقّون من أصحابنا على أنّ حرب الجمل كانت فلتة من غير قصد من الفريقين، بل كانت تهييجا من قتلة عثمان، حيث صاروا فرقتين،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳

و اختلطوا بالعسكرين، و أقاموا الحرب خوفا من القصاص؛ و قصد عائشة لم يكن إلّا إصلاح الطائفتين، و تسكين الفتنة، فوقعت فى الحرب.

و ما ذهب إليه الشيعة من أنّ محاربى علىّ كفرة، و مخالفوه فسقة، تمسّكا بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «حربك يا علىّ حربى»، و بأنّ الطاعة واجبة، و ترك الواجب فسق، فمن اجتراءاتهم و جهالتهم، حيث لم يفرّقوا بين ما يكون بتأويل و اجتهاد، و بين ما لا يكون. نعم، لو قلنا بكفر الخوارج بناء على تكفيرهم عليّا رضى اللّه عنه لم يبعد، لكنّه بحث آخر.

فإن قيل: لا كلام فى أنّ عليّا أعلم و أفضل، و فى باب الاجتهاد أكمل. لكن من أين لكم أنّ اجتهاده فى هذه المسألة، و حكمه بعدم القصاص على الباغى، أو باشتراط زوال المنعة، صواب؛ و اجتهاد القائلين بالوجوب خطأ؛ ليصحّ له مقاتلتهم؟! و هل هذا إلّا كما إذا خرج طائفة على الإمام، و طلبوا منه الاقتصاص ممّن قتل مسلما بالمثقل؟!

قلنا: ليس قطعنا بخطئهم فى الاجتهاد عائدا إلى حكم المسألة نفسه، بل إلى اعتقادهم أنّ عليّا رضى اللّه عنه يعرف القتلة بأعيانهم، و يقدر على الاقتصاص منهم...

و بهذا يظهر فساد ما ذهب إليه عمرو بن عبيدة و واصل بن عطاء، من أنّ المصيب إحدى الطائفتين و لا نعلمه على التعيين. و كذا ما

ذهب إليه البعض، من أنّ كلتا الطائفتين على الصواب بناء على تصويب كلّ مجتهد؛ و ذلك لأنّ الخلاف إنّما هو فيما إذا كان كلّ منهما مجتهدا فى الدين على الشرائط المذكورة فى الاجتهاد، لا فى كلّ من يتخيّل شبهة واهية، و يتأوّل تأويلا فاسدا. و لهذا ذهب الأكثرون إلى أنّ أوّل من بغى فى الإسلام معاوية؛ لأنّ قتلة عثمان لم يكونوا بغاة، بل ظلمة و عتاة؛ لعدم الاعتداد بشبهتهم، و لأنّهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴

بعد كشف الشبهة أصرّوا إصرارا و استكبروا استكبارا «۱».

فإن قيل: يزعمون أنّ الوقيعة فى الصحابة بالطعن و اللعن و التفسيق و التضليل بدعة و ضلالة، و خروج عن مذهب الحقّ؛ و الصحابة أنفسهم كانوا يتقاتلون بالسنان، و يتقاولون باللسان بما يكره، و ذلك وقيعة.

قلنا: مقاولتهم و مخاشنتهم فى الكلام كانت محض نسبة إلى الخطأ، و تقرير على قلّة التأمّل، و قصد إلى الرجوع إلى الحقّ؛ و مقاتلتهم كانت لارتفاع التباين، و العود إلى الألفة و الاجتماع بعدما لم يكن طريق سواه. و بالجملة:

فلم يقصدوا إلّا الخير و الصلاح فى الدين. و أمّا اليوم، فلا معنى لبسط اللسان فيهم إلّا التهاون بنقلة الدين، الباذلين أنفسهم و أموالهم فى نصرته.

و أمّا بعدهم فقد جلّ المصاب، و عظم الواقع، و اتسع الخرق على الراقع، الّا أنّ السلف بالغوا فى مجانبة طريق الضلال خوفا من العاقبة، و نظرا للمآل. يعنى أنّ ما وقع بين الصحابة من المحاربات و المشاجرات على الوجه المسطور فى كتب التواريخ، و المذكور على ألسنة الثقات، يدلّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حاد عن طريق الحقّ، و بلغ حدّ الظلم و الفسق؛ و كان الباعث له الحقد و العناد، و الحسد و اللداد، و طلب الملك و الرئاسة و الميل إلى اللذّات و الشهوات؛ إذ ليس كلّ صحابى معصوما، و لا كلّ من لقى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالخير موسوما. إلّا أنّ العلماء لحسن ظنّهم بأصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ذكروا لها محامل و تأويلات بها تليق، و ذهبوا إلى أنّهم محفوظون عمّا يوجب التضليل و التفسيق، صونا لعقائد المسلمين عن الزيغ و الضلالة فى حقّ كبار الصحابة، سيّما المهاجرين منهم و الأنصار، و المبشّرين بالثواب فى دار القرار.

و أمّا ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فمن الظهور

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵

بحيث لا مجال للإخفاء، و من الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ تكاد تشهد به الجماد و العجماء، و يبكى له من فى الأرض و السماء، و تنهدّ منه الجبال و تنشقّ الصخور، و يبقى سوء عمله على كرّ الشهور و مرّ الدهور، فلعنة اللّه على من باشر، أو رضى، أو سعى، و لعذاب الآخرة أشدّ و أبقى.

فإن قيل: فمن علماء المذهب من لم يجوّز اللعن على يزيد، مع علمهم بأنّه يستحقّ ما يربو على ذلك و يزيد.

قلنا: تحاميا عن أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى، كما هو شعار الروافض على ما يروى فى أدعيتهم، و يجرى فى أنديتهم. فرأى المعتنون بأمر الدين إلجام العوامّ بالكلّية طريقا إلى الاقتصاد فى الاعتقاد، و بحيث لا تزلّ الأقدام عن السواء، و لا تضلّ الأفهام بالأهواء؛ و إلّا فمن يخفى عليه الجواز و الاستحقاق؟! و كيف لا يقع عليهما الاتّفاق؟! و هذا هو السرّ فى ما نقل عن السلف من المبالغة فى مجانبة أهل الضلال، و سدّ طريق لا يؤمن أن يجرّ إلى الغواية فى المآل، مع علمهم بحقيقة الحال و جليّة المقال؛ و قد انكشف لنا ذلك حين اضطربت الأحوال، و اشرأبّت الأهوال «۱».

تحليل مفاد هذه المقولة و المسألة ... ص: ۲۵

لقد أطلنا فى نقل عيّنتين ممّا ذكره ابن السبكى فى كتابه فى أصول الفقه، و التفتازانى فى شرح المقاصد فى علم الكلام؛ لأنّهما نموذجان لكلمات أكثرهم فى كتب أصول الفقه و علم الكلام و الحديث، كالذى ذكره النووى فى شرحه على صحيح مسلم فى باب

فضائل الصحابهٔ، أو ابن حجر العسقلانی فی شرحه للبخاری فی تلک الأبواب، أو الإیجی و الجرجانی فی شرح المواقف، و ما یذکروه فی کتب الرجال و التراجم و التواریخ،

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۶

و کتب التفسیر.

و کلماتهم کما تری تتراوح بین البحث فی عدالهٔ الصحابی، و بین عصمته عن الخطأ و الباطل و الضلال، و إن کانت العصمهٔ عند العامّهٔ- فی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الأنبیاء- هی فی حدود تبلیغ الأحکام و الدین، لا مطلقا، فکذلک ما یثبتوه للصحابهٔ!

کما إنّ البحث عن دائرهٔ الصحابهٔ تتراوح بین أقوال لدیهم، من کون الصحابی کلّ من أدرک النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم و آمن، أو حدّث عنه، أو نصره و آزره و بقی معه مدّهٔ طویلهٔ، أو الثلّهٔ التی أعدّت لبیعهٔ السقیفهٔ، لا مطلق المهاجرین و الأنصار، أو هم خصوص الثلاثهٔ أو الأربعهٔ من الخلفاء.

و الظاهر أنّ محور الدائرهٔ هم الثلاثهٔ، و أمّا الدوائر الأوسع المحیطهٔ فالحدیث عنها یتبع الثلاثهٔ، کی لا یتصاعد الحدیث و الطعن علیهم إلی الطعن علی الثلاثهٔ؛ کما أنّ الغایهٔ من البحث- أی المفردهٔ الثالثهٔ المقدّرهٔ فی هذا البحث- هی حجّیهٔ أقوالهم و أفعالهم و سیرتهم و سنّتهم، فقد یتراءی أنّه من باب کاشفیّته عن قول النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و لکن من تجویزهم لاجتهاد الصحابی فی حیاته صلّی اللّه علیه و آله و سلم، أو قبال النصّ القرآنی أو النبوی بالتأوّل، أو أنّ قول أو فعل الصحابی یخصّص إطلاق الکتاب و إطلاق السنّهٔ، أو أنّ للصحابی الاجتهاد إن لم یکن نصّ یقتضی أنّ حجّیّته لیست من باب الروایهٔ، بل من باب من له التشریع المفوّض له.

و أظهر ممّا تقدّم فی ذلک، تعلیلهم لحجّیهٔ سنّهٔ خصوص الشیخین بالحدیث الذی نسبوه إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «اقتدوا باللذین من بعدی أبی بکر و عمر» «۱»، و ما ینسبونه إلیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أیضا: «خیر أمّتی أبو بکر، ثمّ عمر» و «ما ینبغی لقوم فیهم أبو بکر أن یتقدّم علیه عنده» «۲» و ما ینسبونه إلیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «لو کان بعدی نبیّ لکان عمر» فإنّ هذا النمط من

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۷

الاستدلال یعطی تفویض التشریع لهما و إمامتهما فی الدین- کما أسموا الثلاثهٔ أئمّهٔ الدین- لا لصحبتهما للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الروایهٔ عنه کراوین، و لا کمجتهدین کبقیهٔ المجتهدین فی الفتیا، بل کإمامین یسنّان و یشرّعان فی الدین، و یحتذی بهما إلی یوم القیامهٔ. فحجّیهٔ قولهما و فعلهما و سیرتهما- علی ذلک- لیس من باب حجّیهٔ الإخبار کما فی الرواهٔ، و لا من باب حجّیهٔ فتوی المفتی أو المجتهد غیر الملزمهٔ لبقیهٔ المجتهدین، بل اجتهادهما- علی ذلک- کاجتهاد النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم- الذی قالوا بتجویزه علی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم- اللازم اتّباعه علی کلّ الأمّهٔ، المجتهدین منهم و العوّام.

و لذلک یستدلّ علماء العامّهٔ کما قال التفتازانی و غیره: «و أمّا السنّهٔ فقوله علیه السّلام:

اقتدوا باللذین من بعدی أبی بکر و عمر» دخل فی الخطاب علیّ رضی اللّه عنه فیکون مأمورا بالاقتداء، و لا یؤمر الأفضل و لا المساوی بالاقتداء، سیّما عند الشیعهٔ» «۱» مع أنّهم یختلفون فی حجّیهٔ اجتهاد صحابی علی صحابی آخر، و لذلک یعدّونهما و عثمان أئمّهٔ فی الدین، لا صحابهٔ کبقیهٔ الصحابهٔ.

و بعبارهٔ أخری: إنّ حیثیهٔ وجههٔ الصحبهٔ للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم غایهٔ ما توجب- علی تقدیر عدم الموانع المضادّهٔ- الشرف و الفضیلهٔ و الروایهٔ عنه، و کذلک البیعهٔ و الشوری- علی ما یقرّر فی قول العامّهٔ- غایهٔ ما توجب: تولّی الأمر و ولایهٔ الأمور التنفیذیهٔ، لا التفویض فی التشریع، و لا العصمهٔ من الزلل و الخطل، و لا صلاحیهٔ السنّ فی الدین سننا تخلد إلی یوم القیامهٔ.

فهذا النمط من الدعوی فی الشیخین، أو فی الثلاثهٔ، هو صیاغهٔ للإمامهٔ بالنصّ، و لکون الإمامهٔ عهد من اللّه و رسوله، فسیتبیّن أنّ العامّهٔ ملجأون فطریا، و باضطرار الحجّهٔ المنطقیهٔ العقلیهٔ، إلی تنظیر الإمامهٔ المنصوصهٔ، و إنّها عهد إلهی و نبویّ، غایهٔ الأمر أنّهم یطبّقونه علی

الثلاثة، و منضمّا إلى علىّ بن أبى طالب عليه السّلام كإمام رابع، و بعضهم يضيف

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸

الحسن ابن علىّ عليه السّلام، و بعضهم يوسّع الدائرة إلى روّاد العلماء فى علم و علوم الدين، و إنّ اجتهاداتهم لا تردّ!

بيان تردد العامّة فى معنى المسألة ... ص: ۲۸

فالحكم بفضائل الصحابة و فضيلة الصحبة عنوان فضفاض عائم يتردّد بين أن تعطى الحجّية له كإمام منصوص عليه بالاتّباع له، و إنّ له تفويض التشريع فيما لا نصّ له، أو غير ذلك، أو الحجّية له كمجتهد يجوز عليه الخطأ، أو كحجّية راو بجانب الحظوة بشرف الصحبة، مع فرض الوفاء بعهدتها من دون تبديل و نكث.

قال ابن السبكى فى جمع الجوامع و شارحه ابن المحلّى فى مسألة الإجماع:

و هو اتّفاق مجتهدو الأمّة بعد وفاة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى عصر على أىّ أمر كان، فعلم اختصاصه بالمجتهدين ... و عدم انعقاده فى حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ التابعى المجتهد معتبر معهم- فإن نشأ بعد فعلى الخلاف فى انقراض العصر..

و إنّ إجماع كلّ من أهل المدينة النبوية، و أهل البيت النبوى، و هم: فاطمة و علىّ و الحسن و الحسين رضى اللّه عنهم، و الخلفاء الأربعة أبى بكر و عمر و عثمان و علىّ رضى اللّه عنهم، و الشيخين أبى بكر و عمر، و أهل الحرمين مكّة و المدينة ... و هو الصحيح فى الكلّ ... و قيل: إنّه فى ما قبل الأخيرة من الستّ حجّة..

أمّا فى الأولى: فلحديث الصحيحين: «إنّما المدينة كالكير، تنفى خبثها، و ينصع طيبها»، و الخطأ خبث، فيكون منفيا عن أهلها. و أجيب بصدوره منهم بلا شكّ، لانتفاء عصمتهم، فيحمل الحديث على أنّها فى نفسها فاضلة مباركة.

و أمّا فى الثانية: فلقوله تعالى: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹

وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «۱»، و الخطأ رجس، فيكون منفيا عنهم، و هم من تقدّم، لما روى الترمذى عن عمر بن أبى سلمة، أنّه لمّا نزلت هذه الآية لفّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهم كساء، و قال: «هؤلاء أهل بيتى و خاصّتى، اللّهمّ أذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا». و روى مسلم عن عائشة، قالت: خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم غداة و عليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علىّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فأدخله معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء علىّ فأدخله، ثمّ قال: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. و أجيب: بمنع أنّ الخطأ رجس، و الرجس قيل: العذاب، و قيل:

الإثم، و قيل: كلّ مستقذر و مستنكر.

و أمّا فى الثالثة: فلقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «عليكم بسنّتى و سنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدى، تمسّكوا بها، و عضّوا عليها بالنواجذ» رواه الترمذى و غيره، و صحّحه و قال: «الخلافة من بعده ثلاثون، ثمّ تكون ملكا» أى: تصير.

أخرجه أبو حاتم و أحمد فى المناقب، و كانت مدّة الأربعة هذه المدّة إلّا ستّة أشهر مدّة الحسن بن علىّ، فقد حثّ على اتّباعهم، فينتفى عنهم الخط. و أجيب بمنع انتفائه.

و أمّا فى الرابعة: فلقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر و عمر»، رواه الترمذى و غيره و حسّنه. أمر بالاقتداء بهما، فينتفى عنهما الخطأ. و أجيب بمنع انتفائه «۲».

و علّق البنانى على قوله: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة»:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰

أخذ من هذا علم الخلفاء فى الحديث قبله، ففيه ما ليس فى الذى قبله. و استفيد منه أيضا كون سيّدنا الحسن خليفة، لتكميله الستّة الأشهر الباقية من الثلاثين، و من ثمّ قالوا: إنّه آخر الخلفاء الراشدين بنصّ جدّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، ولّى الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام فيها ستّة أشهر و أيّاما ثمّ خلع نفسه رضى اللّه عنه و سلّم الأمر لسيّدنا معاوية صونا لدماء المسلمين، و ذلك مصداق قول جدّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إنّ ابنى هذا سيّد، و لعلّ اللّه يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

قال الشهاب: «و قضية اعتبار موافقة سيّدنا الحسن للأربعة»، و علّق البنانى على قوله: «الثالثة و الرابعة»: و أجيب بمنع انتفائه. لقائل أن يقول: لو اقتصر فى الاستدلال فى الأولى على قوله: «فقد حثّ على اتّباعهم» و ذلك يستلزم أنّ قولهم حجّة، و إلّا لم يصحّ اتّباعهم، و فى الثانية على قوله: «أمر بالاقتداء بهما» فدلّ على أنّ قوله حجّة، و إلّا لم يصحّ الاقتداء بهما؛ لتمّ الاستدلال و لم يلاقه هذا الجواب، فأىّ حاجة إلى اعتبار انتفاء الخطأ فى الاستدلال حتّى توجّه هذا الجواب؟! «۱».

و علّق الشربينى على قول ابن المحلّى- الذى تقدّم التعليق السابق عليه-:

أى: لأنّ الحثّ على اتّباعهم لا يستلزم أنّ قولهم حجّة؛ لأنّ قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

عليكم بسنّتى، ... و: اقتدوا باللذين ... إنّما يدلّان على أهليّة الأربعة و الاثنين لتقليد المقلّدلهم، لا على حجّية قولهم على المجتهد...

و لأنّه لو كان قولهم حجّة لما جاز الأخذ بقول كلّ صحابى خالفهم، و إنّه جائز لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

أصحابى كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم؛ و لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: خذوا شطر دينكم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱

عن الحميراء «۱»، فوجب الحمل على تقليد المقلّد جمعا بين الأدلّة. كذا فى العضد و حاشيته السعدية، فاندفع ما فى الحاشية هنا «۲».

أقول: من البيّن الجلى أنّ حجّية قول الأوّل و الثانى، أو بضميمة الثالث عندهم- بحسب هذه المداولة- مردّدة فى كلماتهم على الاحتمالات الثلاثة السابقة، و أنّ ما ذكره البنانى من عدم الحاجة فى الحجّية لاعتبار انتفاء الخطأ ناشئ من الغفلة عن اختلاف سنخ الحجّية بين الإمام المنصوص عليه، المعصوم من الخطأ، و أنّ إمامته كعهد من اللّه و رسوله المشار إليه فى قوله تعالى: لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ «۳»، و بين الحجّية لفتوى المجتهد، التى هى على نمطين عندهم أيضا ... فتارة لا يخطئ و إن كان مدركه ظنّيا، كما تقدّم نقله قولهم بذلك الذى ذهبوا إليه فى حقّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- و العياذ باللّه- و أخرى أنّ المجتهد يخطئ، و بناء على التخطئة فلا يلزم حجّية قوله مطلقا، كما أنّها لا تشمل المجتهد الآخر. و إذا انفتح باب الخطأ على الثلاثة فلا عصمة فى البين، و يمكن تطرّق المخالفة العلمية أو العملية للأحكام الواقعية.

كما إنّه على فرض كون أقوالهم من باب الاجتهاد، فلا بدّ من أن تنضبط بموازين الاجتهاد، لا أن يكون مطلق إبداء الرأى أمام النصّ اجتهادا بذريعة باب التأويل و التأوّل، فهناك حدّ فاصل بين الاجتهاد و بين مخالفة الكتاب و السنّة؛ و بين إبداء الرأى و بين الردّ على الرسول؛ و بين الاجتهاد على الموازين و إن أخطأ و بين الشقاق مع اللّه و رسوله.

ثمّ إنّه يعزّز هذا الترديد عند العامّة ما اشترطه عبد الرحمن بن عوف على الإمام علىّ بن أبى طالب عليه السّلام يوم الشورى، قال التفتازانى:

ثمّ جعلوا الاختيار إلى عبد الرحمن بن عوف، فأخذ بيد علىّ رضى اللّه عنه و قال:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲

تبايعنى على كتاب اللّه و سنّة رسول اللّه و سيرة الشيخين، فقال: على كتاب اللّه و سنّة رسول اللّه و أجتهد برأيى. ثمّ قال مثل ذلك لعثمان فأجابه إلى ما دعاه، و كرّر عليهما ثلاث مرّات، فأجابها بالجواب الأوّل، فبايع عثمان ... و قول علىّ رضى اللّه عنه: (و أجتهد برأيى) ليس خلافا منه فى إمامة الشيخين، بل ذهابا إلى أنّه لا يجوز للمجتهد تقليد مجتهد آخر، بل عليه اتّباع اجتهاده، و كان من مذهب عثمان و عبد الرحمن أنّه يجوز إذا كان الآخر أعلم و أبصر بوجوه المقاييس. «۱»

لو سلم تأويل التفتازانى لإباء علىّ عليه السّلام لسيرة الشيخين، و أنّه من باب عدم حجّية اجتهادهما، إلّا أنّه أسقط حجّية سيرتهما مطلقا، و لم يحتمل فيها أنّها من باب الرواية لاحتمال اطّلاعهما على قول أو فعل للنبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يطّلع عليه غيرهما.

و بعبارة أخرى: مدّعى العامّة فى حجّية قولهما و سيرتهما يتردّد لديهم كما قدّمنا بين ذلك، فالإعراض عن سيرتهما يعنى إسقاط لكلّ وجوه الحجّية المدّعاة فى سيرة الشيخين، و لا يفوت الباحث تذكّر امتناع علىّ عليه السّلام عن بيعة أبى بكر مع موقفه يوم الشورى هذا. ثمّ إنّ هذا التوجيه من التفتازانى يناقض ما قدّمنا نقله عنه، من دخول علىّ عليه السّلام فى الخطاب المنسوب إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر و عمر»، و أنّه مأمور بالاقتداء بهما «۲»؛ فإذا كان حجّية قولهما من باب الاجتهاد، فكيف يجعل الأمر بالاقتداء بهما دالّ على إمامتهما للناس؟! بل اللازم أن يكون الأمر المزبور- على تقدير صدق النسبة- محمول على حجّية فتوى المجتهد، لا على كونه عهد من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على إمامتهما؛ و إذا حمله على الإمامة، فكيف يخالف علىّ عليه السّلام ذلک؟! فيدلّ إسقاطه لحجّية قولهما على وضع هذا الحديث، و تدليس نسبته إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و نحو هذا الحديث بقية الأحاديث المدّعاة من هذا النمط.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٣٣

الخدشة فى أدلة المسألة عند العامّة ... ص: ٣٣

و يشهد للوضع- لجملة هذه الأحاديث- أنّه لو قدّر صدورها فكيف لم يحتجّ بها أصحاب بيعة السقيفة على علىّ عليه السّلام و جماعته الّذين امتنعوا من البيعة؟! كما لم يحتجّ بها عبد الرحمن بن عوف على علىّ عليه السّلام يوم الشورى عندما أبى علىّ عليه السّلام من اتّباع سيرة الشيخين، و أبى مشارطة عبد الرحمن ابن عوف على ذلک؟! و أحسب أنّ سبب وقوع التفتازانى و أمثاله فى مثل هذه التوجيهات المتدافعة، إمّا إلى إبهام تباين معانى الحجّية لديهم و عدم تفرّقتهم بين الإمامة فى الدين كعهد من اللّه و رسوله، و بين حجّية فتوى المجتهد، و بين حجّية إخبار الراوى..

و يومئ إلى هذا الاحتمال ذهابهم إلى اجتهاد الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الدين و الحكم- مع أنّه سيأتى بطلان هذه المزعمة بشهادة الآيات القرآنية-، فإنّه- كما سيتّضح- يؤول إلى نقص فى معرفة حقيقة النبوّة و الرسالة؛ و إمّا إلى تورّطهم فى شباک مثل هذه الأحاديث الآحاد فى قبال الشواهد التاريخية القطعية و الأحاديث المتواترة الأخرى، مضافا إلى الدأب على الجرى على معتقد الآباء!

و المهم: التنبيه على عدم تلاؤم تعليلاتهم المختلفة لحجّية قول الشيخين، أو الثلاثة، و لا تفسيراتهم، لمخالفاتهم لأوامر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، سواء فى حياته أو بعدها، إذ كونهما ذوا امتيازات للإمامة العهدية الإلهيّة، لا يلتئم مع تعليلهم أنّهما مجتهدان بحسب ما توصّل إليه، و أنّ لهما التأوّل فى خطابات القرآن و السنّة، و أنّ فعلهما و قولهما حجّة لأنّه يكشف عن اطّلاعهم على قول أو فعل للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم نطّلع عليه و لم يصل إلينا.

ثمّ إنّه كيف يجمعون بين مسألة حجّية قول الصحابة و فعلهم، و بين مسألة حرمة التفتيش عن أحوال الصحابة و الفتن التى وقعت بينهم و المقاتلة و ترک الخوض فيها؟! فإنّ هذه الحرمة و هذا المنع يتدافع مع الحجّية من جهات عديدة، و يتناقض و يتقاطع معها بأىّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٣٤

معنى كان من معانى الحجّية بنى عليه!

و لتبيين هذا التدافع، تأمّل الاعتقاد برسالة النبىّ الخاتم صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قوله تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «۱» فإنّه قد جهد المسلمون جهدهم فى استقصاء أفعاله و أقواله، و سيرته و غزواته، و حركاته و سكناته، و صلحه و حربه، و

مودّته مع من، و عدائه مع من، و رحمه و أهله و عشيرته و ولده و زوجاته، و احتجاجاته، و صفاته، و كلّ صغيرة و كبيرة مرتبطة بوجوده الشريف صلّى اللّه عليه و آله و سلم. كلّ ذلك لتقام الحجّة فى أقواله و أفعاله، و تبلغ مسامع المكلّفين، و يأخذوا بهدى شريعته، و إلّا فكيف تبلغ الحجّة مع انقطاع الخبر و إبهام الحال؟!

فالحال فى حجّية أقوال و أفعال الصحابة و سيرتهم لا بدّ فى تحقّقها من دراسة سيرتهم و حياتهم و أقوالهم، لا سيّما و أنّ ما جرى من الفتن بينهم واقع فى المسائل الدينية و ما يرتبط بالشرع، سواء فى المسائل الفرعية أو الأصولية المرتبطة بالإمامة و الحكم و حفظ الدين و إحراز السنّة النبوّية و تفسير الكتاب، و بدعية بعض الأفعال من رأس أو ركنيّتها فى الدين، و الإقامة على العديد من السنن المقترحة و جعلها معالما للدين.

و لقد كان الاختلاف بينهم و التضليل إلى حدّ المقاتلة، و هى تعنى استباحة كلّ طرف دم الطرف الآخر، فكلّ طرف يرى الطرف الآخر مقيم على أمر و حال يبيح معه دمه، فإذا كان زعم العامّة أنّه لا بدّ من ترك الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة، حفظا لحرمة الصحابة و تعظيما و تجليلا لصحبتهم، فهذا الخطب أولى الناس بمراعاته- فى ما بينهم- الصحابة أنفسهم، لا الانتهاء إلى نقيض ذلك من استباحة دم الطرف الآخر؛ فليس إلّا أنّ الخطب جليل، أحبط فى نظر الطرف الأوّل ما للطرف الآخر من أعمال و سابقة، و انتفت حرمته إلى استباحة دمه!

فمع كلّ ذلك، كيف يسوغ لنا الاحتجاج بأقوال و أفعال كلّ من المصيب و الخاطئ،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵

و المحقّ و المبطل، و الهادى و الضالّ، و المستقيم الموفى لما عاهد عليه اللّه و رسوله، و المبدّل الناكث لما عاهد؟! و هل هذا إلّا جمع بين المتناقضين، و قلّة الحرج فى الدين، و تهوين لأمر الدين؟! و قول التفتازانى و غيره المتقدّم: «إنّ مقاتلتهم كانت لارتفاع التباين و العود إلى الألفة و الاجتماع بعدما لم يكن طريق سواه. و بالجملة: فلم يقصدوا إلّا الخير و الصلاح فى الدين. و أمّا اليوم، فلا معنى لبسط اللسان فيهم إلّا التهاون بنقلة الدين، الباذلين أنفسهم و أموالهم فى نصرته». نعم، كانت لارتفاع التباين و العود إلى ... و لكنّها تقتضى مدافعة الطرف الآخر و لو بإراقة دمه و استباحته، لإقامته على المنكر و الباطل؛ فهذا يبرهن على المباينة فى سيرتهم و أقوالهم و دعوتهم.

و على تقدير وجود قصد الصلاح فى الدين فى كلّ من الطرفين، فهذا لا يبرّر اتّباع الطرف المقيم على المنكر و الباطل، و مجرّد حسن النية- على تقدير التسليم به- لا يدلّل على سلامة النهج، و لا يرفع التباين بين السيرتين و القولين- و قد أقرّ بذلك-، فكيف يتّصف بالحجّية كلا الطرفين المتباينين و هو ممتنع؛ فلا بدّ من الفحص عن المحقّ الهادى إلى سواء السبيل، قال تعالى أ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «۱».

و بعبارة أخرى: إنّ حجّية أقوال و أفعال الصحابة أو الثلّة منهم، إمّا أن تكون من باب الإمامة المنصوصة من اللّه و رسوله، و من الواضح أنّه مع التباين بينهم لا يمكن أن يكون كلا الطرفين منصوص عليه بالإمامة؛ و إمّا من باب حجّية قول المجتهد و فتواه، لكونه من أهل الخبرة، فمن الواضح أيضا أنّه مع الاختلاف و التقاطع لا بدّ من اتّباع الأعلم و الواجد للشرائط المؤهّلة- و بنحو الوفور التامّ- دون غيره؛ و إمّا من باب حجّية المخبر فى أخباره، أى حجّية رواية الراوى الثقة، و هذا أيضا يوجب علينا إحراز صفة الوثاقة و العدالة عند أحد المتنازعين، لا سيّما و أنّ النزاع مستفحل شديد قد وصل إلى استباحة الدم.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶

الأحاديث النافية للمسألة ... ص: ۳۶

ثمّ إنّه يكفى الباحث نظرة فى كتاب الفتن من الصحاح لديهم، كى يصل إلى هذه النتيجة من لزوم التمحيص و الفحص عن الطرف

المحقّ- في الصحابة- من الطرف المبطل.

* فقد روى البخاري في الباب الأوّل من كتاب الفتن، عن أبي وائل، قال: قال عبد اللّه: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنا فرطكم على الحوض، و ليرفعنّ معي رجال منكم، ثمّ ليختلجنّ دوني، فأقول: يا ربّ! أصحابي؟! فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك» «١». فهذا دالّ على إحداث من بعض الصحابة بعده، و ظاهر الحديث أنّ هؤلاء الصحابة ممّن كانوا قد استمعوا خطبة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، لاستعماله كاف الخطاب.

* و روى البخاري عن سهل بن سعد، أنّه قال: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إني فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، و من شرب منه لم يظمأ أبدا، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم و يعرفوني، ثمّ يحال بيني و بينهم». و زاد أبو سعيد الخدري: «فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فأقول: سحقا سحقا لمن غيّر بعدي» «٢».

و هذا الحديث- أيضا- دالّ على تبديل بعض الصحابة بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ظاهر الحديث هو كون صحبة هؤلاء الصحابة- المعنيّين بالحديث- كانت وثيقة به صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و معرفته وطيدة بهم، لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أعرفهم و يعرفوني».

أقول: كيف تلتئم هذه الأحاديث مع ما يزعمونه من حديث «أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم»؟! إلّا أن يكون في الحديث سقط أسقط!!

* و يروى في الباب الثاني عن عبد اللّه، قال: قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إنّكم سترون

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٣٧

بعدي أثرة و أمورا تنكرونها » ... الحديث «١». و هذا الحديث يدلّ على وقوع أثرة و حرص على طلب الدنيا، و كذا وقوع الأمور المنكرة بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال تعالى: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «٢». و ستأتي الإشارة في سورة الفتح إلى ذلك، في من بايع بيعة الرضوان.

* و روى في الباب السادس، أنّ أمّ سلمة زوج النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم قالت: «استيقظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الليل و هو يقول: لا إله إلّا اللّه، ماذا أنزل الليلة من الفتنة؟! ماذا أنزل من الخزائن؟! من يوقظ صواحب الحجرات- يريد أزواجه-؟! كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة!» «٣». ففي شرح ابن حجر العسقلاني على الحديث قال: قال ابن بطّال:

«قرن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم نزول الخزائن بالفتنة إشارة إلى أنّها تسبّب عنها، و إلى أنّ القصد في الأمر خير من الإكثار و أسلم من الفتنة » «... ۴». أي أنّ الفتوح في الخزائن تنشأ عنه فتنة المال، بأن يتنافس فيه فيقع القتال بسببه، و أن يبخل به فيمنع الحقّ، أو يبطر صاحبه فيسرف، فأراد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم تحذير أزواجه من ذلك كلّه.

أقول: و ستأتي الإشارة في سورة الأنفال و غيرها إلى أنّ غرض و غاية جمع من الصحابة في غزوات النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو عرض الحياة الدنيا و متاعها من الغنائم، فضلا عن الفتوحات التي وقعت بعده، و يكفيك لإثبات ذلك رصد ما ترك العديد من الصحابة من أموال و ثروات طائلة عند موتهم.

* و روى في الباب الثامن قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «لا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٣٨

رقاب بعض» «١».

* و روى في الباب الثامن عشر عن أبي بكرة، قال: «لقد نفعني اللّه بكلمة سمعتها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أيّام الجمل، بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لمّا بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّ أهل فارس قد

ملّكوا عليهم بنت كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» «۲».

* و روى عن الأسدى، قال: «لمّا سار طلحة و الزبير و عائشة إلى البصرة بعث علىّ عمّار بن ياسر و حسن بن علىّ فقدما علينا الكوفة، فصعد المنبر، فكان الحسن بن علىّ فوق المنبر فى أعلاه، و قام عمّار أسفل من الحسن، فاجتمعنا إليه، فسمعت عمّارا يقول:

إنّ عائشة قد سارت إلى البصرة، و و اللّه إنّها لزوجة نبيّكم صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الدنيا و الآخرة، و لكنّ اللّه تبارك و تعالى ابتلاكم ليعلم إيّاه تطيعون أم هى؟!» «۳».

أقول: و ستأتى الإشارة فى سورة الأحزاب إلى أمر نساء النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالقرّ فى البيوت.

* و روى فى الباب الواحد و العشرين عن حذيفة بن اليمان، قال: «إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كانوا يومئذ يسرّون و اليوم يجهرون» «۴»؛ فيا ترى إلى من يشير حذيفة؟! و ما هو السبب فى حرّية الأجواء السياسية للمنافقين بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتّى صاروا يجهرون آمنين على أنفسهم بينما كانوا فى زمانه صلّى اللّه عليه و آله و سلم متسترين خائفين؟!

* و روى مسلم فى صحيحه، فى كتاب صفات المنافقين و أحكامهم، عن قيس، قال:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹

«قلت لعمّار: أرأيتم صنيعكم هذا الذى صنعتم فى أمر علىّ، أرأيا رأيتموه أو شيئا عهده إليكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! فقال: ما عهد إلينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافّة، و لكن حذيفة أخبرنى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: فى أصحابى اثنا عشر منافقا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل فى سمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة؛ و أربعة لم أحفظ» «۱».

و عمّار رضى اللّه عنه يشير هنا إلى أنّ النصوص من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى علىّ عليه السّلام ليست خفيّة، خاصّة عندنا- أى الصحابة- بل هى منتشرة عند الناس، من حديث الغدير و غيره، و كان سبب تولّيه لعلىّ عليه السّلام من بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، من يوم السقيفة إلى يوم قتل عثمان- فقد صنّف عمّار فى من دبّر ذلك، كما ذكرت ذلك كتب التواريخ- إلى يوم الجمل و صفّين، و صريح الحديث الذى يرويه عمّار عن حذيفة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، أنّ فى خاصة الصحابة اثنى عشر منافقا لا يدخلون الجنّة، و أنّ عمّارا رأى هؤلاء الاثنى عشر فى من ناوأ و عادى عليّا عليه السّلام.

ثمّ إنّ هذا الحديث صريح فى أنّ ما أتى به الصحابة الّذين تولّوا عليّا و ناصروه بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتّى استشهاده عليه السّلام كان بتصريح و نصّ من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و بنفاق مناوئيه و أعدائه، و لم يكن باجتهاد رأى رأوه كما يقول بذلك علماء العامّة فى حكمهم بعدالة الصحابة الّذين ناوؤا الإمام عليّا عليه السّلام و قد روى مسلم هذا الحديث بطريق آخر فلاحظ «۲».

* و روى عن أبى الطفيل، قال: «كان بين رجل من أهل العقبة و بين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك باللّه كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك! قال: كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، و أشهد باللّه أنّ اثنى عشر منهم حرب للّه و لرسوله فى الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰

و عذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لا علمنا بما أراد القوم؛ و قد كان فى حرّة فمشى فقال: إنّ الماء قليل فلا يسبقنى إليه أحد، فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ» «۱».

و المراد بالعقبة عقبة على طريق تبوك التى اجتمعت تلك العدّة للغدر و الفتك برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى غزوة تبوك و قد أشار اللّه تعالى إليها فى سورة التوبة، و من الملاحظ أنّ السائل من تلك العدّة التى تقطن المدينة دار الهجرة، و أنّهم لم

يكونوا ظاهرى النفاق عند الجميع، و لاحظ كتب التاريخ فى معرفة السائل الذى سأل حذيفة عن تلك العدّة.

* و روى مسلم- بعد باب خصال المنافق- بابا فى أنّ حبّ الأنصار و علىّ عليه السّلام من علامات الإيمان و بغضهم من علامات النفاق؛ فعن زرّ، قال: قال علىّ: «و الذى فلق الحبّة و برأ النسمة إنّه لعهد النبىّ الأمّىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلىّ أن لا يحبّنى إلّا مؤمن، و لا يبغضنى إلّا منافق» «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱

۲ الوجه العقلى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳

و من الغريب تمسّك التفتازانى بوجه عقلى نقلى لعدالة جميع الصحابة؛ و هو أنّهم نقلة الدين!، و مراده أنّه لولا ذلك لبطل نقل الشريعة، و هذا غير لازم لنفيها عن المبطل خاصّة دون المحقّ. هذا مع أنّ التفتازانى نفسه ذكر حديث الثقلين آخذا به، قال:

«أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قرنهم بكتاب اللّه فى كون التمسّك بهما منقذا من الضلالة، و لا معنى للتمسك بالكتاب إلّا الأخذ بما فيه من العلم و الهداية، فكذا فى العترة» «۱»، فإذا كانت العترة عدل الكتاب فى التمسّك بهما كشرط للنجاة من الضلالة فأى انبطال للشريعة وراء ذلك، و هل يخلط الحابل بالنابل و تؤخذ الشريعة عن من لا حظّ له فى الإيمان و العلم. بل الاعتماد فى الدين على كلّ من هبّ و دبّ اعتماد على غير ركن وثيق.

هذا و من المسائل التى تصبّ فى هذا البحث و ترتبط به بنحو ما هو إصدار أكثر العامّة على مشروعية إمامة المتغلب بالقهر و البغى على رؤوس المسلمين، و أنّه لا مانع من إمامة الفاسق و الجاهل، و يتردد الناظر الباحث هل لهذا القول فى الإمامة صلة بإمامة الأوائل من الصحابة و قول الثانى:

إن كانت بيعة أبى بكر فلتة و تمّت، ألا و إنّها كانت كذلك، و لكن اللّه وقى شرها ... من بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو و لا الذى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۴

بايعه تغرة أن يقتلا ... فكثر اللغط و ارتفعت الأصوات حتّى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر ... خشينا إن فارقنا القوم و لم تكن بيعه أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا فإمّا بايعناهم على ما لا نرضى و إمّا نخالفهم فيكون فسادا، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو و لا الذى بايعه تغرة أن يقتلا. هكذا نصّ عبارته فى صحيح البخارى «۱».

و صدر الحديث الذى رواه عن ابن عباس، قال: كنت اقرىء رجالا من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا فى منزله عنى و هو عند عمر بن الخطاب ان آخر حجّة حجّها إذ رجع إلى عبد الرحمن فقال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك فى فلان يقول:

لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، فو اللّه ما كانت بيعة أبى بكر إلّا فلتة تمّت، فغضب عمر، ثمّ قال: إنّى إن شاء اللّه لقائم للعشية فى الناس فمعذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم، قال عبد الرحمن: فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإنّ الموسم يجمع رعاع الناس و غوغاءهم ... قال ابن عباس: فقدمنا المدينة ... فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب فلمّا رأيته مقبلا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف ... فجلس عمر على المنبر، و قال ...: ثمّ أنّه بلغنى أنّ قائلا منكم يقول و اللّه لو قد مات عمر بايعت فلانا، فلا يغترن امرؤ أنّ يقول إنّما كانت بيعة أبى بكر ... الخ.

فإنّ مسلسل الرواية أن قائلا قال بعزمه على بيعة الفلتة و أنّ الثانى غضب لأنّ هذه البيعة بيعة الفلتة- البغتة و الفجأة و النهزة و الخلسة و الاغترار و المبادرة- غضب

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۵

لأمور المسلمين و أنّه يريد تحذيرهم من هؤلاء الغاصبين و أنّ ما وقع من بيعة الأوّل ألا و إنها كانت كذلك، و كانت ذات شرّ وقى اللّه المسلمين شرّها و أنّها من غير مشورة من المسلمين إذ كان لغطا و اختلافا فى الآراء عند مداولة الإمامة و الخلافة و البيعة بينهم، و أنّ المرتكب لها يستحق القتل، و أنّ مباغتته ببيعة الأوّل مدافعة للآخرين، هكذا يرسم لنا الخليفة الثانى إمامة الأوّل. و على أيّة حال فإنّ مثل هذه الإمامة على تقدير مشروعيتها- بمنطق العسكر و القوة لا بمنطق الدين و العقل- فإنّها لا توجب كون صاحبها لا يزلّ و لا يخطأ و تتبع سنته قائمة إلى يوم القيامة و يكون له حظّ المشرّع فى الدين.

و الحاصل أنّ تحرير العامّة لمسألة عدالة الصحابة و مسألة حرمة الخوض فى الفتن التى جرت بينهم و مسألة الإمامة و ما يرتبط بها من مسائل أخرى، يجدها الباحث الناظر مضطربة الوجوه، مترددة بين الإمامة كعهد من اللّه و رسوله لا يزلّ و لا يخطأ، و بين كونه مجتهدا كبقية المجتهدين، أو أنّ حجيّة قوله و فعله كراوى من رواة الأخبار، و أنّ إقامة البحث عن مسألة عدالة الصحابة ليست كما يفيده عنوان البحث بل هو حول فئة خاصّة من الصحابة الذين عقدوا البيعة لأبى بكر و أنّ البحث هو لضرب سياج و حواجز عن التنقيب و البحث عن أحوال و صفات و ممارسات تلك الفئة و أن ما عقدوا من مباحث مسائل الإمامة هو الآخر فى هذا الاتجاه.

و ممّا يشهد بتدافع تحرير المسائل عندهم هو أنّهم يستدلّون على الإمامة بأدلّة مفادها لزوم عصمة الإمام، مع أنّهم يجيّرونها للامامة العقدية بالبيعة السياسية، و مثال ذلك الحديث النبوى «من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» فإنّ مفاد الحديث وجوب معرفة الإمام فى كلّ زمان و واضح أنّه واجب اعتقادى كوجوب معرفة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الإذعان برسالته، و يزيد ذلك وضوحا أنّه جعل فاقد تلك المعرفة ميتته ميتة كفر، و فى الحديث عناية و لطيفة و هو أنّه جعل كفره عند موته كفر من لم يدخل الإسلام، لا كفر من دخل الإسلام و ارتدّ عنه، و من البيّن فى بداهة الشرع و العقل أنّ من

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۶

تجعل معرفته بهذا الشأن لا- يمكن أن يكون من يزلّ و يخطل أو يجهل و يضلّ، بل لا بدّ أن يكون مقامه فى الدين يتلو مقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم معصوما مطهّرا أذهب عنه الرجس و طهّره تطهيرا، و غير ذلك من الأمثلة.

كما أنّه يلاحظ فى نظم الأدلة و الوجوه فى تلك المسائل عندهم، التكديس الركامى من دون تمحيص مؤدى كلّ دليل أو وجه، و من دون مقايسته بأدلّة الطرف الآخر، فتراهم مثلا يتمسكون بحجيّة سنّة الشيخين بأحاديث آحاد قد تكون حسنة الاسناد عندهم، بينما لا يقابلونها مع الأحاديث المتواترة بطرقهم كحديث الثقلين، و حديث المنزلة، و الغدير و غيرها، فانظر مثلا إلى التفتازانى فى شرح المقاصد عندما يستعرض وجوه و أدلّة إمامة علىّ عليه السّلام يقرّ بجملة فضائله إلّا أنّه يحكم و يكيل عشوائيّا بأنّ فضائل الشيخين أولى، مع أنّه هو نفسه حكى عن إمام الحرمين أنّ روايات الفضائل فى الأربعة متعارضة و الترجيح ظنّى، مع أنّه لو تعمّق فى موازنة كلّ وجه من الوجوه و مدى مؤداه و مقابلته مع الوجه فى الطرف الآخر سواء من حيث قوّة السند و الدلالة و علوّ و شموخ المعنى و مسلّمية المصداق المراد بين الفريقين عن غيره، و الأهمّ هو تحليل الفضيلة التى هى عبارة عن كمال ما؛ فإنّه عنوان مجمل عامّ لا بدّ من تقرير حدّه هل ينطبق على العصمة أو على عمل خاصّ معيّن دون أن يحدث صفة كمالية دائمة فى الشخص أو على غير ذلك ممّا يتناسب مع صفات الراوى و نحوه، و الغريب من التفتازانى فى الكتاب المزبور مع أنّه يتذمّر من معاوية و يزيد و بنى أميّة و ما فعلوه من ظلم بذريّة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، إلّا أنّه يقرر إمامة المتغلّب الباغى القاهر للمسلمين بسيفه و سطوته، و لا تنقضى الغرائب بسبب تدافع المبانى و تردد تحرير المسائل لديهم بنحو مجمل لا توزن فيه مرتبة الحجّة و سنخها و نوعها و مداها.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۷

۳ الوجه النقلى

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۹

ثمّ إنّا قد تعرّضنا فى تضاعيف تصوير فرض مسألة عدالة الصحابة لأدلّة العامّة من السنّة أو الوجوه الأخرى و الردود عليها إجمالا، و المهمّ بعد ذلك هو التعرّض لما استدلّوا به على ذلك من الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قوله تعالى:

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «۱».

الآية الثانية: قوله تعالى:

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ ... وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۰

الآية الثالثة: قوله تعالى:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً «۱».

و قوله تعالى فى السورة نفسها الآية الأخيرة:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً «۲».

الآية الرابعة: قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ* الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «۳».

و قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «۴».

الآية الخامسة: قوله تعالى:

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۵».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۱

الآية السادسة: قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ* وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ «... ۱».

الآية السابعة: قوله تعالى:

وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «۲»

و قوله تعالى:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۳»

و قوله تعالى:

وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً «۴».

و للتنبيه على و هم القائل فى مفاد الآيات أنّها دالّة على مدح جميع الصحابة أو جميع من هاجر من مكّة، و جميع من ناصر فى المدينة أو أنّ هـذا المديح دالّ على حجيّة أقوال كلّ صـحابى مهاجرى أو أنصارى، لأجل ذلك لا بدّ من التعرّض إلى نقاط عامّة مشتركة ثمّ التعرّض تفصيلا لمفاد كلّ آية على حدة و بيان البدن بينه و بين مدّعى المتوهم. أمّا النقاط العامّة:

النقطة الأولى: ما أفاده بعض الأفاضل المعاصـرين «۵» من أنّ القرآن الكريم يشـير و ينبّه إلى ظهور حركـة محتر فى النفاق من بدايات تكوّن المسلمين فى مكّة و يعنونهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۲

بـاسم الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و ذلـك فى رابع سورة نزلت على النـبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم فى مكّـة قبـل الهجرة و هى سورة المدثّر، و كذلك سورة العنكبوت المكّية نزولا قبل الهجرة فى قول الأكثر أيضا فالسورة الأولى و هى قوله تعالى:

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهـذا مَثَلًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ «۱».

قـد قابلت بين فئات أربعـة؛ فئتين من جهـة و هما «الْمُؤْمِنُونَ» و «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» و الفئتين من الجهـة الأخرى «الْكافِرُونَ» و «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، و مـن الواضـح أنّ «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» بحسب الآيـة ليسوا من الفئـات الثلاث «الْمُؤْمِنُونَ»، و «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» و «الْكافِرُونَ» فيقتضـى كونهم من المسـلمين غير المؤمنين قلبا، و يعطى هذا المعنى نفس عنوان «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» فان دلّ على أنّ مرضهم مستبطن فى قلوبهم غير ظاهر أى أنّ ظاهرهم يبدو عليه السلامة، أى للاسلام.

و يـدلّل على ذلـك أيضا بأنّ هـذه الفئـة يلاحقها القرآن الكريم بعـد ذلك فى أغلب السور المدنيـة نزولا، و فى الوقائع الخطيرة التى حدثت للمسلمين فى المدينة حتّى آخر حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و يخصّهم القرآن الكريم بهذا العنوان مائزا بينهم و بين عنوان المنـافقين، حيث يسـند لهم أدوارا أكثر خطورة و ضـررا على الـدين من المنافقين أى أنّ المراد بالعنوان الثانى فى القرآن عموم أهل النفاق ممّن قـد ظهر التواءه بنحو أو بآخر بخلاف أصـحاب العنوان الأوّل فإنّهم محتر فى النفاق قد احترفوا عملية التسـلل و النفود فى جسم المسلمين منذ أوائل الدعوة للاسلام حتى آخر حياة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما سنشير إلى ذلك

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۳

فى الجملة فى السور بعد ذلك، و لك أن تجرد و تسرد مواقعهم و مواضـعهم و أدوارهم بالاستعانة بكشف المعجم المفهرس للقرآن الكريم باستخراج مواضع عنوان الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فى السور القرآنية و الأحداث التى تضمّنتها.

و على أيّة تقدير ففى أوائل الدعوة للإسـلام يشير القرآن الكريم إلى تسلل عناصر بشرية فى صفوف من سبق إلى الاسلام و اعتنقه فى الظاهر و أن تلك العناصـر كان لها أدوار قبل الهجرة و بعـد الهجرة فى المدينة و أنّها كانت ذات علاقات متميزة مع كفار قريش و مع اليهود و مع أهـل النفـاق ذوى النفـاق العـامّ غير المحترف كـلّ ذلـك من خلال الخريطـة المسلسـلة للأحـداث السياسـية و غيرها التى يرسمها لنا القرآن الكريم فى سورة المكّية و المدنية عن هذه الفئة و هى «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

و السورة الثانية المكّية قبل الهجرة هى قوله تعالى:

الـم* أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ

الْكاذِبِينَ* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ* مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ* وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ* وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ* وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ* وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ* وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۴

وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ «۱».

و هذه الآيات تؤكّد أنّ بين صفوف من أسلم قبل الهجرة فئة منافقة غرضها من اعتناق الإسلام هو الوصول إلى المشاركة فى المكاسب السياسية التى سيحققها المسلمون، كما أنّ من تخصيص السورة خطاب الإغراء من الكفار للمؤمنين خاصّة أن جهد الكفّار كان منصبا لثنى المؤمنين دون المنافقين ممّا يدلّ على وجود علاقة و توافق موطّد بينهم.

و هذا جرد كشفى لمواطن تتبع القرآن لهذه الفئة الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بحسب ترتيب النزول.

۱. سورة المدثر الآية ۳۱، مكيّة (۴).

۲. سورة العنكبوت الآية ۱۰- ۱۱، مكّية (۸۵).

۳. سورة البقرة الآية ۱۰، مدنية (۸۷).

۴. سورة الأنفال الآية ۴۹، مدنية (۸۸).

۵. سورة الأحزاب الآية ۱۲- ۳۲- ۶۰، مدنية (۹۰).

۶. سورة محمّد الآية ۲۰- ۲۹، مدنية (۹۵).

۷. سورة النور الآية ۵۰، مدنية (۱۰۳).

۸. سورة الحج الآية ۵۳، مدنية (۱۰۴).

۹. سورة المائدة الآية ۵۲، مدنية (۱۱۳).

۱۰. سورة التوبة الآية ۱۲۵، مدنية (۱۱۴).

و من كلّ ذلك ننتهى إلى أن عموم المديح للمهاجرين و للأنصار لا يتناول فئة الذين فى قلوبهم مرض و المنافقين ممّن أسلم قبل الهجرة طمعا فى المكاسب السياسية التى تحدثت عنه كهنة العرب عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و انبأت به اليهود قبل ظهور النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۵

قطنوا الجزيرة العربية لأجل ذلك استعدادا لظهوره كما ذكر ذلك القرآن:

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «۱».

فكانوا يتوعدون الكفّار بالنصر عليهم بالنبى الخاتم صلّى اللّه عليه و آله و سلم الذى يملك العرب، فمعالم ظهوره صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سلطته على الجزيرة منتشرة الآفاق قبل أن يبعث صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل إنّ المديح خاصّ بالمؤمنين قلبا حقّا منهم خاصّة و يشهد لذلك النقطة الثانية الآتية.

ثمّ أن هناك سورة مكيّة أخرى و سورة النحل (۷۰ نزولا) فيها إشارة إلى ظهور النفاق قبل الهجرة أيضا:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ* أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ* لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ «۲».

فالاستثناء جملة معترضة و سياق الآية هكذا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً و جيء ب: «لكن» للاستدراك من المستثنى و أنّ المراد بالكفر هو من شرح بالكفر صدرا.

و قيل: أنّ من شرح بالكفر صدرا نزلت فى عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح من بنى عامر بن لؤى و ظاهر لفظ الجمع فى الآيات يعطى أنّها فئة و مجموعة و أنّ سبب كفرهم بعد إيمانهم ليس إكراه المشركين لهم على ذلك بل هو استحباب الحياة الدنيا فطبع على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم.

النقطة الثانية: أنّ آيات الهجرة الكثير منها يقيّد الهجرة بكونها للّه تعالى و بنيّة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۶

أنّها فى سبيل اللّه، كما فى قوله تعالى الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ «... ۱» و هى الآية الرابعة من التى تقدّمت فى مديح المهاجرين، و كذا قوله تعالى وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ «۲» و قيّدت بقيّة الآيات الهجرة بقيد فى سبيل اللّه، كما قيّد الجهاد أنّه فى سبيل اللّه مع الهجرة، و من ثمّ تظافرت الأحاديث النبويّة فى بيان أنّ الهجرة حكمها تابع لنيّة المهاجر فمن كان هجرته إلى اللّه و رسوله فله الحسنى فى العقبى، و من كان هجرته إلى حطام الدنيا من مال يصيبه أو امرأة ينكحها أو ولاية يصيبها فله ما هاجر إليه و خسر حظّه فى الآخرة، و كذلك وردت الأحاديث فى الجهاد كذلك. و على ذلك فليس كلّ من قام بالهجرة البدنية المكانية من مكّة إلى المدينة يكون ممّن هاجر فى اللّه و إلى اللّه و رسوله و المديح مخصوص بمن هاجر فى اللّه و إلى اللّه و رسوله، لا كلّ من هاجر و لو بنيّة أصابة الدنيا.

تحقيق فى عنوان المهاجر و الأنصارى ... ص: ۵۶

إنّ المتتبع للاستعمال القرآنى لمادة الهجرة و النصرة فى هيئة الفاعل عند الاطلاق و عدم التقييد بقرينة معينة لا يراد به كل من انتقل ببدنه من مكة أو غيرها إلى المدينة المنورة مظهرا للأسلام، كما أنّ الأنصارى ليس كلّ من أظهر الاسلام و كان قاطنا فى المدينة و حواليها، و إنّ إجراء الاستعمال بهذا المعنى الوسيع و حصول التوسّع عن المعنى الأوّل إنّما وقع و شاع فى الألسن لتخيل تطبيق المعنى اللغوى بلحاظ مطلق الانتقال المكانى، و استدعاء ذلك المقابلة مع من لم ينتقل من موطنه و هو الأنصارى، مع وجود الدوافع السياسية المقتضية لهذا التعميم كى تجد مستندا للشرعية فيما تقدّم عليه.

بل المقتنص من التتبع للآى القرآنى هو أنّ الهجرة و المهاجر عند الاطلاق من دون تقييد يراد به من انتقل من موطنه و بلاد المشركين إلى المدينة بقصد طاعة اللّه و فى سبيل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۷

اللّه و إلى اللّه و رسوله كما أشارت إلى ذلك الآيات المتقدّمة و كقوله تعالى وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً «۱»، و قوله تعالى وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً «۲»، و قوله تعالى فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «۳» و قد اقترن ذكر عنوان الهجرة كثيرا فى الآيات «۴» مع الجهاد فى سبيل اللّه و مع الإيمان أو مع الأذية فى سبيل اللّه و القتل فى سبيله أو مع الصبر، و قد وردت الأحاديث النبويّة فى تفسير الهجرة الشرعية بذلك.

فالهجرة عند الاطلاق بذلك المعنى كما هو الحال فى مقام الثناء و المديح لها كفعل عبادى من الطاعات و القربات العظيمة، بخلاف

ما إذا قيّد الاستعمال بقيد معين، كترتيب أحكام خاصّة من قبيل حلّ المناكحة و حرمة الدم و المال و نحوها، و لذلك ترى فى قوله تعالى إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ «۵» أنّه لم يكتفى بالهجرة الظاهرية من دون التحقّق من حصول الهجرة الواقعية الحقيقية، التى هى مقيّدة بالإيمان القلبى و كونها فى اللّه و فى سبيل اللّه و إلى اللّه و رسوله، و كذلك الحال فى الاستعمال الآى القرآنى، قال تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ «۶»، و قال تعالى فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۷»، و قال وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۸

بَعْضٍ «۱».

فيلاحظ أنّ النصرة و الأنصارى ليس مطلق المعاضدة فضلا عن أنّ تكون هى كل مسلم كان موطنه المدينة فليس كلّ أوسى أو خزرجى أو غيرهما ممن حول المدينة هو أنصارى بل من آمن و آوى و عزّر و وقّر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اتّبع النّور الذى أنزل مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كان ذلك كلّه فى اللّه و إلى اللّه كان أنصاريا.

فمن ثم سنرى أنّ فى سورة التوبة- كما يأتى الحديث عنها- تقسم كلّ من أهل المدينة و غيرهم ممّن انتقل إلى المدينة إلى فئات صالحة ينطبق عليها هذين العنوانين الوسامين المهاجر و الأنصارى، و طالحة مردت على النفاق و كان فى قلوبهم مرض أو متقاعسة عن القتال أو غيرهم من أنواع المنافقين و سنعاود التذكير على دلالة السورة المزبورة أيضا على اختصاص هذين العنوانين و الصفتين كمنقبتين فضيلتين بمن توفرت فيه القيود السالفة، فهى كبقية الآيات من السور الأخرى منبهة على خطأ هذا الاصطلاح الشائع من إطلاق المهاجر على كلّ مكّى أسلم و نحوه إنتقل إلى المدينة، و الأنصارى على كلّ خزرجى أو أوسى أسلم قطن المدينة و نحوها.

فالهجرة و النصرة منقبتين عظيمتين و طاعتان قريبتان أخذ فى ماهيتهما قيود و أجزاء متعددة و من ثمّ يترتّب على ذلك لزوم إحراز توفّر القيود فى من يراد توصيفه بهما.

النقطة الثالثة: أن هناك العديد من القيود التى تستعرضها الآيات كشرط فى مديح المهاجر و الأنصارى مثلا.

أ- ما فى سورة الفتح ضابطة تستعرضها الآية فى المهاجرين و الأنصار هى من المحكم الذى يتبيّن به بقيّة الآيات، و هو قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۵۹

أَجْراً عَظِيماً «۱» فتشترط الآية شرط الوفاء بالعهد و عدم النكث به شرطا لحسن العاقبة و المثوبة فالموافاة للعهد عند الموت و عدم النكث و التبديل شرط فى ذلك كما هو الحال فى بقيّة المؤمنين إلى يوم القيامة.

و يشير إلى ذلك قوله تعالى أيضا فى آخر السورة مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً «۲» فإنّ قيد المغفرة و الأجر بمن آمن قلبا منهم و عمل صالحا، بل أنّ لفظة (منهم) دالّة على التبعيض و أنّ ليس كلّ الذين معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لهم وعد بالحسنى بل خصوص من اتّصف بالقيد منهم، فالتقييد و التبعيض إحتراز عن إيهام العموم فى صدر الآية.

و يشير إلى مثل هذا القيد فى مدح المهاجر و الأنصارى، قوله تعالى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا* لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً «۳»، حيث دلّت الآية على اشتراط عدم التبديل فى المؤمنين كى ينالوا الأجر و أن الموافاة و الوفاء و عدم التبديل شرط فى وصف المؤمنين بالصدق. و قد اشتهر عند الصحابة أنّهم إذا أرادوا أن يقدحوا فى واحد منهم أن يقولوا أنّه بدّل كما هو دائر فى

ألسنتهم فى الفتن التى وقعت بينهم.

ب- و كذلك هناك قيد آخر ذكرته الآيات كشرط فى المديح و هو إتصافهم بأنّهم رحماء بينهم أشداء على الكفّار أى اللين و الرأفة فيما بينهم و الشجاعة أمام الكفّار، كقوله تعالى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ فى سورة الفتح. و قوله تعالى وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ* طاعَةٌ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۰

وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ «۱».

و قوله تعالى وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً «۲».

فبيّن تعالى أن الجبن و الخوف و الحزن من خشية الموت و إذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد على عكس صفات المؤمنين من الرحمة فيما بينهم و الشجاعة أمام الكفّار، و من الثابت أنّ من المهاجرين من كان فظا غليظا مع بقيّة المؤمنين و المسلمين هزوما فرارا فى الحروب و اذا قاد جيشا ليفتح حصنا عاد يجبّن الناس و الناس يجبّنونه بينما المؤمن كرار غير فرار يفتح اللّه على يديه.

ج- كذلك هناك آيات أخرى دالّة على أن هناك أعمالا سيئة موجبة لحبط الأعمال، كقوله تعالى وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ «۳»، و كقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «۴».

و من الثابت فى كتب السير و الأحاديث أنّه فى العديد من الوقائع قد أبرم و قطع فيها غير واحد من الصحابة العشرة المبشرة قبل أن يحكم اللّه و رسوله فيها، بل قد تقدّموا فى أشياء قد تقدّم اللّه و رسوله فيها بحكم خلافا و ردّا.

و كقوله إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۱

ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «۱».

مع أنّ بعض المهاجرين ارتاب فى دينه فى صلح الحديبية. فعدم الارتياب قيد فى بقاء الإيمان. و هذه نماذج من القيود و عليك بتقصيها فى السور القرآنية ممّا يعلم فقدان جماعة من الصحابة المهاجرين و الأنصار لها.

النقطة الرابعة: أنّ ممّا قد ثبت مقطوعا به للمتتبع فى الآيات القرآنية و كتب الأحاديث و السير و التواريخ أنّ العديد من الصحابة من المهاجرين و الأنصار قد وقعت و صدرت منهم مخالفات للشرع المبين من الكبائر و بعضها من العظائم سواء فى حياة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أو بعد وفاته صلّى اللّه عليه و آله و سلم عند التنازع و الفتن التى انتهت إلى حرب الجمل و صفين فقد وقع منهم الفرار من الزحف فى مواطن كوقعة أحد و حنين و لم يبق إلّا ثلّة من بنى هاشم مع أنّ الفرار من الزحف من الكبائر السبع المغلظة و كذا ما أتاه الصحابة فى صلح الحديبية و فى مقدّمتهم بعض المهاجرين من الاعتراض على صلح النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و النكير لذلك حتّى أنّهم أبوا أن يحلقوا رؤوسهم و التحلل من الإحرام و أبدوا العصيان الجماعى حتى اضطر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى أن يجدّد أخذ البيعة منهم بعد ذلك بعد ما ارعووا و عادوا و يستوثق منهم المواثيق.

و ما أتاه عدّة من الصحابة من المهاجرين من التخلّف عن جيش أسامة الذى جهزّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لقتال الروم مع انه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد لعن من تخلّف عن جيش أسامة و قال نفذّوا جيش اسامة. و قد نزلت الآية كما قيل وَ إِنْ طائِفَتانِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلي أَمْرِ اللَّهِ فی اقتتال الأوس و الخزرج بالأحذیة و العصی. و بعضهم ردّ علی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم عندما طلب دواهٔ و کتاب یکتب فیه ما إن تمسکوا به فلن یضلّوا أبدا، و قال أنّه غلب علیه المرض و هی عظیمهٔ.

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۶۲

مفاد الآیات القرآنیّهٔ ... ص: ۶۲

اشارهٔ

هذا و أما الآیات فمفادها بعید تمام البعد عن تقدیس جمیع الصحابهٔ أو ثلّهٔ جماعهٔ بیعهٔ السقیفهٔ، بل أن کلّا منها بنفسه دلیل علی عدم التعمیم فی عدالهٔ الصحابهٔ، سواء فسرّت الصحبهٔ بمعنی کل من رآه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أو نقل الحدیث عنه أو لازمه مدّهٔ مدیدهٔ.

* أمّا الآیهٔ الأولی ...: ص: ۶۲

فهی قوله تعالی:

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «۱».

فنری أنّ الآیهٔ قد قیّدت المرضیّ عنهم من المهاجرین و الأنصار بقیدین: السبق و الأولیهٔ فی السبق، أی کونه أول السابقین و من المقرّر فی موضعه تاریخیا- برغم الدعاوی الاخری- أن أول السابقین إلی الإسلام هو علی بن أبی طالب علیه السّلام، و من ثم حاولت الدعاوی الاخری الاستعاضهٔ لتطبیق الآیهٔ بأن علیا أوّل من أسلم من الاحداث و أن خدیجهٔ أول من أسلم من النساء.

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۶۳

و لکن السبق و الأولیهٔ فی الآیهٔ غیر مقیدتین بحیثیهٔ السن أو الجنس، هذا من جانب و من جانب آخر نری ان استعمال القرآن الکریم للسبق هو بمعنی خاص کما تطالعنا به سورهٔ الواقعهٔ و هذا کدیدن الاستعمال القرآنی فی العدید من عناوین الالفاظ کالصدیقین و الاصطفاء و التطهیر. فالمعنی الذی فی سورهٔ الواقعهٔ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ «۱» هو خصوص المقرّب و قد أکدت الآیهٔ علی عنوان «السبق» بالتکرار للإشارهٔ به، و «المقرّب» قد أرید به معنی خاص فی سورهٔ المطففین كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ «۲»، فعرّف المقرّب بأنه الذی یشهد کتاب الأبرار و شهادهٔ الاعمال من خصائص الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم کما ذکرت ذلک الآیات کما فی سورهٔ التوبهٔ.

و هذا یعطینا مؤدی ان «المقرّب» لیس من درجهٔ الأبرار من أنماط المؤمنین، بل فوقهم شاهد لما یعملونه و شهادهٔ الأعمال لا ریب أنّها نحو من الغیب الذی لا یطلعه اللّه إلّا لمن إرتضی من رسول، فهی نحو من العلم اللدنی الالهی المخصص بالمقربین، فهم نحو من الذین اوتوا مناصب إلهیهٔ غیبیهٔ جعلها لهم. و یعطی ذلک التقسیم فی سورهٔ الواقعهٔ لمن یحشر من البشر إلی ثلاثهٔ أقسام: السابقون و أصحاب المیمنهٔ و أصحاب المشئمهٔ، و لا ریب فی دخول الأنبیاء و الرسل و الأوصیاء فی القسم الأول و هو یقتضی عدم مشارکهٔ غیرهم لهم فی الدرجهٔ، فالباقون هم فی القسمین الأخیرین، فالسبق فی الاستعمال القرآنی هو فی من حاز العصمهٔ و الطهارهٔ الذاتیهٔ من الذنوب، فالسبقها هنا هو فی الدرجات لا السبق الزمنی، مع أن أول السابقین زمنا فی المهاجرین هو علی بن أبی طالب علیه السلام.

و من ذلک یظهر المراد من أوّل السابقین من الأنصار، فإن المطهّر من الذنب من الأنصار- أی الذی لم یهاجر- هما الحسنان علیهما

السّلام فانهما اللذان نزلت فيهما و فى أبويهما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۴

آية التطهير، كما هو مقرّر فى موضعه من سبب نزول الآية فى أخبار الفريقين. و كذلك يظهر المراد من الذين اتبعوهم بإحسان، إنهم المطهّرون من الذنب من الذرية النبوية، و يطالعك بهذا المعنى- مضافا إلى أنّه مقتضى معنى السبق فى الإستعمال القرآنى- أنّ مقام الإحسان فى القرآن لا- ينطبق على غير المعصوم من الزلل و الخطاء، إذ لم يسند الإحسان إلى فعل مخصوص، بل جعل وصفا لكل معصوم من الذنب، لاحظ قوله تعالى:

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۱».

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۲».

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۳».

سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِى الْعالَمِينَ، إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۴».

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۵».

سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۶».

سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۷».

سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «۸».

فترى ان الذى يوصف بالاحسان- من غير تقييد فى فعل خاص كأداء دية أو مهر أو تسريح بإحسان للمطلقة، بل بالإحسان فى كل أفعاله- قد ادّخر تعالى له جزاء دنيويا و اخرويا من سنخ الذى ذكرته الآيات السابقة من جعل النبوة فى الذريّة و إتيان الحكم و العلم اللدنى الإلهى و تقدير السلامة و الأمن فى النشآت المختلفة. و قد وصف المحسن و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۵

المحسنون بأنّ رحمة اللّه قريب منهم و أنّ اللّه يحبهم و أنّ اللّه لمعهم معيّة خاصة عن معيّته القيوميّة على كل مخلوق «۱»، فالآية لم تكتف بوصف القسم الثالث بأنّهم تابعون للأولين السابقين، بل ضيقت الدائرة إلى كون تبعيتهم بإحسان، و الإحسان و المحسن مقام فوق مقام العدل و العدالة.

و كذلك الحال فى القسمين الأوّل و الثانى، فإنّه لم يبق على دائرته الوسيعة، فضيق بحدود «السابقين» و هذه الدائرة لم تبق على حالها، بل ضيقت إلى دائرة «أول السابقين» فلا بد- و الحال هذه- من تمحيص و فهم دلالة الكلام، ألا ترى فى سورة المدثر- و هى رابع سورة نزلت على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى مكة- انّها تقسم الموجودين حينذاك إلى أربعة أقسام؛ هى «المؤمنون» و «أهل الكتاب» و «المشركون» و «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، فلو كان المراد هو من سبق بإظهار الإسلام من المهاجرين فأين هم الذين فى قلوبهم مرض و يستترون بالاسلام عن إظهاره. فبكلّ ذلك، مع ما ذكرنا من النقاط العامة يقع القارى على المراد فى الآية الكريمة.

ثم إنّه لا يخفى على القارئ أن الآية هى من سورة التوبة و قد استعرضت السورة نماذج عديدة سيئة ممن عايش النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لقاه، فمثلا فيها يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا «۲» فإنّها نزلت فى غزوة تبوك و بعد الغزوة و فى طريق العودة دبّرت مؤامرة لاغتيال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على العقبة، و قد تقدم نقل حديث حذيفة- الذى رواه مسلم فى صفات المنافقين- فى منافقى أهل العقبة و أنهم من الصحابة الخاصة.

و نموذج ثان تفصح عنه سورة التوبة: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا- تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ «۳». و من البين أن السورة تشير

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۶

إلى نمط من المنافقين لمن يظهر نفاقهم إلى العيان، أى كانوا فى غاية التستر، و لا ريب انّ الأباعد الذين يلقون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا- يحتاجون إلى هذه الشدة من التستر، كما أنّ هؤلاء كانوا من الخطورة بمكان حتّى إنّهم احتاجوا الى هذه الشدة من التستر، كما أنّهم مردوا و احترفوا النفاق بحيث لا يمكن اصطياد حركاتهم الظاهرة.

هذا فضلا عن النماذج الاخرى التى تستعرضها سورة التوبة، من الأعراب و ممن حول المدينة و غيرهم «۱»، فإذا كانت السورة تقسّم من صحب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ممن كان يتعامل معه يوميّا أو لازموه إلى فئات عديدة صالحة و طالحة، فكيف يعمم الصلاح الى الكل؟ فلا يكون التعميم إلّا بأن يؤمن ببعض الكتاب و يكفر ببعض أو يتعامى عن النظر إلى جميع آيات السورة الواحدة أو تصمّ الآذان عن سماعها جميعا.

و هذا التقسيم- كما نبهنا سابقا- دليل على عدم اطلاق المهاجر على كلّ مكى أسلم و انتقل إلى المدينة، و على عدم اطلاق الانصارى على كلّ مدنى أسلم، بل يطلق كلّ منهما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۷

مع توافر قيود عديدة اخرى. و لا حظ اسلوب هذه الآيات التى تستعرض النماذج الاخرى، فإنّه اسلوب لا يرى فيه الهوادة و المهادنة، كقوله تعالى

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ «۱»

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ* أَ وَ لا- يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ* وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ «۲».

فترى أن فى سورة التوبة نزل الأمر بجهاد المنافقين على حدّ جهاد الكفار سواء، و أفرد الخطاب به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و نزل الأمر بمجاهدة الكفار الذين يلون المؤمنين- أى القريبين منهم- و جعلت الآيات الذين فى قلوبهم مرض من الكفار، و قد عرفت أنّ الذين فى قلوبهم مرض هم من الخاصة التى أظهرت الإسلام فى أوائل البعثة كما صرّحت بذلك سورة المدثر، امّا سورة التوبة فقد نزلت فى غزوة تبوك، أى فى أخريات حياة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قد نزل قبل ذلك فى سورة الاحزاب التهديد بمجاهدة المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من دون الأمر به، قال تعالى

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا- يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۸

تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا «۱».

فسورة التوبة متميزة من بين السور الاخرى فى ملاحقة فلول اقسام المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض، إلى درجة نزول الأمر بجهاد المنافقين على حدّ جهاد الكفر سواء، و من ذلك يظهر ملاحقة القرآن الذين فى قلوبهم مرض، و هم ممّن احترف النفاق و مرد عليه، من أوائل البعثة حتى أواخر نزول القرآن فى المدينة. و قد تقدمت رواية البخارى فى صحيحه فى الباب الواحد و العشرين من كتاب الفتن، عن حذيفة بن اليمان، قال: «ان المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كانوا يومئذ يسرّون و اليوم يجهرون!» «۲» فعلى من ينطبق ما يصفه حذيفة؟ و لماذا كان على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم متسترين و بعده خرجوا من تسترّهم و اصبحوا هم الظاهرين و صار الجوّ العام على مشرعتهم؟!.

و لذلك سميت سورة التوبة «بالفاضحة» كما عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ فقال: التوبة؟ بل هى الفاضحة،

مازالت تنزل «و منهم » ... حتى ظنّنا أن لا يبقى منّا أحد إلّا ذكر فيها». «۳» و سميت بذلك لأنّها فضحت المنافقين باظهار نفاقهم «۴»، و منهم أهل العقبة الذين همّوا بما لم ينالوا و قالوا كلمة الكفر، و عرفهم حذيفة و عمار فى الواقعة المعروفة فى كتب السير و التفاسير. و تسمى «بالمبعثرة»، فعن ابن عباس، لانّها تبعثر عن أسرار المنافقين، أى تبحث عنها. «۵» و تسمى «البحوث»، فعن أبى أيوب الانصارى انّه سمّاها بذلك، لانّها تتضمن ذكر المنافقين و البحث عن سرائرهم. «۶» و تسمى «بالحافرة»، فعن الحسن، لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۶۹

يسترونه. «۱»

و من الواضح إنه لم تكن هذه الفئة و غيرها من المنافقين من قبيل عبد اللّه بن أبى سلول و جماعته ممّن كان ظاهر النفاق و الشقاق و شاهر بهما و انّما فضحت سورة التوبة المتسترين الذين كانوا فى شدة خفاء و لا ريب أنّهم كانوا ذوى خطب و وقع فى مجريات الأمور و يرون أنّ حجر العثرة الأساس أمام مخططاتهم هو وجود الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لذلك شدّد على أهمية ملاحقتهم، و تسمى «المثيرة»؛ لأنها أثارت مخازيهم و مقابحهم. «۲» فلها عشرة اسماء كما ذكر المفسرون. «۳»

و مع كل ما تضمنته سورة التوبة و ما كان سبب النزول الرئيسى لها و مع ما تبين من دلالة (الأوّلين السابقين و الإتّباع بالإحسان) بتحديدها لدائرة خاصة جدا، كيف يتجرأ على نسبة التعميم فى مفاد الآية المتقدمة؟!

و من ما ذكرنا يظهر الحال فى مفاد الآية الخامسة من تعداد الآيات التى يستدل بها و هى قوله تعالى فى سورة التوبة لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۴» فإن المهاجر- كما تقدم- لا يطلق على كل مكى أسلم و انتقل الى المدينة و كان فى ركاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما دلّت على ذلك سورة التوبة بتقسيمها من كان مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى فئات عديدة صالحة و طالحة و كذا الحال فى عنوان الأنصارى، فهو ليس كل مدنى أسلم و كان فى ركاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، مع أنّ الآية المذكورة فى تفسيرها الوارد عن أهل البيت عليهم السّلام دالّة على تكفير من ذنب و خطيئة صدرت منهم و أنّ التوبة على اللّه تعالى بلحاظ ذلك. «۵»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۰

* و أمّا الآية الثانية ...: ص: ۷۰

اشارة

فهى قوله تعالى لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ* وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۱»

و روى السيوطى و غيره عن جمع انهم يحتجّون بهذه الآيات على عدم جواز تناول الصحابة بقصّ ما وقع منهم، و أنّ من يتناولهم بسوء ما صدر من أفعال بعضهم ففى قلبه غلّ، و أنّ من يقتصّ ما جرى بينهم لا يدخل فى مدلول وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا. «۲»

و لأجل تحصيل المفاد الصحيح للآيات ينبغى ذكر الآيتين اللاحقتين أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً، وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* لَئِنْ أُخْرِجُوا لا

يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ «۳» فترى أنّ سورة الحشر كسورة التوبة المتقدمة لا تقتصر فى تقسيم من كان مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى الفئة الصالحة فسب، بل تتبه على ذكر الجماعة الطالحة و هم المنافقون و هو إبطال لدعوى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۱

التعميم فى كل من صحب و لقى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما أن السورة فى الآيات المذكورة تحدّد و تفسر «المهاجر» بأنّه من توافر على قيود أربعة و هى:

الأوّل: الذى اخرج من دياره و أمواله.

الثانى: كون خروجه ابتغاء فضل اللّه و رضوانه، كما قدمناه مرارا من أن الهجرة فى الإستعمال القرآنى هى فى المعنى الخاص من الفعل العبادى فى سبيل اللّه، لا قصد الحطام الدنيوى.

الثالث: نصرة اللّه و رسوله و قدمنا أنّ كتب السير ملاء بمن كان يجبن فى الحروب و منازلة الأبطال فى ساعة العسرة و الشدائد ممن يقال عنهم إنهم من الخاصة الذين صحبوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

الرابع: الصدق و هو- كما تقدمت الإشارة المختصرة إليه- قد شرح فى آيات عديدة، كقوله تعالى

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً «۱».

فالاستقامة حتى آخر العمر و عدم التبديل من مقدّمات الصدق، و لذلك اشتهر بين الصحابة فى طعنهم على بعضهم بأنه بدّل و أحدث، كما درج هذا الإستعمال بكثرة عندهم فى فتنة قتل عثمان و بقية الفتن التى دارت بينهم، فدلّت الآية على اشتراط و الوفاء بالعهد و عدم التبديل فى وصف المؤمنين بالصدق.

و كقوله تعالى فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۲

* طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ* فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ* أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ* أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها* إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى* الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ* فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ* وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ «۱».

فنرى فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّها تشترط فى عنوان الصدق الثبات عند الزحف و عدم الفرار و الجبن بينما المنافق الخفى جبان فى الحروب و النزال كانّه يغشى عليه من الموت لشّدة خوفه و جبنه، فإذا قاد جيشا ليفتح حصنا عاد يجبّن الناس و الناس يجبّنونه، بخلاف الصادق، فإنّه كرار غير فرار، يفتح اللّه على يديه، و المنافق الخفى المحترف للنفاق يحزن من هو الكفار و القتال، و يقول مثلا يا رسول اللّه أنّها قريش و خيلاؤها ما هزمت قطّ. فليس ذلك علامة الصدق فى ما يدّعيه من الإيمان فهذا الصحابى الّذى أشارت إلى فئته سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو المنافق المحترف و صفتهم عكس ما اشير اليه فى سورة الفتح بقوله تعالى: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ «۲» و أنّ صحابى هذه الفئة غظّ فظّ مع المؤمنين فى السلم، هجين ذعر جبان فى الحرب مع

الكفار.

ثمّ إنّ السورة تلاحق وجود فئة محترفة للنفاق و هى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «۳» و هى الفئة التى أشارت إليها سورة المدثر المكيّة «۴» رابع سورة أنزلت فى بداية البعثة، و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۳

كشفت عن وجودها فى صفوف المسلمين الأوائل، و هذه السورة تنبىء عن غرض هذه الفئة من إسلامها منذ البدء، إنّه تولّى الامور، و عرّضت بتولّيهم للامور و مقدرات الحكم و إفسادهم فى الأرض، و سيرتهم على غير سيرة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سننه و تقطيعهم للرحم التى امروا بوصلها، و ان إسلامهم فى بدء الدعوة- كما فى سورة المدثر- هو لذلك الغرض، لما اشتهر من الأنباء من الكهنة و اليهود عن ظفر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالعرب و البلدن كما تشير إليه الآية عن اليهود قبل الاسلام وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «۱».

كما أن سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم تكشف عن وجود إرتباط بين هذه الفئة الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و بين الكفار الذين كرهوا ما نزّل اللّه و إنّهم يعدونهم بطاعتهم فى بعض الأمر و الشؤون الخطيرة، و يحسبون أنّ اللّه ليس بكاشفهم، فالسورة تكشف عن فئة منافقة أخفت نفاقها فغدت محترفة فى الإختفاء لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ «۲»، فى مقابل الفئة المؤمنة أهل الصدق، كما تكشف عن فئة مرتدّة فى الباطن عن الاسلام.

و الحاصل أن سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم عندما تشير إلى شرائط عنوان الصدق، فإنّها ايضا تشير إلى تقسيم من كان مع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ممّن صحبه، لا التسوية بينهم و جعلهم فى كفّة واحدة، فهل إنّ من يقسّم الصحابة إلى فئات- كما قسّم القرآن الكريم- يؤمن بالكتاب كلّه أم من يبعض الإيمان فهو يؤمن ببعض آيات السورة دون بعضها الآخر، مع إنّه لم يصب ذلك البعض أيضا؟! و كذا يشير إلى معنى الصدق قوله تعالى فى سورة الاحزاب:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً* إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنالِكَ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۴

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً* وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً* وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً* وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً* وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا* قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا* قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ* أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً* يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ، وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا* لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً* وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً* مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا* لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً «۱».

و نقلنا الآيات بطولها من سورة الاحزاب ليلمس الجوّ الـذى تصوّره الآيات لنا فى واقعة الخندق، كما أنّ هذه السورة أيضا تبيّن أنّ من شرائط الصدق: الثبات عند الزحف و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۵

الشـجاعة فى الحروب و عدم الفرار؛ إلّا أنّ المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض إذا ذهب الخوف سـلقوا المؤمنين بألسنة حداد، فالحدة ليست فى شـجاعتهم و بطولتهم فى النزال و الشدائـد، بـل فى لسانهم فى وقت السـلم يبتـذلون الفضاضـة و الغضاضـة حتى مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و يتقـدمون بما يرتأونه على اللّه و رسوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «... ۱»

فمن الغريب بعد ذلك أن يرووا فى فضائل بعض الصـحابة اعتراضه على الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم فى أربع موارد لفّقوها و أنّ القرآن نزل بخلاف النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلم و وفاقا لرأى ذلك البعض و فى بعض الروايات إنّه أمسك بثوب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و جـذبه و كـأنّهم لم يقرؤوا سورة الحجرات و لم يقرؤوا قوله تعـالى: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ «۲». و لم يقرؤوا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ* وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ* وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ «۳».

فالقرآن يجعل هذه الهالة المقدّسة لشخصـية النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و يجعل أحكاما عديدة لكيفية الإرتباط بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سـلم من التوقير له، و خفض الصوت، و عـدم التقـدّم على أمره و حكمه، و عدم مخالفته و عصـيانه بالتسـليم له، و انّ ذلك هو الإيمان، و هو إمتحان القلب

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۶

بالتقوى ... فكيف يكون ما يذكرونه من مجابهة ذلك الصـحابى لنبيّ اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم منقبة و فضيلة؟! و كيف يعتقد بتكلّف رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم خلاف ما شـرّع و حدّد له من اللّه تعالى، و يجعلون ذلك الصـحابى يستنكر فعل النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يردعه عنه- و العياذ باللّه تعالى- ثمّ ينزل القرآن بتقرير رأى الصحابى على قول نبيّ اللّه تعالى، الذى قال اللّه فيه: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «۱»؟! نعوذ و نسـتجير باللّه من هذه الأقاويل! أليس هذا تبجيلا للصحابى و غلوّا فيه إلى حدّ جعلوه فوق مقام النبوّة و الرسالة، و ردّا على قول اللّه تعالى فى شأن رسوله فى سورة الحجرات و غيرها من السور؟!

و ممّا يستغرب منه أنّ العديـد من السور تجعـل هـذه الصـفة- و هى عـدم الإقـدام فى الحروب و الشدائـد، و الإقـدام بحـدّة اللسان و الفظاظة فى السـلم مع المؤمنين أو مع الرسول- من علامات المنافقين، أو الذين فى قلوبهم مرض- كما فى سورة الفتح و سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سـلم و سورة الحجرات و سورة الأحزاب و غيرهـا- فكيف تصاغ هـذه الصـفة كفضـيلة من الفضائل، و تسـمّى بالشدّة و الغيرة فى ذات اللّه و كراهة الباطل؟!!

و نعود ثانيـة إلى سورة الأحزاب، فنقول: إنّها تشترط فى الصـدق، الصـدق عنـد النزال فى الحروب و الشدائد، و الرحمة و لين العريكة مع المؤمنين، بـل الآيـة تنفى الإيمـان و تحبط عمل من اتّصف بالجبن فى الحروب- كحرب الأحزاب (الخنـدق)- و بحـدّة اللسان فى السـلم مع المؤمنين، كما إنّ هذه السورة تقسّم من صـحب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى فئات صالحة و طالحة، و تنفى صلاح المجموع، بل تميّزهم إلى فئـة مؤمنـة ثابتـة فى الزلازل، و فئـة المنافقين، و الّذين فى قلوبهم مرض- و هم أكثر احترافا للنفاق من الفئة

الأولى، و أشدّ خطرا، كما تبيّن فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سورة المدّثّر- و فئة المعوّقين.

كما تدعو السورة إلى التأسّى بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الاقتداء به و متابعته، لا الردّ و الاعتراض

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۷

عليه كما هو دأب المنافقين و دأب الفئة الثانية الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «۱» و دأب بعض القالين، يجعل ذلك منقبة لبعض الصحابة قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ «۲»، فأين هى السورة القرآنية التى لا تقسّم من صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لا تميزهم إلى فئات عديدة مختلفة؟! و كذا يشير إلى معنى «الصدق» قوله تعالى فى سورة الحجرات:

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِی قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ* يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ «۳».

فهذه السورة بآياتها هذه هى أيضا تشترط فى معنى الصدق: الإيمان، مع الاستقامة عليه بعدم الارتياب، و المجاهدة فى سبيل اللّه؛ مع أنّه قد روى أكثر المفسّرين و المؤرّخين أنّ بعض من يعدّ و يحسب من خاصة الصحابة قد ارتاب فى نبوّة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حقّانية الدين فى صلح الحديبية و اعتراضه على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم!

و بعدما تحصّل لدينا معنى الصدق و الصادقين من العديد من السور، يتبيّن بوضوح لا ريب فيه أنّ المقصود من قوله تعالى فى الآية الأولى من الآيات الثلاث المتقدّمة من سورة الحشر، و هى: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۸

مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ «۱» ليس هو كلّ مكّىّ أسلم و انتقل إلى المدينة و صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل خصوص من توافرت فيه القيود العديدة المذكورة فى الآية، و التى منها الصدق، و الذى بيّنت السور العديدة الأخرى عدم توافره فى جميع الصحابة، بل توافر فى فئة منهم دون غيرها من الفئات، و أنّهم ضرب من الجماعات، و كيف يحتمل وصف الآية كلّ مكّىّ و نحوه أسلم و انتقل إلى المدينة أنّه صادق، و قد صدر من العديد منهم مخالفات، كالفرار من الزحف الذى هو من الكبائر؟!

هذا، و قد فرّ كلّ الصحابة يوم حنين إلّا ثلّة من بنى هاشم كما فى قوله تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِی مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ «۲»

و وقعة حنين كانت بعد عام الفتح! و كذا ما أتاه الصحابة فى صلح الحديبية، و فى مقدّمتهم بعضهم من الاعتراض على صلح النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم «۳» كما سيأتى تفصيله! و كذا ما أتاه عدّة من الصحابة من التخلّف عن جيش أسامة، الذى جهّزه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لقتال الروم، و قد لعن صلّى اللّه عليه و آله و سلم من تخلّف عن جيش أسامة و قال: «نفّذوا جيش أسامة»! «۴». و قد اقتتل الأوس و الخزرج بالأيدى و النعال و العصىّ «۵» فنزلت الآية: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّى تَفِیءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ «۶»!

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۷۹

ألم يمنع بعض الصحابة من كتابة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم كتابا- فى مرضه الأخير- لا يضلّ المسلمون بعده ما إن تمسّكوا به،

و قولة ذلك الصحابی: إنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم غلبه الوجع- أو:

المرض- أو: إنّ الرجل لیهجر؟! «۱» و قد قال تعالی:

ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی* وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی «۲».

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ* یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «۳»

وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۴».

لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «۵».

وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا «۶»!

و کم من واقعة قد أبرم و قطع فیها غیر واحد من العشرة المبشّرة قبل أن یحکم اللّه و رسوله فیها؟! بل تقدّموا فی أشیاء قد تقدّم اللّه و رسوله فیها بحکم خلافا و ردّا لذلک الحکم، کما فی الأمثلة المتقدّمة و غیرها!

ثمّ إنّه بقرینة الآیة الثالثة من آیات سورة الحشر المزبورة، و هی: وَ الَّذِینَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونا بِالْإِیمانِ «۷» یتبیّن أنّ المراد من «الفقراء المهاجرین» هم «السابقون» و قد تقدّم فی سورة التوبة المراد من «السابقین»

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۸۰

فلا تغفل، و یعضد ذلک أیضا التوصیف ب «الصدق» کما تقدّم.

أمّا الآیة الثانیة من الآیات الثلاث من هذه السورة: وَ الَّذِینَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِیمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ یُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَیْهِمْ وَ لا یَجِدُونَ فِی صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۱»، فقد قیّدت الآیة المدیح بعدّة قیود، فلم تکتف بتبوّؤ الدار، بل قیّدته بالإیمان، و المحبّة لمن هاجر إلیهم، و الإیثار علی أنفسهم و لو کان بهم خصاصة، و عدم الشحّ.

و من البیّن ضیق الدائرة بلحاظ هذه القیود؛ لأنّه یخرج المتبوّئ للدار المنافق، أو من انضمّ إلی فئة الّذین فی قلوبهم مرض، أو من کان من أهل المدینة من الّذین مردوا علی النفاق- کما فی سورة التوبة- لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلی عَذابٍ عَظِیمٍ «۲»، أو غیرها من النماذج التی استعرضتها سور التوبة و الأحزاب و محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و البقرة و الأنفال و المائدة، و غیرها من السور المتعرّضة للفئات الطالحة التی صحبت النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم من ألوان المنافقین المختلفة. فلا الآیة الثانیة هذه من سورة الحشر مطلقة لکلّ مدنیّ أسلم، و لا الآیات الأخری الناصّة علی أنّ بعض الفئات الطالحة السیّئة هی من أهل المدینة تبقی الإطلاق المتوهّم.

هذا، مع أنّه قد ورد فی کتب أصحابنا عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ ذیل الآیة وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قد نزلت فی علیّ و فاطمة علیهما السّلام، بل رووا ذلک أیضا عن رواة العامّة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم «۳»، نعم، فی بعض الروایات أنّ سیّد هذه الآیة و أمیرها علیّ علیه السّلام، ممّا یدلّ علی عموم المعنی، و لا غرابة فی ذلک بعد کون الآیات مختلفة نزولا، فلعلّ صدرها فی مورد و ذیلها فی آخر، و کم له من

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۸۱

نظیر فی الآیات، و علی کلّ حال، فالآیة تقیّد بعدّة قیود، فلا مسرح لتوهّم الإطلاق.

الموالاة و البرائة ... ص: ۸۱

و أمّا قوله تعالی:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۱»

فالآية تقيّد الاستغفار لمن سبق بالإيمان، لا لمن سبق بظاهر الإسلام، و تنفى الغلّ عن الّذين آمنوا. أمّا قوله تعالى:

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ* وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ «۲»، فقد علّل النهى عن الاستغفار لمن يكون من أصحاب الجحيم عدوّا للّه العزيز.

و قد بيّنت سور القرآن العديدة المتقدّمة أنّ العديد ممّن صحب النبىّ الصادق الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لقيه كان من فئات المنافقين، أو الّذين فى قلوبهم مرض، أو الماردين على النفاق، أو الّذين يلمزون المؤمنين، أو الّذين يؤذون النبىّ، أو المعوّقين عن القتال، أو المتخلّفين، أو غيرهم من النماذج السيّئة، و توعّدهم اللّه تعالى بالعذاب و اللعن، و أنّ الكافرين سواء فى العاقبة.

فمع كون الاستغفار من المؤمنين محرّم لهذه الفئات التى صحبت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فكيف يتوهّم شمول الاستغفار و الحبّ لكلّ مكّى و نحوه أسلم فى الظاهر و انتقل إلى المدينة و لكلّ مدنىّ أسلم فى الظاهر؟! و قد عرفت أنّ سورة المدّثّر- رابع سورة نزلت- و سورتى العنكبوت و النحل المكّيات، قد تتبعت وجود فئة محترفة للنفاق منذ أوائل البعثة،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۲

و أطلقت عليها عنوان: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، و لاحق القرآن الكريم خطواتهم فى العديد من السور تحت هذا العنوان و بيّن أهدافهم من إظهار الإسلام و الالتحاق بركب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و قد ورد النهى فى العديد من الآيات عن موادّة من حادّ اللّه و رسوله، قال تعالى:

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۱».

و قد وصف القرآن العديد من الفئات التى كانت تصحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالمحادّة للّه و لرسوله، قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ ... أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ... أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ* لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ* يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ* اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ «۲».

فترى أنّ القرآن ما يفتأ يلاحق النماذج العديدة من ألوان الّذين فى قلوبهم مرض

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۳

و المنافقين و أنشطتهم المضادّة لمحور المسيرة الإلهية و هو المسير النبوى.

و فى سورة التوبة المتقدّمة، المستعرضة لنماذج منهم- بعد قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ ... وَ مِنْهُمْ -: ... وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ* يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ* أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً

فِيها ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ «۱» و منهم من آذى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى ابنته فاطمة عليها السّلام «۲».

فمع هذا كلّه كيف لا يتحرّج المؤمن المتديّن فى محبّة كلّ مكّىّ أسلم و انتقل إلى المدينة، و كلّ مدنىّ أسلم؟! و قد تقدّم حديث حذيفة الذى رواه مسلم فى كتاب المنافقين أنّ أصحاب مؤامرة العقبة- بعد غزوة تبوك- اثنا عشر هم حرب للّه و لرسوله فى الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد.

أليس من حادّ اللّه و رسوله، و جعل نفسه ندّا لهما، منافق ذو شقاق للّه و رسوله، فكيف يتّخذونه وليّا و محبوبا و قد قال تعالى:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ* وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ «۳»؟!

فمع كلّ هذا النكير و التحذير القرآنى من اتّباع و موادّة من حادّ اللّه تعالى و رسوله، من النماذج الطالحة التى كانت تعايش النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى المدينة، أو فى ركبه فى القتال، كما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۴

تذكر ذلك سورة التوبة و غيرها، و بعضهم- كما عرفت من سورة المدّثّر- قد التحقوا بالإسلام ظاهريا منذ أوائل البعثة النبوية، فكيف يستحلّ القائل بالتعميم الموالاة للجميع؟!

* و أمّا الآية الثالثة ...: ص: ۸۴

فهى قوله تعالى:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً «۱»

و قوله تعالى فى السورة نفسها:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً «۲».

و لأجل تحصيل مفاد هذه الآيات بدقّة لا بدّ من الالتفات إلى الأمور التالية:

* الأمر الأوّل: إنّه تمّ فى صدر السورة الكريمة تقسيم من كان مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى مؤمن و منافق، قال تعالى:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً* لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً* وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۵

مَصِيراً «۱».

فهذه السورة شأنها شأن بقية السور القرآنية تقسّم و تميّز من كان مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى صالح و طالح، و لا تجعلهم فئة واحدة، كما إنّها تبيّن أنّ السكينة تنزل على المؤمنين دون المنافقين ممّن صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و من ثمّ يتبيّن أنّ الرضا و السكينة فى الآية ۱۸ منها خاصّة بالمؤمنين الّذين بايعوا تحت الشجرة لا غيرهم، أى ليس كلّ من بايع فهو مؤمن و قد رضى اللّه عنه، فالرضا كفعل أسند و تعلّق بالمؤمنين الّذين وضعوا فى صدر السورة فى قبال المنافقين، فهؤلاء الّذين تميّزوا عن

أولئك رضى اللّه عنهم حال مبايعتهم للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و ستأتى شواهد أخرى على تخصيص الرضا بهم لا بكلّ من بايع، إذ ليس لفظ الآية هكذا: «لقد رضى اللّه عن الّذين يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم»، أى ليس الرضا لمطلق الّذين بايعوا بل مقيّد، و قد خصّص اللّه تعالى ذلك أيضا فى قوله:

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً «۲».

بينما لم تعمّ السكينة من كان مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الغار كما فى قوله تعالى:

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «۳».

* الأمر الثانى: إنّ قوله تعالى فى سورة الفتح:

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۶

نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً «۱»

ترى فيه أنّ الحكم لم يخصّص بإسناد المبايعة إلى خصوص المؤمنين، بل إلى عموم الّذين بايعوا، أى الّذين كانوا معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و حينئذ اشترط عليهم الوفاء بالبيعة و عدم النكث، و فى الآية إشعار بوجود كلا الفئتين، و من ثمّ عرف بين الصحابة اصطلاح «بدّل» و «نكث» فى الطعن الذى يوجّهونه على بعض منهم.

و منه يظهر أنّ الرضا- حتّى الذى أسند إلى المؤمنين منهم خاصة- مشروط بالوفاء بما عاهدوا اللّه عليه، و أنّ الرضا هو لأجل تسليمهم و مبايعتهم لا مطلقا، و إذْ من قبيل التعليل.

* الأمر الثالث: و هو متّفق مع سابقيه، و هو أنّ قوله تعالى فى آخر السورة:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً «۲»

يصف الّذين معه بالشدّة على الكفّار و الرحمة فيما بينهم، و قد انبأتنا سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سورة الأحزاب و سورة التوبة و غيرها من السور- كما تقدّمت الإشارة إلى بعضها- إلى وجود فئات من المنافقين و الّذين فى قلوبهم مرض مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إذا جاء الخوف تدور أعينهم كالمغشىّ عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، و إذا جاءت الأحزاب يودّون لو أنّهم بادون فى الأعراب، يقولون بيوتنا عورة، و إن تولّى أحدهم الأمور العامّة أفسد فى الأرض و قطّع الأرحام «۳»، و أغلظ و كان فظّا مع المؤمنين و المسلمين.

و بهذا يتبيّن أنّ هذه الآية فى سورة الفتح تشير إلى مديح فئة خاصّة، و معنى خاصّ من «المعية» بمعنى النصرة الصادقة، و يدلّ على ذلك أيضا تقييد الآية الوعد الإلهى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۷

بالمغفرة و الأجر العظيم بخصوص المؤمنين العاملين للصالحات، أى أنّ الآية جاءت بلفظ مِنْهُمْ الدالّ على التبعيض و عدم العموم. و هذا ما نطقت به السور جميعها، فهى تؤكّد على تبعيض المجموع الذى صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- سواء فى القتال، أو فى السلم حضرا أو سفرا- إلى صالح و طالح، كما إنّ السورة تشترط لحصول المغفرة و الأجر العظيم الإيمان و العمل الصالح، أى الوفاء بالشرط.

* الأمر الرابع: إنّ شأن وقوع بيعة الشجرة و نزول آياتها- كما ذكر ذلك فى كتب الرواية و التفسير و السير- هو ما وقع فى صلح

الحديبية من عصيان أكثر من كان مع النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم إيّاهم بالحلق و الإحلال من الإحرام بعدما صدّوا عن الاعتمار إلى بيت اللّه الحرام، و صار الأمر إلى عقد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم الصلح مع قريش، و الذى كان فيه انتصار كبير لرسول اللّه و للمسلمين على قريش- كما وعد اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم- إلّا أنّ الّذين كانوا فى ركبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مضافا إلى أنّهم لم يدركوا الحكمة من ذلك، لم يسلّموا لأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أيضا، و فى مقدّمتهم أحد الصحابة ممّن يحسب من الخاصة، فقد ذكرت كتب الصحاح و التواريخ شدّة اعتراضه و ردّه لأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتّى إنّه ارتاب فى دينه، و قد قال تعالى:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ «۱»

و قال:

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً «۲».

و لذلك قدّمنا فى بيان آيات سورة الحشر أنّ اصطلاحات «لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ ...» و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۸۸

«الصَّادِقُونَ» لا تعمّ كلّ من صحب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فكان من الكثير ممّن فى ركبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حالة عدم انصياع و عدم استجابة و عدم ائتمار، حتّى دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم خيمته مغضبا فاستخبرته الحال أمّ سلمة، فأشارت عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأن يبتدر و يحلق فسيضطرّون إلى متابعته، فلمّا رأى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم منهم مثل ذلك استوثق منهم بالبيعة تحت الشجرة كى لا يصدر منهم نكول مرّة أخرى، فالبيعة أخذت لإنشاء التعهّد و الوفاء و الالتزام بمقتضى الشهادتين التى أقرّوا بها.

و من ذلك كلّه يفهم أنّ «الرضا» فى الآية كان بعد اعتراض كثير من الصحابة- ممّن بايع بعد ذلك- على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و حصول حالة من عدم التسليم و النكول بينهم، و ما يوجب السخط الإلهى عليهم، و مع ذلك فإنّ هذا «الرضا» خصّص بالمؤمنين لمّا بايعوا، و لم يسند إلى عموم الّذين بايعوا كما عرفت. و مع ذلك أيضا اشترط الوفاء بالبيعة و عدم النكث، أى الوفاء بالعهد الإلهى حتّى حلول الأجل، و مع كلّ ذلك، فقد دلّت السورة الكريمة على مديح بعض من صحب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بلفظة «منهم» فى آخر آية منها.

* أمّا الآيتان الرابعة و الخامسة ...: ص: ۸۸

اشارة

فهى قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ* الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «۱».

و قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «۲».

و قوله تعالى:

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۸۹

مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۱».

و لأجل إدراك معنى و مفاد الآيات الشريفهٔ لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الآيهٔ الثانيهٔ المذكورهٔ آنفا من سورهٔ النحل قد سبقتها الآيات التاليهٔ: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ* أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ* لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ* ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا «... ۲».

ففى هذه الآيات المكّيهٔ دلالهٔ على ظهور النفاق قبل الهجرهٔ، و أنّ هناك من المسلمين من يكفر باللّه بلسانه بعد إسلامه مع انشراح صدره بذلك من دون إكراه، بل حبّا فى الحياهٔ الدنيويهٔ الوادعهٔ، و أولئك مطبوع على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم، و هم فى غفلهٔ عن الحقّ و هم الخاسرون، و قيل: إنّها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح «۳»، من بنى عامر بن لؤى، لكنّ ظاهر لفظ الجمع فى الآيات يعطى أنّها نزلت فى مجموعهٔ و فئهٔ تطمع فى الأغراض الدنيويهٔ.

هذا، مضافا إلى ما تشير إليه سورهٔ المدّثّر، المكّيهٔ- رابع سورهٔ نزلت- من وجود فئهٔ الّذين فى قلوبهم مرض فى أوائل البعثهٔ فى صفوف المسلمين، و تشير بقيهٔ السور إلى ملاحقهٔ هذه الفئهٔ و أهدافها و ارتباطاتها بكلّ من الكفّار و أهل الكتاب، فمن البيّن أنّ «لِلَّذِينَ هاجَرُوا» فى هذه السورهٔ لا يراد به كلّ مكّى أسلم فى الظاهر و انتقل إلى المدينهٔ؛ كيف؟! و هى تقسّم المسلمين إلى فئهٔ صالحهٔ، و أخرى طالحهٔ تنشرح بالكفر صدرا بعد الإيمان، حبّا فى الدنيا، مطبوع على قلوبها، و كذلك سورهٔ المدّثّر السابقهٔ لها نزولا.

بل إنّ فى الآيهٔ الأولى المذكورهٔ من هذه السورهٔ تقييد الهجرهٔ بكونها فى اللّه، لا

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۹۰

لإجل الأغراض و الطموحات الدنيويهٔ و تقلّد المناصب أو بعض الأمور كما هو دأب فئهٔ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كما تشير إلى ذلك سورهٔ محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، الآيات ۲۰- ۲۴، بعدما اطّلعوا على ظفر و نصر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على العرب، اطّلعوا على ذلك من أهل الكتاب، فقد كانوا على صلهٔ بهم كما تشير إلى ذلك سورهٔ المائدهٔ، الآيهٔ ۵۲، إذ كان أهل الكتاب على علم بذلك كما قال تعالى عنهم:

وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «۱».

و قد سبق أن بيّنّا مفصّلا أنّ الهجرهٔ و المهاجر و النصرهٔ و الأنصار فى القرآن ليس بمعنى كلّ مكّى و نحوه أسلم فى الظاهر و انتقل إلى المدينهٔ، كما أنّ اللفظهٔ الثانيهٔ ليست لكلّ مدنىّ أسلم فى الظاهر و إن شاع ذلك فى الأذهان غفلهٔ و خطأ، فراجع.

و قد تقدّم مفاد الآيهٔ الخامسهٔ المذكورهٔ من سورهٔ التوبهٔ، عند الكلام عن السورهٔ، فراجع؛ و أنّها فى قراءهٔ أهل البيت عليهم السّلام: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ «۲» و أنّ هذه السورهٔ لم تترك فئهٔ أو لونا من ألوان المنافقين إلّا و كشفتهم، و من ثمّ سمّيت بعشرهٔ أسماء، منها: الكاشفهٔ و الفاضحهٔ للمنافقين و غير ذلك، بل ورد فيها أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمجاهدهٔ المنافقين على حدّ مجاهدهٔ الكفّار سواء.

عدم إيمان بعض البدريّين ... ص: ۹۰

* أمّا الآيهٔ السادسهٔ ...: ص: ۹۰

اشارهٔ

فهى قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۱

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ* وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ «۱»

و يتّضح أنّ هذه السورة كبقية السور القرآنية فى تقسيم و تمييز من صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كان فى ركبه، إلى صالح و طالح، و إلى فئات متنوّعة، و لكن ينبغى الالتفات إلى بقية آيات السورة، قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ* وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّى جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّى أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ* إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «۲».

كما إنّ فى الآيات ۴۱- ۴۴ من سورة الأنفال- و التى سبقت هذه الآيات- نبأ عظيم و إفصاح خطير، هو أنّ من كان فى ركب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى غزوة بدر و أثناء القتال كانوا على ثلاث فئات: فئة مؤمنة ثابتة، و فئة منافقة، و فئة الّذين فى قلوبهم مرض- و هى الفئة التى أشارت إلى وجودها سورة المدّثّر المكّية، رابع سورة نزلت فى أوائل البعثة، فى صفوف المسلمين- و كان من الفئتين الأخيرتين- لمّا رأتا حشد مشركى قريش و بطرهم و خيلاءهم فى غزوة بدر- أن قالتا عن الفئة الأولى بأنّها مغرورة بسبب دينهم و هو دين الإسلام، فلم ينسبوا أنفسهم إلى الدين الإسلامى، و إنّما جعلوا أنفسهم- بذلك- على دين المشركين!

و الإفصاح هذا فى هذه السورة عن معسكر جيش المسلمين الذى كان مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنّه منقسم إلى ثلاث فئات، يبطل كلّ الروايات التى يرويها العامّة حول قدسية

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۲

البدريّين، و أنّ اللّه قد غفر لهم و إن عملوا ما عملوا- فضلا عن كون ذلك مناقض للآيات و السور العديدة المشترطة للوفاء حتّى حلول الأجل و الثبات على الإيمان و العمل الصالح- كما أنّه يبطل مقولة إنّ كلّ بدرىّ أو أحدى فهو مؤمن و ممدوح و مرضىّ حاله عند اللّه تعالى.

و فى الآيتين اللاحقتين المتّصلتين بالآيات التى أوردناها، يقول تبارك و تعالى:

وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ* ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ «۱» و هو تهديد و وعيد لهم بالعقوبة المبتدأ بها عند الموت.

و لأجل ذلك ترى أنّ الخطاب الإلهى فى هذه السورة مخصّص و موجّه إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الّذين آمنوا خاصة دون الفئتين الأخريتين، قال تعالى: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ* وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ «... ۲» فخصّ ألّفة القلوب و المساعدة على النصر و الخطاب بالجهاد بالمؤمنين دون الفئتين الأخريين، فكيف يتوهّم بأنّ قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا «۳» شامل للمنافقين و الّذين فى قلوبهم مرض ممّن كان فى ركب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى غزوة بدر؟!

و فى هذه السورة آيات أخرى، و هى قوله تعالى:

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۳

مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ* وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ «۱».

ففی تفسیر ابن کثیر عن السدّی: نزلت فی أهل بدر خاصة فأصابتهم یوم الجمل فاقتتلوا «۲».

و فی هذه الآیات إشارة واضحة إلی أنّ المسلمین البدریّین سیفتنون بفتنة تصیب الجمیع، و أنّهم سیمتحنون بها و فیهم الظالمون، و أنّ من یخون اللّه و رسوله و الأمانات المأخوذة علیه فإنّ اللّه شدید العقاب، و هذه الآیات الکریمة صریحة- کذلک- فی تقسیم و تمییز من صحب النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بدر و فی أوائل الهجرة إلی المدینة، و أنّهم یفتنون، و یکون بعضهم ظالما، و یخون اللّه و رسوله و الأمانات المأخوذة علیه.

حال المسلمین فی أحد ... ص: ۹۳

قال تعالی فی سورة آل عمران:

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ* ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۴

أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ* إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «۱».

ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ «۲».

وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «۳»

فهذه الآیات ترسم لنا و تقسّم من کان فی رکب النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم، بأنّ بعضهم کان یرید الدنیا و بعضهم الآخر یرید الآخرة، و أنّه وقع من کثیر من المسلمین فرار بعدما شاهدوا النصر باستزلال الشیطان لهم بسبب بعض الأعمال السیّئة السابقة، و أنّ طائفة منهم یظنّون باللّه ظنّ الجاهلیة و یخفون ذلک فی قلوبهم، و أنّ من صحب النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی القتال منهم الطیّب و منهم الخبیث، و أنّ وقعة أحد کانت للتمییز بینهما.

و هذا خلاف رأی من یدّعی التعمیم و المساواة فی من صحب و لازم النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم، مع أنّ التمییز وقع فی من کان من المسلمین أحدیّ! و من ذلک یتبیّن أنّ التوصیف بکون الشخص بدریا أو أحدیا إنّما یکون منقبة إذا کان من الفئة المؤمنة، لا ما

إذا كان من الفئات الأخرى، فليس كلّ بـدرى أو أحـدى هو من الفئة المؤمنة الممدوحة، بل بعضـهم من الفئات المذمومة فى سورتى الأنفال و آل عمران.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۵

ثمّ إنّ السورة تحذّر- أيضا- من وقوع انقلاب من المسـلمين على الأعقاب برحيل النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و فى كتب السير أنّ جماعـة من المسـلمين لمّا شاهدوا الهزيمة و ظنّوا أنّ الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم قد قتل، لاذوا بالفرار و صـعدوا الجبل، و اجتمعوا حول صخرة- عرفوا بعد ذلك بجماعة الصخرة- و قالوا: إنّا على دين الآباء «۱»؛ كى يكون ذلك شافعا لهم عند قريش، و فى ما سطر فى السير ما يلوح أنّهم ممّن يعدّون من أعيان القوم و وجوههم.

و المتأمّل للسور الحاكية للغزوات- كما تقدّم فى سورة الأحزاب عن غزوة الخندق، و سورة التوبة عن غزوة تبوك و حنين و غيرهما- يجدها ناطقة بلسان التميز و التقسيم و التصـنيف لمن صـحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و شارك فى القتال، و أنّ هناك الفئة الصالحة الثابتة المؤمنة، و هناك الطالحة و أصناف أهل النفاق و محترفيه الّذين فى قلوبهم مرض.

* أمّا الآية السابعة ...: ص: ۹۵

فهى قوله تعالى:

وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «۲»

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۳».

وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً «۴».

و هذه الآيات- و ما هو من قبيلها- يسـتدلّ بها عندهم على حجّيّة إجماع الأمّة، أو حجّيّة إجماع الصـحابة، بتقريب أنّهم أوّل المصاديق لهذا العنوان، و نحو ذلك، و للوصول إلى المعنى و مفاده فى حدود ظهور ألفاظ الآيات لا بدّ من الالتفات إلى النقاط التالية:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۶

الأولى: إنّ الآية الثانية المذكورة آنفا قد ورد عن أهل البيت عليهم السّـلام أنّ أحد وجوه قراءتها أنّها بلفظ (أئمّة) «۱» - جمع إمام- لا (أمّة)؛ و يعضد هذه القراءة النقاط اللاحقة.

الثانية: إنّ لفظة (أمّة) هى من الألفاظ التى تستعمل فى الجماعة كما تستعمل فى المجموع، بل تستعمل فى الفرد، كقوله تعالى:

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً «۲»

رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ «۳»

مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ «۴»

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۵»

وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ «... ۶»

وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۷»

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ «۸».

و الذى يظهر أنّ المعنى المستعمل فيه للّفظة‌ها هنا هو بمعنى الجماعة لا المجموع، و هو أنّ هذه الأمّة الوسط تكون شاهدة على جميع الناس، و الرسول شاهـد عليها. و من البيّن أنّ هذا المقام لا يتشـرّف به مجموع الأمّة أو جميع أهل القبلة من الموحّدين، فهل يجوز أن تقبل شـهادة من لا تجوز شـهادته فى الدنيا على صاع من تمر أو على صرّة من بقل، فيطلب اللّه شهادته يوم القيامة و يقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟!! كما أشار

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۷

إلى ذلک الإمامان الباقر و الصادق عليهما السّلام «۱».

لا ريب أنّ اللّه لم يعن مثل هذا، بل المراد جماعة خاصة لهم هذا المقام و الشأن، و هم الّذين قال تعالى عنهم: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۲»، فإنّ سنخ اطّلاع هؤلاء على الأعمال و شهادتهم لها لدنّيّة من اللّه تعالى، كما إنّ مقتضى ما يعطيه لفظ «الوسط» بقول مطلق هو الوسطية فى الصفات و الفضائل لا الإفراط و لا التفريط، فهم النقباء.

كما إنّ الآية السابقة- الآية الثانية المذكورة من سورة آل عمران- و هى قوله تعالى:

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۳»، فهذه الأمّة الداعية إلى الخير، و الآمرة بالمعروف، و الناهية عن المنكر، على صعيد الحكم و الإمامة هى جزء من مجموع المسلمين، لا كلّ المجموع.

كما إنّ لفظة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تعطى مفهوم خروجها من الأصلاب، و فيه إشارة إلى دعوة إبراهيم عليه السّلام حين قال: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ «۴» و ذلک بعدما حكى اللّه عنه ما قاله فى قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ «۵».

و كما قال تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «۶» أى جعل التوحيد و العصمة من الشرک كلمة باقية فى عقب إبراهيم من نسل إسماعيل، فكان تقلّب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الأصلاب و الأجداد الطاهرين من الشرک و الوثنية، قال تعالى: الَّذِي يَراکَ حِينَ تَقُومُ*

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۸

وَ تَقَلُّبَکَ فِي السَّاجِدِينَ «۱».

فمن ذلک كلّه يتبيّن أنّ الأمّة المقصودة من الآيتين هى ثلّة من مجموع المسلمين لهم تلک المواصفات الخاصة التى تؤهّلهم إلى ذلک المقام. و كيف يتوهّم أنّ مجموع من أسلم بالشهادتين هو المراد؟! و الحال أنّ سورة

آل عمران- كما قدّمنا- تصنّف من شهد معركة أحد- فضلا عن غيرهم- إلى فئات صالحة و طالحة، و كذا ما فى بقية السور التى استعرضناها، و غيرها، إذ إنّ فيها الذمّ و الوعيد الشديد لألوان من الفئات الطالحة ممّن أظهرت الإسلام على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و أمّا الآية الثالثة المذكورة، فهى تجعل الميزان طاعة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و عدم مشاققته، و عدم الردّ عليه، كما فى قوله تعالى: فَلا وَ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «۲».

و الحال أنّ بعض وجوه من صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد ردّ على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمره، بأنّه غلبه الوجع، أو: إنّه- و العياذ باللّه- يهجر؛ و ذلک عندما طلب الدواة و الكتف من أجل كتابة كتاب لئلّا تضلّ أمّته من بعده لو تمسّكت به، و اللّه تعالى يقول: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى* وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى «۳»، و قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ «۴»!

و ذلک على عكس ما حدث عند موت أبى بكر، فإنّ أبا بكر أراد عند موته أن يوصى، فذكر بعض الكلمات فأغمى عليه، فأضاف عثمان اسم عمر كخليفة لأبى بكر، و لمّا أفاق أبو بكر أمضى ما كتبه عثمان! فتثبيت اسم عمر لم يعدّوه هجرا من مثل أبى بكر!! كما إنّهم أخذوا بكلام عمر- و هو فى مرض موته- فى تسمية أعضاء الشورى!!

أليس ذلک ردّا و معصية و شقاقا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال تعالى: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۹۹

مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً «۱»، و قال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ «۲» و كذا تخلّفهم عن جيش أسامة، و كذا في صلح الحديبية، و غيرها من الموارد.

ثمّ إنّ الآية تقيّد بقيد آخر و هو اتّباع سبيل المؤمنين، و قد بيّنت سورة الأنفال أنّ في البدريّين و من شهد مع النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم الغزوة الأولى فئات ثلاث، هي: فئة مؤمنة، و فئة منافقة، و فئة الّذين في قلوبهم مرض، و هم محترفو النفاق! فلاحظ ما تقدّم. و كذا بيّنت سورة آل عمران أنّ من شهد معركة أحد لم يكونوا متساوين في الصلاح، بل إنّ بعضهم طالح يريد الدنيا، و يظنّ باللّه ظنّ الجاهلية، لا يثبت بعد موت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم بل ينقلب على عقبيه؛ كما بيّنت ذلك غيرهما من السور المتعرّضة لبقية الحروب و الغزوات كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك، فالفئة المؤمنة المخاطبة في الموارد العديدة- بوصف «الهجرة» و «النصرة» كمنقبتين، و بوصف «الهداية» و غيرها من الفضائل- هذه الفئة هي فئة معيّنة خاصة، لا عامة لكلّ من أسلم في الظاهر و كان في ركب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم في الحرب أو السلم.

و يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة التحريم:

وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ* إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ* عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۰

وَ أَبْكاراً «۱»

ثمّ قال تعالى في ذيل السورة:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ* وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «۲».

فالمقارنة التي تذكرها هذه السورة بين اثنتين من أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّهما كانتا في معرض التظاهر على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ظاهر لحن السورة أنّ الأمر خطير استدعى هذا التهديد بالقوّة الإلهية و خصوص صالح المؤمنين لا كلّ المؤمنين، فضلا عن كلّ المسلمين، و عن كلّ من أسلم في الظاهر، فما هو سبب تخصيص صالح المؤمنين بمناصرة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم في مثل هذه المواجهة، و كأنّها كالحرب المعلنة التي نزل- في هذه السورة- الأمر الإلهي بها على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمجاهدة المنافقين كما يجاهد الكفّار سواء، و كذا الأمر بالغلظة عليهم؟! و ما هو سبب ذكر صفات من سيبدله اللّه بهما و تحلّان محلّهما، و أنّهنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات؛ و التبديل تعويض عن مفقود؟!

و على كلّ تقدير، فإنّ هذا التهديد بالاستنفار في الآية، الذي هو كاستنفار الحرب و القتال، لا ينسجم مع تفسير مورد نزول الآية بأنّه بسبب إفشاء لخبر عادي، بل مقتضى هذه الشدّة في الوعيد أنّ الخبر بمنزلة من الخطورة إلى درجة أنّه يهدّد وجود النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم!

ثمّ إنّ ذيل السورة قد أفصح فيه أنّ الزوجية للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و مقام الأمومة للمؤمنين، لا يغني عنهما من اللّه شيئا إذا لزمتا معصية و خيانة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الائتمار عليه، كما هو الحال في امرأتي النبيّين نوح و لوط عليهما السّلام، و أنّ المدار في الفضيلة هو على التصديق و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۱

الإيمان و العمل الصالح.

و يتطابق هذا المفاد مع ما فى سورة الأحزاب من مضاعفة العذاب ضعفين على المعصية، و إن أطعن اللّه و رسوله فلهنّ الأجر مرّتين، و قـد نزل القرآن بالأـمر بالقرار فى البيوت، و عـدم التبرّج، و بإطاعـة اللّه و رسوله، علما أنّ الزوجيـة هى شـدّة من الصـحبة، و مع ذلك فالمـدار عنـد اللّه تعالى بحسب هـذه السورة و بقيـة السور هو على الإيمان و العمل الصالح و طاعة اللّه تعالى و طاعة رسوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و أنّ هذه الصحبة لا تغنى عنهما من اللّه شيئا!، فمن كلّ ذلك يتبيّن أنّ سبيل المؤمنين و صالحهم ليس هو مجموع الأمّة، بل هو الفئة المؤمنة حقّا و واقعا.

و هؤلاء القائلون بعدالـة الصـحابة- بالمعنى الذى تقدّم شـرحه، فإنّه يضاهى الإمامة فى الدين، و العصـمة و الحجّيّة بذلك المعنى، فى الدائرة الضـيّقة من جماعة السـقيفة، و بالخصوص فى الأوّل و الثانى- هم فى الوقت نفسه يلتزمون بعدم عصـمة النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم المطلقة، فيجوّزون وقوع الخطأ منه- و العياذ باللّه-! ففى الوقت الذى يرفعون من مقام الأوّلين، فهم يحطّون من مقام النبوّة، فتراهم يقولون باجتهـاد النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، أى قوله بـالظنّ، و أنّه قـد يصـيب و قـد يخطئ! كمـا إنّهم يلتزمون بمسـألة أخرى، و هى جواز اجتهـاد الصـحابة فى عصـر النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، فى الحضور أو الغياب!؛ نعم، قـد رفض هـذا القول بعض منهم، كأبى على الجبّائى و ابنه هاشم لقوله تعالى: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى «۱» «۲».

و عن ابن حزم الأندلسى فى كتاب الفصل فى الملل و الأهواء و النحل، أنّ الأنبياء عليهم السّلام غير معصومين من الخطأ، قال تعالى: وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «۳» و قوله: فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى «۴» و أنّ التوبة لا تكون إلّا من ذنب، و هذا وقع منه عن قصد إلى خلاف ما أمر

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۲

به، متأوّلا فى ذلك و لا يدرى أنّه عاص، بل كان ظانّا أنّ الأمر للندب مثلا أو النهى لكراهة.

و قـال اللّه لنبيّنا صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ* لَوْ لا أَنْ تَـدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ «۱» أنّه غاضب قومه و لم يوافق ذلك مراد اللّه، فعوقب بذلك، و إن كان ظانّا أنّ هذا ليس عليه فيه شـيء، و هذا هو ما أراده اللّه من نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلم حين نهى عن مغاضبة قومه، و أمر بالصبر على أذاهم، و أمّا إخبار اللّه بأنّه استحقّ الذمّ و الملامة لولا النعمة التى تدارکه بها للبث معاقبا فى بطن الحوت «۲».

و ذهب القاضـى عياض فى الشفا إلى جواز اجتهاد الأنبياء فى الأمور الدنيويّة فقط، مستدلّا بحديث تأبير النخل «۳». و قال كمال الدين ابن همام الدين الحنفى، المتوفّى سنة ۸۶۱ ه، فى كتاب التحرير: إنّ الرسول مأمور (بالاجتهاد مطلقا) فى الأحكام الشرعية و الحروب و الأمور الدينيّة من غير تقييد بشىء منها «۴». و قال ابن تيميّة فى غير ما يتعلّق بالتبليغ: إنّ الأنبياء كانوا دائما يبادرون بالتوبة و الاستغفار عند الهفوة، و القرآن شاهد عدل، فهو لم يذكر شيئا من ذلك عن نبيّ من الأنبياء إلّا مقرونا بالتوبة و الاستغفار «۵».

و قال الغزّالى فى المستصفى:

المختار جواز تعبّده بـذلك، لأنّه ليس بمحال فى ذاته، و لا يفضـى إلى محال و مفسـدة. فإن قيل: المانع منه أنّه قادر على اسـتكشاف الحكم بالوحى الصريح، فكيف يرجم بالظنّ؟!؛ قلنا: فإذا استكشف فقيل له: حكمنا عليك أن تجتهد و أنت متعبّد به، فهل له أن ينازع اللّه فيه، أو يلزمه أن يعتقد أنّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۳

صلاحه فى ما تعبّد به؟!

فـإن قيـل: قوله نصّ قـاطع يضـادّ الظنّ، و الظن يتطرّق إليه احتمـال الخطـأ، فهمـا متضـادّان؛ قلنـا: إذا قيل له: ظنّك علامـة الحكم، فهو يستيقن الظنّ و الحكم جميعـا فلا يحتمل الخطأ، و كـذلك اجتهاد غيره عنـدنا، و يكون كظنّه صـدق الشـهود، فإنّه يكون مصـيبا و إن كان الشاهد مزوّرا فى الباطن.

فإن قيل: فإن ساواه غيره فى كونه مصيبا بكلّ حال فليجز لغيره أن يخالف قياسه باجتهاد نفسه!؛ قلنا: لو تعبّد بذلك لجاز، و لكن دلّ الدليل من الإجماع على تحريم مخالفة اجتهاده، كما دلّ على تحريم مخالفة الأمّة كافّة، و كما دلّ على تحريم مخالفة اجتهاد الإمام الأعظم و الحاكم؛ لأنّ صلاح الخلق فى اتّباع رأى الإمام و الحاكم و كافّة الأمّة، فكذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من ذهب إلى أنّ المصيب واحد يرجح اجتهاده لكونه معصوما عن الخطأ دون غيره و منهم من جوّز عليه الخطأ و لكن لا يقرّ عليه.

فإنّ قيل: كيف يجوز ورود التعبّد بمخالفة اجتهاده، و ذلك يناقض الاتّباع، و ينفّر عن الانقياد؟! قلنا: إذا عرّفهم على لسانه بأنّ حكمهم اتّباع ظنّهم و إن خالف ظنّ النبىّ، كان اتّباعه فى امتثال ما رسمه لهم كما فى القضاء بالشهود، فإنّه لو قضى النبىّ بشهادة شخصين لم يعرف فسقهما، فشهدا عند حاكم عرف فسقهما لم يقبلهما.

و أمّا التنفير، فلا يحصل، بل تكون مخالفته فيه كمخالفته فى الشفاعة و فى تأبير النخل و مصالح الدنيا.

فإنّ قيل: لو قاس فرعا على أصل أفيجوز إيراد القياس على فرعه أم لا؟ إن قلتم: لا؛ فمحال؛ لأنّه صار منصوصا عليه من جهته. و إن قلتم: نعم؛ فكيف يجوز القياس على الفرع؟!؛ قلنا: يجوز القياس عليه و على كلّ فرع أجمعت

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۴

الأمّة على إلحاقه بأصل؛ لأنّه صار أصلا بالإجماع و النصّ «۱».

نقلنا كلامه بطوله لأنّه تلخيص لأقوالهم فى المسألتين، و يتلخّص من كلامهم أمور:

الأوّل: مساواة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لغيره من رعيّته فى تجويز الاجتهاد، و تجويز مخالفة غيره له فى الاجتهاد.

الثانى: إنّ الإجماع و إطباق كافّة الأمّة هو الحجّة الأصل عندهم لأقوال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، مع إنّ حجّيّة الإجماع لديهم مستقاة من الحديث النبوى.

الثالث: تسويتهم بين الموضوعات و الأحكام الكلّيّة، و بين الموضوع فى الأمور العامّة و الموضوع فى الأمر الخاصّ بأحد المكلّفين، مع إنّ الموازين المتّبعة فى كلّ شقّ مختلفة عنها فى الشقّ الآخر كما هو محرّر فى أصول الفقه.

و قال الغزّالى فى مسألة جواز الاجتهاد فى زمان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «المختار أنّ ذلك جائز فى حضرته و غيبته، و أن يدلّ عليه بالإذن أو السكوت؛ لأنّه ليس فى التعبّد به استحالة فى ذاته، و لا يفضى إلى محال و لا إلى مفسدة، و إن أوجبنا الصلاح فيجوز أن يعلم اللّه لطفا يقتضى ارتباط صلاح العباد بتعبّدهم بالاجتهاد؛ لعلمه بأنّه لو نصّ لهم على قاطع لبغوا و عصوا.

فإن قيل: الاجتهاد مع النصّ محال، و تعرّف الحكم بالنصّ بالوحى الصريح ممكن، فكيف يردّهم إلى ورطة الظنّ؟!

قلنا: فإذا قال لهم: أوحى إلىّ أنّ حكم اللّه تعالى عليكم ما أدّى إليه اجتهادكم و قد تعبّدكم بالاجتهاد، فهذا نصّ، و قولهم: (الاجتهاد مع النصّ محال) مسلّم، و لكن لم ينزل نصّ فى الواقعة، و إمكان النصّ لا يضادّ الاجتهاد، و إنّما يضادّه نفس النصّ؛ كيف؟! و قد تعبّد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالقضاء بقول الشهود حتّى قال: إنّكم لتختصمون إلىّ و لعلّ بعضكم أن يكون

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۵

ألحن بحجّته من بعض؛ و كان يمكن نزول الوحى بالحقّ الصريح فى كلّ واقعة حتّى لا يحتاج إلى رجم بالظنّ و خوف الخطأ» «۱».

و يتلخّص من كلامه:

الأوّل: جواز التقدّم بين يدى اللّه و رسوله فى الحكم.

الثانى: أنّ بغى الناس و طغيانهم على حكم اللّه تعالى يسوّغ الاجتهاد من أنفسهم دون الرجوع إلى اللّه و رسوله، و هو نمط من تفويض التشريع للأهواء وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ «۲» وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ «۳» وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ «۴» أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ «۵» وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «۶».

الثالث: خلطه بين الموضوعات و الأحكام الكلّيّة و بين الموضوع فى الأمور العامّة و الموضوع فى الأمر الخاصّ بأحد المكلّفين- كما تقدّم-

و نجم عن هذا الالتزام عندهم ما ذكره صاحب المنار- فى معرض كلام له عن العمل بالحديث-:

...حكم عمر بن الخطّاب على أعيان الصحابة بما يخالف بعض تلك الأحاديث، ثمّ ما جرى عليه علماء الأمصار فى القرن الأوّل و الثانى من اكتفاء الواحد منهم- كأبى حنيفة- بما بلغه و وثق من الحديث و إن قلّ، و عدم تعنّيه فى جمع غيره إليه ليفهم دينه و يبيّن أحكامه، قوى عندك ذلك الترجيح، بل تجد الفقهاء لم يجتمعوا على تحرير الصحيح و الاتّفاق على العمل به، فهذه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۶

كتب الفقه فى المذاهب المتّبعة، و لا سيّما كتب الحنفية فالمالكية فالشافعية، فيها المئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتّفق على صحّتها.

و قد أورد ابن القيّم فى أعلام الموقّعين شواهد كثيرة جدّا من ردّ الفقهاء للأحاديث الصحيحة عملا بالقياس أو لغير ذلك، و من أغربها أخذهم ببعض الحديث الواحد دون باقيه، و قد أورد لهذا أكثر من ستّين شاهدا «۱»، و مع ذلك كلّه فمن الغريب جمع الغزّالى بين ذلك و بين رأيه فى الصحابة، قال فى المستصفى:

الأصل الثانى من الأصول الموهومة: قول الصحابى، و قد ذهب قوم إلى أنّ مذهب الصحابى حجّة مطلقا، و قوم إلى أنّه حجّة إن خالف القياس، و قوم إلى أنّ الحجّة فى قول أبى بكر و عمر خاصّة، لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: (اقتدوا باللذين من بعدى)، و قوم إلى أنّ الحجّة فى قول الخلفاء الراشدين إذا اتّفقوا.

و الكلّ باطل عندنا؛ فإنّ من يجوز عليه الغلط و السهو و لم تثبت عصمته عنه، فلا حجّة فى قوله، فكيف يحتجّ بقولهم مع جواز الخطأ؟! و كيف تدّعى عصمتهم من غير حجّة متواترة؟! و كيف يتصوّر عصمة قوم يجوز عليهم الاختلاف؟! و كيف يختلف المعصومان؟!

كيف؟! و قد اتّفقت الصحابة على جواز مخالفة الصحابة، فلم ينكر أبو بكر و عمر على من خالفهما بالاجتهاد، بل أوجبوا فى مسائل الاجتهاد على كلّ مجتهد أن يتّبع اجتهاد نفسه، فانتفاء الدليل على العصمة، و وقوع الاختلاف بينهم، و تصريحهم بجواز مخالفتهم فيه، ثلاثة أدلّة قاطعة «۲».

ثمّ ذكر أدلّة بقية الأقوال و أخذ فى ردّها، و تتلخّص ردوده عليها فى النقاط التالية:

الأولى: إنّ ما يروى عندهم من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»، هو خطاب مع عوّام ذلك العصر، لتعريف درجة الفتوى للصحابة، إذ الصحابى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۷

خارج عن الخطاب فله أن يخالف الآخر.

الثانية: إنّ اتّباع كلّ واحد من الخلفاء الراشدين محال مع اختلافهم فى المسائل.

الثالثة: إنّ الاقتداء بأبى بكر و عمر و اتّباعهما هو إيجاب للتقليد فى الفتوى، مع إنّه معارض بتجويز هما مخالفة الآخرين لهما، و لو اختلفا كما اختلفا فى التسوية فى العطاء فأيّهما يتّبع؟!

الرابعة: إنّ مذهب عبد الرحمن بن عوف معارض بمذهب الإمام علىّ عليه السّلام، حين أبى اشتراط عبد الرحمن الخلافة بشرط الاقتداء بالشيخين.

الخامسة: إنّ قول الصحابى ليس بحجّة، و إنّما الحجّة الخبر إلّا أنّ إثبات الخبر بقول الصحابى من دون تصريح منه أنّه خبر إثبات موهوم، و خبر الواحد الحجّة هو الخبر المصرّح لا الموهوم المقدّر الذى لا يعرف لفظه و مورده، فقوله ليس بنصّ صريح فى سماع

خبر، بل ربّما قاله من دليل ضعيف ظنّه دليلا و أخطأ فيه، و الخطأ جائز عليه، و ربّما يتمسّک الصحابی بدليل ضعيف و ظاهر موهوم و لو قاله عن نصّ قاطع لصرّح به.

السادسة: إنّ جميع ما يذكر لحجّيّة قول الصحابی أخبار آحاد لا تقاوم الحجج القطعية الأخرى.

السابعة: إنّ (جعل) قول الصحابی حجّة كقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و خبره (إثبات) أصل من أصول الأحكام و مداركه، فلا يثبت إلّا بقاطع كسائر الأصول.

الثامنة: حكى عن الشافعی فی الجديد: أنّه لا يقلّد العالم صحابيا كما لا يقلّد عالما آخر. و نقل المزنی عنه ذلک، و أنّ العمل هو على الأدلّة التی بها يجوز للصحابة الفتوى؛ ثمّ قال:

و هو الصحيح المختار عندنا، إذ كلّ ما دلّ على تحريم تقليد العالم للعالم كما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۸

سيأتی فی كتاب الاجتهاد لا يفرّق فيه بين الصحابی و غيره «۱».

و ذكر أنّ ما ورد من الثناء عليهم لا يوجب تقليدهم، لا جوازا و لا وجوبا، و إنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد أثنى أيضا على آحاد الصحابة كأبی بكر و عمر و علیّ و زيد و معاذ بن جبل و ابن أمّ عبد، مع إنّهم لا يتميّزون عن بقية الصحابة بجواز التقليد أو وجوبه.

التاسعة: حكى عن القاضی أنّه لا يرجّح أحد الدليلين المتعارضين بقول الصحابی؛ لأنّه لا ترجيح إلّا بقوّة الدليل، و لا يقوى الدليل بمصير مجتهد إليه «۲»، و استقرب احتمال مصير الصحابی إلى أحد القولين أو أحد الدليلين لمجرّد الظنّ، لا لاختصاصه بمشاهدة.

هذا، فإذا كان مدار الحجّيّة المطلقة- عند الغزّالی و جماعة منهم معروفين- فی قول شخص ما، هو عصمته عن الغلط و السهو و عدم الخطأ، و عدم جواز مخالفته، فكيف يصوّرون حجّيّة قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم المطلقة و لزوم طاعته، و يجوّزون عليه الخطأ و الاجتهاد الظنّی، بل و مخالفة غيره له فی الاجتهاد؟! فی حين ينكر الغزّالی على القائلين بحجّية قول عمر و أبی بكر و بقية الصحابة بتمسّكهم بأخبار آحاد لا تثبت أصلا من أصول الأحكام التی لا بدّ فيها من القطع، تراه يرفع يده عن قطعيات الآيات فی لزوم متابعة النبیّ و عدم الخلاف عليه و عصمته، بأخبار آحاد فی تأبير النخل و المخالفة فی الشفاعة و نحوها، مع إنّ لها وجه من التأويل يتلاءم مع العصمة من الخطأ، فما هذا إلّا تدافع، و أقوال ينقض أوّلها آخرها!

ثمّ أليس كما قال الإمام علیّ بن الحسين زين العابدين عليه السّلام فی صحيفته فی وصفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

...فرضت علينا تعزيره و توقيره و مهابته، و أمرتنا أن لا نرفع الأصوات على صوته، و أن تكون كلّها مخفوضة دون هيبته، فلا يجهر بها عليه عند

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۰۹

مناجاته، و نلقاه عند محاورته، و نكفّ من غرب الألسن لدى مسألته، إعظاما منک لحرمة نبوّته، و إجلالا لقدر رسالته، و تمكينا فی أثناء الصدور لمحبّته، و توكيدا بين حواشی القلوب لمودّته «۱»

و هو يشير إلى المناصب الإلهية للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم التی جعلها اللّه تعالى له، فقد قال تعالى: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى* وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «۲»، و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «۳».

و الغريب و لا تنقضی غرابته أنّهم يجعلون فضيلة لبعض الصحابة بالتقدّم على اللّه و رسوله فی الحكم فی موارد، و يدّعون حالات لنزول آيات أخرى فی تلک الموارد موافقة من الوحی لرأی ذلک الصحابی، و كأنّهم لا يصغون إلى هذه الآية الصريحة، و يتأوّلون تلک الآيات بما يدافع ظهورها.

و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ

وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ «۴» و قال تعالى:

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «۵».

و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ* وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ* فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «۶».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۰

أليست هذه الآية في الموضوعات الخارجيّة و الأمور العامّة في تدبير الحكم، و أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لو يتابع من أسلم معه لوقعوا في المشقّة و الحرج العظيم، و لكنّ اللّه حبّب إليهم طاعة الرسول و متابعته و هو الإيمان، و كرّه إليهم مخالفة الرسول التي هي كفر و فسوق و عصيان، و الرشاد إنّما يصيبه المؤمنون بمتابعة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هذا هو الفضل و النعمة من اللّه، و كلّ هذا عن علم و حكمة منه تعالى.

فمع كلّ ذلك كيف يكون الرشاد في مخالفة النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قد قال تعالى: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا* أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً* وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً* فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً* أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً* وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً* فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «۱»؟!

و في هذه الآيات عدّة أحكام:

الأوّل: لزوم ردّ كلّ شيء يختلف فيه إلى اللّه و إلى الرسول، و أنّ ذلك مقتضى الإيمان باللّه و بالمعاد، فكيف يرجع إلى الظنون مقدّمة على الرجوع و الردّ إلى اللّه و إلى رسوله؟!

الثاني: إنّ الاحتكام في الأمور إلى غير ما أنزل اللّه على رسوله تحاكم إلى الطاغوت و ضلال و نفاق و ظلم للنفس.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۱

الثالث: إنّ غاية رسالة الرسول هو طاعة أمّته له بإذن اللّه، لا خلافهم عليه.

الرابع: إنّ الإيمان مشروط بتحكيم الرسول في ما يختلف فيه، و طاعة الرسول في ما يحكم به، مع عدم التحرّج ممّا حكم به الرسول، و مع التسليم القلبي التامّ لذلك.

و قال تعالى: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «۱». و قال تعالى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۲». و قال تعالى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ «۳». و قال تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «۴».

إلى غير ذلك من آيات اللّه العزيز، فلا و ربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموا النبيّ في ما اختلفوا فيه، و لا يجدوا تحرّجا في نفوسهم من حكمه و قضائه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يسلّموا تسليما لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هم يتذرّعون بموارد من الآيات التي ظاهرها العتاب في الخطاب الإلهي للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقضي بالبيّنات و الأيمان، و هي

قد تخطئ الواقع، أو بأخبار آحاد في تأبير النخل و نحوه في قبال الدليل القطعي، مع إنّ لتلك الآيات الظاهرة في العتاب، في المنسبق من دلالتها بدوا، وجوها من المعنى، ذهلوا عنه!

الأوّل: إن مقتضى قوله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «۵» أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مخاطب بفعل أمّته كما يخاطب الولىّ بفعل المولى عليه، و كما يخاطب المربّى بفعل من هو تحت قيمومته و تربيته، و الرئيس يخاطب بفعل مرؤوسه، و الإمام بفعل مأمومه، إذ إنّ صلاح الرعية من مسؤولية الراعى، و من ثمّ يسند

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۲

فعلهم إلى فعله و إن كان الفعل صادر حقيقة منهم لا منه.

و من هذا القبيل إسناد فعل الحكومة و جهاز الحكم و الدولة إلى الرئيس و يخاطب به، و من هذا الباب قد يسند المعصوم الخطأ لنفسه كما في قول علىّ عليه السّلام في خطبة له بعد تسلّمه مقاليد الأمور و الخلافة بصفّين:

فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أخطئ، و لا آمن ذلك من فعلى، إلّا أن يكفى اللّه من نفسي ما هو أملك به منّي «۱».

و من هذا الباب أكثر ما يخاطب به النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يعاتب في لحن الخطاب، فإنّه بالتتبع في تلك الموارد و التدبّر مليّا يظهر أنّ الفعل الذى كان مورد الخطاب هو من فعل المسلمين خوطب به النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و إلى هذا يشير قول الإمام الصادق عليه السّلام:

إنّ القرآن نزل بإيّاك أعنى و اسمعى يا جارة «۲».

كما هو الحال في أسارى بدر، فإنّ اللازم كان على المسلمين هو الإثخان في القتل ما دامت المعركة محتدمة، و عدم استبقاء المشركين أحياء ما دامت الحرب لم تضع أوزارها، فكان في أخذهم الأسارى أثناء المعركة خلاف الحكم و الإرادة الإلهيّة، و كما هو الحال في مساءلة اللّه تعالى النبىّ عيسى عليه السّلام: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ... وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ «۳».

الثاني: إنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، أى إنّه كلّما قرب الشخص من القدس الإلهى كلّما كان الحساب معه و التوقّع منه أكثر في مجال كمال الأفعال، كما هو الحال في الموالي في العرف البشرى، فإنّ الملك يتوقّع من الوزير مستوى من الاحترام و الأدب

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۳

و الكون رهن الإشارة ما لا يتوقّعه من سائر الرعية، بل إنّ في طبقات الوزراء اختلاف في المكانة و الحظوة لدى الملك، و بالتالى اختلاف في ما يتوقّعه و ينتظره الملك منهم في مجال التقيّد بأقصى مكارم الآداب معه، و من هذا الباب ما يشاهد من خطاب عتاب مع الأنبياء في القرآن، فإنّها ليست أخطاء و معاص في الشرع و حكم العقل، و إنّما هى من باب ترك الأولى في منطق القرب و الزلفى و مقام المحبّين.

الثالث: إنّ خطأ الميزان الظاهر المجعول في باب القضاء، أو في باب الإمارة و تدبير الحكم، و نحوهما ممّا يكون في الموضوعات الخارجيّة، ليس من خطأ المعصوم، كالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فإنّه موظّف في مصالح التشريع بالعمل بهذا الميزان في تلك الموضوعات الجزئية، ممّا يتدارك خطأ الميزان الشرعى الظاهرى بالمصالح الأخرى؛ و أين هذا من الأحكام الكلّيّة و معرفة الشريعة؟!

و إذا فرض جهل النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بها- و العياذ باللّه تعالى- و تحرّيه لها بالاجتهاد الظنّى، فأين الطريق إليها المأمون عن الخطأ؟! و ما هو ميزان الصحّة من الخطأ إذا كان الطريق مسدودا إلى الأبد، إذ لا فاتح لما انسدّ على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أبواب العلم؟! و هذا بخلاف باب الموضوعات الجزئية، فإنّ طريق العلم بها مفتوح وراء ميزان القضاء و الحكم.

الربع: إنّهم خلطوا بين السؤال الممدوح عن الأحكام و معارف الدين كما في قوله تعالى: فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا

فِي الدِّينِ «۱» و قال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «۲»، و بين السؤال المذموم عن الأحكام و الشريعة، قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها «۳» و قال: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ «۴».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۴

فإنّ الفرق بين السؤالين هو الفرق بين الاجتهادين اللذين عند الشيعة و عند أهل السنّة، فإنّ الأوّل مخصوص باستكشاف الحكم الشرعى الثابت واقعا، و تطبيقه على الموارد و الدرجات المختلفة، بموازين منضبطة دقيقة، و الثانى يشمل ذلك و يعمّ إنشاء أحكام جديدة تتميما لما يدّعى من نقص الشريعة! نظير تتميم القوانين الدستورية بالتبصرة القانونية فى القوانين الوضعية.

فالاجتهاد الأوّل هو تمسّك بالعموم المشرّع الوارد، و السؤال الممدوح هذا مورده، و هو فهم ما ورد، و معرفة العمومات و الأدلّة المشرّعة؛ و الاجتهاد الثانى هو الاجتهاد الابتداعى، و السؤال المذموم منطقته هو إنشاء الأحكام الجديدة و ضمّها إلى أحكام الشريعة، أو السؤال و المطالبة بإنشائها؛ و المنطقة الأولى هى كانت سيرة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالتسليم و الاتّباع لربّه، و المنطقة الثانية لم يكن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم يتكلّفها كما فى قوله تعالى:

وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ «۱»، فالمنطقة الثانية و النمط الثانى كان ديدن اليهود، و النمط الأوّل هو ديدن الأنبياء بالوحى القطعى و الرسالة و الملّة الحنيفية الإبراهيمية.

فتخلّص أنّهم فرّطوا فى عصمة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و غالوا فى عدالة الصحابة إلى العصمة و التفويض فى التشريع.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۵

۴ الوجه التاريخى

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۷

ثمّ إنّه بقى وجه آخر أو أخير يتمسّك به القائل بعدالة الصحابة- بالترديد المتقدّم فى معنى العدالة و فى دائرة الصحابة المرادة لذلك القائل- و هو: إنّ الصحابة هم الّذين قاموا بفتوحات الإسلام و نشر الدين فى أرجاء المعمورة، و هذا بعدما عانوا ما عانوا مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الغزوات الأولى.

و هذا الوجه- مع غضّ النظر عن التحليل الآتى فيه، و عن الخوض فى حقيقته- ما هو المقدار اللازم منه فى الحجّيّة المبحوث عنها فى عدالة الصحابة؛ فقد تقدّم أنّ صدور العمل الصالح أو الحسن من شخص- بعد افتراض ذلك- لا يلازم عدالته و استقامته فى كلّ أفعاله الأخرى، فضلا عن عصمته و إمامته فى الدين.

ففى كثير من الغزوات التى قام بها المسلمون فى عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ارتكب من صحبه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيها أعمالا تعدّ فى الشرع من الخطايا الكبيرة المغلّظة عقوبتها، و قد ذكرنا شطرا منها فى ما سلف، و نذكر هنا شطرا آخر منها:

قوله تعالى: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ «۱» و الآية تبيّن أنّ الواجب على المسلمين الإثخان فى قتل المشركين، و عدم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۸

أخذ الأسرى و الحرب قائمة قبل أنّ ينهدّ صفّ المشركين و يستولى عليهم الرعب.

و قد وصفت الآية أنّ العقوبة لولا عفو اللّه تعالى لكانت عذاب، و وصفته بالعظيم، و ظاهر الآية و بمقتضى الإثخان هو: كون الواجب

القتل لا الأسر أثناء قيام الحرب مع المشركين و قبل انتهائها بتقويض معسكرهم، لا ما يقال: إنّ الآية ناظرة إلى حكم الأسرى بعد انتهاء الواقعة، و إنّ الواجب هو قتلهم لا مفاداتهم؛ لأنّه يخالف الآيات اللاحقة: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «۱»، الدالّة على أنّ القتل المطلوب هو أثناء الحرب لا بعد أنّ تضع الحرب أوزارها.

و كلّ هذا فى غزوة «بدر»، و كذلك الحال فى غزوة «حنين»، قال تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ «۲»، و الفرار فى اللقاء من الكبائر التى توعّد اللّه عليها النار، كما فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ* وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ «۳».

و كذلك الحال فى غزوة «أحد» كما أشرنا إليه سابقا فى سورة آل عمران، و قد قتل خالد بن الوليد بنى جذيمة فى فتح مكّة حينما بعثه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم حولها فى سرايا تدعو إلى اللّه تعالى و لم يأمرهم بقتال، و أمره أن يسير بأسفل تهامة داعيا و لم يبعثه مقاتلا، فغدر خالد بهم و قتلهم، فانتهى الخبر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فرفع يديه إلى السماء ثمّ قال: «اللّهمّ إنّى أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرّات؛ ثمّ أرسل رسول

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۱۹

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليّا عليه السّلام فودى لهم الدماء و أرضاهم «۱».

فتبيّن أن لا تلازم بين صدور العمل الصالح- على تقدير ثبوته- و بين استقامة الشخص فى بقيّة أعماله، فضلا عن عصمته و إمامته فى الدين.

أمّا الخوض فى الفتوحات بشكل إجمالى فالنظرة المقابلة تقيّم الفتوحات التى حصلت بأنّها كانت بمثابة سدودا أمام انتشار الدين فى كلّ أرجاء المعمورة، فإنّ هذا الدين الحنيف لا يصمد أمام بريق نوره الأقوام البشريّة إلّا و تنجذب إليه، و هذا هو عمدة نهج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى دعوته إلى الإسلام.

قال تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ* وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً «۲»، فالدخول الفوجى الأفواجى للناس كان بحكم الانجذاب إلى عظمة الدين، و المثالية التى يتّصف بها صاحب الدعوة، و الكيان الداخلى الذى بناه، إلّا إنّ مجموع الممارسات فى أحداث الفتوحات كبّلت الدين، و ألبست الإسلام أثوابا قاتمة، و ولّدت انطباعا لدى بقيّة الأمم و الملل أنّ الدين الحنيف هذا هو دين السيف و الدم، و لغته لغة القوّة بالدرجة الأولى و فى القاعدة الأصلية له، لا أنّه دين الفطرة العقلية، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ «۳».

و من ثمّ أخذت بعض الكتابات فى العالم العربى الإسلامى منذ نصف قرن فى التنكّر لقانون الجهاد الابتدائى فى الإسلام، باعتبار أنّه يعنى لغة القوّة و العنف و العسكر، و رفضا للغة الدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، التى هى من الثوابت الأوّلية لطريقة الدعوة إلى الإسلام، و ربّما تمسّكوا بسيرة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى جميع غزواته؛ إذ إنّها لم تكن مبتدأة منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل من مناوشات الكفّار أوّلا للمسلمين، و بذيل بعض الآيات من قبيل قوله تعالى: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۰

الْمُعْتَدِينَ «۱». و قوله تعالى: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «۲». و نحوها من الآيات التى ظاهرها يوهم بأنّ القتال مخصوص بالمدافعة، و قد تسرّب مثل هذا

النظر إلی بعض الأوساط الفقهیّة.

و الـذی أوقعهم فی مثل هـذا الوهم المخالف للمسلّمات الفقهیّة فی الدین، هو ما جری من الأحداث و الممارسات فی الفتوحات عبر تاریـخ المسـلمین، فإنّه قـد وقع الخلط لـدیهم بین الجهاد الابتـدائی و بین العـدوان المبتدأ، و حصـر الدفاع فی الجهاد الدفاعی، مع إنّ الجهاد الابتـدائی لیس بمعنی الابتـداء بالعـدوان، بل إنّ الغطاء الحقوقی للجهاد الابتـدائی هو الدفاع الحقوقی، و إن کان ابتداء الحرب من المسـلمین بمعنی الضـغط علی الکفّار تحت تأثیر القوّة، لکن لیس هو ابتـداء عـدوان، بل ابتـداء الضـغط بالقوّة لردّ العـدوان الـذی مارسه الکفّار تجاه المسلمین فی ما سبق، فالابتداء فی استخدام القوّة أمر، و الابتداء فی العدوان أمر آخر.

و أمّا التمسّک بسیرة النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم، فلقد خلط أصحاب هذه المقولة بین الجهاد الابتدائی فی مصطلح الفقهاء و بین العدوان الابتدائی الحقوقی، فالثانی لم یکن فی سیرته صـلّی اللّه علیه و آله و سلم، أمّا الأوّل؛ فغزوة «بدر» أعظم الغزوات کانت ابتداء فی اسـتخدام القوّة منه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم ردّا علی مصـادرة أموال المسـلمین فی مکّـة التی قـام بهـا کفّار قریش، و ردّا علی الغـارات المباغتـة التی کان یقوم بها أفراد منهم علی أطراف المدینـة، و نحو ذلک، لکنّ ذلک لا یسـتوجب تصـنیف غزوة «بـدر» فی الجهاد الـدفاعی و إخراجه عن الابتـدائی بالمصـطلح الفقهی؛ إذ لکلّ شـرائط تختلف عن الآخر، و کـذا غزوة «خیبر» و غزوة «حنین» و غزوة «تبوک» و غیرها من الغزوات الکبری أو الوسطی و الصغیرة، و قوله تعالی فی سورة الأنفال

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۱۲۱

صریـح فی ذلـک: کَمـا أَخْرَجَـکَ رَبُّکَ مِنْ بَیْتِـکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ لَکارِهُونَ* یُجادِلُونَکَ فِی الْحَقِّ بَعْـدَ ما تَبَیَّنَ کَأَنَّما یُساقُونَ إِلَی الْمَوْتِ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ* وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذاتِ الشَّوْکَةِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُحِـقَّ الْحَقَّ بِکَلِمـاتِهِ وَ یَقْطَعَ دابِرَ الْکـافِرِینَ* لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَ یُبْطِـلَ الْباطِـلَ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «۱»؛ فـإنّ خروج قریش للحرب کان بعد انتـداب أبی سـفیان لحمایة قافلة التجارة التی کان فیها عندما سـمع بخروج المسـلمین للاستیلاء علیها ابتداء انتقاما لما فعل المشـرکون بهم.

و قوله تعـالی: فَلْیُقاتِـلْ فِی سَبِیـلِ اللَّهِ الَّذِینَ یَشْـرُونَ الْحَیـاةَ الـدُّنْیا بِالْـآخِرَةِ وَ مَنْ یُقاتِـلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَیُقْتَلْ أَوْ یَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیمـاً* وَ مـا لَکُمْ لا تُقـاتِلُونَ فِی سَبِیـلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْـعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْـدانِ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هـذِهِ الْقَرْیَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهـا وَ اجْعَـلْ لَنـا مِنْ لَـدُنْکَ وَلِیًّا وَ اجْعَـلْ لَنا مِنْ لَـدُنْکَ نَصِـیراً «۲». فـإنّ هـذه الآیات تفیـد الغطاء الحقوقی الـدفاعی للجهاد الابتدائی.

و کذا قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ما لَکُمْ إِذا قِیلَ لَکُمُ انْفِرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَی الْأَرْضِ أَ رَضِـیتُمْ بِالْحَیاةِ الدُّنْیا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِیلٌ* إِلَّا تَنْفِرُوا یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ یَسْـتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لا تَضُـرُّوهُ شَـیْئاً وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ «۳». و انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا وَ جاهِـدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِـکُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «۴». و قاتِلُوا الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لا یُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حَتَّی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ «۵».

و تمام الکلام فی أدلّة الجهاد الابتدائی موکول إلی الکتب الفقهیة، إلّا أنّ الغرض

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۱۲۲

فی المقام الإشارة إلی أنّ الخلط الذی حصل کان بسـبب عدم التمییز بین الجهاد الابتدائی علی مستوی التنظیر و سـیرة النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سـلم و الفلسـفة الحقوقیـة التی تنطلق منها مشـروعیّته، و بین ما حصل من ممارسـة فی فتوحات البلدان، فإنّ الانطباع الذی أورثته تلک الممارسات فی أذهان الأمم الأخری عاد عقبة کؤودا أمام انتشار الدین الإسلامی فی أرجاء المعمورة.

فالـدین الإسـلامی- بنـاء علی هـذا الانطبـاع- غطاء یحرز من وراءه جمع الثروات، و اسـتعباد البشـر فی صورة الرقیق، و لقضاء النزوات

بعنوان ملك الإماء، فيهلك الحرث فى البلدان، و يبيد النسل البشرى فيها، و تحت ركام هذه الصورة حاولت تلك المجموعة من المثقّفين و الكتّاب فى الدول الإسلاميّة القيام بعملية الغسيل، و تمييز الوجه الناصع للدين الحنيف عن تلك الممارسات، لكنّها خلطت بين حقيقة الجهاد الابتدائى و فلسفته الحقوقية التى ينطلق منها، و بين ما حصل من ممارسات باسم الجهاد الابتدائى فى الفتوحات التى جرت، و نفتح أمام القارئ ملفّه كى يتبيّن له حقيقة الحال.

أغراض تشريع الجهاد الإبتدائى ... ص: ۱۲۲

إنّ أغراض هذا التشريع للجهاد الابتدائى كما تدلّ عليه مجموع الآيات القرآنية المتعرّضة للجهاد الابتدائى- و التى تقدّمت الإشارة إلى بعضها- فى الدين الحنيف، كما فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَتَبَیَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاةِ الدُّنْیا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ کَثِیرَةٌ کَذلِکَ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَیْکُمْ فَتَبَیَّنُوا إِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً «۱».

فإنّ هذه الآية تحدّد معلما مهمّا من معالم الجهاد، و إنّ الغرض فيه ليس جمع الغنائم و الأموال و الاسترقاق، بل قيادة الجموع البشرية و هدايتها إلى طريق اللّه و عبادته.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۳

و كذا قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یُشْهِدُ اللَّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ* وَ إِذا تَوَلَّی سَعی فِی الْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الْفَسادَ* وَ إِذا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ «۱».

و هذه ملحمة قرآنية عمّن هو فى الصفوف مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو عسل اللسان و الكلام، و لكنّ قلبه مخالف تماما لما يظهره على لسانه، و هو شديد العداوة للّه و لرسوله، و الآية تخبر أنّه إذا تولّى الأمور فسوف يكون سعيه فى ولايته فسادا فى الأرض و إهلاكا للحرث و النسل البشرى، و الحال إنّ اللّه تعالى لا يحبّ الفساد فى التكوين، و إنّ خاصية هذا المتولّى التعصّب لفعله أمام نصيحة الآخرين له، كما إنّ هذه الآية تحدّد أغراض الدين- بما فيه الجهاد الابتدائى- بأنّه ليس للإفساد فى الأرض و إهلاك الموارد الطبيعية أو الإنجازات المدنية التى حقّقها البشر، و لا الهدف تبديد النسل.

و كذا قوله تعالى: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْکَمَةٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلی لَهُمْ* طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ* فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَکُمْ* أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمی أَبْصارَهُمْ* أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها* إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّوا عَلی أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی الشَّیْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلی لَهُمْ* ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِینَ کَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ* فَکَیْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِکَةُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ* ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ کَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ* أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ یُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ* وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَیْناکَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ أَعْمالَکُمْ «۲».

فهذه الآيات ترسم ملحمة مستقبلية لجماعة الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، و هذه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۴

الجماعة قد أشار إليها القرآن الكريم فى سورة المدّثّر، رابع سورة نزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى أوائل البعثة الشريفة فى مكّة المكرّمة، و أعلن وجودها فى صفوف الثلّة الأولى التى أسلمت، قال تعالى: عَلَیْها تِسْعَةَ عَشَرَ* وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِکَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا لِیَسْتَیْقِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ یَزْدادَ الَّذِینَ آمَنُوا إِیماناً وَ لا یَرْتابَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ «١».

فإنّ الآيات تبيّن أنّ المخاطب بعدّة الملائكة الموكّلين بالنار على أربعة أقسام:

الأوّل: «الَّذِينَ آمَنُوا»، و الثانى: «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ»، و الثالث: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، و الرابع: «الْكافِرُونَ»، و تخبر أنّ الذى سيحصل له الإيمان هما القسمان الأوّلان، أمّا القسمان الآخران فسيحصل لديهما الارتياب. و من الواضح أنّ المرض الذى فى القلب نحو من النفاق الخفيّ جدّا، أى الذى لا يظهر على صاحبه، بل يبطنه فى قلبه و خفاء أعماله، و قد ذكرنا أنّ الآيات القرآنية تتابع هذه الفئة و الجماعة فى كثير من السور، تحت هذا العنوان و بهذا الاسم إلى آخر حياة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و نزول القرآن.

و الآيات هنا من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم تبيّن أنّ غرض هذه الفئة هو تولّى الأمور و الأخذ بزمامها، و أنّ ذلك الغرض هو وراء انضمامها إلى صفوف المسلمين الأوائل؛ إذ إنّ خبر ظفر النبيّ المبعوث صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان منتشرا قبل البعثة، كما يشير إليه قوله تعالى:

وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «٢».

فقد أشارت الآية إلى أنّ أهل الكتاب كانوا يستفتحون و ينتظرون و يطلبون الفتح و النصر و الظفر بالنبيّ- الذى سيبعث خاتما- على الكافرين من مشركى الجزيرة العربية

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ١٢٥

، فلمّا عرفوا ذلك و أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد بعث كفروا برسالته؛ فالسورة تبيّن أنّ غرض هذه الفئة الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هو تسلّم مقاليد الأمور، و أنّها كانت على اتّصال فى الخفاء و ارتباط مع فئات معادية علنا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا، ... و كذلك بقية السور المتعرّضة لهذه الفئة بهذا الاسم تشير إلى هذه العلاقات بين هذه الفئة و بين بقية الفئات الأخرى.

ثمّ إنّ السورة تبيّن أنّ طابع سياسة الدولة التى يقيمها أفراد هذه الفئة هو الإفساد فى الأرض، و قطع الصلة بمن أمر تعالى بوصلهم و مودّتهم، كالذى تشير إليه آية ٢٠٥ من سورة البقرة: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ؛ فهذه الآيات تحدّد أنّ أغراض الشريعة- فى أحكامها و قوانينها السياسية، و أبواب فقه النظام و السياسة الشاملة للجهاد الابتدائى- ليس الإفساد فى الأرض، و إهلاك الحرث، و تبديد النسل البشرى، فإنّ اللّه يحبّ صلاح الأرض و أهلها، فهذا هو سبيل اللّه تعالى الذى أمرت الآيات القرآنية العديدة بالقتال فيه، و فى سبيل المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان؛ لأجل إزالة استضعافهم و إرجاع حقوقهم المغتصبة.

و نلخّص ما تقدّم فى هذا الموضوع بجملة مختصرة، و هى: إنّ البحث عن «عدالة الصحابة» لا بدّ من التعمّق فيه، و رفع الإجمال يكتنفه، هل المراد به: كلّ الصحابة، أم بعضهم؟! و من هم أولئك البعض؟! هل هم تكتّل بيعة السقيفة و رموزها، أم يشمل سعد بن عبادة و الأنصار و البيت الهاشمى و عليا عليه السّلام و سلمان و أباذر و المقداد و عمّارا، و غيرهم ممّن كان فى تكتّل على عليه السّلام؟! فهل الدائرة هى بحسب ما يذكر فى تعريف الصحابى، أم أضيق؟!

ثمّ ما المراد بالعدالة؟! هل هى بمعنى الإمامة فى الدين؟! و ما المراد بحجيّة قول و عمل الصحابى؟! هل هى بمعنى العصمة؟!

أم بمعنى حجّية الفتوى كمجتهدين، مثل بقية المجتهدين، بحدود اعتبار الاجتهاد و ضوابط موازينه الشرعية؟!

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ١٢۶

و على هذا، فلم لا يحتمل القائل خطأ أصحاب السقيفة فى بيعتهم، و خطأ اجتهادهم مع وجود النصّين القرآنى و النبوى على إمامة علىّ عليه السّلام؟! و لم يدّعى القائل امتناع احتمال ذلك؟! و كيف يبيّن الملازمة بين فضيلة الشيخين، و بين امتناع خطأ اجتهادهما،

بعد فرض تسليمه بعدم عصمتهما؟! و إذا كانت المسألة اجتهاديّة فلم لا يسوّغ الاجتهاد المخالف؟!

أم هى بمعنى حجّية روايتهم كرواة ثقات، بحدود حجّيّة قول الراوى فى الخبر؟! ثمّ ما هو الغرض المترتّب على سدّ الحديث و الكلام عمّا وقع منهم و بينهم؟! و كيف يتلاءم ذلك مع دعوى الاقتداء بهم، إذا لم تعرف سيرتهم و أعمالهم؟!

و نذيّل المقال ببعض الأحاديث التى ذكرها أصحاب الصحاح:

۱. روى البخارى فى صحيحه، عن أبى وائل، عن حذيفة بن اليمان، قال: «إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كانوا يومئذ يسرّون و اليوم يجهرون» «۱».

و هو مثار سؤال واجه كثيرا من الباحثين فى التاريخ الإسلامى؛ إذ أنّ القرآن الكريم فى سوره المباركة أشار إلى مشكلة كبيرة و خطيرة كانت قائمة تواجه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المسلمين، و هى أصناف و طوائف المنافقين، و قد أشرنا فى ما سبق إلى بعض تلك السور الكريمة، و لا يفتأ القرآن يتابعهم فى كلّ خطواتهم، التى كانت خطيرة على أوضاع المسلمين حتّى آخر حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و لكن فجأة لا يرى الباحث فى التاريخ وجودا لهذه المشكلة بعد وفاة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم! فهل إنّ أفراد طوائف و مجموعات النفاق قد تابوا و آمنوا بعد وفاة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! أم إنّ الوضع- كما يصفه حذيفة بن اليمان، الخبير بمعرفة المنافقين، كما فى روايات الفريقين، و الذى شهد مؤامرة العقبة التى دبّرت فى غزوة «تبوك» لاغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم- عاد مؤاتيا لتحرّكهم و فسح المجال لهم بالجهر بمقاصدهم التى يحيكونها

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۷

ضدّ الإسلام؟!

۲. و روى أيضا، عن أبى الشعثاء، عن حذيفة، قال: «إنّما كان النفاق على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فأمّا اليوم فإنّما هو الكفر بعد الإيمان» «۱».

۳. و روى مسلم فى صحيحه، عن قيس، قال: «قلت لعمّار: أرأيتم صنيعكم هذا الذى صنعتم فى أمر علىّ، أرأيا رأيتموه، أو شيئا عهده إليكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟!، فقال: ما عهد إلينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافّة، و لكنّ حذيفة أخبرنى، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: فى أصحابى اثنا عشر منافقا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل فى سمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة؛ و أربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم. و الذيل من قول الراوى عن شعبة، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن قيس» «۲».

و روى مثله بطريق آخر «۳».

و ما قاله عمّار بيّن؛ لأنّ تنصيب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لعلىّ عليه السّلام يوم الغدير كان على ملأ الناس الراجعين من حجّة الوداع، و غيرها من المواطن الأخرى، و إنّما أراد عمّار بيان أنّ مناوئى علىّ عليه السّلام و خصومه كان حذيفة قد عدّهم من الاثنى عشر منافقا الّذين يمتنع دخولهم الجنّة.

۴. و روى بعد الحديثين السابقين، عن أبى الطفيل، قال: «كان بين رجل من أهل العقبة و بين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك باللّه، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك! قال: كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، و أشهد باللّه أنّ اثنى عشر منهم حرب للّه و لرسوله فى الحياة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۸

الدنيا و يوم يقوم الأشهاد «۱» ...» الحديث.

۵. و روى مسلم، عن ابن عمر: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قام عند باب حفصة، فقال بيده نحو المشرق: «الفتنة هاهنا،

من حيث يطلع قرن الشيطان» قالها مرّتين أو ثلاثا «۲».

و قال عبيد اللّه بن سعيد فى روايته: قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عند باب عائشة «۳». و روى عن ابن عمر، قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من بيت عائشة فقال: «رأس الكفر من هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» يعنى المشرق. و الذيل من تفسير الراوى «۴».

۶. و روى أيضا، عن أبى سعيد الخدرى، قال: أخبرنى من هو خير منّى، إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال لعمّار حين جعل يحفر الخندق و جعل يمسح رأسه و يقول: «بؤس ابن سميّة، تقتلك فئة باغية» و فى طريق: «ويس أو: يا ويس ابن سميّة» «۵». قال النووى فى شرح الحديث: «قال العلماء: هذا الحديث حجّة ظاهرة فى أنّ عليّا رضى اللّه عنه كان محقّا مصيبا، و الطائفة الأخرى بغاة، لكنّهم مجتهدون فلا إثم عليهم لذلك، كما قدّمناه فى مواضع، منها هذا الباب، و فيه معجزة ظاهرة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من أوجه، منها: إنّ عمّارا يموت قتيلا، و إنّه يقتله مسلمون، و إنّهم بغاة، و إنّ الصحابة يقاتلون، و إنّهم يكونون فرقتين: باغية و غيرها، و كلّ هذا وقع مثل فلق الصبح، صلّى اللّه و سلّم على رسوله الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحى يوحى «۶». و روى بطرق أربعة أخرى ما يقرب من ألفاظ هذا الحديث من أنّ عمّارا تقتله الفئة الباغية» «۷».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۲۹

هذا، و إذا كان النووى يجوّز خطأ اجتهاد معاوية لوجود النصّ على حقّ و صواب علىّ عليه السّلام، فلم لا يجوّز النووى و أهل الجماعة خطأ اجتهاد الشيخين مع وجود النصّ على علىّ عليه السّلام؟! فإذا كان الاجتهاد ممكن مع وجود النصّ، و يمكن تأوّل المجتهد للنصّ، فلم لا يمكن خطأ المجتهد فى تأوّله؟! و لم يمتنع خطأ اجتهاد أصحاب السقيفة فى تأوّلهم للنصّ على علىّ عليه السّلام؟! و لم لا يسوّغ أهل الجماعة لأنفسهم الاجتهاد فى صحّة أو خطأ بيعة السقيفة، و يفتحوا باب الاجتهاد فى ذلك ما دامت أنّ المسألة اجتهادية؟! فكيف يدّعون فيها الضرورة أو التسالم و يغلقون باب الاجتهاد و الفحص و التحرّى عن الحقيقة؟!

۷. و روى أيضا، عن أبى إدريس الخولانى: «كان يقول حذيفة بن اليمان: و اللّه إنّى لأعلم الناس بكلّ فتنة هى كائنة فى ما بينى و بين الساعة و ما بى إلّا أن يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أسرّ إلىّ فى ذلك شيئا لم يحدّثه غيرى، و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال و هو يحدّث مجلسا أنا فيه عن الفتن «۱». الحديث». و روى أيضا، عن عبد اللّه بن يزيد، عن حذيفة، أنّه قال: «أخبرنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فما منه شىء إلّا و قد سألته، إلّا أنّى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة» «۲».

۸. و رووا فى الصحاح، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، أنّه قال: «بينا أنا قائم- يعنى يوم القيامة على الحوض- إذا زمرة، حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى و بينهم فقال: هلمّ. فقلت:

أين؟!؛ فقال: إلى النار و اللّه؛ قلت: و ما شأنهم؟!؛ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى- إلى أن قال: - فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم» «۳». الحديث.

و هو يطابق قوله تعالى: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۰

انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «۱».

و مفاد الآية ملحمة قرآنية عمّا بعد حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

ثمّ إنّ القائلين بعدالة الصحابة ما داموا لا يرون فى تفسير فضيلة الشيخين معنى العصمة، فلم يدّعون الملازمة بين اجتهادهما فى أمر الخلافة و بين الصواب، و أنّ تخطئتهما فى ما اجتهدا فيه مخالفة لضرورة الدين أو للمتسالم عندهم؟!، أليست دعوى ضرورة صوابهما هى تثبيت عصمتهما؟!، أو ليس امتناع الخطأ منهما ينافى القول بأنّ ما أتيا به هو اجتهاد منهما؟! كما إنّه ما هو المحصّل من وراء

الفضيلة لهما؟!، هل بمعنى امتناع خطئهما، و أنّ ما أتيا به لا يمكن أن يخطئ الواقع؛ فبتوسّط تلك الفضيلة لم يكن ما يريانه اجتهاد، و إنّما هو عين اللوح المحفوظ؟!! كلّ هذه الجهات يراها الناظر مدمجة عند القائلين بالمقالة المزبورة!

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۱

۵ موقف الصديقة فاطمة عليها السّلام تجاه الصحابة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۳

فقد روى عن المفضّل بن عمر، قال:

قال مولاى جعفر الصادق عليه السّلام: لمّا ولّى أبو بكر بن أبى قحافة ... ثمّ سرد عليه السّلام منعه فاطمة و علىّ و أهل بيته الخمس و الفيء و فدكا، و مجيء فاطمة لمحاجّة أبى بكر بقوله تعالى: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ «۱» و أنّها و ولدها أقرب الخلائق إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و بقوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ «۲» و قوله تعالى: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ «۳» و أنّ ما للّه فهو لرسوله، و ما لرسوله فهو لذى القربى، و أنّها و علىّ و ولدهما ذوو القربى الّذين قال اللّه تعالى فيهم: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى «۴»

فنظر أبو بكر بن أبى قحافة إلى عمر بن الخطّاب و قال: ما تقول؟؛ فقال عمر:

و من اليتامى و المساكين و أبناء السبيل؟!؛ قالت فاطمة عليها السّلام: اليتامى الّذين

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۴

يأتمّون باللّه و برسوله و بذى القربى، و المساكين الّذين أسكنوا معهم فى الدنيا و الآخرة، و ابن السبيل الذى يسلك مسلكهم. قال عمر: فإذا الخمس و الفيء كلّه لكم و لمواليكم و أشياعكم؟!

فقالت فاطمة عليها السّلام: أمّا فدك فأوجبها اللّه لى و لولدى دون موالينا و شيعتنا، و أمّا الخمس فقسّمه اللّه لنا و لموالينا و أشياعنا كما يقرأ فى كتاب اللّه. قال عمر: فما لسائر المهاجرين و الأنصار و التابعين بإحسان؟! قالت فاطمة: إن كانوا موالينا و من أشياعنا فلهم الصدقات التى قسّمها اللّه و أوجبها فى كتابه فقال اللّه عزّ و جلّ: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ «۱ ...» إلى آخر القصّة. قال عمر: فدك لك خاصّة و الفيء لكم و لأوليائكم؟! ما أحسب أصحاب محمّد يرضون بهذا!! قالت فاطمة: فإنّ اللّه عزّ و جلّ رضى بذلك، و رسوله رضى به، و قسّم على الموالاة و المتابعة لا على المعاداة و المخالفة، و من عادانا فقد عادى اللّه، و من خالفنا فقد خالف اللّه، و من خالف اللّه فقد استوجب من اللّه العذاب الأليم و العقاب الشديد فى الدنيا و الآخرة. فقال عمر: هاتى بيّنة يا بنت محمّد على ما تدّعين؟!؛ فقالت فاطمة عليها السّلام: قد صدّقتم جابر بن عبد اللّه و جرير بن عبد اللّه و لم تسألوهما البيّنة! و بيّنتى فى كتاب اللّه. فقال عمر: إنّ جابرا و جريرا ذكرا أمرا هيّنا، و أنت تدّعين أمرا عظيما يقع به الردّة من المهاجرين و الأنصار! فقالت ۳: إنّ المهاجرين برسول اللّه و أهل بيت رسول اللّه هاجروا إلى دينه، و الأنصار بالإيمان باللّه و رسوله و بذى القربى أحسنوا، فلا هجرة إلّا إلينا، و لا نصرة إلّا لنا، و لا اتّباع بإحسان إلّا بنا، و من ارتدّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۵

عنّا فإلى الجاهلية «۱»

فها هى بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم تمحّص عن الضابطة القرآنية فى حسن الصحبة و سوئها، و هى على الموالاة و المتابعة لرسول اللّه و أهل بيته لا المعاداة لهم و المخالفة، و أنّ الهجرة تحقّقت بهم، و النصرة بنصرة اللّه و رسوله و ذى القربى، فلا هجرة إلّا إليهم لا إلى غيرهم، و لا نصرة إلّا لهم لا عليهم، و لا اتّباع بإحسان إلّا باتّباع سبيلهم و صراطهم.

إهدنا الصراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا ـ الضالّين، سبيل و صراط المطهّرين من المعصية و الذنوب، و من الضلالة و الجهل و العمى.

و دلّت على ذلك بأن قرن تعالى بين رسوله و بين ذى القربى فى مواطن، كما فى اختصاص الخمس و الفىء- الذى وصفه عمر بأنّه أمرا عظيما- باللّه و رسوله و ذى القربى، لمكان اللام، دون اليتامى و المساكين و ابن السبيل، و التفرقة للدلالة على أنّ ملكية التصرّف هى شأنه تعالى و رسوله و ذى القربى، و أنّ مودّة ذوى القربى المفترضة فى الكتاب كأجر لكلّ الرسالة هو موالاتهم و مجانبة عدائهم و مخالفتهم، فمدار حسن الصحبة على ذلك و سوئها على خلافه.

و لقد أنصف أحمد بن حنبل؛ إذ يروى عنه الفقيه الحنبلى ابن قدامة عند قوله:

و أمّا حمل أبى بكر و عمر (رض) على سهم ذى القربى فى سبيل اللّه، فقد ذكر لأحمد فسكت و حرّك رأسه و لم يذهب إليه، و رأى أنّ قول ابن عبّاس و من وافقه أولى؛ لموافقته كتاب اللّه و سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه [و آله] و سلّم، فإنّ ابن عباس لمّا سئل عن سهم ذى القربى فقال: إنّا كنّا نزعم أنّه لنا فأبى ذلك علينا قومنا؛ و لعلّه أراد بقوله (أبى ذلك علينا قومنا) فعل إبى بكر و عمر (رض) فى حملهما عليه فى سبيل اللّه و من تبعهما على ذلك، و متى اختلف الصحابة و كان قول بعضهم يوافق الكتاب و السنّة كان أولى، و قول

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۶

ابن عبّاس موافق للكتاب و السنّة «۱».

و روى البخارى بسنده عن عائشة، فى كتاب المغازى باب ۳۸ باب غزوة خيبر:

إنّ فاطمة عليها السّلام بنت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ممّا أفاء اللّه عليه بالمدينة و فدك و ما بقى من خمس خيبر.

فقال أبو بكر: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: إنّا لا نورّث ما تركناه صدقة، إنّما يأكل آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم من هذا المال، و إنّى و اللّه لا أغيّر من صدقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن حالها التى كانت عليه فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لأعملن فيها بما عمل فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا، فوجدت فاطمة فهجرته، فلم تكلّمه حتّى توفّيت، و عاشت بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ستّة أشهر، فلمّا توفّيت دفنها زوجها علىّ ليلا، و لم يؤذن بها أبو بكر، و صلّى عليها «۲».

و رواه مسلم فى صحيحه بنفس ألفاظه، و أحمد فى مسنده «۳».

و فى هذا الرواية التى هى من طرقهم «۴»، و نظيراتها ممّا رووها، فضلا عن طرقنا، ما يدلّ على إنّها عليها السّلام كانت ساخطة على أبى بكر و عمر، منكرة لخلافتهم و إمامتهم إلى أن توفّيت عليها السّلام، مع إنّ من مات و لم يبايع أو لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية و كفر و ضلال، ممّا يدلّ على نفى إمامتهم و خلافتهم، لكونها مطهّرة فى القرآن من كلّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۷

رجس، و هى سيّدة نساء العالمين، و أنّ اللّه يرضى لرضاها و يغضب لغضبها.

و الغريب فى دعوى أبى بكر بكون الخمس و الفىء الخاصّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ذى القربى صدقة، فإنّ الناظر على الصدقة الجارية أيضا هو الوارث لا الأجنبى، فإنّ ولاية النظارة على الصدقات الجارية أيضا هى من نصيب الوارث، فكيف يمنعها عن الوارث؟!! و فى موضع آخر «۱» قالت عليها السّلام فى معرض خطبتها المعروفة تجاه المهاجرين:

قالت- بعد الثناء على اللّه تعالى بأبلغ ثناء، و ذكر نعمة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم على هدايته للأمّة، و كثرة و شدّة بلاء ابن عمّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم علىّ بن أبى طالب فى إرساء الدين-:

و أنتم فى بلهنية من العيش- أى سعة- و ادعون آمنون، حتّى إذا اختار اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم دار أنبيائه ظهرت حسيكة النفاق، و سمل جلباب الدين، و نطق كاظم الغاوين، و نبع خامل الآفلين، و هدر فنيق المبطلين، فخطر فى عرصاتكم، و أطلع الشيطان رأسه من مغرزه صارخا بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، و للغرّة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافا، و أحمشكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير إبلكم، و أوردتموها غير شربكم.

هذا، و العهد قريب، و الكلم رحيب، و الجرح لمّا يندمل، بدارا زعمتم خوف الفتنة أَلا فِی الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ «۲»، فهيهات منكم! و أنّى بكم؟! و أنّى تؤفكون؟! و هذا كتاب اللّه بين أظهركم، و زواجره بيّنة، و شواهده لائحة، و أوامره واضحة، أرغبة عنه تدبرون؟! أم بغيره تحكمون؟! بِئْسَ لِلظَّالِمِینَ بَدَلًا «۳ ...» وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلامِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۸

مِنْهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِینَ «۱»

ثمّ لم تريثوا إلّا ريث أن تسكن نغرتها، تشربون حسوا، و تسرون فى ارتغاء، و نصبر منكم على مثل حزّ المدى، و أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا.

أ فَحُکْمَ الْجاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ «۲»؟!

ويها معشر المهاجرين! أأبتزّ إرث أبى؟! أفى كتاب اللّه أن ترث أباك و لا أرث أبى؟! لقد جئت شيئا فريّا. فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم اللّه، و الزعيم محمّد و الموعد القيامة، و عند الساعة يخسر المبطلون و لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ «۳».

ثمّ انحرفت إلى قبر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هى تقول:

قد كان بعدك أنباء و هنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض و ابلها و اختلّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا

تجهمتنا رجال و استخفّ بنا بعد النبىّ و كلّ الخير مغتصب

سيعلم المتولى ظلم حامتنا يوم القيامة أن سوف ينقلب

فقد لقينا الذى لم يلقه أحد من البرية لا عجم و لا عرب.

و قالت عليها السّلام «۴» تجاه الأنصار:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۳۹

معشر البقية، و أعضاد الملّة، و حصون الإسلام! ما هذه الغميزة فى حقّى، و السنة عن ظلامتى؟! أما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: المرء يحفظ فى ولده؟! سرعان ما أجدبتم فأكديتم، و عجلان ذا إهانة، تقولون: مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم! فخطب جليل استوسع وهيه، و استنهر فتقه، و بعد وقته، و أظلمت الأرض لغيبته، و اكتأبت خيرة اللّه لمصيبته، و خشعت الجبال، و أكدت الآمال، و أضيع الحريم، و أزيلت الحرمة عند مماته صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و تلك نازلة علن بها كتاب اللّه فى أفنيتكم، فى ممساكم و مصبحكم، يهتف بها فى أسماعكم، و قبله حلّت بأنبياء اللّه عزّ و جلّ و رسله: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللَّهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ «۱»

إيها بنى قيلة! أأهضم تراث أبيه و أنتم بمرأى منه و مسمع؟! تلبسكم الدعوة، و تشملكم الحيرة، و فيكم العدد و العدّة، و لكم الدار، و عندكم الجنن، و أنتم الألى نخبة اللّه التى انتخب لدينه، و أنصار رسوله و أهل الإسلام و الخيرة التى اختار لنا أهل البيت، فباديتم العرب، و ناهضتم الأمم، و كافحتم البهم، لا نبرح نأمركم و تأتمرون، حتّى دارت لكم بنا رحا الإسلام، و درّ حلب الأنام، و خضعت

نعرة الشرك و باخت نيران الحرب، و هدأت دعوة الهرج، و استوسق نظام الدين، فأنّى حرتم بعد البيان، و نكصتم بعد الإقدام، و أسررتم بعد الإعلان، لقوم نكثوا أيمانهم و همّوا بإخراج الرسول و هم بدؤوكم أوّل مرة. أ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «۲»؟!

ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، و أبعدتم من هو أحقّ بالبسط و القبض، و ركنتم إلى الدعة فعجتم عن الدين، و مججتم الذى وعيتم، و دسعتم الذى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۰

سوّغتم ف إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ «۱».

ألا و قد قلت الذى قلته على معرفة منّى بالخذلان الذى خامر صدوركم، و استشعرته قلوبكم، و لكن قلته فيضة النفس، و نفثة الغيظ، و بثّة الصدر، و معذرة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها، مدبرة الظهر، ناكبة الخفّ، باقية العار، موسومة بشنار الأبد، موصولة ب نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ «۲»، فبعين اللّه ما تفعلون. وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «۳»، و أنا ابنة نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ «۴» ف اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ* وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ «۵».

ثمّ إنّها عليها السّلام تشير فى استنهاضها الأنصار إلى بيعتهم، بيعة العقبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، حين عاهدوه على أن يمنعوه و ذرّيّته ممّا يمنعون منه أنفسهم و ذراريهم، و كانت تقول عندما دار بها علىّ عليه السّلام على أتان و الحسنين عليهما السّلام معها على بيوت المهاجرين و الأنصار:

يا معشر المهاجرين و الأنصار! انصروا اللّه فإنّى ابنة نبيّكم و قد بايعتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يوم بايعتموه أن تمنعوه و ذرّيّته ممّا تمنعون منه أنفسكم و ذراريكم، ففوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببيعتكم «۶».

و قالت عليها السّلام عندما اجتمع عندها نساء المهاجرين و الأنصار فقلن لها: يا بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم! كيف أصبحت عن علّتك؟ فقالت عليها السّلام:

أصبحت و اللّه عائفة لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۱

و شنئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحا لفلول الحدّ، و خور القناة، و خطل الرأى، و لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ «۱»، لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها، و شنت عليهم عارها، فجدعا و عقرا و سحقا للقوم الظالمين.

ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسى الرسالة، و قواعد النبوّة، و مهبط الوحى الأمين، و الطبين بأمر الدنيا و الدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، و ما الذى نقموا من أبى الحسن؟! نقموا و اللّه منه نكير سيفه، و شدّة و طأته، و نكال وقعته، و تنمّره فى ذات اللّه عزّ و جلّ.

و اللّه لو تكافأوا عن زمام نبذه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم إليه لاعتلقه، و لسار بهم سيرا سجحا، لا يكلم خشاشه، و لا يتعتع راكبه، و لأوردهم منهلا نميرا فضفاضا، تطفح ضفتاه، و لأصدرهم بطانا، قد تحرّى بهم الرىّ غير متحلّ منه بطائل إلّا بغمر الماء وردعه شررة الساغب، و لفتحت عليهم بركات من السماء و الأرض، و سيأخذهم اللّه بما كانوا يكسبون. وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ «۲».

ألا- هلمّ فاستمع! و ما عشت أراك الدهر عجبا! و إن تعجب فعجب قولهم! ليت شعرى إلى أىّ سناد استندوا؟! و على أىّ عماد اعتمدوا؟! و بأيّة عروة تمسّكوا؟! و على أيّة ذرّيّة أقدموا و احتنكوا؟! لبئس المولى و لبئس العشير، و بئس للظالمين بدلا، استبدلوا و اللّه الذنابى بالقوادم، و العجز بالكاهل، فرغما لمعاطس قوم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «۳»، أَلا- إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ «۴» ويحهم! أ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۲

يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»

أما لعمرى لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثمّ احتلبوا ملء القعب دما عبيطا و زعافا مبيدا، هنالك يخسر المبطلون، و يعرف التالون غبّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن دنياكم أنفسا، و اطمئنّوا للفتنة جأشا، و أبشروا بسيف صارم، و سطوة معتد غاشم، و بهرج شامل، و استبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيدا، و جمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم، و أنّى بكم و قد عمّيت عليكم؟! أ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ «۲»؟! «۳»

فتحصّل أنّها عليها السّلام لا ترى مجرّد الهجرة و النصرة دليلا على الاستقامة و الصلاح و حسن العاقبة و الخاتمة، بل لا بدّ من الإقامة على شروط العهد و المواثيق التى أخذها عليهم اللّه تعالى و رسوله، من الإقرار بالتوحيد و الرسالة و الولاية لأهل بيته و مودّتهم و نصرتهم. و هذا عين ما تقدّم استفادته من الآيات العديدة، و الروايات النبويّة التى رواها أهل سنّة الجماعة، نظير روايات العرض على الحوض من أنّ بعض الصحابة يزوون عنه إلى جهنّم فيقول صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

ربّ أصحابى! فيجاب: إنّهم بدّلوا بعدك و أحدثوا، فيقول صلّى اللّه عليه و آله و سلم: بعدا بعدا سحقا سحقا.

و روى ابن قتيبة الدينورى فى كتابه الإمامة و السياسة: أنّ عليّا عليه السّلام خرج يحمل فاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم على دابّة ليلا فى مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول اللّه! قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، و لو أنّ زوجك و ابن عمّك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به، فيقول علىّ كرّم اللّه وجهه: أفكنت أدع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۳

فى بيته لم أدفنه و أخرج أنازع الناس سلطانه؟! فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغى له، و لقد صنعوا ما اللّه حسيبهم و طالبهم.

و روى- بعدما ذكر هجوم عمر و جماعته على بيت فاطمة لإخراج علىّ عليه السّلام للبيعة- أنّ عمر قال لأبى بكر: انطلق بنا إلى فاطمة فإنّا قد أغضبناها، فانطلقا جميعا فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليّا فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلّما عليها، فلم تردّ عليهما السّلام.

فتكلّم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول اللّه! و اللّه إنّ قرابة رسول اللّه أحبّ إلىّ من قرابتى، و إنّك لأحبّ إلىّ من عائشة ابنتى، و لوددت يوم مات أبوك أنّى متّ و لا أبقى بعده، أفترانى أعرفك و أعرف فضلك و شرفك و أمنعك حقّك و ميراثك من رسول اللّه؟! إلّا أنّى سمعت أباك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: لا نورث ما تركناه، فهو صدقة.

فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم تعرفانه و تفعلان به؟!؛ قالا: نعم.

فقالت: نشدتكما اللّه ألم تسمعا رسول اللّه يقول: رضا فاطمة رضاى، و سخط فاطمة من سخطى، فمن أحبّ فاطمة ابنتى فقد أحبّنى، و من أرضى فاطمة فقد أرضانى، و من أسخط فاطمة فقد أسخطنى؟! قالا: نعم، سمعناه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قالت: فإنّى أشهد اللّه و ملائكته أنّكما أسخطتمانى و ما أرضيتمانى، و لئن لقيت النبىّ لأشكونّكما إليه. فقال أبو بكر: أنا عائذ باللّه تعالى من سخطه و سخطك يا فاطمة.

ثمّ انتحب أبو بكر يبكى حتّى كادت نفسه أن تزهق، و هى تقول: و اللّه لأدعونّ اللّه عليك فى كلّ صلاة أصليها. ثمّ خرج باكيا، فاجتمع إليه الناس فقال لهم: يبيت كلّ رجل منكم معانقا حليلته، مسرورا بأهله، و تركتمونى و ما أنا فيه، لا حاجة لى فى بيعتكم، أقيلونى بيعتى» «۱».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۵

۶ موقف امير المؤمنين عليه السّلام تجاه الصحابة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۴۷

ورد فی کتاب للإمام علیّ علیه السّلام إلی معاویة- جوابا علی کتاب له- ما نصّه:

کان أشدّ الناس علیه [علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم] تألیبا و تحریضا هم أسرته، و الأدنی فالأدنی من قومه إلّا قلیلا ممّن عصمه اللّه منهم. و أنّ اللّه اجتبی لرسول اللّه من المسلمین أعوانا أیّده بهم، فکانوا فی منازلهم عنده علی قدر فضائلهم فی الإسلام، فکان أفضلهم فی الإسلام- کما زعمت- و أنصحهم للّه و لرسوله الخلیفة الصدّیق، و من بعده خلیفة الخلیفة الفاروق.

ثمّ قال: و ما أنت و الصدّیق؟! فالصدّیق من صدّق بحقّنا و أبطل باطل عدوّنا، و ما أنت و الفاروق؟! فالفاروق من فرّق بیننا و بین عدوّنا. و ذکرت أنّ عثمان بن عفّان کان فی الفضل ثالثا، فإن یکن عثمان محسنا فسیجزیه اللّه بإحسانه، و إن یک مسیئا فسیلقی ربّا غفورا لا یتعاظمه ذنب أن یغفره.

و لعمر اللّه، إنّی لأرجو إذا أعطی اللّه المؤمنین علی قدر فضائلهم فی الإسلام و نصیحتهم للّه و لرسوله أن یکون نصیبنا أهل البیت فی ذلک الأوفر.

إنّ محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم لمّا دعا إلی الإیمان باللّه و التوحید له کنّا أهل البیت أوّل من آمن به و صدّق بما جاء به، فلبثنا أحوالا کاملة مجرّمة تامّة و ما یعبد اللّه فی ربع ساکن من العرب أحد غیرنا، فأراد قومنا قتل نبیّنا، و اجتیاح أصلنا، و همّوا بنا الهموم، و فعلوا بنا الأفاعیل، و منعونا المیرة، و أمسکوا عنّا العذب،

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۱۴۸

و أحلسونا الخوف، و اضطرّونا إلی جبل و عر، و جعلوا علینا الأرصاد و العیون، و أوقدوا لنا نار الحرب، و کتبوا علینا بینهم کتابا: لا یؤاکلوننا، و لا یشاربوننا، و لا یناکحوننا، و لا یبایعوننا، و لا یکلّموننا، و لا نأمن فیهم حتّی ندفع إلیهم نبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیقتلوه و یمثّلوا به؛ فلم نکن نأمن فیهم إلّا من موسم إلی موسم. فعزم اللّه لنا علی منعه، و الذبّ عن حوزته، و الرمی من وراء حرمته، و القیام بأسیافنا دونه فی ساعات الخوف، و باللیل و النهار؛ فمؤمننا یبغی بذلک الأجر، و کافرنا یحامی عن الأصل.

و أمّا من أسلم من قریش بعد، فإنّه خلوّ ممّا نحن فیه بحلف یمنعه، أو عشیرة تقوم دونه، فلا یبغیه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلف، فهو من القتل بمکان نجوة و أمن؛ فکان ذلک ما شاء اللّه أن یکون. ثمّ أمر اللّه تعالی رسوله بالهجرة، و أذن له بعد ذلک فی قتال المشرکین، و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم إذا احمرّ البأس، و دعیت نزال، و أحجم الناس قدّم أهل بیته فوقی بهم أصحابه حرّ السیوف و الأسنّة، فقتل عبیدة ابن الحارث یوم بدر، و قتل حمزة یوم أحد، و قتل جعفر و زید یوم مؤتة، و أسلم الناس نبیّهم یوم حنین غیر العبّاس عمّه و أبی سفیان بن الحارث بن عبد المطّلب ابن عمّه، و أراد من لو شئت یا معاویة ذکرت اسمه مثل الذی أرادوا من الشهادة مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم غیر مرّة، و لکنّ آجالهم عجّلت و منیّته أجّلت، و اللّه ولیّ الإحسان إلیهم، و المنّان علیهم بما قد أسلفوا من الصالحات.

و أیم اللّه ما سمعت بأحد و لا رأیت من هو أنصح للّه فی طاعة رسوله، و لا أطوع لرسوله فی طاعة ربّه، و لا أصبر علی اللأواء و الضرّاء و حین البأس و مواطن المکروه مع النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم من هؤلاء النفر من أهل بیته الّذین سمّیت لک، و فی المهاجرین خیر کثیر نعرفه جزاهم اللّه خیرا بأحسن أعمالهم.

و ذکرت حسدی علی الخلفاء، و إبطائی عنهم، و بغیی علیهم؛ فأمّا الحسد

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۱۴۹

و البغی علیهم، فمعاذ اللّه أن أکون أسررته أو أعلنته، بل أنا المحسود المبغی علیه؛ و أمّا الإبطاء عنهم و الکراهة لأمرهم، فإنّی لست أعتذر منه إلیک و لا إلی الناس؛ و ذلک لأنّ اللّه جلّ ذکره لمّا قبض نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم اختلف الناس، فقالت قریش: منّا الأمیر، و قالت الأنصار: منّا الأمیر؛ فقالت قریش:

منّا محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فنحن أحقّ بالأمر منكم؛ فعرفت ذلك الأنصار فسلّمت لقريش الولاية و السلطان؛ فإذا استحقّوها بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم دون الأنصار، فإنّ أولى الناس بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم أحقّ بها منهم، و إلّا فإنّ الأنصار أعظم العرب فيها نصيبا. فلا أدرى أصحابى سلّموا من أن يكونوا حقّى أخذوا، أو الأنصار ظلموا؟! بل عرفت أنّ حقّى هو المأخوذ. «۱»

و يتّضح من كلامه عليه السّلام إنّ الصدق و الصدّيقية فى الصحبة و الصحابة إنّما هى بالإقامة على العدل و الوفاء بمواثيق اللّه و رسوله التى أخذت فى الكتاب و السنّة عليهم، و هى التسليم لأهل البيت بالولاية و المودّة، و إنّهم ولاة الفىء و الأنفال و الخمس، و إنّهم الثقل الثانى الواجب التمسّك بهم أعدال الكتاب، فيتولّى أهل البيت و يبرأ من أعدائهم، و الفاروق من يميّز بين الحقّ الثابت لأهل البيت و بين الباطل الذى عند عدوّهم.

و إنّ أشدّ الناس عناء و بلاء و جهدا فى الجهاد و الذبّ عن حوزة و حومة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم أهل بيته، و إنّهم أوّل الناس إيمانا به قبل أن يؤمن به أصحابه من قريش أو الأنصار، فقد سبق أهل البيت جميع الصحابة سنينا و أعواما، و هم الّذين تحمّلوا أعباء الرسالة فى المرتبة الأولى، و هم الّذين قدّموا الشهداء فى الصفوف الأولى، فلا تشهد الحروب لأبى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۰

بكر و عمر و عثمان و بقيّة الصحابة من قريش ممّن اجتمع فى السقيفة أو الأنصار ثباتا فى حرب، كيوم حنين و غيرها؛ فأهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم أنصح و أطوع و أصبر للّه و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هم مع ذلك أقرب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أحقّ الناس بخلافته.

و قال عليه السّلام فى كتاب آخر له إلى معاوية- جوابا على كتابه الذى ذكر فيه اصطفاء اللّه تعالى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم لدينه، و تأييده إيّاه بمن أيّده من أصحابه-:

فلقد خبّأ لنا الدهر منك عجبا؛ إذ طفقت تخبرنا ببلاء اللّه تعالى عندنا، و نعمته علينا فى نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فكنت فى ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعى مسدّده إلى النضال.. و زعمت أنّ أفضل الناس فى الإسلام فلان و فلان، فذكرت أمرا إن تمّ اعتزلك كلّه، و إن نقص لم يلحقك ثلمه. و ما أنت يابن هند و الفاضل و المفضول، و السائس و المسوس؟! و ما للطلقاء و أبناء الطلقاء، و الأحزاب و أبناء الأحزاب، و التمييز بين المهاجرين الأوّلين و ترتيب درجاتهم و تعريف طبقاتهم؟! هيهات، لقد حنّ قدح ليس منها، و طفق يحكم فيها من عليه الحكم لها!

ألا تربع- أيّها الإنسان- على ظلعك، و تعرف قصور ذرعك، و تتأخّر حيث أخّرك القدر؟! فما عليك غلبة المغلوب، و لا لك ظفر الظافر، و إنّك لذهّاب فى التيه، روّاغ عن القصد. ألا ترى- غير مخبر لك، و لكن بنعمة اللّه أحدّث- أنّنا قد فزنا على جميع المهاجرين كفوز نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم على سائر النبيّين؟! أو لا ترى أنّ قوما استشهدوا فى سبيل اللّه تعالى من المهاجرين و الأنصار و لكلّ فضل، حتّى إذا استشهد شهيدنا قيل: سيّد الشهداء، و خصّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه، و وضعه بيده فى قبره؟! أولا ترى أنّ قوما قطّعت أيديهم فى سبيل اللّه و لكلّ فضل، حتّى إذا فعل بواحد ناما فعل بواحدهم قيل: الطيّار فى الجنّة و ذو الجناحين؟!

أو لا ترى أنّ مسلمنا قد بان فى إسلامه كما بان جاهلنا فى جاهليّته، حتّى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۱

قال عمّى العبّاس بن عبد المطّلب لأبى طالب:

أبا طالب! لا تقبل النصف منهم و إن أنصفوا حتّى نعقّ و نظلما

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت صوارم فى أيماننا تقطر الدما

تركناهم لا يستحلّون بعدها لذى حرمة فى سائر الناس محرما «۱»

و لولا ما نهى اللّه عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، و لا تمجّها آذان السامعين.

فدع عنك يابن هند من قد مالت به الرميّة! فإنّا صنائع ربّنا، و الناس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزّنا، و لا عاديّ طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا و أنكحنا فعل الأكفاء، و لستم هناك. و أنّى يكون ذلك كذلك؟! و منّا المشكاة الزيتونة و منكم الشجرة الملعونة، و منّا النبيّ و منكم المكذّب، و منّا أسد اللّه و منكم طريد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و منّا هاشم بن عبد مناف و منكم أميّة كلب الأحلاف، و منّا الطيّار فى الجنّة و منكم عدوّ الإسلام و السنّة، و منّا سيّدا شباب أهل الجنّة و منكم صبية النار، و منّا خير نساء العالمين بلا كذب و منكم حمّالة الحطب، فى كثير ممّا لنا و عليكم.

فإسلامنا ما قد سمع و جاهليّتكم لا تدفع، و القرآن يجمع لنا ما شذّ عنّا، و هو قوله- سبحانه و تعالى- وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللَّهِ «۲»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۲

و قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ «۱» فنحن مرّة أولى بالقرابة و تارة أولى بالطاعة؛ و لمّا احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فلجوا عليهم، فإن يكن الفلج به فالحقّ لنا دونكم، و إن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم، و زعمت أنّى لكلّ الخلفاء حسدت، و على كلّهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك.

و تلك شكاة ظاهر عنك عارها

و قلت: إن كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى أبايع.. و لعمر اللّه لقد أردت أن تذمّ فمدحت، و أن تفضح فافتضحت. و ما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكّا فى دينه، و لا مرتابا بيقينه، و هذه حجّتى إلى غيرك قصدها، و لكنّى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها «... ۲».

فهو عليه السّلام يفضّل ذوى القربى الّذين آزروا النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و فادوه بأرواحهم و بكلّهم على جميع المهاجرين و الأنصار، و ذلك لكونهم أولى بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم رحما، و أشدّ الناس متابعة و نصحا و طاعة و نصرة له، كما تشير إليه الآيتان اللتان استشهد عليه السّلام بهما، و من ثمّ قدّم القرآن ذوى القربى مصرّحا فى آية الفيء بقوله تعالى: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ...

و كذلك فى آية الخمس، قال تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۳

عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فخصّ تعالى ذوى القربى بالمقام بعد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قرنهم به و بذاته المقدّسة دلالة على تشريفهم و لزوم طاعتهم و أحقّيّتهم بالأمر دون غيرهم، فكرّر اللام التى للاختصاص و ملكية التصرّف لذاته تعالى و لرسوله و لذى القربى دون غيرهم، دلالة على منصب ذوى القربى الخاص فى الولاية على الأموال و الأمور العامّة.

و قال تعالى مخاطبا نبيّه: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ كما خصّهم بالذكر فى الأمر بالمودّة، و جعله أجرا لكلّ الرسالة و الدين و عدلا لمجموع الإسلام الحنيف حين قال تعالى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى و قال: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا «۱» و قال: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ «۲»، فبيّن تعالى أنّ مودّة و ولاية ذوى القربى هى السبيل إليه تعالى، و هى لنفع جميع المسلمين و صلاحهم و كمالهم.

فلم يـدرجهم تعالى مع سائر المهاجرين و الأنصار مع إنّ ذوى القربى هم أوّل الناس هجرة إلى اللّه و رسوله و أوّلهم نصـرة و طاعـة و نصحا و صبرا.

و قال عليه السّلام فى الخطبة المعروفة بعد النهروان:

أمّا بعـد. أيّها الناس! أنا الـذى فقأت عين الفتنة، شـرقيّها و غربيّها، و منافقها و مارقها، و لم يكن ليجترئ عليها أحد غيرى، بعد أن ماج غيهبها، و اشـتدّ كلبها، و أيم اللّه، لو لم أك فيكم لما قوتل أصـحاب الجمل الناكثون، و لا أهل صـفّين القاسـطون، و لا أهل النهروان المارقون ... إنّ قريشا طلبت السـعادة فشـقيت، و طلبت النجاة فهلكت، و طلبت الهداية فضـلّت. إنّ قريشا قد أضـلّت أهل دهرها و من يـأتى من بعـدها من القرون؛ ألم يسـمعوا- ويحهم- قوله تعـالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «۳»؟! فأين المعدل و المنزع عن ذرّيّة الرسول، الّذين شيّد اللّه بنيانهم فوق بنيانهم، و أعلى رؤوسهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۴

فوق رؤوسهم، و اختارهم عليهم؟!

أين الّـذين زعموا أنّهم الراسـخون فى العلم دوننا كـذبا و بغيا علينا و حسـدا لنا أن رفعنا اللّه سـبحانه و وضـعهم، و أعطانا و حرمهم، و أدخلنا و أخرجهم؟! بنا يسـتعطى الهـدى لا بهم، و بنا يسـتجلى العمى لا بهم. إنّ الأئمّـة من قريش، غرسوا فى هذا البطن من هاشم، لا تصـلح على سواهم، و لاـ تصـلح الولاـة من غيرهم ... و الهجرة قائمـة على حـدّها الأـوّل ما كان للّه تعالى فى أهل الأرض حاجـة من مستسرّ الأمّـة و معلنهـا، و لاـ يقع اسم الهجرة على أحـد إلّا بمعرفـة الحجّـة فى الأرض؛ فمن عرفها و أقرّ بها فهو مهاجر، و لا يقع اسـم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أذنه و وعاها قلبه...

ثمّ ذكر عليه السّلام ضلال الخوارج و الثواب الخاصّ فى مقاتلتهم، و قال:

أتراني أكـذب على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم؟! و اللّه لأنـا أوّل من صـدّقه فلا أكون أوّل من كـذب عليه. و أنا الصـدّيق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، و أسلمت قبل أن يسلم أبو بكر، و صلّيت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قبل أن يصلّى معه أحد من الناس.

أنا صفىّ رسول اللّه و صاحبه، و أنا وصيّه و خليفته من بعده.

أنا ابن عمّ رسول اللّه، و زوج ابنته، و أبو ولده.

أنا الحجّة العظمى، و الآية الكبرى، و المثل الأعلى، و باب النبىّ المصطفى.

أنا وارث علم الأوّلين، و حجّة اللّه على العالمين بعد الأنبياء و محمّد خاتم النبيّين، أهل موالاتى مرحومون، و أهل عداوتى ملعونون..

لقد كان حبيبى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم كثيرا ما يقول: يا علىّ! حبّك تقوى و إيمان، و بغضك كفر و نفاق، و أنا بيت الحكمة و أنت مفتاحه، كذب من زعم أنّه يحبّنى و يبغضك «... ۱»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۵

فها هو عليه السّلام بعد أن بيّن أفضلية أهل البيت عليهم السّلام على سائر قريش يذكر ضابطة الهجرة و المهاجر، و هى معرفة الشخص الـذى هو حجّـة اللّه فى أرضه، و هى الضابطـة نفسـها المتقدّمـة فى كلاـم الصـدّيقـة الزهراء عليهـا السّـلام بأنّ الهجرة إنّما هى بالهجرة إليهم، إلى أهل البيت عليهم السّـلام، لا الابتعاد عنهم، فالهجرة إلى المدينـة- إضافـة لكونها مقام النبىّ و آله صـلوات اللّه عليهم- هى هجرة إلى نور اللّه تعالى و مصابيح هدايته، و هو محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و أهل بيته من بعده، و إنّ الهجرة تكليف شـرعى باق ببقاء الشريعة؛ لأنّ معرفة حجّة اللّه تعالى فى أرضه مفتاح أبواب الشريعة.

و هذا خلاف ما يزعمه أهل سـنّة الجماعة من أنّ لا هجرة بعد الفتح، و سنشير فى ما يأتى إلى دلالة الآيات على بقاء الهجرة و النصرة، و ملازمـة ذلك؛ لكون مـدار الهجرة و النصـرة هو: الهجرة إلى أهل البيت عليهم السّـلام و مناصـرتهم، لا الهجرة إلى بقعة من الأرض

معينـة مقدّسـة، و هى المدينـة المنوّرة، و التى تقدّست بوجود النبىّ و أهل بيته صـلوات اللّه عليهم، بخلاف الضابطة التى يذكرها أهل سنّة الجماعة من أنّها الانتقال الجسمانى من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، كسفر بدنى، و قد انتهى و مضى.

و قال عليه السّلام فى خطبته المعروفة بالطالوتية:

ألا إنّ مثل آل محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سلم كمثل نجوم السماء، إذا هوى منهم نجم طلع نجم، فكأنّكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصـنائع، و أراكم ما كنتم تأملون. فيا عجبا و ما لى لا أعجب من خطأ هـذه الفرق على اختلاف حججها فى دينها!!! و بؤسا لهذه الأمّة الجـائرة فى قصـدها، الراغبـة عن رشـدها، لاـ يقتصّون أثر نبىّ، و لاـ يقتـدون بعمـل وصـىّ، و لاـ يؤمنون بغيب، و لا يعفّون عن عيب، يعملـون فى الشـبهات، و يسـيرون فى الشـهوات، المعروف فيهـم مـا عرفـوا، و المنكر عنـدهم مـا أنكروا، مفزعهم فى المعضـلات إلى أنفسـهم، و تعـويلهم فى المبهمـات على آرائهم، كـأنّ كـلّ امرئ منهم إمـام نفسه، قـد أخـذ منهـا فى مـا يرى بعرى ثقـات، و أسـباب محكمات؛ فلا يزالون بجور، لا يألون قصدا،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۶

و لن يزدادوا إلّا خطأ، لا ينالون تقرّبا، و لن يزدادوا إلّا بعدا من اللّه عزّ و جلّ؛ لشدّة أنس بعضهم ببعض، و تصديق بعضهم لبعض. كلّ ذلك حيادا ممّا ورّث الرسول النبىّ الأمّىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و نفورا عمّا أدّى إليهم من أخبار فاطر السموات و الأرض العليم الخبير، فهم أهل عشوات، و كهوف شـبهات، و قادة حيرة و ضلالة و ريبة. من وكّله اللّه إلى نفسه و رأيه فاغرورق فى الأضاليل فهو مأمون عند من يجهله، غير متّهم عند من لا يعرفه، فما أشبه أمّة صدّت عن ولاتها بأنعام قد غاب عنها رعاؤها.

هذا، و قد ضمن اللّه قصد السبيل لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ «۱».

أيّتها الأمّة المتحيّرة بعد نبيّها فى دينها، التى خدعت فانخدعت، و عرفت خديعة من خدعها فأصـرّت على ما عرفت، و اتّبعت أهواءها، و خبطت فى عشواء غوايتها، و قد استبان لها الحقّ فصدعت عنه، و الطريق الواضح فتنكّبته.

أما و الـذى فلق الحبّـة و برأ النسـمة، لو كنتم قـدّمتم من قـدّم اللّه، و أخّرتم من أخّر اللّه، و جعلتم الولايـة و الوراثة حيث جعلها اللّه، و اقتبسـتم العلم من معدنه، و شـربتم الماء بعذوبته، و ادّخرتم الخير من موضـعه، و أخذتم الطريق من واضـحه، و سلكتم الحقّ من نهجه؛ لنهجت بكم السبل، و بدت لكم الأعلام، و أضاء لكم الإسلام، فأكلتم رغدا و ما عال فيكم عائل، و لا ظلم منكم مسلم و لا معاهد، و لكنّكم سـلكتم سبل الظلام، فأظلمت عليكم دنياكم برحبها، و سـدّت عليكم أبواب العلم فقلتم بأهوائكم، و اختلفتم فى دينكم فأفتيتم فى دين اللّه بغير علم، و اتّبعتم الغواة فأغووكم، و تركتم الأئمّة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۷

فتركوكم، فأصبحتم تحكمون بـأهوائكم، إذا ذكر الأـمر سـألتم أهل الـذكر، فإذا أفتوكم قلتم: هو العلم بعينه، فكيف و قـد تركتموه و نبذتموه و خالفتموه؟!

فـذوقوا و بال أمركم، و ما فرطتم فى ما قـدّمت أيـديكم، و ما اللّه بظلّام للعبيـد، رويـدا عمّا قليل تحصدون جميع ما زرعتم، و تجدون وخيم مـا اجترمتم و مـا اجتلبتم. فو الـذى فلق الحبّـة و برأ النسـمة، لقـد علمتم أنّى صاحبكم و الـذى به أمرتم، و أنّى عالمكم و الـذى بعلمه نجاتكم، و وصـىّ نبيّكم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و خيرة ربّكم، و لسان نوركم، و العالم بما يصلحكم، فعن قليل رويدا ينزل بكم ما وعـدتم و ما نزل بالأمم قبلكم، و سـيسألكم اللّه عزّ و جلّ عن أئمّتكم، فمعهم تحشـرون، و إلى اللّه عزّ و جلّ غدا تصـيرون، وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «... ۱»

و يشير عليه السّلام إلى ما يشير إليه قوله تعالى: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُـرَّ اللَّهَ شَـيْئاً وَ سَـيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ فقد تركوا وصية القرآن و النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى علىّ عليه السّلام– و عترته عليهم السّلام–، من أنّه ولىّ الأمور من بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّه مفزع الأمّة و ملجأها، و قد أشارت

فاطمة الزهراء عليها السّلام إلى ذلك أيضا كما تقدّم، و أنّ سبب الاختلاف و الفرق الحادثة في المسلمين بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو تركهم التمسّك بالثقلين اللذين هما ضمان عصمتهم من الضلال.

و قال عليه السّلام في خطبة أخرى:

فأين تذهبون؟! و أنّى تؤفكون؟! و الأعلام قائمة، و الآيات واضحة، و المنار منصوبة، فأين يتاه بكم؟! بل كيف تعمهون و بينكم عترة نبيّكم، و هم أزمّة الحقّ، و أعلام الدين، و ألسنة الصدق؟! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، و ردوهم ورود الهيم العطاش. ألا و إنّ من أعجب العجائب أنّ معاوية بن أبي

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۸

سفيان الأموي، و عمرو بن العاص السهمي، أصبحا يحرّضان الناس على طلب الدين بزعمهما!!

و اللّه لقد علم المستحفظون من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّي لم أردّ على اللّه سبحانه و لا على رسوله ساعة قطّ، و لم أعصه في أمر قطّ، و لقد بذلت في طاعته صلوات اللّه عليه جهدي، و جاهدت أعداءه بكلّ طاقتي، و لقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، و ترتعد فيها الفرائص، و تتأخّر فيها الأقدام، نجدة أكرمني اللّه بها و له الحمد.

و لقد أفضى إليّ من علمه ما لم يفض إلى أحد غيري، فجعلت أتبع مأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فأطأ ذكره حتّى انتهيت إلى العرج، و لقد قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إنّ رأسه لعلى صدري، و لقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها على وجهي، و لقد وليت غسله صلّى اللّه عليه و آله و سلم وحدي و الملائكة المقرّبون أعواني، فضجّت الدار و الأفنية، ملأ يهبط و ملأ يعرج، و ما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون عليه، حتّى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحقّ به منّي حيّا و ميّتا؟! و أيم اللّه ما اختلفت أمّة قطّ بعد نبيّها إلّا ظهر أهل باطلها على أهل حقّها إلّا ما شاء اللّه «... ۱»

و يشير عليه السّلام إلى أنّ مدار فضيلة الصحبة و مقامها متحقّق فيه عليه السّلام بأرفع درجاتها، بنحو لا يدانيه بقيّة الصحابة.

و بيان ذلك: إنّه قد اشتهر عند أهل سنّة الجماعة الاستدلال لحجّيّة الصحابة و قول الصحابي و فعله، لا سيّما من عاشر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم مدّة مديدة، لا سيّما جماعة السقيفة، الّذين وطّدوا الأرضية لبيعة أبي بكر، و من ناصرهم على ذلك، و لا سيّما أبي بكر و عمر، بأنّ الصحابة هم الّذين حملوا علم الدين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و خالطوه، و هم أعلم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۵۹

بأقوال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أفعاله و مراده، و هم الّذين تربّوا بتربية النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اهتدوا على يديه و أطاعوه و تابعوه، فهم أقرب الخلق إليه، فهم حملة الدين إلى الناس و القرون اللاحقة، و حملة سنّة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حفّاظها و وعاتها و المؤدّين عنه، و بما نقلوه كمال الدين، و ثبات حجّة اللّه عزّ و جلّ على العباد، فهم الواسطة بين النبيّ و أمّته، فإنّ الرسول حقّ، و القرآن حقّ، و ما جاء به حقّ، و إنّما أدّى إلينا ذلك كلّه الصحابة؛ لأنّهم الّذين ناصروا النبيّ على عدوّه و آزروه، فهم المؤتمنين على دينه.

و الناظر المتدبّر في هذه الصفات التي أوجبوا بها حجّيّة الصحابة، أو حجّيّة الشيخين- على إجمال و ترديد إبهام ما يرمي إليه أهل سنّة الجماعة من معنى الحجّيّة كما أشرنا إليه مرارا في هذه الحلقات من كون الحجّيّة بمعنى العصمة و الإمامة الإلهيّة، أو بمعنى العدالة و حجّيّة فتوى المجتهد و الفقيه، أو بمعنى وثاقة و حجّيّة خبر الراوي- يلاحظ أنّ هذه الصفات متوفّرة بدرجة رفيعة سابقة في عليّ عليه السّلام سبقا شاسعا لا يمكن لغيره من الصحابة- كأبي بكر و عمر و غيرهما- اللحوق به، فضلا عن مقايسته بهم.

و لا أجد نفسي بحاجة إلى تذكير القارئ بتوفّر كلّ تلك الصفات و الجهات في عليّ عليه السّلام بنحو أسبق و أوفر و أوصل و أنمى و أزكى و أشدّ من بقيّة الصحابة؛ بعد أن استعرضنا كلامه عليه السّلام ممّا تواتر وقوع مضمونه في مواطن شهيرة في تاريخ الإسلام.

و إلى مثل ذلك يشير قوله عليه السّلام حين سأله سليم بن قيس الهلالي بأنّه سمع من سلمان و المقداد و أبي ذرّ شيئا من تفسير

القرآن و أحاديث عن نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم غير ما في أيدى الناس، ثمّ سمع منه عليه السّلام تصديق ما سمع منهم، و رأى في أيدى الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن و من الأحاديث عن نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يخالفهم فيها عليه السّلام هو و الصحابة الموالين له، و يبطلونها؛ متعجّبا من كون الناس يكذبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم متعمّدين، و يفسّرون القرآن بآرائهم؟!!

فقال عليه السّلام:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۰

قد سألت فافهم الجواب: إنّ في أيدى الناس حقّا و باطلا، و صدقا و كذبا، و ناسخا و منسوخا، و عامّا و خاصّا، و محكما و متشابها، و حفظا و وهما، و قد كذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم على عهده حتّى قام خطيبا فقال: أيّها الناس! قد كثرت علىّ الكذّابة، فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار، ثمّ كذب عليه من بعده.

و إنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق، يظهر الإيمان، متصنّع بالإسلام، لا يتأثّم و لا يتحرّج أن يكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم متعمّدا، فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب، لم يقبلوه منه و لم يصدّقوه، و لكنّهم قالوا: هذا قد صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و رآه و سمع منه، و أخذوا عنه و هم لا يعرفون حاله، و قد أخبر اللّه عن المنافقين بما أخبره و وصفهم بما وصفهم فقال عزّ و جلّ: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ «۱»، ثمّ بقوا بعده فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة و الدعاة إلى النار بالزور و الكذب و البهتان، فولّوهم الأعمال، و حملوهم على رقاب الناس، و أكلوا بهم الدنيا، و إنّما الناس مع الملوك و الدنيا إلّا من عصم اللّه، فهذا أحد الأربعة.

و رجل سمع من رسول اللّه شيئا، لم يحمله على وجهه، و وهم فيه، و لم يتعمّد كذبا، فهو في يده، يقول به و يعمل به، فيقول: أنا سمعته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فلو علم المسلمون أنّه و هم لم يقبلوه، و لو علم هو أنّه و هم لرفضه.

و رجل ثالث سمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شيئا أمر به، ثمّ نهى عنه و هو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء، ثمّ أمر به و هو لا يعلم، فحفظ منسوخه و لم يحفظ الناسخ، و لو علم أنّه منسوخ لرفضه، و لو علم المسلمون إذ سمعوه أنّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۱

منسوخ لرفضوه.

و آخر رابع لم يكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، مبغض للكذب خوفا من اللّه و تعظيما لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، لم ينسه، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه و لم ينقص منه، و علم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ و رفض المنسوخ.

فإنّ أمر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم مثل القرآن، ناسخ و منسوخ، خاصّ و عامّ، و محكم و متشابه، قد كان يكون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الكلام له وجهان: كلام عامّ و كلام خاصّ مثل القرآن، و قال اللّه عزّ و جلّ في كتابه: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱»، فيشتبه على من لم يعرف و لم يدر ما عنى اللّه به و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ليس كلّ أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يسأله عن الشيء فيفهم، و كان منهم من يسأله و لا يستفهمه، حتّى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابى و الطارئ فيسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتّى يسمعوا.

و قد كنت أدخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كلّ يوم دخلة و كلّ ليلة دخلة، فيخلّيني فيها أدور معه حيث دار، و قد علم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيرى، فربّما كان في بيتي يأتيني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أكثر ذلك في بيتي، و كنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني و أقام عنّي نساءه، فلا يبقى عنده غيرى، و إذا أتاني للخلوة معه في منزلي لم تقم عنّي فاطمة و لا أحد من بنيّ.

و كنت إذا سألته أجابنى، و إذا سكتّ عنه و فنيت مسائلى ابتدأنى، فما نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم آية من القرآن إلّا أقرأنيها و أملاها علىّ، فكتبتها بخطّى و علّمنى تأويلها و تفسيرها، و ناسخها و منسوخها، و محكمها

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۲

و متشابهها، و خاصّها و عامّها، و دعا اللّه لى بما دعا. و ما ترك شيئا علّمه اللّه من حلال و لا حرام و لا أمر و لا نهى، كان أو يكون، و لا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه و حفظته، فلم أنس حرفا واحدا.

ثمّ وضع يده على صدرى و دعا اللّه لى أن يملأ قلبى علما و فهما و حكما و نورا، فقلت: يا نبىّ اللّه! بأبى أنت و أمّى، منذ دعوت لم أنس شيئا و لم يفتنى شيء لم أكتبه، أفتتخوّف علىّ النسيان فى ما بعد؟! فقال: لا لست أتخوّف عليك النسيان و الجهل «۱».

فعلىّ عليه السّلام بجانب من شدّة الصلة بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قربه منه زمانا و مكانا و بيتا و صحبة و رحما و ملازمة و أخوّة و محبّة، حتّى نزلت آية وجوب التصدّق قبل نجوى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لم يعمل بها إلّا هو عليه السّلام دون بقيّة الصحابة حتّى نسخت، و كانت بيوت بعضهم فى العوالى قد لا يرون النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أيّاما كما جاء ذلك على لسان بعضهم «۲»، مضافا إلى شدّة عناية النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم به عليه السّلام و إزلافه له، فخصّه بتزويج فاطمة عليها السّلام و المؤاخاة معه، كما فى آية المباهلة و غير ذلك من المواطن و المشاهد المذكورة فى كتب الفريقين.

و الغريب من أهل سنّة الجماعة- حين يستدلّون لحجّيّة الصحابى- التغافل عن كلّ ذلك، و عن تقديم حجّيّة قول علىّ عليه السّلام و فعله و مقامه على بقيّة الصحابة. و كيف يستقيم ذلك مع حجّيّة الصحابى، بأنّه لولا هم لا نقطع نقل الدين و ثبوته؟! و كيف يستبدلون حجّيّة الثقلين- كتاب اللّه و عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- المنصوص عليها فى القرآن و حديث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم المتواتر بين الفريقين، بحجّيّة الصحابة- إن كان مرادهم من الحجّيّة مقام العصمة و الإمامة فى الدين- أو بحجّيّة جميع الصحابة- إن كان مرادهم حجّيّة الفتوى أو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۳

الرواية- مع إنّ فيهم الأقسام الأربعة التى أشار إليها عليه السّلام؟!!

و كيف يتعطّل الدين و يبطل مع وجود عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم الهادية العاصمة عن ضلال الأمّة و تحيّرها؟! و هل تمحيص الصحابى المستقيم على عهد اللّه و عهد رسوله فى حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من بعد مماته صلّى اللّه عليه و آله و سلم، عن الصحابى الذى نكث العهد و بدّل و أحدث فى الدين، يوجب تعطيل و بطلان الدين؟! أم إنّه صيانة للدين عن تحريف المبطلين و زيغ المحدثين، و حياطة للدين عن السنن المحدثة التى خولفت فيها سنن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟!

فها هو عليه السّلام يشير إلى مثل ذلك فى قوله عليه السّلام:

لقد عملت الولاة قبلى أعمالا عظيمة خالفوا فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم متعمّدين لخلافه، ناقضين لعهده، مغيّرين لسنّته، و لو حملت الناس على تركها و تحويلها عن مواضعها إلى ما كانت تجرى عليه فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، لتفرّق عنّى جندى حتّى لا يبقى فى عسكرى غيرى و قليل من شيعتى الّذين عرفوا فضلى و فرض إمامتى من كتاب اللّه عزّ ذكره و سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السّلام فرددته إلى الموضع الذى وضعه فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و رددت فدك إلى ورثة فاطمة عليها السّلام، و رددت صاع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و مدّه إلى ما كان، و أمضيت قطائع أقطعها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لأقوام مسمّين لم تمض لهم و لم تنفذ، و رددت دار جعفر بن أبى طالب إلى ورثته و هدمتها من المسجد، و رددت قضايا من الجور قضى بها من كان قبلى، و نزعت نساء تحت رجال بغير حقّ فرددتهنّ إلى أزواجهنّ، و استقبلت بهنّ الحكم فى الفروج و الأحكام، و سبيت ذرارى بنى تغلب، و رددت ما قسم من أرض خيبر، و محوت دواوين العطايا و أعطيت

كما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يعطى بالسويّة و لم أجعلها دولة بين الأغنياء، و ألقيت المساحة، و سوّيت بين المناكح، و أنفذت خمس الرسول كما أنزل اللّه عزّ و جلّ و فرضه، و رددت

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۴

مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم على ما كان عليه، و سددت ما فتح فيه من الأبواب و فتحت ما سدّ منها، و حرّمت المسح على الخفّين، و حددت على النبيذ، و أمرت بإحلال المتعتين، و أمرت بالتكبير على الجنائز خمس تكبيرات، و ألزمت الناس الجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم، و أخرجت من أدخل مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى مسجده ممّن كان رسول اللّه أخرجه، و أدخلت من أخرج بعد رسول اللّه ممّن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أدخله، و حملت الناس على حكم القرآن، و على الطلاق على السنّة، و أخذت الصدقات على أصنافها و حدودها، و رددت الوضوء و الغسل و الصلاة إلى مواقيتها و شرائعها و مواضعها، و رددت أهل نجران إلى مواضعهم، و رددت سبايا فارس و سائر الأمم إلى كتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، إذا لتفرّقوا عنّى.

و اللّه لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا فى شهر رمضان إلّا فى فريضة، و أعلمتهم أنّ اجتماعهم فى النوافل بدعة، فتنادى بعض أهل عسكرى ممّن يقاتل سيفه معى: يا أهل الإسلام! غيّرت سنّة عمر، ينهانا عن الصلاة فى شهر رمضان تطوّعا فى جماعة! حتّى خفت أن يثوروا فى ناحية عسكرى.

بؤسى لما لقيت من هذه الأمّة بعد نبيّها من الفرقة و طاعة أئمّة الضلال و الدعاة إلى النار!! و أعظم من ذلك! لو لم أعط سهم ذوى القربى إلّا من أمر اللّه بإعطائه، الّذين قال اللّه عزّ و جلّ: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كلّ هؤلاء منّا خاصّة إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ.

فنحن و اللّه الّذين عنى اللّه بذى القربى، الّذين قرنهم اللّه بنفسه و برسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقال تعالى: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۵

مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى ظلم آل محمّد أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن ظلمهم، رحمة منه لنا، و غنى أغنانا اللّه به و وصّى به نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ لأنّه لم يجعل لنا فى سهم الصدقة نصيبا، و أكرم اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أكرمنا أهل البيت أن يطعمنا من أوساخ أيدى الناس، فكذّبوا اللّه، و كذّبوا رسوله، و جحدوا كتاب اللّه الناطق بحقّنا، و منعونا فرضا فرضه اللّه لنا. ما لقى أهل بيت نبيّ من أمّته ما لقينا بعد نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و اللّه المستعان على من ظلمنا، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العلىّ العظيم «۱».

و موقف علىّ عليه السّلام يوم الشورى حينما رفض شرط عبد الرحمن بن عوف لمبايعته أن يحكم بسنّة الشيخين، و حصر الحكم بكتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، موقف مشهود معلن معروف عند الحاضر و البادى.

و قال عليه السّلام:

إنّه لا يقاس بآل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم من هذه الأمّة أحد، و لا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا، هم أطول الناس أغراسا، و أفضل الناس أنفاسا، هم أساس الدين، و عماد اليقين، إليهم يفىء الغالى، و بهم يلحق التالى، و لهم خصائص حقّ الولاية، و فيهم الوصية و الوراثة، و حجّة اللّه عليكم فى حجّة الوداع يوم غدير خمّ، و بذى الحليفة، و بعده المقام الثالث بأحجار الزيت.

تلك فرائض ضيّعتموها، و حرمات انتهكتموها، و لو سلّمتم الأمر لأهله سلمتم، و لو أبصرتم باب الهدى رشدتم- إلى أن يقول: - يا أيّها الناس! اعرفوا فضل من فضّل اللّه، و اختاروا حيث اختار اللّه، و اعلموا أنّ اللّه قد فضّلنا أهل البيت بمنّه حيث يقول: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۶

يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «۱»، فقد طهّرنا اللّه من الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و من كلّ دنيّة و كلّ رجاسة، فنحن على منهاج الحقّ، و من خالفنا فعلى منهاج الباطل...

و عندنا أهل البيت معاقل العلم، و أبواب الحكم، و أنوار الظلم، و ضياء الأمر، و فصل الخطاب، فمن أحبّنا ينفعه إيمانه، و يتقبّل منه عمله، و من لا يحبّنا أهل البيت لا ينفعه إيمانه، و لا يتقبّل عمله و إن دأب فى الليل و النهار قائما صائما.

و اللّه لئن خالفتم أهل بيت نبيّكم لتخالفنّ الحقّ، و لقد علم المستحفظون من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: إنّى و أهل بيتى مطهّرون، فلا تسبقوهم فتضلّوا، و لا تخالفوهم فتجهلوا، و لا تتخلّفوا عنهم فتهلكوا، و لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، هم أحلم الناس كبارا، و أعلمهم صغارا، إنّهم لا يدخلونكم فى ردى، و لا يخرجوكم من باب هدى، فاتّبعوا الحقّ و أهله حيث كانوا ...الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله و نقل إلى منتقله «... ۲».

و قال فى الخطبة القاصعة المعروفة، التى أنشأها لبيان أنّ كفر إبليس هو كفر جحود لولاية ولىّ اللّه تعالى، و هو آدم عليه السّلام، و عدم انقياد له، و أنّ كلّ أبواب التوحيد و أركان فروع الدين تنتهى إلى ولاية ولىّ اللّه تعالى:

ألا و إنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، و ثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، و إنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة، فى ما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التى يتنقّلون فى ظلّها، و يأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة؛ لأنّها أرجح من كلّ ثمن، و أجلّ من كلّ خطر. و اعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعرابا، و بعد الموالاة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۷

أحزابا، ما تتعلّقون من الإسلام إلّا باسمه، و لا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه «۱».

فقد جعل عليه السّلام المدار فى الهجرة هو: السير و الانتقال مع ولاية ولىّ اللّه تعالى، و هو الإمام من أهل البيت عليهم السّلام، و الإعراض عنه تعرّب؛ فبالموالاة و النصرة يقع عنوان الهجرة، و بالتحزّب و التفرّق عن الموالاة يقع عنوان التعرّب، و كلامه عليه السّلام يقضى بأنّ عنوان الهجرة وصف قابل للزوال عن الشخص، و هذا اللازم قهرى بعد عدم كون الهجرة سفر و انتقال من مكان إلى مكان آخر.

فتحصّل أنّ معنى الهجرة و النصرة عند فاطمة و علىّ عليهما السّلام متطابق على هذا المعنى، و هذا المعنى هو الذى يستفاد من تعريف الهجرة و النصرة من سورة الحشر؛ إذ قيّدت الهجرة ب وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ «۲»، و قيّدت النصرة ب يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ «۳»، فالهجرة هى نصرة و موالاة ولىّ اللّه تعالى، و النصرة هى محبّة ذلك و المؤازرة عليه.

نتف من كلماته عليه السّلام فى عدّة من الصحابة بأعيانهم:

۱. قال له ابن الكوّاء: «يا أمير المؤمنين! أخبرنى عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم».

قال عليه السّلام: «عن أىّ أصحاب رسول اللّه تسألنى؟» قال: «يا أمير المؤمنين! أخبرنى عن أبى ذرّ الغفارى!» قال: «سمعت رسول اللّه يقول: ما أظلّت الخضراء، و لا أقلّت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ».

۲. قال: «يا أمير المؤمنين! فأخبرنى عن سلمان الفارسى. قال: بخ بخ، سلمان منّا أهل البيت، و من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم علم الأوّل و الآخر».

۳. قال: «يا أمير المؤمنين! أخبرنى عن حذيفة بن اليمان. قال: ذاك امرؤ علم أسماء المنافقين، إن تسألوه عن حدود اللّه تجدوه بها عالما».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۶۸

۴. قال: «يا أمير المؤمنين! فأخبرنى عن عمّار بن ياسر. قال: ذاك امرؤ حرّم اللّه لحمه و دمه على النار أن تمسّ شيئا منها».

۵. قال: «یا أمیر المؤمنین! فأخبرنی عن نفسک. قال: کنت إذا سألت أعطیت، و إذا سکتّ ابتدئت» «۱».

۶. و قال بعد استشهاد محمّد بن أبی بکر: «ألّا و إنّ محمّد بن أبی بکر قد استشهد رحمه اللّه، فعند اللّه نحتسبه، أما و اللّه لقد کان- ما علمت- ینتظر القضاء، و یعمل للجزاء، و یبغض شکل الفاجر، و یحبّ سمت المؤمن، و لقد کان إلیّ حبیبا، و کان لی ربیبا، و کان بی برّا، و کنت أعدّه ولدا، فرحم اللّه محمّدا، فقد أجهد نفسه، و قضی ما علیه» «۲».

۷. و قال علیه السّلام: «أمّا و اللّه لقد کنت أردت تولیة مصر المرقال هاشم ابن عتبة، و لو ولّیته إیّاها لما خلّی لهم العرصة، و لا انهزهم الفرصة، و لما قتل إلّا و سیفه بیده، بلا ذمّ لمحمّد بن أبی بکر» «۳».

و هاشم بن عتبة بن أبی وقّاص ابن أخی سعد بن أبی وقّاص، کان نافذ البصیرة، شدید الولاء لأمیر المؤمنین، و شدید البراءة من أعدائه، و قد دعا له أمیر المؤمنین علیه السّلام فقال: «اللّهمّ ارزقه الشهادة فی سبیلک، و المرافقة لنبیّک صلّی اللّه علیه و آله و سلم»

۸. و قال علیه السّلام لمّا مرّ- و هو عائد من صفّین- علی عدّة قبور فیها قبر خبّاب بن الأرتّ: «رحم اللّه خبّابا، فلقد أسلم راغبا، و هاجر طائعا، و عاش مجاهدا، و ابتلی فی جسمه آخرا، و قنع بالکفاف، و رضی عن اللّه تعالی، و لن یضیع اللّه أجر من أحسن عملا» «۴».

۹. و قال بعد مرجعه من صفّین و قد توفّی سهل بن حنیف الأنصاری بالکوفة، و کان

من أحبّ الناس إلیه: «لو أحبّنی جبل لتهافت» «۱». و سهل بن حنیف صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، کان بدریا، و شهد مع النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم حروبه کلّها، و کان من النقباء «۲».

۱۰. و قال لمّا بلغه نعی مالک الأشتر: «للّه درّ مالک، و ما مالک! و اللّه لو کان جبلا لکان فندا، و لو کان حجرا لکان صلدا، لا یرتقیه الحافر، و لا یوفی علیه الطائر. أما و اللّه لیهدّنّ موتک عالما و لیفرحنّ عالما، فهل مرجوّ کمالک؟! و هل قامت النساء عن مثل مالک؟! فعلی مثله فلتبک البواکی.

إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون، و الحمد للّه ربّ العالمین، اللّهمّ إنّی أحتسبه عندک، فإنّ موته من مصائب الدهر، فرحم اللّه مالکا، فقد وفی بعهده، و قضی نحبه، و لقی ربّه، مع إنّا قد وطّنّا أنفسنا أن نصبر علی کلّ مصیبة بعد مصابنا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، فإنّها أعظم المصیبات» «۳».

و قال عنه أیضا: «لا ینام أیّام الخوف، و لا ینکل عن الأعداء ساعات الروع، حذّار الدوائر، أشدّ علی الفجّار من حریق النار، و أبعد الناس من دنس أو عار، و هو مالک بن الحارث أخو مذحج ... فإنّه سیف من سیوف اللّه، لا کلیل الظبة، و لا نابی الضریبة» «۴».

۱۱. و قال فی کتاب له إلی عمر بن أبی سلمة المخزومی- ابن أمّ المؤمنین أمّ سلمة، و هی التی أرسلته لنصرة الأمیر فی الجمل- و الیه علی البحرین: «و لعمری لقد أحسنت الولایة، و أدّیت الأمانة، فأقبل غیر ظنین و لا ملوم، و لا متّهم و لا مأثوم، فلقد أردت المسیر إلی ظلمة أهل الشام و بقیة الأحزاب، و أحببت أن تشهد معی لقاءهم، فإنّک ممّن أستظهر به علی جهاد العدوّ و نصر الهدی و إقامة عمود الدین إن شاء اللّه» «۵».

۱۲. و نظیره ما قاله علیه السّلام لمخنف بن سلیم الأزدی، عامله علی أصبهان «۶».

۱۳. و قال علیه السّلام لزید بن صوحان العبدی: «رحمک اللّه یا زید، قد کنت خفیف المؤونة، عظیم المعونة»، کما قد ورد حدیث عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بشارته بالشهادة علی الحقّ «۱».

۱۴. و قال علیه السّلام فی حکیم بن جبلة العبدی: «فقتلوه- و یقصد أصحاب الجمل- فی سبعین رجلا من عبّاد أهل البصرة و مخبتیهم، یسمّون المثفّنین، کأنّ راح أکفّهم و جباهم ثفنات الإبل» «۲».

۱۵. و قال علیه السّلام فی یزید بن الحارث الیشکری: «و أبی أن یبایعهم و هو شیخ أهل البصرة یومئذ، فقال- مخاطبا طلحة و الزبیر-:

اتّقيا اللّه، إنّ أوّلكم قادنا إلى الجنّة، فلا يقودنا آخركم إلى النار، فلا تكلّفونا أن نصدّق المدّعى و نقضى على الغائب، أمّا يمينى فقد شغلها علىّ بن أبى طالب ببيعتى إيّاه، و أمّا شمالى فهذه خذاها فارغة إن شئتما؛ فخنق حتّى مات رحمه اللّه» «۳».

۱۶. و قال عليه السّلام فى عمران بن حصين الخزاعى: «فقام صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هو الذى جاءت فيه الأحاديث، و قال: يا هذان!- مخاطبا طلحة و الزبير- مخاطبا طلحة و الزبير- لا تخرجانا ببيعتكما من طاعة علىّ، و لا تحملانا على نقض بيعته، فإنّها للّه رضى. أما وسعتكما بيوتكما حتّى أتيتما بأمّ المؤمنين؟! فالعجب لاختلافها إيّاكما و مسيرها معكما!!! فكفّا عنّا أنفسكما و ارجعا من حيث جئتما، فلسنا عبيد من غلب، و لا أوّل من سبق؛ فهمّا به ثمّ كفّا عنه» «۴».

۱۷. و قال عليه السّلام: «ثمّ أخذوا عاملى عثمان بن حنيف أمير الأنصار غدرا، فمثّلوا به كلّ المثلة، و نتفوا كلّ شعرة فى رأسه و وجهه» «۵». و هو صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، شهد

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۱

معه المشاهد، أحدا و ما بعدها. و هو أحد الاثنى عشر الّذين أنكروا على أبى بكر جلوسه مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هم ستّة من المهاجرين، و ستّة من الأنصار، فالمهاجرين هم: سلمان الفارسى، و أبو ذرّ الغفارى، و عمّار بن ياسر، إضافة إلى:

۱۸. خالد بن سعيد بن العاص- و كان من بنى أميّة-

۱۹. المقداد بن الأسود.

۲۰. و بريدة الأسلمى.

و الأنصار هم- إضافة إلى عثمان بن حنيف-:

۲۱. أبو الهيثم بن التيهان.

۲۲. سهل بن حنيف، أخى عثمان.

۲۳. خزيمة بن ثابت، ذو الشهادتين.

۲۴. أبىّ بن كعب.

۲۵. و أبو أيّوب الأنصارى..

فقد قال لهم علىّ عليه السّلام- عندما اتّفقوا على إنزال أبى بكر عن منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم-: «و أيم اللّه لو فعلتم ذلك لما كنتم لهم إلّا حربا، و لكنّكم كالملح فى الزاد و كالكحل فى العين- إلى أن قال لهم: - فانطلقوا بأجمعكم إلى الرجل فعرّفوه ما سمعتم من قول نبيّكم، ليكون ذلك أوكد للحجّة، و أبلغ للعذر، و أبعد لهم من رسول اللّه إذا وردوا عليه».

و قال لهم علىّ عليه السّلام- بعد أن اعترضوا على أبى بكر-: «اجلس يا خالد فقد عرف اللّه لك مقامك و شكر لك سعيك »،... ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: «انصرفوا رحمكم اللّه» «۱».

۲۶. و قال عليه السّلام فى العبد الصالح عمرو بن الحمق الخزاعى، صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بعد تشدّد فى موالاته لأمير المؤمنين، و استبسال فى نصرته: «اللّهمّ نوّر قلبه بالتقى، و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۲

اهده إلى صراط مستقيم، ليت أنّ فى جندى [شيعتى] مائة مثلك!» «۱».

۲۷. و قال عليه السّلام فى عدىّ بن حاتم بن عبد اللّه الطائى، الصحابى المعروف، مخاطبا بنى حزمر: «إنّى أراه رأسكم قبل اليوم، و لا أرى قومه كلّهم إلّا مسلمين له غيركم» «۲» و كان شديد الذود عن أمير المؤمنين عليه السّلام، متفانيا فى ولايته، و شهد معه مشاهده.

۲۸. و قال عليه السّلام فى عبد اللّه بن كعب المرادى- عندما استشهد فى صفّين-: «رحمه اللّه، جاهد معنا عدوّنا فى الحياة، و نصح لنا فى الوفاة» و كان قد أبلغ الأسود بن قيس السلام لأمير المؤمنين عليه السّلام فى آخر رمق له و أوصاه بنصرته عليه السّلام «۳».

۲۹. و عامر بن واثلة بن عبد اللّه الكنانى الليثى، أبو الطفيل، و هو آخر من مات من الصحابة، توفّى سنة ۱۰۰ ه، و لم يرو عنه البخارى؛ لأنّه كان من شيعة علىّ عليه السّلام، و قد شهد مع علىّ عليه السّلام جميع حروبه، و مادح علىّ عليه السّلام بشعره، و من ثقاته «۴».

۳۰. و قال عليه السّلام فى سعد بن مسعود الثقفى، عمّ المختار بن أبى عبيد: «أمّا بعد، فإنّك قد أدّيت خراجك، و أطعت ربك، و أرضيت إمامك، فعل المبرّ التقى النجيب، فغفر اللّه ذنبك، و تقبّل سعيك، و حسّن مآبك» «۵».

۳۱. و قال عليه السّلام فى صعصعة بن صوحان بن حجر العبدى، الذى كان لسانه السيف البتّار دفاعا عن علىّ عليه السّلام، و شهد معه الجمل و بقيّة حروبه: «إن كنت لما علمت خفيف المؤونة عظيم المعونة» «۶»، و هو نظير ما قاله عليه السّلام لأخيه زيد. و قد قتل مع أخيه سيحان

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۳

اثنين و ثلاثين يوم الجمل و دفنا فى قبر واحد.

۳۲. أمّا سليمان بن صرد بن الجون الخزاعى، فهو من صحابة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و من وجوه الشيعة فى الكوفة، شهد مع علىّ عليه السّلام صفّين، و قد أتاه بعد التحكيم فى صفّين و وجهه مضروبا بالسيف، فلمّا نظر إليه علىّ عليه السّلام قال: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «۱» فأنت ممّن ينتظر و ممّن لم يبدّل» «۲». و قد قاد ثورة التوّابين على ابن زياد فى الكوفة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السّلام.

۳۳. و قال عليه السّلام فى حجر بن عدىّ بن معاوية الكندى- له صحبة- الذى كان من خواصّه، و شهد معه حروبه، بصيرا بمعرفة علىّ عليه السّلام و مقامه فى الدين: «لا حرمك اللّه الشهادة، فإنّى أعلم أنّك من رجالها» «۳». و قد روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم حديثا فى استشهاده على الحقّ، و أنّ أهل السماء يغضبون لقتله «۴».

۳۴. حبّة بن جوين البجلى العرنى، أبو قدامة، من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علىّ عليه السّلام، و شهد معه حروبه، و روى حديث الغدير.

۳۵. و قال عليه السّلام لجندب بن كعب بن عبد اللّه الأزدى الغامدى، من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علىّ عليه السّلام: «يا جندب! ليس هذا زمان ذاك» «۵»، و ذلك عندما أصرّ جندب عليه عليه السّلام أن يدعو إليه عندما بويع عثمان لأنّه أحقّ بالخلافة ممّن تقدّم عليه، و أنّه سيجد من يناصره.

۳۶. جعدة بن هبيرة بن أبى وهب القرشى المخزومى، و أمّه أمّ هانى بنت أبى طالب، و كان ممّن يحفيه عليه السّلام و يوليه عناية خاصّة «۶».

۳۷. و قال فى جارية بن قدامة التميمى السعدى و كان من صحابة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۴

علىّ عليه السّلام، ثابتا صلبا فى ولائه له، شديدا على أعدائه، من جملة شرطة الخميس.

۳۸. جابر بن عبد اللّه الأنصارى، الصحابى المعروف، شهد مع الإمام عليه السّلام صفّين، و كان يدور فى سكك الأنصار و مجالسهم و يقول: علىّ خير البشر، فمن أبى فقد كفر، يا معشر الأنصار! أدّبوا أولادكم على حبّ علىّ، فمن أبى فانظروا فى شأن أمّه «۱». و عن الصادق عليه السّلام أنّه آخر من بقى من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و كان رجلا منقطعا إلى أهل البيت «۲».

۳۹. ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصارى الظفرى، من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، شهد أحدا و ما بعدها، و كان له بلاء مع علىّ عليه السّلام فى حروبه، و استعمله على المدائن، و كان معاوية يهابه «۳».

۴۰. أبو قتادة الحارث بن ربعى بن بلدمة الأنصارى الخزرجى، من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، شهد أحدا و ما بعدها، و شهد مع علىّ عليه السّلام حروبه، كان شديد الإيمان بعلىّ عليه السّلام، و قد ولّاه مكّة.

۴۱. أبو رافع، مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، شهد معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم المشاهد ما عدا بدرا، و لازم عليّا عليه السّلام، و كان على بيت المال من قبله «۴».

۴۲. أبو سعيد سعد بن مالك بن شيبان الأنصارى الخدرى، من صحابة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و كان معه فى عدّة من المشاهد، و لازم عليّا عليه السّلام و كان معه فى حرب النهروان «۵».

۴۳. أبو الأسود الدؤلى، ظالم بن عمرو، و هو من الثابتين على محبّة علىّ عليه السّلام و ولده، شهد معه حروبه. و غيرهم ممّن مدحهم أمير المؤمنين عليه السّلام.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۵

۷ موازين الجرح و التعديل

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۷

قد تبيّن ممّا مرّ كرارا أنّ البحث فى عنوان عدالة الصحابة غير عاكس لحقيقة البحث بصورة عامّة، بل الحقيقة هو البحث عن أصحاب السقيفة، الذين بايعوا أبا بكر دون عامّة الأنصار، و الذين خالفوا البيعة تبعا لسعد بن عبادة، و دون بنى هاشم، و كذا من والى عليّا عليه السّلام ممّن ذكرنا أسمائهم فى الحلقات السابقة، كما أنّ البحث ليس فى الصحبة للنبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّما البحث الجارى فى مشروعية ما أقيم و أسّس فى السقيفة من نهج الخلافة و ما تبع ذلك من النهج الأموى و المروانى كل ذلك إقصاء لعترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و رغم الوعى بهذه الحقيقة فمسايرة مع عنوان البحث نتابع النقطة التالية:

من موازين التعديل و الجرح فى الصحابى ... ص: ۱۷۷

اشارة

المودّة للعترة أو نصب العداوة لهم:

و ذلك لكون المودّة فريضة قرآنية كبرى أوجبها اللّه تعالى على كلّ مسلم و عظّمها فى الذكر الحكيم، قال تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۸

اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ «۱»، مضافا إلى ما استفاض بل تواتر من السنّة النبويّة فى حبّ على و العترة عليهم السّلام، فمن كان قائما من الصحابة بهذه الفريضة مراعيا لها كان على حدّ العدالة، و من كان تاركا لها ناقضا لهذا الميثاق فهو خارج عن حدّ العدالة فضلا عن نصب العداوة للعترة.

الذى هو بمثابة الجحود.

و سنرى أنّ من أهل سنّة الجماعة قد عكس العيار عندهم و جعلوا النصب و العداوة سنّة يدينون بها. و لنتعرض للمعيار القرآنى و النبوى أوّلا، ثم نتبعه بتركهم له ثانيا.

المقام الأوّل المعيار القرآني و النبويّ لفريضة المودّة ... ص: ۱۷۸

اشارة

فأمّا الآية الشريفة فقبل التعرّض إلى إطار مفادها نذكر:

أوّلا: مورد نزولها هو أنّ الأنصار و المهاجرين اجتمعوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فقالوا:

يـا رسول اللّه أنّ لـك مؤونـة في نفقتـك و من يأتيـك من الوفود و هـذه أموالنـا مع دمائنـا فاحكم فيها مأجورا، اعط منها ما شئت و أمسك ما شئت من غير حرج فأنزل اللّه عزّ و جلّ عليه الروح الأمين، فقال: يا محمّد قل: لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى «۲» يعني: أن تودّوا قرابتي من بعدي فخرجوا، فقال المنافقون: ما حمل رسول اللّه على ترك ما عرضـنا عليه إلّا ليحثّنا على قرابته من بعده، إن هو إلّا شـيء افتراه في مجلسه، فكان ذلك من قولهم عظيما، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «۳» فبعث إليهم النبيّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم، فقال: هل من حدث؟ فقالوا: أي و اللّه قال بعضنا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۷۹

كلاما غليظا كرهناه، فتلا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الآية فبكوا و اشتدّ بكاؤهم فأنزل اللّه عزّ و جلّ: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ «۱» «۲».

و قـد روي قريب منه عن عبد اللّه بن عبّاس، كما روي في عدّة مصادر لأهل سـنّة الجماعة أنّهم سألوا: يا رسول اللّه من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي و فاطمة و ابناهما عليهم السّلام» «۳».

ثانيا: قال في الكشاف:

يجوز أن يكون استثناء متّصـلا أي: لاـ أسـألكم أجرا إلّـا هـذا و هو أن تودّوا أهـل قرابتي و لم يكن هـذا أجرا في الحقيقـة لأـنّ قرابته قرابتهم فكـانت صـلتهم لازمـة لهم في المروءة، و يجوز أن يكون منقطعـا أي: لاـ أسـألكم أجرا قـط و لكنني أسألكم أن تودّوا قرابتي الّذين هم قرابتكم و لاـ تؤذوهم، فـإن قلت: هلا قيل: إلّا مودة القربى، أو إلّا المودة للقربى، و ما معنى قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى قلت: جعلوا مكانا للمودّة و مقرا لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم هوى و حبّ شديد، تريد: أحبّهم و هم مكان حبّي و محله و ليست (في) بصلـة للمودّة، كاللام إذا قلت: إلّا المودّة للقربى، أنّما هي متعلّقـة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك المال في الكيس و تقديره:

إلّا المودة ثابتة في القربى و متمكنة فيها. و القربى: مصدر كالزلفى و البشرى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۰

بمعنى: قرابـة و المراد في أهـل القربى. و روي أنّهـا لمّـا نزلت هـذه الآيـة، قيـل: يـا رسول اللّه! من قرابتـك هؤلاـء الـذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ و فاطمة و ابناهما».

و يدلّ عليه ما روي عن علي رضـي اللّه عنه: شـكوت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حسد الناس لي، فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أوّل من يدخل الجنّة أنا و أنت و الحسن و الحسين و أزواجنا عن أيماننا و شمائلنا، و ذريتنا خلف أزواجنا» «۱».

و عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

حرمت الجنّـة على من ظلم أهـل بيتي و آذاني في عترتي، و من اصـطنع صـنيعة إلى أحـد من ولـد عبـد المطلب و لم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة.

ثم ذكر مورد النزول المتقدّم، و قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

من مات على حبّ آل محمّد مات شهيدا «۲»، ألّا و من مات على حبّ آل محمّد مات مغفورا له، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات تائبا، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مؤمنا مستكمل الإيمان، ألا و من مات على حبّ آل محمّد بشّره ملك الموت بالجنّة، ثمّ منكر و نكير، ألا و من مات على حبّ آل محمّد يزف إلى الجنّة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا و من مات على حبّ آل محمّد فتح له فى قبره بابان إلى الجنّة، ألا و من مات على حبّ آل محمّد جعل اللّه قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة و الجماعة، ألا و من مات على

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۱

بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة اللّه، ألا و من مات على بغض آل محمّد مات كافرا، ألا و من مات على بغض آل محمّد لم يشمّ رائحة الجنّة «۱».

و قال فى تفسير: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً، عن السدّى أنّها المودّة فى آل رسول اللّه:: نزلت فى أبى بكر- رضى اللّه عنه- و مودّته فيهم «۲». و الظاهر: العموم فى أى حسنة كانت، إلّا أنّها لمّا ذكرت عقيب ذكر المودّة فى القربى، دلّ ذلك على أنّها تناولت المودّة تناولا أوّليا، كأنّ سائر الحسنات لها توابع «۳». انتهى.

أقول: و يدلّ تقريبه الأخير لحسنة المودّة و عظمتها أنّها من الفرائض الكبرى فى الدّين، و سيأتى تقريب دلالة الآية على ذلك بنحو أوضح. و قال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير بعد ما نقل كلام الزمخشرى:

و أنا أقول آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم الّذين يؤول أمرهم إليه فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ و أكمل كانوا هم الآل. و لا شكّ أنّ فاطمة و عليّا و الحسن و الحسين كان التعلّق بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أشدّ التعلّقات و هذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، و أيضا اختلف الناس فى الآل، فقيل: هم الأقارب، و قيل: هم أمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، و إن حملناه على الأمّة الّذين قبلوا دعوته فهم أيضا الآل، فثبت على جميع التقديرات هم الآل،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۲

و أمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه «۱».

أقول: يشير الفخر الرازى إلى ما قاله الرضا عليه السّلام فى مجلس المأمون- فى حديث-:

فلمّا أوجب اللّه تعالى ذلك ثقل لثقل وجوب الطّاعة، فأخذ بها قوم أخذ اللّه ميثاقهم على الوفاء، و عاند أهل الشقاق و النفاق و ألحدوا فى ذلك، فصرفوه عن حدّه الذى قد حدّه اللّه تعالى، فقالوا القرابة هم العرب كلّها و أهل دعوته، فعلى أىّ الحالتين كان، فقد علمنا أنّ المودّة هى للقرابة فأقربهم من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أولاهم بالمودّة، و كلما قربت القرابة كانت المودّة على قدرها» «۲».

ثمّ قال الرازى فى تفسيره:

و روى صاحب الكشّاف أنّه لمّا نزلت هذه الآية، قيل: يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ فقال: «على و فاطمة و ابناهما».

فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و إذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، و يدلّ عليه وجوه:

الأوّل: قوله تعالى: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى، و وجه الاستدلال به ما سبق.

الثانى: لا شك أنّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان يحبّ فاطمة عليها السّلام، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «فاطمة بضعة منّى يؤذينى ما يؤذيها»، و ثبت بالنقل المتواتر عن محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه كان يحبّ عليّا و الحسن و الحسين، و إذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأمّة مثله؛ لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ «۳»؛ و لقوله تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ «۴»؛ و لقوله: قُلْ

إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «۵»؛ و لقوله سبحانه: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ «۶».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۳

الثالث: أنّ الدعاء للآل منصب عظيم، و لذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة و هو قوله: اللهم صل على محمّد و على آل محمّد و ارحم محمّدا و آل محمّد، و هذا التعظيم لم يوجد فى حقّ غير الآل، فكلّ ذلك يدلّ على أنّ حبّ آل محمّد واجب، و قال الشافعى رضى اللّه عنه:

يا راكبا قف بالمحصّب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حبّ آل محمّد فليشهد الثقلان أنّى رافضى «۱»

أقول: عقد ابن قدامة الحنبلى صاحب كتاب المغنى، و كذا صاحب الشرح الكبير فصلا فى باب التشهد فى الصلاة- بعدما نقلا الأقوال فى صفة الصلاة على النبى و آله صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ هناك من اختار وجوب الصلاة على (آله)-. قال:

فصل آل النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أتباعه على دينه، كما قال اللّه تعالى أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ «۲»، يعنى أتباعه من أهل دينه، و قد جاء عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه سئل من آل محمّد؟ فقال: كلّ تقىّ، أخرجه تمام فى فوائده، و قيل: آله أهله، الهاء منقلبة عن الهمزة- إلى أن قال- و معناهما جميعا أهل دينه، و قال ابن حامد و أبو حفص: لا يجزى لما فيه من مخالفة لفظ الأثر و تغيير المعنى فإنّ الأهل أنّما يعبّر عن القرابة و الآل يعبّر به عن الأتباع فى الدين «۳».

أقول: و تحريف الكلم عن مواضعه فى المقام و أمثاله ممّا يخصّ مناقب عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم امتثالا لفريضة المودّة، فتراه يترك ما يروونه من ذكر الذريّة فى صفة الصلاة على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى التشهد، و لا يشير إليها من قريب و لا بعيد، مع أنّ الآل فى قوله تعالى:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۴

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ «۱» المراد به الرحم؛ لأنّه ابن عمّ أو ابن خال فرعون، و ليس استعمال الآل فى الأتباع على وجه الحقيقة بل المجاز.

فكان الأولى بهم الاستشهاد فى معنى اللآل بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ «۲»، فحيث وضحت الآية الاصطفاء فى آل إبراهيم و آل عمران هو فى الذريّة و الرحم لا فى الأتباع. فالموازنه بين آل محمّد مع آل إبراهيم و آل عمران لا مع آل فرعون.

ثمّ قال الرازى:

قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى، فيه منصب عظيم للصحابة؛ لأنّه تعالى قال:

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ «۳»، فكلّ من أطاع اللّه كان مقرّبا عند اللّه تعالى فدخل تحت قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى، و الحاصل أنّ هذه الآية تدلّ على وجوب حبّ آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حبّ أصحابه و هذا المنصب لا يسلم إلّا على قول أصحابنا أهل السنّة و الجماعة الّذين جمعوا بين حبّ العترة و الصحابة، و سمعت بعض المذكّرين قال أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال:

«مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا»، و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

«أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم» و نحن الآن فى بحر التكليف و تضربنا أمواج الشبهات و الشهوات، و راكب البحر يحتاج إلى أمرين:

أحدهما: السفينة الخالية من العيوب و الثقب.

و الثانى: الكواكب الظاهرة الطالعة النيّرة، فإذا ركب تلك السفينة و وقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجا السلامة غالبا، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنّة سفينة حبّ آل محمّد و وضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۵

فرجوا من اللّه تعالى أن يفوزوا بالسلامة و السعادة فى الدنيا و الآخرة «۱».

انتهى.

أقول: ۱. كيف يجمع الرازى بين تفسير القربى بمعنى القرابة و تفسيرها بمعنى العبادة. مع ما روى بطرق عديدة أنّهم «علىّ و فاطمة و ابناهما»، بل مع قوله تعالى فى آيتى الخمس «۲» و الفىء «۳» من جعلهما للّه و للرسول و لذى القربى بمعنى القرابة و كذلك فى آية إيتاء ذى القربى حقّه «۴» التى نزلت خطابا للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى اعطاء فاطمة فدكا، بل لم يرد لفظ و هيئة (القربى) فى القرآن بمعنى العبادة و الطاعة و نحوهما، بل جميع مواردها بمعنى القرابة و الأهل.

۲. أنّه لم ينقل تتمّة حديث السفينة و هى: «و من تخلّف عنها هلك»، و حديث السفينة دالّ على انحصار النجاة بهم؛ كما أنّ حديث النجوم المنقول فى بعض الطرق الأخرى لديهم أيضا هو: «أهل بيتى كالنجوم »، ... و لو سلّمنا كون ألفاظ الحديث هو ما ذكرها فإنّ أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم على مجموعات، منهم جماعة السقيفة الذين عقدوا بيعة أبى بكر، و منهم الأنصار الذين خالفوا تلك البيعة، و منهم الموالين لعلى عليه السّلام، كسلمان و أبى ذرّ و عمّار و المقداد و بقية الاثنى عشر الّذين ذكرناهم سابقا الذين اعترضوا على أبى بكر و جلوسه مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و كذا جابر بن عبد اللّه الأنصارى و زيد بن أرقم و أبى سعيد الخدرى و غيرهم، و بمقتضى الجمع بين الحديثين و عدم المعارضة و التوفيق بينهما هو الاقتداء بالصحابة الذين و الوا عترة النبىّ و ركبوا سفينة النجاة، كما أنّ حديث السفينة المخاطب به كلّ المسلمين بما فيهم الصحابة، و لفظ الحديث حسب زعم (بأيّهم اقتديتم) لفظ العموم البدلى (أى)، المنطبق على مثل سلمان و أبى ذرّ و المقداد بل إنّ أكثر من صحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أد من ملازمته هم قرابته على و فاطمة عليهما السّلام.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۶

۳. أن دعواه ركوب أصحابه سفينة حبّ آل محمّد سيأتى تفشى سنّة العداء و النصب لآل محمّد فيهم، و جعلهم حبّ آل محمّد علامة للضعف و الجرح، و أنّهم مقيمون على الجفاء و الهجر لعترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و اقرأ التاريخ من يوم وفاة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حدوث السقيفة إلى يومنا هذا فانظر من الذى وصل العترة رحم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ «۱»؟! و من الذى قطع الصلة بالعترة وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ «۲»؟!

ثالثا «۳»: قد حكى القرطبى فى تفسيره عن قوم القول بنسخ الآية بقوله تعالى: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ «۴» و بقوله تعالى: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ «۵»، لكى يلحق اللّه تعالى نبيّه بإخوانه من الأنبياء، حيث قالوا: وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ «۶»، ثمّ حكى تقبيح هذا القول عن الثعلبى «۷».

أقول: إنّ قوله تعالى: ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ يعزز آية المودّة و لا يصادم مفادها، بل هو شارح للأجر فى آية المودّة و أنّ منفعته و نفعه عائد للمكلّفين و المسلمين أنفسهم لا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فليس سنّة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم التى أمره اللّه تعالى بها فى آية المودّة مخالفة لسنن الأنبياء من قبل من عدم طلب الأجر على أدائهم و تبليغهم للدّين و النبوّة.

إذ المودّة فى القربى التى سألها النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم منهم ليس أجرا عائدا نفعه له بل نفعه ينتفع به هم أنفسهم، و هذا ممّا ينادى أنّ مودّة القربى هى منشأ هداية لهذه الأمّة، و هذا ما يوضحه أيضا قوله تعالى: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۷

سَبِيلًا «۱»، أى: أنّ الأجر الذى سأله النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو المودّة فى القربى هو اتخاذ السبيل إلى الربّ تعالى، فنفع المودّة عائد للأمّة نفسها لا للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، إذ المودّة تتخذ سبيلا للهداية إلى اللّه تعالى، فمودّة على و فاطمة و ابناهما هداية، و هم السبيل إليه تعالى.

و يتحصّل من ذلك: تطابق آية المودّة مع حديث الثقلين و حديث السفينة و غيرها من الآيات و الأحاديث فى أصحاب الكساء.

مفاد آية المودة ... ص: ۱۸۷

إنّ التأمّل و التدبّر فى ألفاظ الآية يرشدنا إلى ما أشارت إليه الآيتان الأخريان من كون المودّة فى القربى مصلحة عامّة للأمّة و سبيل هداية، و أنّ هذه الفريضة التى أمر اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بتبليغها للأمّة هى من عظائم الفرائض و أركانها؛ و ذلك لأنّ المودّة جعلت أجرا معادلا لكلّ الرسالة و من البين أنّ تبليغ الرسالة اشتمل على تبليغ التوحيد و المعاد و الأقرار و الايمان بالنبوّة و غير ذلك من الأصول الاعتقادية، فضلا عن بقية أركان الدين، و مقتضى المعادلة بين الأجر و المعوض كون هذه الفريضة من أركان الدين.

و فى حديث الرضا عليه السّلام فى مجلس المأمون عن آية المودّة:

و هذه خصوصية للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى يوم القيامة و خصوصية للآل دون غيرهم، و ذلك أن اللّه عزّ و جلّ حكى ذكر نوح فى كتابه: وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ «۲» و حكى عزّ و جلّ عن هود أنّه قال: يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۳» و قال عزّ و جلّ لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا محمّد! قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۸

فِيها حُسْناً «۱»

و لم يفرض اللّه تعالى مودّتهم إلّا و قد علم أنّهم لا يرتدّون عن الدّين أبدا و لا يرجعون إلى ضلال أبدا، و أخرى أن يكون الرجل وادّا للرجل، فيكون بعض أهل بيته عدوّا له، فلم يسلم قلب الرجل له، فأحبّ اللّه عزّ و جلّ أن لا يكون فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم على المؤمنين شىء ففرض اللّه عليهم مودّة ذوى القربى فمن أخذ بها و أحبّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أحبّ أهل بيته لم يستطع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبغضه، و من تركها و لم يأخذ بها و أبغض أهل بيته، فعلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبغضه لأنّه قد ترك فريضة من فرائض اللّه تعالى، فأىّ فضيلة و أىّ شرف يتقدّم هذا أو يدانيه...؟

- إلى أن قال عليه السّلام- و ما بعث اللّه عزّ و جلّ نبيّا إلّا أوحى إليه أن لا يسأل قومه أجرا، لأنّ اللّه يوفّى أجر الأنبياء، و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم فرض اللّه عزّ و جلّ مودّة قرابته على أمّته، و أمره أن يجعل أجره فيهم، لتودّوه فى قرابته، لمعرفة فضلهم الذى أوجب اللّه عزّ و جلّ لهم، فإنّ المودّة إنّما تكون على قدر معرفة الفضل.- إلى أن قال عليه السّلام- و ما أنصفوا نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى حيطته و رأفته، و ما منّ اللّه به على أمّته ممّا تعجز الألسن عن وصف الشكر عليه، أن يودّوه فى قرابته و ذرّيّته و أهل بيته، و أن يجعلوهم فيهم بمنزلة العين من الرأس، حفظا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيهم، و حبّا لهم، و كيف و القرآن ينطق به و يدعوا إليه، و الأخبار ثابتة أنّهم أهل المودّة و الذين فرض اللّه تعالى مودّتهم و وعد الجزاء عليها، فما وفى أحد بهذه المودّة مؤمنا مخلصا إلّا استوجب الجنّة، لقول اللّه عزّ و جلّ فى هذه الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* ذلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۸۹

عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكَمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى «۱» مفسّرا مبيّنا «۲».

ثمّ إنّ هناك آيات أخر دالّة على هذه الفريضة، كقوله تعالى: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ* وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ «۳» و هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السّلام تصدّق و هو راكع في واقعة معروفة، فلاحظ فيها مصادر الفريقين، و كذا آية التبليغ و آية خير البريّة، و سورة هل أتى و غيرها من الآيات الكثيرة.

و أمّا الروايات، و الأحاديث الواردة في افتراض محبّة عترة المصطفى على و فاطمة و ولديهما فهي فوق حدّ التواتر، فقد روى عن جابر: أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن نعرض أولادنا على حبّ على بن أبى طالب «۴». و روى عن عبادة بن الصامت، أنّه قال: كنا نبور أولادنا بحبّ على ابن أبى طالب فإذا رأينا أحدا لا يحبّه علمنا أنّه ليس منّا و أنه لغير رشدة «۵».

و روى المناوى في كنوز الحقائق، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «حبّ على عليه السّلام براءة من النفاق» «۶»، و روى الطبراني و غيره عن فاطمة الزهراء عليها السّلام قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «أنّ السعيد كلّ السعيد من أحبّ عليّا عليه السّلام في حياته و بعد موته، و أنّ الشقيّ كلّ الشقيّ من أبغض عليّا عليه السّلام في حياته و بعد موته» «۷»، و روى جابر رضى اللّه عنه: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۰

يقول: «لكلّ شيء أساس و أساس الدّين حبّنا أهل البيت»، و في طريق آخر «حبّ أهل بيتى» «۱». و روى عن أنس بن مالك أنّه يقول: و اللّه الذى لا إله إلّا هو لسمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: «عنوان صحيفة المؤمن حبّ على بن أبى طالب» «۲».

و يمكن للقارىء العزيز مراجعة كتاب ملحقات إحقاق الحقّ بتوسط فهرست الملحقات مادة «ح ب ب» ليقف على عشرات المصادر من كتب أهل سنة الجماعة التي روت الأحاديث الجمّة في ذلك، مثل «من مات على حبّ آل محمّد مات شهيدا»، فقد أخرج له في الملحقات العديد من المصادر، و كذا «من مات على حبّ آل محمّد فأنا كفيله بالجنّة و جعل اللّه زوار قبره ملائكة الرحمة»، و «لو اجتمع الناس على حبّ عليّ بن أبى طالب لما خلق اللّه النار»، و «حبّ على براءة من النار»، و «حبّ على حسنة لا تضرّ معها سيئة و بغضه سيئة لا تنفع معها حسنة»، و «أساس الإسلام حبّى و حبّ أهل بيتى»، «لن يقبل اللّه فرضا إلّا بحبّ على بن أبى طالب»، «لا ينال ولاية النبيّ إلّا بحبّ على»، «أكثركم نورا يوم القيامة أكثركم حبّا لآل محمّد»، «أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّا لأهل بيتى»، «من أحبّ هذين- الحسنين- و أمّهما و أباهما كان معى في درجتى»، «من أحبّ عليّا فقد أحبّنى و من أحبّنى فقد أحبّ اللّه»، «شفاعتى لأمّتى من أحبّ أهل بيتى»، «لا يحبنا إلّا من طابت ولادته»، «لا يحبنا أهل البيت إلّا مؤمن تقىّ»، «لا يحبّنى حتّى يحبّ ذوى قرابتى»، «من أراد دخول الجنّة بغير حساب فليحبّ أهل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۱

بيتى»، «لا يقبل إيمان عبد إلّا بمحبته أهل بيتى»، «عاهدنى ربّى أن لا يقبل إيمان عبد إلّا بمحبّة أهل بيتى»، و غيرها من عشرات الأحاديث لو أردنا أن نستوفيها بأكملها لخرجنا عن حدّ البحث، لكن يمكن مراجعة تلك المصادر «۱».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۲

المقام الثانى فى ترك القوم فريضة المودّة و تبديلها بسنّة النّصب و العداوة ... ص: ۱۹۲

اشارة

قال ابن قدامة فى المغنى فى كتاب الشهادات- شروط الشهادة-:

الشرط الرابع: العدالة ... فالفسوق نوعان:

أحدهما: من حيث الأفعال فلا نعلم خلافا فی ردّ شهادته.

و الثانی: من جهـة الاعتقاد و هو اعتقاد البدعة فيوجب ردّ الشـهادة أيضا، و به قال مالك و شـريك و إسـحاق و أبو عبيد و أبو ثور، و قال شريك أربعة لا تجوز شهادتهم، (رافضی) يزعم أن له إماما مفترضة طاعته، (و خارجی) يزعم أن الدنيا دار حرب. إلی أن قال- و قال أبو حامد من أصحاب الشافعی المختلفون علی ثلاثة أضرب.

الأوّل: اختلفوا فی الفروع، فهولاء لا يفسقون بذلك و لا تردّ شهادتهم و قد اختلف الصحابة فی الفروع و من بعدهم من التّابعين.

الثانی: من نفسّقه و لا نكفّره و هو من سبّ القرابة كالخوارج أو سبّ الصحابة كالروافض فلا تقبل لهم شهادة لذلك «... ۱»

و نظير ذلك قال صاحب الشرح الكبير «۲». و قال فی المغنی فی فصل التوبة من الكتاب المزبور:

و قـد ذكر القاضـی أنّ التائب من البدعة يعتبر له مضـی سـنة لحديث صبيغ رواه أحمد فی الورع قال: و من علامة توبتة أن يجتنب من كان يواليه من أهل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۳

البدع و يوالی من كان يعاديه من أهل السنّة «... ۱»

أقول: فالرفض أحـد تعاريفه لـديهم هو: من يعتقـد بالإمام المفترض الطاعـة من عترة النبیّ صـلّی اللّه عليه و آله و سـلم، و جعلوا هـذا الاعتقـاد بدعـة فی الـدّين و لاـ أدری أیّ دين يعنون؟! هل آيـة المودّة و آيـة التطهير و آيـة المباهلـة و سورة الـدهر و آيـة الولايـة، و التصـدّق فی حـال الركوع، و آيـة الإبلاـغ فی غـدير خم من سورة المائـدة، إلی غير ذلك من الآيات الكثيرة التی نزلت فی أصـحاب الكساء، فضلا عن الأحاديث النبويّة فيهم كحديث الغدير و السفينة و الثقلين و الدار و المنزلة و الأئمّة من قريش إثنا عشر، و غيرها من الأحاديث النبويّة الكثيرة التی رواها الفريقان، كلّ هذه الحجج من الكتاب و السنّة ابتداع فی الدين الذی يرسمه القوم لأنفسهم؟!

و الأنكی أنّ جماعـة من أهل سـنّة الجماعـة- كما نقل التفتازانی فی شـرح المقاصد «۲»، فی مبحـث الإمامـة و غيره فی كتب أخری- قائلون بالنصّ علی أبی بكر و أنّه الخليفـة المنصوب المفترض طاعته، و كـذلك النصّ علی عمر، فهل القول بالنصّ عليهما غير مخرج عن الـدين، و القول بالنصّ علی علیّ عليه السّـلام و ولده بدعة فی الدين، لا أری هذه التفرقة إلّا امتثالا لفريضة المودّة فی القربی التی أمر القرآن بها!!

و الغريب أنّ التفتازانی ثمّـة أعترف- و نقل عن بعضـهم أيضا- أنّ الـدلائل من كلا الطرفين موجودة، غايـة الأمر انّه رجّح الدالّ منها- بزعمه- علی فضائـل الشـيخين، علی ما دلّ علی فضائل علی عليه السّـلام، و لا ينقضـی التـدافع فی أقوال القوم فهم من جانب يجعلون الخلافـة و الإمامة بعد النبیّ صـلّی اللّه عليه و آله و سـلم من الفروع دون الاعتقادات، و من جانب آخر يجعلون الاختلاف بينهم و بين الشـيعة فی الإمامـة و الخلافـة خلافا اعتقاديا، و هـذا بخلاف الاختلاف فی المـذاهب الأربعة و نحوها فإنّه خلاف فی الفروع لاتّفاقهم علی إمامة الشيخين و إن اختلفوا فی التجسيم و التشبيه و فی الجبر و التفويض و فی خلق القرآن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۴

و غيرها من المسائل الخطيرة الخلافية فی الاعتقادات.

ثمّ أنّهم اشترطوا فی التوبة الاجتناب ممّن كان يواليه من أتباع أهل البيت عليهم السّلام و يوالی من كان يعاديه من أهل سنّة الجماعة و لم يـذكروا ذلك فی الناصبـة الـذين عادوا أهل البيت عليهم السّـلام، و لم يعتبروهم من أهل البـدع بل من أهل سـنّة الجماعـة الـذين اشترط موالاتهم فی التوبة المتقدمة. و قال الذهبی فی ترجمة أبان بن تغلب الكوفی:

شيعی جلـد، لكنّه صـدوق، فلنا صـدقه و عليه بـدعته. و قـد وثقه أحمد بن حنبل و ابن معين و أبو حاتم و أورده ابن عدی و قال: كان غالبا فی التشيّع، و قال السعدی: زائغ مجاهر. فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتـدع، و حـدّ الثقـة العدالة و الإتقان؟! فكيف يكون

عدلا من هو صاحب بدعة؟!

و جوابه: أنّ البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلوّ التشيّع أو كالتشيّع بلا غلو و لا تحرف، فهذا كثير فى التّابعين و تابعيهم مع الدين و الورع و الصدق، فلو ردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبويّة، و هذه مفسدة بيّنة ثم بدعة كبرى، كالرفض الكامل و الغلو فيه، و الحطّ على أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و الدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتجّ بهم و لا كرامة. و أيضا فما استحضر الآن فى هذا الضرب رجلا صادقا و لا مأمونا، بل الكذب شعارهم، و التقية و النفاق دثارهم، فكيف يقبل نقل من هذا حاله! حاشا و كلا، فالشيعى الغالى فى زمان السلف و عرفهم هو من تكلّم فى عثمان و الزبير و طلحة و معاوية و طائفة ممّن حارب عليّا رضى اللّه عنه، و تعرّض لسبّهم، و الغالى فى زماننا و عرفنا هو الذى يكفّر هؤلاء السادة، و يتبرأ من الشيخين أيضا، فهذا ضالّ معثّر، و لم يكن أبان بن تغلب يعرض للشيخين أصلا، بل قد يعتقد عليّا أفضل منهما «۱». انتهى.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۵

أقول: و إقرار الذهبى بأنّ كثيرا من رواة التّابعين و تابعيّهم هم ممن تشيّع و كان من الرافضة، يقتضى على أصول القوم تعديلهم لأولئك الرواة و حجّيتهم بمقتضى القاعدة و الأصل الذى عدّلوا به الصحابة، و هو كونهم نقلة الدّين و أنّه لولا هم لما وصل إلينا، إلّا أنّ القوم لم يعملوا بهذا الأصل فى التّابعين و تابعيهم فى الرواة المذكورين، ممّا يدلل على أن وجهة التعديل ليس ذلك الأصل المتقدّم و إنّما هو بيعة السقيفة.

و يلحظ فى نهج الذهبى الدمشقى الذى هو من أئمّة الجرح و التعديل لدى أهل سنّة الجماعة و الذى وصفه تلميذه ابن السبكى فى الطبقات بالنصب، بل إنّ غالب أئمّة الجرح و التعديل لديهم ممّن ينصب العداوة لآل البيت عليهم السّلام- كما يفوح من كلماتهم-: أنّه جعل حبّ أهل البيت عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- و هو التشيّع كما يسمّيه- بدعة، و لا يستغرب من جرأة القوم على القرآن و السنّة و جعلهم الفريضة العظيمة بدعة، و سيأتى أنّهم جعلوا بغض أهل البيت سنّة و كلّما أشتد البغض أطلقوا عليه صلب فى السنّة. و قد جرى على ذلك غالب أئمّة الجرح و التعديل لديهم.

ففى ترجمة إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدى الجوزجانى قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب:

قال الخلال: إبراهيم جليل جدّا، كان أحمد بن حنبل يكاتبه و يكرمه إكراما شديدا ... و قال ابن حبّان فى الثقات: كان حرورى المذهب، و لم يكن بداعية، و كان صلبا فى السنّة، حافظا للحديث، إلّا أنّه من صلابته ربّما كان يتعدّى طوره. و قال ابن عدى: كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق فى الميل على على. و قال السلمى عن الدارقطنى بعد أن ذكر توثيقه: لكنّ فيه انحراف عن على، اجتمع على بابه أصحاب الحديث فأخرجت جارية له فرّوجة لتذبحها فلم تجد من يذبحها، فقال: سبحان اللّه فرّوجة لا يوجد من يذبحها، و علىّ يذبح فى ضحوة نيفا و عشرين ألف مسلم. قلت: و كتابه فى الضعفاء يوضح مقالته، و رأيت فى نسخة من كتاب ابن حبان حريزى المذهب و هو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۶

بفتح الحاء المهملة و كسر الراء و بعد الياء زاى نسبة إلى حريز ابن عثمان المعروف بالنصب «۱». انتهى.

و قال الذهبى فى ترجمته:

أحد أئمّة الجرح و التعديل ... كان مقيما بدمشق يحدّث على المنبر و كان أحمد يكاتبه فيتقوّى بكتابه و يقرؤه على المنبر «۲». انتهى.

أقول: فقد أفصحوا بأبلغ وضوح مرادهم من السنّة و الصلابة فى السنّة و هى نصب العداوة لعلى عليه السّلام و ولده، و يلاحظها المتتبع فى تراجم كثير من الرواة من التّابعين و تابعيّهم المعروفين بالنصب و الجفاء للعترة، و هذه السنّة أفرزتها السقيفة من إقصاء أهل البيت عليهم السّلام، و من الهجوم على بيت فاطمة عليها السّلام، كما جاهر بها بنو أميّة و هى طابع النهج المروانى.

و لقد ارتجّ المسجد من صياح من فيه بعمر بن عبد العزيز: السنّة السنّة تركت السنّة! عندما ترك فى خطبة الجمعة لعن ابن عمّ النبىّ

صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أخيه!! و أصرّ أهل حران على الاستمرار على تلك السنّة لمّا نهوا عن اللعن، و قالوا أنّ الجمعة لا تصحّ بدونها، و لا غرو فقد أخرجت تلك السنّة فى تلك البلدان أجيال ممّن تصلّبوا فيها من الوقيعة و اللمز فى أهل البيت عليهم السّلام. هذا فى حين يذكر الذهبى فى ترجمة عمر بن سعد قاتل سبط النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: و قال العجلى: روى عنه الناس، تابعى ثقة.

و قال ابن حجر فى ترجمة جعفر بن سليمان الضبعى البصرى:

قال أبو طالب عن أحمد: لا بأس به، قيل له: أن سليمان بن حرب يقول:

لا يكتب حديثه، فقال: أنّما يتشيّع، و كان يحدّث بأحاديث فى فضل على، و أهل البصرة يغلون فى على- أى فى بغضه- و قال عباس عنه: ثقة كان يحيى بن سعيد لا يكتب حديثه لا يروى عنه و كان يستضعفه، و قال أحمد بن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۷

سنان: رأيت عبد الرحمن بن مهدى لا ينبسط لحديث جعفر بن سليمان قال أحمد بن سنان: استثقل حديثه، و قال ابن سعد: كان ثقة و به ضعف و كان يتشيّع، و قال جعفر الطيالسى عن ابن معين: سمعت من عبد الرزاق كلاما يوما فاستدللت به على ما ذكر عنه من المذهب، فقلت له: أنّ أستاذيك الذين أخذت عنهم ثقات، كلهم أصحاب سنّة فعمّن أخذت هذا المذهب؟

فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان فرأيته فاضلا حسن الهدى فأخذت هذا عنه.

و قال ابن الضريسى: سألت محمّد بن أبى بكر المقدمى عن حديث لجعفر ابن سليمان، فقلت: روى عنه عبد الرزاق قال: فقدت عبد الرزاق ما أفسد جعفر غيره- يعنى فى التشيع ...- قال ابن حبان: كان جعفر من الثقات فى الروايات غير أنّه ينتحل الميل إلى أهل البيت و لم يكن بداعية إلى مذهبه و ليس بين أهل الحديث من أئمّتنا خلاف، أن الصدوق المتقن إذا كانت فيه بدعة و لم يكن يدعوا إليها الاحتجاج بخبره جائز» «۱». انتهى.

فيلاحظ من نقله لكلمات أئمّة الجرح و التعديل الأمور التالية:

الأوّل: جعلهم حبّ على عليه السّلام و نقل الرواية فى فضائله بدعة، و يسمونه تشيع، و هم فى ذلك يستحرمون الفريضة العظيمة التى أمر بها القرآن من مودّة القربى.

الثانى: جعلهم الميل إلى أهل البيت مصدر طعن و قدح فى الراوى، و تراهم يفصحون بذلك و يجاهرون به فى كثير من تراجم الرواة من غير نكير و هذا شقاق مع اللّه و رسوله و محادّة، و قد طعنوا فى كثير من أصحاب على عليه السّلام و حواريّه بمثل ذلك.

الثالث: إعراضهم عن روايات فضائل أهل البيت عليهم السّلام التى يرويها الثقات، و كم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۱۹۸

طمس و ضيّع من الآثار النبوّية فى مناقب العترة، الجمّ الغفير و ترى تصريحهم بالإعراض المزبور فى تراجم رواة ثقات كثير، و من ذلك قول الشافعى فى حقّ الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام: ماذا أقول فى رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفا، و أخفت أعداؤه فضائله حسدا، و شاع من بين ذين ما ملأ الخافقين «۱». و كيف لا يكون ذلك منهم و قد منع كتابة الحديث النبوى فى الصدر الأوّل تحت شعار حسبنا كتاب اللّه.

الرابع: جريهم على استبشاع الروايات الواردة فى فضائل على عليه السّلام فتارة يعبرون لا ينبسط لحديث فلان، و أخرى لا يكتب حديثه، و ثالثة استثقل حديثه و غير ذلك من عبائرهم التى تفوح بالإشمئزاز و النفرة من الذى قال فيه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى»، «و على مع الحقّ و الحقّ مع على يدور معه حيثما دار»، «لا يبغضك يا على إلّا منافق أو ابن زنا أو ابن حيضة»، و غيرها من الأحاديث النبويّة.

الخامس: جعلهم الانقطاع عن أهل البيت عليهم السّلام و الابتعاد عنهم و تركهم سنّة، و العاملين بها أصحاب سنّة كما عبّر بذلك ابن

معين في كلامه مع المحدّث الحافظ عبد الرزاق الصنعاني، و جعل موادّة عبد الرزاق لأهل البيت عليهم السّلام فساد في الدين. و لا يخفى أن جعفر بن سليمان ممّن روى حديث الطير، و حديث «ما تريدون من عليّ! عليّ مني و أنا منه و هو وليّ كل مؤمن بعدى» كما ذكر ذلك الذهبى فى الميزان «۲».

و قال ابن حجر في ترجمة حريز بن عثمان الحمصى:

قال معاذ بن معاذ حدّثنا حريز بن عثمان و لا أعلم أنى رأيت بالشام أحدا أفضله عليه. و قال الآجرى عن أبى داود: شيوخ حريز كلّهم ثقات، قال:

و سألت أحمد بن حنبل فقال: ثقة ثقة، و قال أيضا: ليس بالشام أثبت من

حريز إلّا أن يكون بحير، و قال أيضا عن أحمد و ذكر له حريز و أبو بكر بن أبى مريم و صفوان فقال: ليس فيهم مثل حريز ليس أثبت منه...

و قال عمر بن على: كان ينتقص عليّا و ينال منه و كان حافظا لحديثه و قال فى موضع آخر: ثبت شديد التحامل على على. و قال الحسن بن على الخلال:

سمعت عمران بن إياس سمعت حريز بن عثمان يقول: لا أحبّه قتل آبائى- يعنى عليّا- و قال أحمد بن سعيد الدارمى، عن أحمد بن سليمان المروزى:

سمعت إسماعيل بن عياش قال: عادلت حريز بن عثمان من مصر إلى مكّة فجعل يسبّ عليّا و يلعنه، و قال الضحاك بن عبد الوهاب- و هو متروك متّهم- حدّثنا إسماعيل بن عياش سمعت حريز بن عثمان يقول: هذا الذى يرويه الناس عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال لعلى: «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى» حقّ، و لكن أخطأ السامع، قلت: فما هو؟ فقال: إنّما هو: أنت منّى بمنزلة قارون من موسى. قلت: عمّن ترويه؟ قال: سمعت الوليد بن عبد الملك يقول و هو على المنبر.

و قال ابن عدى: و حريز من الأثبات فى الشاميين، و يحدّث عن الثقات منهم، و قد وثّقه القطان و غيره، و إنّما وضع منه ببغضه لعلى، و قيل له فى ذلك، فقال:

هو القاطع رؤوس آبائى و أجدادى. و قد اعتمده البخارى فى صحيحه «۱».

انتهى.

أقول: فانظر إلى مدح هذا الناصبيّ الوضّاع، و توثيقهم له و جعلهم إيّاه من الأثبات، و اعتمادهم عليه و ملازمة روايته و توثيقهم لجميع مشايخه الذين منهم الوليد بن عبد الملك!! ثمّ أين غيرتهم على الصحابة و البراءة من سبّ الصحابة؟! و أين تلك الهالة القدسيّة التى يحيطونها بالصحابى؟! و أين تلك الحميّة لصحبة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! أو ليس ابن عمّ

النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم نجم و رأس فى الصحبة و الصحابة؟! علاوة على قرابته للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و مقاماته فى بناء صرح الدّين.

كلّ هذا شاهد لما كررناه فى بحوث هذه الحلقات أنّ عنوان الصحابة لا يراد به إلّا أصحاب السقيفة دون الأنصار و دون بنى هاشم و دون من والى عليّا عليه السّلام من المهاجرين و سائر الصحابة، كما أنّ مرادهم من أصحاب السنّة هو سنّة العداء و القطيعة و الجفاء لعترة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل إنّ هذه السنّة الجاهلية و المنبعثة من السقيفة و الأمويّة المروانية قد طالت شخص النبيّ الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قال ابن حجر فى ترجمة خالد بن سلمة بن العاص المخزومى المعروف بالفأفأ:

قال أحمد- أى ابن حنبل- و ابن معين و ابن المدينى: ثقة ... و قال أبو حاتم:

شيخ يكتب حديثه، و قال ابن عدى: هو فى عداد من يجمع حديثه، و لا أرى بروايته بأسا، و ذكره ابن حبان فى الثقات، و قال محمّد بن حميد عن جرير:

كان الفأفأ رأسا فى المرجئة و كان يبغض عليّا، ذكره على بن المدينى يوما، فقال: قتل مظلوما. وقع فى صحيح البخارى ضمنا، و ذكر ابن عائشة أنّه: كان ينشد بنى مروان الأشعار التى هجى بها المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلم «۱». و قد وثّقه الذهبى أيضا «۲».

أقول: و كيف لا يركنون إلى أمثال هؤلاء الرواة المبغضين للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و عترته،- كمروان بن الحكم و نظائره فى صحاحهم-؟! و كيف لا يأمنونهم على دينهم و السنّة عندهم هى على قطيعة العترة و جفائهم و هجرهم و العداوة لهم؟! و هى تؤدى إلى قطيعة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و العداوة له، كما أنّ مودّة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم تؤدى إلى مودّة عترته، فالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و عترته متلازمان فى المودّة، و بغض أحدهما يؤدى إلى بغض الآخر و هذا هو مفاد آية المودّة، إذ مقتضى كون مودّة القربى أجر الرسالة هو: أن تقدير نبوّة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و رسالة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۱

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تقديسه، بأداء أجرها و قيمتها و هو مودّة القربى، فالاستخفاف بمودّة القربى استخفاف بأجر الرسالة و النبوّة، و استحلال عداوة العترة استحلال لحرمة الرسالة.

و قال ابن حجر فى ترجمة لمازة بن زبّار- أبو لبيد البصرى-:

ذكره ابن سعد فى الطبقة الثانية من أهل البصرة، و قال: سمع من على و كان ثقة و له أحاديث، و قال حرب عن أبيه: كان أبو لبيد صالح الحديث، و أثنى عليه ثناء حسنا، و قال موسى بن إسماعيل، عن مطر بن حمران: كنّا عند أبى لبيد فقيل له: أتحبّ عليّا؟ فقال: أحبّ عليا و قد قتل من قومى فى غداة ستة آلاف، و ذكره ابن حبّان فى الثقات.

و قال عباس الدورى عن يحيى بن معين: حدّثنا وهب بن جرير، عن أبيه، عن أبى لبيد و كان شتاما، قلت: زاد العقيلى، قال وهب: قلت لأبى: من كان يشتم؟

قال: كان يشتم على بن أبى طالب، و أخرجه الطبرى من طريق عبد اللّه بن المبارك عن جرير بن حازم، حدّثنى الزبير بن خريت، عن أبى لبيد، قال:

قلت له: لم تسبّ عليّا؟ قال: ألا أسبّ رجلا قتل منّا خمسمائة و ألفين و الشمس هاهنا..

ثمّ قال ابن حجر- و قد كنت استشكل توثيقهم الناصبى غالبا، و توهينهم الشيعة مطلقا، لا سيّما أنّ عليّا ورد فى حقّه: «لا يحبّه إلّا مؤمن و لا يبغضه إلّا منافق». ثمّ ظهر لى فى الجواب عن ذلك أنّ البغض هاهنا مقيّد بسبب و هو كونه نصر النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ لأن من الطبع البشرى بغض من وقعت منه إساءة فى حقّ المبغض، و الحبّ بعكسه؛ و ذلك ما يرجع إلى أمور الدنيا غالبا، و الخبر فى حبّ على و بغضه ليس على العموم، فقد أحبّه من أفرط فيه حتّى ادعى أنّه نبيّ، أو أنّه إله تعالى اللّه عن إفكهم، و الذى ورد فى حقّ على من ذلك قد ورد مثله فى حقّ الأنصار، و أجاب عنه العلماء أن بغضهم لأجل النصر كان

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۲

ذلك علامة نفاقه و بالعكس، فكذا يقال فى حقّ على، و أيضا فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهورا بصدق اللهجة و التمسّك بأمور الديانة بخلاف من يوصف بالرفض فإنّ غالبهم كاذب، و لا يتورّع فى الأخبار، و الأصل فيه أنّ الناصبة أعتقدوا أنّ عليّا رضى اللّه عنه قتل عثمان، أو كان أعان عليه فكان بغضهم له ديانة بزعمهم، ثمّ انضاف إلى ذلك أنّ منهم من قتلت أقاربه فى حروب على «۱». انتهى كلامه.

و قال الذهبى فى ترجمة لمازة بن زبّار:

بصرى حضر وقعة الجمل، و كان ناصبيا ينال من على رضى اللّه عنه، و يمدح يزيد «۲». انتهى.

أقول: دفاع ابن حجر عن الناصبة و إن كان استحلالا منه لعداوة على عليه السّلام بتسويل واهى إلّا أننا نوضّح لوازم كلامه و نسجّل نقاط اعترافه:

الأولى: إقراره بتوثيق أهل سنّة الجماعة غالب الناصبة المعادين لعترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و اعتمادهم فى الرواية عليهم و أخذ أحكام الدّين عنهم، و لا غرابة فى ذلك لأنّ مآل من يترك العترة النبويّة التى أمر اللّه بمودّتها- و هو ترك لأعظم فريضة- الركون إلى العصاة البغاة أهل النفاق و الشقاق.

الثانية: إقراره بتوهين أهل سنّة الجماعة كافة الشيعة ممّن يميل إلى عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يواليهم، و هذا يعزز ما ذكرناه من أنّ مرادهم من السنّة هو سنّة العداء و قطعية عترة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

الثالثة: دعواه: أنّ حرمة بغض على عليه السّلام و كون البغض نفاقا مقيّدا بسبب نصرة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۳

النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و استدل على التقييد بأنّ من وقعت منه إساءة فى حقّ المبغض يبغضه بحكم الطبع البشرى.

و يندفع: مع ذيل كلامه من أنّ الناصبة يبغضون عليّا لمخالفته لعثمان، و ليس كلّ الناصبة ممّن كان فى عصر على عليه السّلام، و لا كلّ الناصبة هم ممّن قتل على آباءهم فى بدر و أحد و حنين و الأحزاب و خيبر و الجمل و صفين، كما أن قتل على لآباء الناصبة و أجدادهم فى حروب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان فى سبيل اللّه و اعلاء كلمة الإسلام و إرغام كلمة الكفر، و كذلك فى حرب الجمل و صفين و النهروان كان قتالا للناكثين للبيعة و القاسطين الظلمة و المارقين من الإسلام، كما يمرق السهم من القوس، كما أمره بذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و جاءت به الأحاديث النبويّة، و كما فى أحاديث قتل عمار بن ياسر و غيرها، و كيف يطلق ابن حجر على ذلك الجهاد فى سبيل اللّه أنّه إساءة لآباء الناصبة و فعل سوء- ربنا نعوذ بك من استحلال حرمات دينك- و لعمرى إنّ دفاع ابن حجر بمثل ذلك أعظم قدحا فى الدّين من نصب الناصبة، لأن ذلك يفتح الباب للآخرين ببغض العترة بذلك التسويل، ثمّ ماذا يصنع ابن حجر مع آية المودّة فهل يأوّلها أيضا؟ و إذا ساغ مثل هذا العبث بمحكمات و بيّنات الدّين فليعذر عندهم إبليس فى معاداته لخليفة اللّه آدم عليه السّلام؛ لأنّه تأوّل فأخطأ لا سيّما و أن خلقة إبليس من نار فطبعه الخلقى الحمية و العصبية.

ثمّ إن حديث «على مع الحقّ و الحقّ مع على يدور معه حيثما دار»، أو مثل حديث السفينة و حديث الثقلين و غيرها من الأحاديث دالّ على أنّ بغض على عليه السّلام فى أىّ موقف مخالفة للحقّ و هلاک و ضلال؛ لأنّ عليّا عليه السّلام فى كلّ سيرته و فعله مع الحقّ و نصرة للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتّى بعد وفاته.

الرابعة: إنّ إفراط بعض من أحبّ عليّا و غلوه لا يسوّغ بغض و عداوة على عليه السّلام، و إلّا لجاز بغض و معاداة النبىّ عيسى عليه السّلام، و كيف يتعذّر ابن حجر بمثل ذلك فى مخالفة آية

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۴

المودّة التى تنادى بعظم فريضة المودّة فى القربى؟! و ما وزر من أحبّ عليّا و لم يغل فيه؟!

و أمّا قياس ما ورد فى على عليه السّلام بما ورد فى حقّ الأنصار، فهو قياس مع الفرق و البون الشاسع، فإنّ ما ورد فى على عليه السّلام لا يحصى من أحاديث الفضائل و المناقب، و أين ذلك ممّا ورد فى الأنصار، مضافا إلى أنّ الحكم فى على عليه السّلام قد رتّب على ذاته الطاهرة التى أذهب اللّه عنها الرجس بنصّ آية التطهير.

و أمّا الحكم فى الأنصار فقد رتّب على عنوان نصرتهم، و الوصف مشعر بعلّة الحكم، بخلاف عنوان الذات فى على عليه السّلام فإنّه يعطى ملازمة ذاته الطاهرة للحقّ و نصرة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الدّين فى كلّ المواطن.

ثمّ ما يصنع ابن حجر فى الحديث الآخر: «لا يبغضک يا على إلّا منافق أو ابن زنا أو ابن حيضة»، أو ما فى حديث جابر: «كنّا نبارى

أولادنا بحبّ على عليه السّلام، فمن كان يحبّه علموا أنّه طاهر الولادة، و من كان يبغضه علموا أنّه لغير أبيه»، و غير ذلك من الأحاديث التى تهيّج ثائرة أهل النصب.

الخامسة: وصفه أكثر الناصبة بالتمسّك بأمور الديانة و الصدق، و من تلك الديانة قطع ما أمر اللّه به أن يوصل، و منع أجرة النبوّة العائد نفعها لا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و كيف لا يكون إبليس أعبد العباد على هذا المنطق؛ لأنّه أبى أن يسجد لآدم و أصرّ أن يكون خضوعه للّه خالصا من طاعة ولى اللّه، فلقد اقترح إبليس على اللّه أن اعفنى من السجود لآدم و لأعبدنّك عبادة لم يعبدك أحد مثلها، فأجابه تعالى: «إنّى أحبّ أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تريد»، ثمّ إنّ ممّن وثّقوه من الناصبة خالد بن سلمة بن العاص الذى تقدّم أنّه ينشد بنى مروان أشعاره التى يهجو بها المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و كذا عمر بن سعد قاتل الحسين عليه السّلام، و نظائرهم فبخ بخ له بهذه الديانة.

السادسة: دعواه كذب أكثر الرافضة يناقضه ما تقدّم من إقرار الذهبى فى ترجمة أبان بن تغلب: «فهذا كثير فى التّابعين و تابعيهم مع الدين و الورع و الصدق، فلو ردّ حديث

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۵

هؤلاء لذهبت جملة من الآثار النبويّة و هذه مفسدة بيّنة» «۱». هذا مع أنّ تأوّل ابن حجر فى جرح أهل سنّة الجماعة فى الرواة الشيعة يدفعه تنصيصهم على أنّ منشأ الطعن هو الميل إلى أهل البيت عليهم السّلام، أو حبّ على عليه السّلام، فكلماتهم تنادى بأبتداع المودّة فى القربى التى أمر اللّه تعالى بها.

السابعة: أنّ الناصبة يعذرون فى بغضهم لعلى عليه السّلام، مع افتراض مودّته بنصّ الكتاب و مع ذلك يوصفون بالديانة، فلم لا يعذر من ينسب إليهم بغض الشيخين و أصحاب السقيفة؟!

العداوة مرض فى قلوب الناصبة ... ص: ۲۰۵

إنّ القرآن الكريم كما أمر و فرض مودّة أهل البيت و أمر بصلتهم و عظّم من هذه الفريضة حتّى جعل خطبها فى مصافّ أصول الاعتقاد و الإيمان بجعلها أجرا لكلّ الرسالة المشتملة على العقيدة و المعرفة، و هذا البيان شاف لإقامة الحجّة البالغة على العباد و قطع العذر و إنارة سبيل النجاة.

كذلك القرآن حذّر و نهى عن البغض و العداوة لهم، حيث تعرّضت كثير من الآيات للنهى عن قطع ما أمر اللّه به أن يوصل، كما حذّر من الضغينة التى هى ضد المودّة فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ* فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ* وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۶

فقد سلّطت الضوء هذه الآيات الشريفة على تعريف الضغينة بأنّها مرض فى قلوب ثلّة، و لا نجد فى القرآن الكريم أنّ اللّه تعالى افترض المحبّة و المودّة- التى هى من أفعال القلب-، و من ثمّ تظهر على أفعال الجوارح إلّا فى المحبّة للّه تعالى و للرسول و لذى القربى، فالضغينة المحرمة لا تكون إلّا فى موارد عصيان فريضة المحبّة و المودّة؛ فالقرآن قد حرّم المودّة و المحبّة لآخرين فى موارد أخرى، كما فى قوله تعالى: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ «۱»، و قد أطلق القرآن على موادّة من حادّ اللّه و رسوله أنّها موالاة فى السورة نفسها فى الآيات الكريمة التى تحكى عن طائفة ممّن هم حول النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ «... ۲».

و لک أن تقول أطلق على الموالاة أنّها موادّة.

و هذا تعريف آخر يطلعنا و يوقفنا عليه القرآن الكريم و هو كون المودّة موالاة، غاية الأمر أنّ المودّة- و التى هى موالاة- على نحوين: منها: واجبة مفترضة، و هى المحبّة و المودّة و الموالاة للّه و لرسوله و لذى القربى.

و منها: محرّمة، و هى المودّة و الموالاة لمن حادّ و شاقق اللّه و رسوله.

كما أنّ الضغينة المحرّمة هى التى يؤتى بها و ترتكب فى موارد الفريضة الواجبة مخالفة، فبتوسط آية المودّة فى سورة الشورى و هذه الآيات من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المجادلة يتبيّن أنّ المودّة و الموالاة و النصرة هى للّه و لرسوله و لذى القربى- على و فاطمة و ابناهما-، و هو الإيمان الذى يكتبه اللّه تعالى فى القلوب، فالإيمان فى القلب هو المودّة و الموالاة للّه و لرسوله و لذى القربى و المرض فى القلوب هو العداوة و الضغينة للّه و لرسوله و لذى القربى.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۷

و يتّضح من هذه الآيات: إنّ الإيمان يقابل المرض فى القلوب، و إنّ الّذين فى قلوبهم مرض من أوائل عهد الإسلام- كما تشير إليه سورة المدّثر- أولئك لم يكتب فى قلوبهم الإيمان من البدء و بقوا على تلك الصفة.

و من ذلك يعلم أنّ من الهدى الذى نزّل اللّه تعالى- و كرهه جماعة و تابعهم جماعة أخرى طواعية للجماعة الأولى إسرارا بين الجماعتين- هو افتراض مودّة ذى القربى فى آية المودّة كما أنّ ممّا نزّل اللّه تعالى من الهدى- و الذى كرهه جماعة أيضا و أبطلوا العمل به- هو افتراض الخمس و الفيء لذى القربى فى سورة الأنفال و الحشر، و لا ريب أنّ أداء الخمس لذى القربى و تمكينهم من الفيء الذى افترضه اللّه لهم هو من أبرز مصاديق الموالاة و المودّة لذى القربى.

و قد مرّ بنا فى ما تقدّم أنّ الّذين فى قلوبهم مرض هم ثلّة نشأت فى أوائل الدعوة و بداية الإسلام، حيث ورد ذكرهم فى سورة المدثّر و هى رابع سورة نزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى مكّة فى أوائل عهد البعثة الشريفة، و قد جعلت سورة المدثّر الّذين فى قلوبهم مرض فئة فى قبال فئة الّذين آمنوا و فئة الّذين أوتوا الكتاب و فى مصافّ فئة رابعة هى فئة الّذين كفروا، لكنّها ميّزتهم عنوانا و اسما عن الذين كفروا و إن كانوا فى موقف واحد بحسب الحقيقة و الواقع لا بحسب الظاهر؛ لأنّ الّذين فى قلوبهم مرض يبطنون هذا المرض و هو الضغينة المحرّمة بحسب تعريف آيات سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم تلك الضغينة تجاه من أمر تعالى بمحبّتهم و مودّتهم و موالاتهم، و هذه السور تلاحق هذه الفئة و الثلّة التى نشأت فى صفوف من أسلم فى أوائل البعثة.

و تبيّن أن مخططهم مبنى على الضغينة لذى القربى و كراهة ما نزّل اللّه فى حقّهم من المودّة و الموالاة و الخمس و الفيء، كما تبيّن الآيات السابقة فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هى تتحدّث فى وصف الّذين فى قلوبهم مرض: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ* طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ* فَهَلْ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۰۸

عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ* أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ «۱».

فهذه الآيات تنبأ عن ملحمة قرآنية عن هذه الثلّة و الفئة- التى ترعرعت فى أوائل البعثة و وصفتهم هذه السورة بأنّ وصفهم البارز هو الضغينة لمن أمر اللّه تعالى بمودّته و صلته و موالاته- و كراهة ما نزّل على رسوله من الهدى الذى منه مودّة و موالاة ذى القربى، و تخصيص الخمس و الفيء بهم أى بولايتهم، و قد أطلقت اسم مرض القلب فى قبال الإيمان المكتوب فى القلب- حسب ما ورد فى سورة المجادلة كما مرّ بنا- هذه الملحمة تولى هذه الفئة سدّة الحكم و التصرّف فى الأمور العامّة للمسلمين، و سيكون الطاغى على أفعال هذه الفئة- الّذين فى قلوبهم مرض- عدّة أمور:

الأوّل: هو الفساد فى الأرض، و هو مخالفهٔ الكتاب و السنّهٔ فى الأحكام و التشريعات، ممّا يوجب استشراء الفساد فى الأرض شيئا فشيئا حتّى ينتشر فى بلاد المسلمين الظلم و الفساد المالى و الفساد الأخلاقى و الحيف فى القضاء و التلاعب فى مقدّرات الحكم و السلطهٔ، و غيرها من وجوه الفساد فى الأرض.

و الثانى: قطع ما أمر اللّه به أن يوصل، و هو معاداهٔ من أمر اللّه بمودّتهم و موالاتهم و تمكينهم من حقّ الولايهٔ لهم على الخمس و الفيء، و قد أنبأت آيهٔ أخرى من كتاب اللّه العزيز عن نفس هذه الملحمهٔ المستقبلية لأوضاع المسلمين و هى وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ «۲»، حيث عللّ هذه فى الآيات

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۰۹

تخصيص ذوى القربى بالفيء- و هو الأموال العامّهٔ و المنابع الطبيعهٔ فى البلاد كما هو مقرّر فى الفقه- كى لا تكون- أى الأموال العامّهٔ- دولهٔ يتداولها الأغنياء خاصّهٔ منكم يستأثرون بها دون عامّهٔ المسلمين، أى كى تسود العدالهٔ المالية بين المسلمين لا بد من ولايهٔ ذوى القربى على الفيء و الأموال العامّهٔ و مقتضى هذا التعليل أنّ مجيء غيرهم على سدّهٔ الحكم و الولايهٔ على الأموال العامّهٔ سوف ينجم منه الظلم و الفساد المالى، و هذا ما وقع فإنّه قد فرّق بين المسلمين فى عطاء بيت المال فى عهد الأوّل، و ازداد ذلك فى عهد الثانى و وصل إلى ذروهٔ الحيف، و اللامساواهٔ فى توزيع و عطاء بيت المال فى عهد الثالث حتّى ثار المسلمون و حدث الذى حدث، و كذلك استمر النهج فى عهد بنى أميهٔ و بنى العبّاس، و قد أخبرت الصديقهٔ فاطمهٔ عليها السّلام بذلك فى خطبتها التى سبق نقلها.

و قد توعّدت آيات سورهٔ الحشر عن مخالفهٔ هذا الحكم و التشريع بشدّهٔ العقاب.

فتلخّص- ممّا مرّ بنا- أنّ المودّهٔ للقربى و عترهٔ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هى موالاهٔ لهم- كما أوضحت ذلك سورهٔ المجادلهٔ التى مرّ ذكر آياتها- و أنّ الضغينهٔ و العداوهٔ لهم مرض فى القلوب- كما أوضحت ذلك سورهٔ محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم- فى قبال المودّهٔ و الموالاهٔ لهم فإنّه إيمان.

و إلى ظاهر هذه الآيات من السور يشير الصادق عليه السّلام فى ما رواه عنه عبد اللّه بن سنان أنّه عليه السّلام قال: فى معرض كلامه عن علامات ظهور القائم من آل محمّد (عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف) و أنّه يكون فى السماء نداء «ألا أن الحقّ فى على بن أبى طالب و شيعته، قال عليه السّلام:

ف يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ «۱» على الحقّ و هو النداء الأوّل، و يرتاب يومئذ الذين فى قلوبهم مرض، و المرض و اللّه عداوتنا» «۲». الحديث.

و قد روى ابن المغازلى الشافعى فى المناقب، عن أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى:

وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ «۳»، قال: ببغضهم على بن أبى طالب «۴»، و الآيهٔ المذكورهٔ فى

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۱۰

سياق وصف الّذين فى قلوبهم مرض، و غيرها من الروايات «۱».

هذا، و ممّا يدلّ على كون مودّهٔ ذوى القربى موالاتهم، مضافا إلى ما تقدّم فى سورهٔ المجادلهٔ، قوله تعالى فى سورهٔ آل عمران: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۲»، فإنّ فى الآيهٔ تصريحا بأنّ مقتضى المحبّهٔ الإتّباع، كما أنّ مقتضى مفهوم الشرطيهٔ فى الآيهٔ أيضا هو أنّ ترك الإتّباع كاشف مسبب عن عدم المحبّهٔ. فيتحصّل أنّ مودّهٔ ذوى القربى مقتضاها إتّباعهم و موالاتهم و هى التى قد جعلها أجرا لكلّ الرسالهٔ. فمفاد الآيهٔ متطابق مع حديث الثقلين و حديث السفينهٔ.

فتحصّل أنّ مقتضى فريضة المودّة فى القربى و التى عظّم شأنها القرآن الكريم، و كون بغضهم و العداوة لهم و جفاءهم و قطعيتهم مرض يعرى القلوب و يسلبها الإيمان، هو أن المودّة للقربى ميزان و معيار لتعديل الصحابى، و بغض ذوى القربى و المصادمة معهم ميزان و معيار لجرح الصحابى، فهذا الضابط يتطابق مع ما تقدّم من الموازين و المعايير التى مرّت بنا فى ما سبق.

و من ذلك قول الصدّيقة الزهراء عليها السّلام بأن الهجرة كوصف للصحابى إنّما تنطبق عليه لا لكون معناها انتقال البدن من مكان إلى مكان كسفر جغرافى، بل الهجرة إنّما هى بالهجرة إلى أهل البيت عليهم السّلام، لا الابتعاد عنهم، و أنّ المدار على الموالاة و المتابعة لرسول اللّه و أهل بيته، لا المعاداة لهم و المخالفة، و الهجرة تحققت بهم، و النصرة بنصرة اللّه و رسوله و ذى القربى، فلا هجرة إلّا إليهم لا إلى غيرهم، و لا نصرة و مودّة و موالاة إلّا لهم لا عليهم، و لا إتّباع بإحسان إلّا بإتباع سبيلهم، و ما أسألكم عليه من أجر إلّا- و هو المودة فى القربى- من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، كما مرّ بنا قول على عليه السّلام: «أنّ الصدّيق من

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۱

صدّق بحبهم و أبطل باطل عدوهم، و الفاروق من فرّق بينهم و بين عدوهم» «۱»، و أنّ من ترك الهجرة إليهم يتعرّب، و أنّ من يترك المودّة و الموالاة لهم يتحزّب.

فهذه وقفة يلزم إعطاءها الإمعان التّام فى مبحث عدالة الصحابة.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۳

۸ العقبة و المظاهرة

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۵

يشير القرآن الكريم فى سورة التوبة (براءة) و سورة التحريم إلى تصاعد حدّة العداء للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لدى جماعة ممّن كان معه و ممّن يحيط به، و كذلك كتب الحديث و السير و التواريخ، و قد بلغ هذا العداء ذروته بتدبيرهم محاولتين للفتك به صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

* الأولى ...: ص: ۲۱۵

فى رجوعه من تبوك عند العقبة، و مدبّريها عرفوا ب: أهل العقبة. قال تعالى:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ «۱».

و قال تعالى فى السورة نفسها أيضا:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ «۲»

قال الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآيات الأولى:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۶

قيل: نزلت فى اثنى عشر رجلا وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بذلك و أمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم، و عمّار كان يقود دابّة رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و آله و سلم و حذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: إنّه فلان و فلان. حتّى عدّهم كلّهم. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟! فقال: أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم.

و روى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام مثله، إلّا أنّه قال: ائتمروا بينهم ليقتلوه، و قال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنّا كنّا نخوض و نلعب، و إن لم يفطن نقتله.

و فى ذيل الآيات اللاحقة قال:

و قيل: نزلت فى أهل العقبة؛ فإنّهم ائتمروا فى أن يغتالوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى عقبة عند مرجعهم من تبوك و أرادوا أن يقطعوا انساع راحلته، ثمّ ينخسوا به، فأطلعه اللّه تعالى على ذلك، و كان من جملة معجزاته؛ لأنّه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلّا بوحى من اللّه تعالى.

فسار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى العقبة و عمّار و حذيفة معه، أحدهما يقود ناقته و الآخر يسوقها، و أمر الناس كلّهم بسلوك بطن الوادى، و كان الّذين همّوا بقتله اثنى عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه، عرفهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سمّاهم بأسمائهم واحدا واحدا. عن الزجّاج و الواقدى و الكلبى، و القصّة مشروحة فى كتاب الواقدى. و قال الباقر عليه السّلام: كانت ثمانية منهم من قريش و أربعة من العرب «۱».

و قال الزمخشرى فى ذيل الآية ۷۴:

أقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۷

القرآن، و يعيب المنافقين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد - ... إلى أن قال: - فتاب الجلاس و حسنت توبته.

وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ: و أظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام. وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا: و هو الفتك برسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، و ذلك: عند مرجعه من تبوك تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى إذا تسنّم العقبة بالليل، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها و حذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل و بقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء اللّه، فهربوا «۱».

و قال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى كتاب الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشّاف فى ذيل كلام الزمخشرى المتقدّم:

أخرجه أحمد من حديث أبى الطفيل، قال: لمّا قفل رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم من غزوة تبوك أمر مناديا ينادى لا يأخذنّ العقبة أحد، فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم يسير وحده، فكان النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم يسير و حذيفة رضى اللّه عنه يقود به، و عمّار رضى اللّه عنه يسوق به، فأقبل رهط متلثّمين على الرواحل حتّى غشوا النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، فرجع عمّار فضرب وجوه الرواحل، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم لحذيفة: قد قد. فلحقه عمّار فقال: سق سق. حتّى أناخ، فقال لعمّار: هل تعرف القوم؟!

فقال: لا، كانوا متلثّمين، و قد عرفت عامّة الرواحل.

فقال: أتدرى ما أرادوا برسول اللّه؟!

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۸

قلت: اللّه و رسوله أعلم.

فقال: أرادوا أن يمكروا برسول اللّه فيطرحوه من العقبة.

فلمّا كان بعد ذلك وقع بين عمّار رضى اللّه عنه و بين رجل منهم شىء ممّا يكون بين الناس، فقال: أنشدكم اللّه، كم أصحاب العقبة الّذين أرادوا أن يمكروا برسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم؟!

فقال: ترى أنّهم أربعة عشر، فإن عشر، كنت فيهم فهم خمسة عشر..

و من هـذا الوجه رواه الطبراني و البزّار، و قال: روى من طريق عن حذيفـة، و هـذا أحسـنها و أصلحها إسـنادا. و رواه ابن إسـحاق فی المغازی، و من طريقه البيهقی فی الـدلائل، عن الأعمش، عن عمرو بن مرّة، عن أبی البختری، عن حذيفـة بن اليمان، قال: كنت آخذا بخطام ناقـة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم أقود به، و عمّار رضـی اللّه عنه يسوق الناقـة حتّى إذا كنّا بالعقبة و إذا اثنی عشـر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فانتهت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم فصرخ بهم فولّوا مدبرين «۱».

و قال الفخر الرازی فی تفسيره الكبير- بعد أن ذكر أسبابا أخرى لنزول هذه الآيات-:

قـال القاضـی: «يبعـد أن يكون المراد من الآيـة هـذه الوقائع؛ و ذلك لأنّ قوله: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَـةَ الْكُفْرِ إلى آخر الآية، كلّها صيغ الجموع، و حمل صيغة الجمع على الواحد، خلاف الأصل.

فإن قيل: لعلّ ذلك الواحد قال فی محفل و رضی به الباقون.

قلنا: هذا أيضا خلاف الظاهر؛ لأنّ إسناد القول إلى من سمعه و رضی به خلاف الأصل..

ثمّ قال: بلى الأولى أن تحمل هذه الآية على ما روی: أنّ المنافقين همّوا بقتله

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۱۹

عند رجوعه من تبوك، و هم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادی إذا تسنّم العقبة بالليل، و كان عمّار بن ياسر آخذا بالخطام على راحلته و حذيفـة خلفها يسوقها، فسـمع حذيفـة وقع أخفاف الإبل وقعقعة السـلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء اللّه، فهربوا.

و الظاهر أنّهم لمّا اجتمعوا لذلك الغرض، فقد طعنوا فی نبوّته و نسبوه إلى الكذب و التصنع فی إدّعاء الرسالة، و ذلك هو قول كلمة الكفر. و هذا القول اختيار الزجّاج».

فأمّا قوله: وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ، فلقائل أن يقول: إنّهم أسلموا، فكيف يليق بهم هذا الكلام؟! و الجواب من وجهين:

الأوّل: المراد من الإسـلام: الـذی هو نقيض الحرب؛ لأنّهم لمّا نافقوا، فقـد أظهروا الإسـلام، و جنحوا إليه، فإذا جاهروا بالحرب، وجب حربهم.

و الثانی: أنّهم أظهروا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام.

و أمّا قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا، المراد: إطباقهم على الفتك بالرسول، و اللّه تعالى أخبر الرسول عليه السـلام بذلك حتّى احترز عنهم، و لم يصلوا إلى مقصودهم.- إلى أن قال فی ذيل الآيات الثلاث التی تتلو الآية المزبورة-:

اعلم أنّ هذه السورة أكثرها فی شرح أحوال المنافقين، و لا شكّ أنّهم أقسام و أصناف، فلهذا السبب يذكرهم على التفصيل «۱».

أقول: قد مرّ بنا فی ما سبق أنّ سورة التوبة (البرائة) سمّيت: «الفاضحة».

فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عبّاس: سورة التوبة؟

فقال: التوبة؟! بل هی الفاضحة، ما زالت تنزل: «و منهم » ... حتّى ظننّا أن لن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۰

يبقى منّا أحد إلّا ذكر فيها..

و كذلك سمّيت: «المبعثرة»؛ لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين..

و سمّيت: «البحوث»؛ لأنّها تذكر المنافقين و تبحث عن سرائرهم..

و «المدمدمة»، أی: المهلكة..

و «الحافرة»؛ لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين..

و «المثيرة»؛ لأنّها أثارت مخازيهم و قبائحهم..

و «العذاب»؛ روى عاصم بن زر بن حبيش، عن حذيفة، قال: يسمّونها سورة التوبة و هى سورة العذاب «١».

فترى أن سورة التوبة (البرائة) مليئة بالإشارة إلى أقسام المذمومين ممّن كان فى عهد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بظاهر الإسلام، و أبرز ما فيها الكشف عن أفضع عملية حاول جماعة منهم ارتكابها، و هى الفتك بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و الجدير بالانتباه أنّ هذه السورة من أواخر السور نزولا؛ فهى نزلت قبيل عام الفتح و عند غزوة تبوك، و قد صوّرت- بتفصيل- الأجواء التى كان يعيشها النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالنسبة إلى من حوله.

حذيفة و أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام أعلم الناس بالمنافقين

فقد ورد هذا المضمون فى الحديث النبوى الشريف «٢»، و كذلك فى عدّة روايات قد مرّت فى ما سبق، و هو بروز الصحابى حذيفة بن اليمان فى علمه و معرفته بالمنافقين، و الظاهر أنّ هذه الواقعة- و هى محاولة اغتيال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم- هى مربض الفرس، و الحادثة العظمى التى أطلعت حذيفة على رؤوس شبكة النفاق، و من المهمّ أن نتتبّع خيوط و تفاصيل الحادثة؛ لترتسم لنا منظومة هذه الشبكة و المجموعة، و هل هى من دائرة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٢٢١

الصحابة المحيطة بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، أو من الدائرة المتوسطة، أو الدوائر البعيدة؟!

وها هنا- فى البدء- عدّة موارد و تساؤلات مطروحة:

الأولى: ما مرّ من قول ابن كيسان و روايته: أنّ حذيفة قد قال للنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عقب الحادثة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟! فأجابه صلّى اللّه عليه و اله و سلم: «أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم»؛ فقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم يفيد أنّ المجموعة التى قامت بهذا التدبير هى من خواصّ الصحابة المحيطين به.

الثانية: إنّ فى كثير من الروايات لدى الفريقين التعبير عنهم بفلان و فلان و ... من دون ذكر أسمائهم؛ فما هذه الحشمة عن ذكر أسمائهم و عدّتهم بكاملها؟! و لم هذا التحاشى عن التصريح إلى الكناية المبهمة؟! و من هم هؤلاء الّذين يتحفّظ عن ذكر أسمائهم؟! أترى لو كانوا من الأباعد فى الصحبة يتستّر عليهم؟! أو لو كانوا من المشهورين علنا بالنفاق لكان يتخفّى عليهم؟! و هذا مؤشّر مهمّ يضع بصماته على هذه الجماعة.

الثالثة: قول الباقر عليه السّلام: إنّ ثمانية منهم من قريش و أربعة من العرب.

الرابعة: إنّه وقع بين عمّار رضى اللّه عنه و بين رجل من تلك المجموعة شجار بعد وفاة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أشار عمّار و لمّح بين ملأ من الناس إلى كون ذلك الرجل منهم.

الخامسة: إنّ سرّ معرفة حذيفة بالمنافقين و اختصاصه بهذه المعرفة هو مشاهدته لهذه الواقعة، و هذا يفيد أنّ أصحاب هذه المجموعة لم يكونوا مشهورين فى العلن لدى عامّة المسلمين بأنّهم من المتمرّدين و المنافقين، بل كانوا يتستّرون فى عداوتهم و كيدهم للدين و النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ و إلّا لما اختصّ حذيفة بمعرفتهم كخصيصة أشاد بها النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لحذيفة، و لماذا لم تشمل هذه المعرفة أصحاب السقيفة و الخلفاء الثلاثة، بينما اختصّ بها أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام و حذيفة؟!

السادسة: من الملاحظ و الملفت للنظر أنّ الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يصطحب على

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٢٢٢

العقبة إلّا عمّار و حذيفة و سلمان و المقداد، حسب اختلاف الروايات، بينما باقى الصحابة- كالصاحب فى الغار، و غيره من أصحاب السقيفة- لم يكونوا معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و ستأتى تتمّة للموارد الفاحصة لأوراق هذه الحادثة.

قال السيوطى فى الدرّ المنثور:

و أخرج البيهقى فى الدلائل عن عروة رضـى اللّه عنه، قال: رجع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم قافلا من تبوك إلى المدينة، حتّى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم ناس من أصـحابه، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق، فلمّـا بلغوا العقبـة أرادوا أن يسـلكوها معه، فلمّا غشـيهم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم أخبر خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادى فإنّه أوسع لكم.

و أخذ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم العقبة و أخذ الناس ببن الوادى إلّا النفر الّذين مكروا برسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم لمّا سـمعوا ذلك استعدّوا و تلثّموا و قد همّوا بأمر عظيم، و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه و عمّار بن ياسـر رضـى اللّه عنه فمشـيا معه مشـيا، فأمر عمّار أن يأخـذ بزمام الناقـة و أمر حذيفة يسوقها. فبينما هم يسـيرون إذ سمعوا و كزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم و أمر حذيفة أن يردّهم، و أبصر حذيفة رضى اللّه عنه غضب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم فرجع و معه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن، و أبصر القوم و هم متلثّمون لا ـ لا يشـعروا إنّما ذلك فعل المسافر، فرعبهم اللّه حين أبصـروا حذيفـة رضـى اللّه عنه و ظنّوا أنّ مكرهم قـد ظهر عليه فاسرعوا حتّى خالطوا الناس.

فأقبل حذيفة رضـى اللّه عنه حتّى أدرك رسول اللّه صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم، فلمّا أدركه قال: اضـرب الراحلة يا حذيفة، و امش أنت يا عمّار. فاسرعوا حتّى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۳

استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبـة ينتظرون الناس، فقال النبىّ صـلّى اللّه عليه [و آله] و سـلّم لحذيفـة: هل عرفت يا حذيفـة من هؤلاء الرهط أحدا؟!

قال حذيفة: عرفت راحلة فلان و فلان، و قال: كانت ظلمة الليل و غشيتهم و هم متلثّمون.

فقال النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: هل علمتم ما كان شأنهم و ما أرداوا؟!

قالوا: لا و اللّه يا رسول اللّه.

قال: فإنّهم مكروا ليسيروا معى حتّى إذا طلعت فى العقبة طرحونى منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول اللّه فنضرب أعناقهم.

قال: أكره أن يتحدّث الناس و يقولوا أنّ محمّدا وضع يده فى أصحابه.

فسمّاهم لهما و قال: اكتماهم.

ثمّ إنّ السيوطى ذكر رواية البيهقى بطريق آخر، فيها ذكر أسمائهم، قال:

و أخرج ابن سـعد عن نافع بن جبير بن مطعم، قال: لم يخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم بأسماء المنافقين الّذين تحسّوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة رضى اللّه عنه، و هم اثنا عشر رجلا ليس فيهم قرشى و كلّهم من الأنصار و من حلفائهم.

ثمّ ذكر السيوطى رواية أخرى عن البيهقى أيضا فى الدلائل، و ذكر سرد الواقعة إلى أن قال:

قلنا: يا رسول اللّه! ألا تبعث إلى عشائرهم حتّى يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم.

قـال: لاـ إنّى أكره أن تحـدّث العرب بينهـا أن محمّـدا قاتـل بقـوم حـتّى إذا أظهره اللّه بهم أقبـل عليهم يقتلهم. ثمّ قـال: اللّهمّ ارمهم بالدبيلة.

قلنا: يا رسول اللّه! و ما الدبيلة؟

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۴

قال: شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك «۱».

و يستفاد من هذه الروايات عدّة موارد أخرى كشواهد مقرّبة إلى معرفة هذه المجموعة- مضافا إلى ما تقدّم-

السابعة: قد عبّر الراوى الأخير لهذه الواقعة عن تلك المجموعة بأنّهم: «ناس من أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلم»، و لا يخفى أنّ التعبير لدى الرواة بوصف الصحبة يخصّ من يتّصل بصحبة و بعلاقة قريبة، فلم يكن تعبيرهم بلفظ الصحبة عن كلّ من أدرك النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل هو وصف خاص لدى الرواة لخصوص من هو ممّن حواليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بخلاف أصحاب التراجم و الرجال؛ إذ أنّهم اصطلحوا على تعاريف عدّة للصحابى، شملت بعضها كلّ من رأى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إن لم يرو عنه، أو كلّ من أدركه و روى عنه و لو بعض روايات قليلة، أو حتّى رواية واحدة أو اثنتين.

فالاستعمال الجارى لدى الرواة أنّهم لا يطلقون لفظ الصحبة إلّا على الخواصّ، و ممّن هم حواليه على علاقة متميزة به صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما فى الاستعمال العرفى الدارج حاليا، فإنّه لا يقال أصحاب فلان إلّا على من لهم صلة خاصّة بذلك الشخص.

هذا مضافا إلى قرائن أخرى فى هذه الروايات:

منها: إضافة اللفظ إلى الضمير «من أصحابه»؛ فإنّه يختلف فى الظهور عن تعبير:

«من الصحابة»؛ إذ الأوّل أكثر تخصّصا.

و منها: أنّهم أرادوا أن يسلكوا العقبة مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى بدء الأمر من دون الناس الّذين كانوا يمشون ببطن الوادى، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلم لهم- بعدما أخبر خبرهم-: «من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادى، فإنّه أوسع لكم»؛ و هذا يفيد أنّهم ممّن يتعارف مشيه مع الرسول قريب منه فى الأسفار و الحركة، و هذه الصفة لا تكون للأباعد.

و منها: جواب حذيفة- عندما سأله النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن معرفة الرهط الّذين همّوا بذلك

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۵

الأمر العظيم- بأنّه رأى راحلة فلان و فلان؛ و هذا يفيد أنّ الرهط هم من وجوه المسلمين، و ممّن لحذيفة خلطة قريبة معهم، و ليسوا من الأباعد كى تخفى رواحلهم و دوابّهم على حذيفة.

و منها: قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم- عندما طلب منه حذيفة و عمّار قتل الرهط-: «إنّى أكره أن يتحدّث الناس و يقولوا أنّ محمّدا وضع يده فى أصحابه»؛ و منه يتبيّن أنّ الرهط و المجموعة هم ممّن ناصر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحسب الظاهر، و كانوا ممّن حوله من الخواصّ الّذين لهم علاقة متميزة به أمام مرأى الناس، و من الّذين لا يتوقّع الناس معاداتهم له صلّى اللّه عليه و آله و سلم، بل كان الإقدام على قتلهم من قبله صلّى اللّه عليه و آله و سلم مستنكرا عند الناس، و هذا ظاهر فى عدم كونهم من أوساط الناس أو من الأباعد.

و منها: قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم لحذيفة و عمّار لمّا أطلعهم بأسمائهم: «اكتماهم»؛ فما وجه الأمر بالكتمان لو كان هؤلاء الرهط من أوساط الناس، و من حلفاء الأنصار و نحوهم، كما روى ابن سعد أنّهم لم يكونوا من قريش بل من الأنصار و حلفائهم؟!

لا ريب أنّ علّة الأمر بالكتمان ظاهرة فى كون هؤلاء الرهط هم ممّن يحسب على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بصحبة خاصّة، ممّن يؤدّى فضحه و كشفه- لا سيّما بمثل هذا الفعل الشنيع المنكر، الذى هو على أصول الكفر الباطنى- إلى حدوث بلبلة و اضطراب فى أوساط الناس و عامّتهم ممّن لا يعرف من الإسلام إلّا رسمه، و من الدين إلّا طقوسا ظاهرية..

فحفاظا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم على عدم إثارة الفتنة بين عامّة الناس بذلك، و عدم تزلزل إسلامهم أمر بالكتمان؛ و لا سيّما أنّ قوله تعالى فى الآية السابقة لهذه الآيات: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ «۱» فى تفسير أهل البيت عليهم السّلام- كما روى ذلك الطبرسى فى مجمع البيان «۲»، و غيره من مفسّرى الإمامية، و بطرق مسندة عنهم عليه السّلام- «جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ»، قالوا: لأنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يكن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۶

يقاتل المنافقين و إنّما كان يتألّفهم؛ لأنّ المنافقين لا يظهرون الكفر، و علم اللّه تعالى بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان. فعلى هذا التفسير كان صلّى اللّه عليه و آله و سلم مأمورا بأن يستبقيهم و يجاهد بهم الكفار.

ثمّ أنّه من الغريب من ابن سعد أنّه يروى أنّهم ليسوا من قريش، بل من الأنصار و حلفائهم، و يروى- فى الوقت نفسه- أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يخبر بأسمائهم غير حذيفة، فكيف نفى كونهم من قريش؟! و الغريب منه أيضا نفى كونهم من حلفاء قريش؛ إذ نسبهم إلى الأنصار و حلفائهم خاصّة.

و لا غرابة فى ذلك؛ فإنّ أصحاب السقيفة لم يواجههم فى السقيفة إلّا الأنصار و حلفاؤهم- إلّا القليل- و لم يعقد البيعة فى السقيفة إلّا قريش و حلفائها.

و منها: قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الرواية الأخرى المتقدّمة: «إنّى أكره أن تحدّث العرب بينها أنّ محمّدا قاتل بقوم حتّى إذا أظهره اللّه بهم أقبل عليهم يقتلهم»؛ فإنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم وصف هؤلاء الرهط بأنّهم: «قوم قاتل بهم» و: «أظهره اللّه بهم»، و لو بنظر عامّة الناس و أذهان العرب، فهل هذا الوصف ينطبق إلّا على الخواصّ ممّن هاجر من الأوائل معه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد بيّن أنّ عامّة أذهان الناس، التى تنظر إلى مجريات الأحداث بسطحية و تحكم عليها حسب ظواهرها لا حقيقتها، تستنكر الاقتصاص من هؤلاء الرهط و معاقبتهم و فضحهم على الملأ؛ إذ كانوا قد أوجدوا- بحسب الظاهر- لأنفسهم مكانة و اختصاص لدى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى أعين الناس، لدرجة كان يصعب معها كشف زيف هذه الصنيعة، و لم يكن من الهيّن و اليسير بيان الحقيقة لعقول الناس القاصرة، التى لا تزن الأمور حسب الواقع بل حسب الظواهر.

الثامنة: إنّ هؤلاء الرهط تميّزوا بأنّهم دعا صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهم بأن يبتليهم اللّه تعالى بالدبيلة، و سيأتى فى روايات أخرى كالتى أوردها صحيح مسلم و غيره أنّها تشير إلى تلك الجماعة.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۷

التاسعة: إنّ اقتران حذيفة و عمّار فى هذه الواقعة أمر تكرّر فى الروايات و النقول التاريخية، أى اقترنا فى معرفة هؤلاء الرهط، و هذه علامة سيتمّ الاستفادة منها فى الموارد الروائية اللاحقة بشأن المنافقين.

و الملفت للنظر أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لمّا أخبره الوحى بنيّة تلك الجماعة الفتك به لم يستعن صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأحد من خواصّ أصحابه سوى حذيفة و عمّار و سلمان و المقداد، فما شأن البقية من الخواصّ؟! لماذا لم يستأمنهم صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يأمنهم فى الدفاع عنه و حمايته؟! أم أنّ الحال كان على عكس ذلك. و أمّا أبا ذرّ فلم يكن عنده راحلة فى غزوة تبوك، فكان يتأخّر عن جيش الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى سيره ماشيا على قدميه، كما ذكرت ذلك مصادر السير و التواريخ.

العاشرة: إنّ هذه الواقعة الخطيرة فى حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و مسيرة الدين متّفق على وقوعها فى كتب حديث الفريقين و كتب السير و التواريخ، سواء كانت هى سبب نزول الآيات، كما هو الأقوى الظاهر، أم كان السبب للنزول واقعة أخرى.

قال ابن عبد البرّ فى الاستيعاب فى ترجمة أبى موسى الأشعرى، عبد اللّه بن قيس بن سليم، أنّه:

ولّاه عمر البصرة فى حين عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان، فعزله عثمان عنها و ولّاها عبد اللّه بن عامر بن كريز، فنزل أبو موسى حينئذ بالكوفة و سكنها، فلمّا دفع أهل الكوفة سعيد بن العاص ولّوا أبا موسى و كتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه، فأقرّه عثمان على الكوفة إلى أن مات. و عزله علىّ رضى اللّه عنه عنها فلم يزل واجدا منها على علىّ حتّى جاء منه ما قال حذيفة؛ فقد روى فيه لحذيفة كلام كرهت ذكره و اللّه يغفر له. ثمّ كان من أمره يوم الحكمين ما كان «۱».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۸

قال ابن أبى الحديد فى شرح النهج البلاغة:

قلت: الكلام الذى أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ و لم يذكره، قوله فيه- و قد ذكر عنده، أى عند حذيفة، بالدين- أمّا أنتم فتقولون ذلك، و أمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ للّه و لرسوله و حرب لهما، فى الدنيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ* يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ «۱». و كان حذيفة عارفا بالمنافقين، أسرّ إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمرهم و أعلمه أسماءهم. و روى أنّ عمّارا سئل عن أبى موسى، فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولا عظيما، سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود. ثمّ كلح كلوحا علمت منه أنّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط.

و روى عن سويد بن غفلة، قال: كنت مع أبى موسى على شاطئ الفرات فى خلافة عثمان، فروى لى خبرا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال: سمعته يقول: إنّ بنى إسرائيل اختلفوا، فلم يزل الاختلاف بينهم، حتّى بعثوا حكمين ضالّين ضلّا و أضلّا من اتّبعهما، و لا ينفكّ أمر أمّتى حتّى يبعثوا حكمين يضلان و يضلّان. فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، و قال: أبرأ إلى اللّه من ذلك، كما أبرأ من قميصى هذا».

ثمّ ذكر ما قاله أبو محمّد بن متّويه فى كتاب الكفاية: «أمّا أبو موسى فإنّه عظم جرمه بما فعله، و أدّى ذلك إلى الضرر الذى لم يخف حاله، و كان علىّ عليه السّلام يقنت عليه و على غيره فيقول: اللّهمّ العن معاوية أوّلا و عمرا ثانيا و أبا الأعور السلمى ثالثا و أبا موسى الأشعرى رابعا. و روى عنه عليه السّلام أنّه كان يقول فى أبى موسى: صبغ بالعلم صبغا و سلخ منه سلخا «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۲۹

و قال المزّى فى تهذيب الكمال:

و عمل للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على زبيد و ساحل اليمن- و هذا قبل تبوک كما لا يخفى.

و استعمله عمر بن الخطّاب على الكوفة و البصرة، و شهد وفاة أبى عبيدة بن الجراح بالأردن، و شهد خطبة عمر بالجابية، و قدم دمشق على معاوية. إلى أن قال: - و قال مجالد، عن الشعبى: كتب عمر فى وصيّته: أن لا يقرّ لى عامل أكثر من سنة، و أقرّوا الأشعرى أربع سنين «۱».

و فى تاريخ دمشق عن أبى تحيى حكيم:

كنت جالسا مع عمّار فجاء أبو موسى، فقال [عمّار]: ما لى و لک؟! قال: ألست أخاک؟! قال: ما أدرى، إلّا أنّى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يلعنک ليلة الجمل.

قال: إنّه استغفر لى. قال عمّار: قد شهدت اللعن و لم أشهد الاستغفار «۲».

و ذكر الذهبى فى سير أعلام النبلاء، عن شقيق:

كنّا مع حذيفة جلوسا فدخل عبد اللّه و أبو موسى المسجد، فقال- أى حذيفة-: أحدهما منافق. ثمّ قال- أى حذيفة-: إنّ أشبه الناس هديا و دلّا و سمتا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عبد اللّه «۳».

و روى الشيخ المفيد فى أماليه عن علىّ عليه السّلام- بشأن أبى موسى-:

و اللّه ما كان عندى مؤتمنا و لا ناصحا، و لقد كان الّذين تقدّمونى استولوا على مودّته، و ولّوه و سلّطوه بالإمرة على الناس، و لقد أردت عزله فسألنى الأشتر فيه أن أقرّه، فأقررته على كره منّى له، و تحمّلت على صرفه من بعد «۴».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۰

و ذكر المسعودى فى مروج الذهب:

إنّ أبا موسى ثبّط الناس عن علىّ عليه السّلام فى حرب الجمل، فعزله عن الكوفة و كتب إليه: «اعتزل عملنا يا بن الحائک مذموما مدحورا، فما هذا أوّل يومنا منک، و إنّ لک فينا لهنّات و هنّات» «۱».

و ذكر ابن سعد فى الطبقات عن أبى بردة- و هو ابن أبى موسى الأشعرى-:

- إذ دخل يزيد بن معاوية فقال له معاوية: إن وليت من أمر الناس شيئا فاستوص بهذا، فإنّ أباه كان أخا لى- أو خليلا أو نحو هذا من القول- غير أنّى قد رأيت فى القتال ما لم ير «۲».

الحادية عشرة: إنّ أحد أعضاء مجموعة أهل العقبة و الرهط هو عبد اللّه بن قيس بن سليم، المشتهر ب أبى موسى الأشعرى، صاحب البرنس الأسود، و هو أوّل بصمات المجموعة يجدها المتتبع بوضوح، و منه تتلاحق بقية البصمات.

الثانية عشرة: ما تقدّم من قول علىّ عليه السّلام من أنّ الخلفاء قبله «استولوا على مودّته!! و ولّوه و سلّطوه بالإمرة على الناس»، و قال عليه السّلام له: «فما هذا أوّل يومنا منك، و إنّ لك فينا لهنّات و هنّيات»؛ فما هو يا ترى سبب مودّتهم له بالدرجة الشديدة، كما عبّر عليه السّلام:

«استولوا على مودّته»؟! و ما هو سبب توليتهم و تسليطهم له، على نقيض نفرة حذيفة و عمّار له، و تنويههم و تصريحهم بأنّه من مجموعة أهل العقبة؟!

الثالثة عشرة: ما تقدّم من تصريح معاوية بخلّته لأبى موسى الأشعرى، كما فى شدّة مودّة الخلفاء السابقين له أيضا، و توافقهم على توليته و تسليطه على إمارة على الناس..

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۱

ذكر الطبرى فى تاريخه عن جويرية بن أسماء:

قدم أبو موسى على معاوية فدخل عليه فى برنس أسود، فقال: السلام عليك يا أمين اللّه!!! قال: و عليك السلام. فلمّا خرج قال معاوية: أقدم الشيخ لأولّيه، و لا و اللّه لا أولّيه «۱».

و روى الثقفى فى الغارات عن محمّد بن عبد اللّه بن قارب:

إنّى عند معاوية لجالس، إذ جاء أبو موسى فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! قال: و عليك السلام، فلمّا تولّى قال: و اللّه لا يلى هذا على اثنين حتّى يموت «۲».

يظهر من ذلك شدّة حرص أبى موسى الأشعرى على تولّى الإمارة، و أنّ سيرته فى هذا الحرص- بالتالى- توضّح لنا معالم دواعى مشاركته فى عملية الفتك بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ دواعى المجموعة هى الوصول إلى سدّة الحكم و الإمارة فى ظل أجواء الدين الجديد، لا كبقية المنافقين ممّن يريد إعادة الكفر و الشرك مرّة أخرى جهارا.

فالظاهر إنّ هذه المجموعة رأت الفرصة متاحة للوصول إلى السلطة فى ظلّ الدعوة للإسلام؛ إذ لم تكن متاحة لهم فى ظلّ سنن الملّة الجاهلية، التى تحكمها القوانين القبلية و العشائرية، و هم ليسوا بذوى حسب و نسب قبلى يؤهلهم إلى ذلك.

و يتوافق هذا الشاهد فى توضيح معالم دواعى أهل العقبة- و هى الوصول إلى سدّة الحكم فى ظلّ الدعوة الجديدة- مع الشاهد المتقدّم سابقا عنهم من أنّهم من خاصّة أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنظر الناس و عامّة المسلمين، أى أنّهم رسموا و صنعوا لأنفسهم صورة لمكانة دينية فى أذهان المسلمين، و هذه الصورة هى السلّم و الطريق لوصولهم لأمارة الحكم؛ ففى ظلّ الدعوة الجديدة يغيب المعيار القبلى و التحالفات العشائرية،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۲

و معيار القدرة المالية، و ينفتح باب تقنين جديد لعلاقات المجتمع و شرائعه، و من الممكن أن يسنّوا- حينئذ- ما يوافق تمركز القدرة لهم دون ما يرسمه الدين، و دون ما يرسمه و يقننه الدين الإسلامى، و دون ما كانت ترسمه شريعة الجاهلية السابقة.

فلا القدرة الشرعية الدينية المتمثّلة بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وصيّه أمير المؤمنين ابن عمّه عليه السّلام، و لا القدرة التقليدية القبلية، بل السماح ببروز قدرة ثالثة فى ظلّ الأجواء الجديدة إلّا أنّها وليد اصطناعى من هذه المجموعة.

و روى الواقدى فى المغازى حادثة العقبة كما مرّ و ذكر فى ذيلها قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عندما سئل عن قتل

أولئك الرهط:

إنّى لأكره أن يقول الناس أنّ محمّـد لمّا انقضت الحرب بينه و بين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه. فقال: يا رسول اللّه! فهؤلاء ليسوا بأصحاب. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلّا اللّه؟! قال: بلى، و لا شهادة لهم! قال: أليس يظهرون أنّى رسول اللّه؟! قال: بلى، و لا شهادة لهم! قال: فقد نهيت عن قتل أولئك.

و روى عن أبى سعيد الخدرى:

قال: كان أهل العقبة الّذين أرادوا بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ثلاثة عشر رجلا، قد سمّاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لحذيفة و عمّار رحمهما اللّه.

و روى عن جابر بن عبد اللّه:

قال: تنازع عمّار بن ياسر و رجل من المسلمين فى شىء فاستبّا، فلمّا كاد الرجل يعلو عمّارا فى السباب قال عمّار: كم كان أصحاب العقبة؟ قال: اللّه أعلم.

قال: أخبرنى عن علمكم بهم؟! فسكت الرجل، فقال من حضر: بيّن لصاحبك ما سألك عنه. و إنّما يريد عمّار شيئا قد خفى عليهم، فكره الرجل أن يحدّثه، و أقبل القوم على الرجل فقال الرجل: كنّا نتحدّث أنّهم كانوا أربعة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۳

عشر رجلا. قال عمّار: فإنّك أن كنت منهم فهم خمسة عشر رجلا. فقال الرجل: مهلا، أذكرك اللّه أن تفضحنى. فقال عمّار: و اللّه ما سمّيت أحدا، و لكنّى أشهد أن الخمسة عشر رجلا اثنا عشر منهم حرب للّه و لرسوله فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ* يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» «۱».

الرابعة عشرة: ما تقدّم من أنّ أهل العقبة و الرهط هم ممّن يحيط بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لدرجة عدّهم- عند الناس- من أصحابه فى مقابل بقية الناس. و قد روى الصدوق فى الخصال، بإسناده إلى حذيفة بن اليمان أنّه قال:

الّذين نفروا برسول اللّه ناقته فى منصرفه من تبوك أربعة عشر: أبو الشرور، و أبو الدواهى، و أبو المعازف، و أبوه، و طلحة، و سعد بن أبى وقّاص، و أبو عبيدة، و أبو الأعور، و المغيرة، و سالم مولى أبى حذيفة، و خالد بن الوليد، و عمرو بن العاص، و أبو موسى الأشعرى، و عبد الرحمن ابن عوف، و هم الّذين أنزل اللّه عزّ و جلّ فيهم: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا» «۲».

الخامسة عشرة: إنّ الرجل الذى تنازع معه عمّار فتسابّا يشهد نقل الواقدى أنّه بقدر عمّار فى قرب الصحبة من النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لو بنظر الناس؛ إذ كيف يسأله عمّار عن عدّة أهل العقبة و عن علمه بهم مع كونه من الأباعد و أوساط الناس، كما أنّ تعبير الآخرين أنّ الرجل صاحب عمّار، شاهد على كونه ممّن يحيط بالنبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و من ثمّ هو على علقة قريبة من عمّار؛ كما أن تعبير عمّار و خطابه له: «أخبرنى عن علمكم بهم» دالّ على كون كلّ مجموعة أهل العقبة هم من قبيل ذلك الرجل، أى من الدائرة القريبة من النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ كما أنّ تحاشى عمّار عن ذكر أسماء هؤلاء- مضافا إلى كونه وصية النبيّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۴

صلّى اللّه عليه و آله و سلم له و لحذيفة فى تلك الواقعة، و لو بحسب ما دام النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم حيا- هو لمكانة أولئك الرهط فى أعين الناس، فكان من المشقّة و الصعوبة بمكان كشف الحقائق و الأوراق لعامّة الناس.

روى ابن عبد البرّ فى الاستيعاب فى ترجمة حذيفة:

من كبار أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ... و كان عمر بن الخطّاب يسأله عن المنافقين و هو معروف فى الصحابة بصاحب سرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ... و قتل صفوان و سعيد ابنا حذيفة بصفّين و كانا قد بايعا عليّا بوصية أبيهما بذلك إيّاهما «۱».

و روى المزّى فى تهذيب الكمال، عن قتادة:

قال حذيفة: «لو كنت على شاطئ نهر، و قد مددت يدى لأغترف فحدّثتكم بكلّ ما أعلم ما وصلت يدى إلى فمى حتّى أقتل!!».

و قال عطاء بن السائب، عن أبى البخترى: «قال حذيفة: لو حدّثتكم بحديث لكذّبنى ثلاثة أثلاثكم- أى كلّكم-

قال: ففطن له شاب فقال: من يصدّقك إذا كذّبك ثلاثة أثلاثنا؟!

فقال: إنّ أصحاب محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم كانوا يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن الخير و كنت أسأله عن الشر.

قال: فقيل له: ما حملك على ذلك؟ فقال: إنّه من اعترف بالشر وقع فى الخير».

و روى عن النزّال بن سبر: «كنّا مع حذيفة فى البيت فقال له عثمان: يا أبا عبد اللّه! ما هذا الذى يبلغنى عنك. قال: ما قلته. فقال عثمان: أنت أصدقهم و أبرّهم. فلمّا خرج قلت: يا أبا عبد اللّه! ألم تقل ما قلته؟! قال: بلى، و لكنّى أشترى دينى ببعضه مخافة أن يذهب كلّه».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۵

و روى عن بلال بن يحيى: «بلغنى أنّ حذيفة كان يقول: ما أدرك هذا الأمر أحد من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلّا قد اشترى بعض دينه ببعض. قالوا: فأنت؟! قال: و أنا.. و اللّه إنّى لأدخل على أحدهم، و ليس من أحد إلّا و فيه محاسن و مساوئ، فأذكر من محاسنه و أعرض عن ما سوى ذلك، و ربّما دعانى أحدهم إلى الغذاء فأقول: إنّى صائم و لست بصائم» «۱».

السادسة عشر: إنّ أسرار المنافقين- و عمدتها أسماء مجموعة أهل العقبة- لا يحتمل غالب الناس و عامّة المسلمين كشفها و الإعلان عنها، كما صرّح بذلك حذيفة، بل لقتلوه كما قال، كما إنّ حذيفة يصرّح بانسياق و ذهاب كثير من الصحابة وراء الدنيا و تكالبهم عليها، و نكث العهود التى أخذها اللّه و رسوله عليهم.

السابعة عشرة: إنّه كانت بين حذيفة و عثمان منافرة و مراقبة و مواجهة بسبب ما يعرفه حذيفة من أسماء أهل العقبة، و كان منها ما يمسّ عثمان و أمثاله من جماعته من الصحابة.

قول ابن حزم فى المحلّى:

و من طريق مسلم «۲»: حدّثنا زهير بن حرب، حدّثنا أحمد الكوفى، حدّثنا الوليد بن جميع، حدّثنا أبو الطفيل، قال: «كان بين رجل من أهل العقبة و بين حذيفة ما يكون بين الناس، فقال: انشدك اللّه كم كان أصحاب العقبة؟

فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال- يعنى حذيفة- كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فقد كان القوم خمسة عشر، و أشهد باللّه أنّ اثنى عشر منهم حرب للّه و لرسوله و يوم يقوم الأشهاد، و عذر ثلاثة؛ قالوا: ما سمعنا منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلم و لا علمنا بما أراد القوم».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۶

إلى أن قال ابن حزم: «و أحاديث موقوفة على حذيفة، فيها: أنّه كان يدرى المنافقين، و أنّ عمر سأله: أهو منهم؟ قال: لا، و لا أخبر أحدا بعدك بمثل هذا، و أنّ عمر كان ينظر إليه فإذا حضر حذيفة جنازة حضرها عمر و إن لم يحضرها حذيفة لم يحضرها عمر، و فى بعضها: منهم شيخ لو ذاق الماء ما وجد له طعما؛ كلّها غير مسندة. و عن حذيفة، قال: مات رجل من المنافقين فلم أذهب إلى الجنازة، فقال: هو منهم، فقال له عمر: أنا منهم؟ قال: لا».

إلى أن قال: «و عن زيد بن وهب، قال: كنّا عند حذيفة- و هو من طريق البخارى «۱» - فقال حذيفة: ما بقى من أصحاب هذه الآية إلّا ثلاثة،- يعنى قوله تعالى: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إلى قوله: يَنْتَهُونَ «۲» - قال حذيفة: و لا بقى من المنافقين إلّا أربعة. فقال له إعرابى: إنّكم أصحاب محمّد تخبروننا بما لا ندرى، فما هؤلاء الّذين ينقرون بيوتنا و يسرقون أعلافنا؟ قال: أولئك الفسّاق، أجل لم يبق منهم إلّا أربعة، شيخ كبير لو شرب الماء وجد له بردا».

ثمّ نقل أحاديث بأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يقتل أصحابه: «لا يتحدّث الناس أنّ محمّدا يقتل أصحابه» «۳».

و قال: «إنّه لا خلاف بين أحد من الأمّة فى أنّه لا يحلّ لمسلم أن يسمّى كافرا معلنا بأنّه صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و لا أنّه من أصحاب النبىّ عليه السلام، و هو عليه السلام قد أثنى على أصحابه، فصحّ أنّهم أظهروا الإسلام فحرّمت بذلك دماؤهم فى ظاهر الأمر، و باطنهم إلى اللّه تعالى فى صدق أو كذب، فإن كانوا صادقين فى توبتهم فهم أصحابه حقّا، عند الناس ظاهرهم

و عند اللّه تعالى باطنهم و ظاهرهم، فهم الّذين أخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّهم: لو أنفق أحدنا مثل أحد ذهبا ما بلغ نصيف مدّ أحدهم. و إن كانوا كاذبين فهم فى الظاهر مسلمون و عند اللّه تعالى كفّار» «۱».

و قال: «و أمّا حديث حذيفة فساقط؛ لأنّه من طريق الوليد بن جميع، و هو هالك، و لا نراه يعلم من وضع الحديث؛ فإنّه قد روى أخبارا فيها أنّ أبا بكر، و عمر، و عثمان، و طلحة، و سعد بن أبى وقّاص رضى اللّه عنهم أرادوا قتل النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلم و إلقاءه من العقبة فى تبوك و هذا هو الكذب الموضوع الذى يطعن اللّه تعالى واضعه، فسقط التعلّق به، و الحمد للّه ربّ العالمين» «۲».

إلى أن قال: «و أمّا الموقوفة على حذيفة فلا تصحّ، و لو صحّت لكانت بلا شكّ على ما بيّنا من أنّهم صحّ نفاقهم و عاذوا بالتوبة و لم يقطع حذيفة و لا غيره على باطن أمرهم فتورّع عن الصلاة عليهم. و فى بعضها: أنّ عمر سأله: أنا منهم؟ فقال له: لا، و لا أخبر أحدا غيرك بعدك. و هذا باطل، كما ترى؛ لأنّ من الكذب المحض أن يكون عمر يشكّ فى معتقد نفسه حتّى لا يدرى أمنافق هو أم لا؟ و كذلك أيضا لم يختلف اثنان من أهل الإسلام فى أنّ جميع المهاجرين قبل فتح مكّة لم يكن فيهم منافق، إنّما كان النفاق فى قوم من الأوس و الخزرج فقط، فظهر بطلان هذا الخبر» «۳».

ثمّ روى عن البخارى «۴»: «نا آدم بن أبى إياس، نا شعبة، عن واصل الأحدب، عن أبى وائل شقيق ابن سلمة، عن حذيفة بن اليمان، قال: إنّ المنافقين اليوم

شرّ منهم على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كانوا حينئذ يسرّون و اليوم يجهرون» «۱».

أقول: ذكر فى تهذيب الكمال فى ترجمة الوليد بن جميع:

الوليد بن عبد اللّه بن جميع الزهرى الكوفى، والد ثابت بن عبد اللّه بن جميع، و قد ينسب إلى جدّه أيضا. ثمّ نقل عن أحمد بن حنبل و أبى داود قولهما فيه:

لا بأس. و عن يحيى بن معين: ثقة- و زاد مصحّح الكتاب حكاية الدارمى عن يحيى بن معين ذلك عن ابن محرز، و زاد: مأمون مرضى- و كذلك عن العجلىّ.

و قال أبو زرعة: لا بأس به. و قال أبو حاتم: صالح الحديث. و قال عمرو بن على: كان يحيى بن سعيد لا يحدّثنا عن الوليد بن جميع فلمّا كان قبل موته بقليل حدّثنا عنه. و ذكره ابن حبّان فى كتاب الثقات، روى له البخارى فى الأدب، و الباقون سوى ابن ماجة «۲».

و ذكر مثل ذلك فى التهذيب، و قال:

و ذكره- اى ابن حبّان- فى الضعفاء، و قال: ينفرد عن الأثبات بما لا يشبه حديث الثقات، فلمّا فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به. و قال ابن سعد: كان ثقة، له أحاديث. و قال البزار: احتملوا حديثه، و كان فيه تشيّع. و قال العقيلى:

فى حديثه اضطراب. و قال الحاكم: لو لم يخرج له مسلم لكان أولى «۳».

فترى أنّهم مسلّمون بوثاقة الوليد بن جميع إلّا أنّ سبب الطعن بوثاقته هو روايته عن أبى الطفيل، عن حذيفة روايات أصحاب عقبة تبوك. و قد ذكر ابن جرير الطبرى فى المسترشد بعض تلك الروايات، قال:

و روى عبيد اللّه بن موسى، عن الوليد بن جميع، عن أبى الطفيل، عن حذيفة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۳۹

أو عمّار، قال: «تجسّسوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليلة العقبة »، ...: و ذكر جماعة من الصحابة. و روى أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال- بعد فشل أصحاب العقبة فى تنفير راحلته و مطالبة بعض من كان معه بقتل تلك المجموعة- «إنّى أكره أن يقول الناس: أنّ محمّدا لمّا انقطعت الحرب بينه و بين المشركين، وضع يده فى قتل أصحابه. فقال: يا رسول اللّه! فإنّ هؤلاء ليسوا بأصحاب. قال: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلّا اللّه؟ قال: بلى، و لا شهادة لهم. قال: أليس يظهرون أنّى رسول اللّه؟ قال: بلى، و لا شهادة لهم. قال: فقد نهيت عن قتل أولئك» «۱».

و أخرج الذهبى فى سير أعلام النبلاء فى ترجمة حذيفة «۲»:

و كان النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلم قد أسرّ إلى حذيفة أسماء المنافقين، و ضبط عنه الفتن الكائنة فى الأمّة «۳». و قد ناشده عمر: أ أنا من المنافقين؟

فقال: لا، و لا أزكّى أحدا بعدك «۴»» «۵».

و قال:

حمّاد بن سلمة: أخبرنا على بن زيد، عن الحسن، عن جندب: أنّ حذيفة قال:

ما كلام أتكلّم به يردّ عنّى عشرين سوطا، إلّا كنت متكلّما به.

خالد، عن أبى قلابة، عن حذيفة، قال: إنّى لأشترى دينى بعضه ببعض؛ مخافة أن يذهب كلّه «۶».

أبو نعيم: حدّثنا سعد بن أوس، عن بلال بن يحيى، قال: بلغنى أنّ حذيفة كان

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۰

يقول: ما أدرك هذا الأمر أحد من الصحابة إلّا قد اشترى بعض دينه ببعض.

قالوا: و أنت؟ قال: و أنا و اللّه، إنّى لأدخل على أحدهم- و ليس أحد إلّا فيه محاسن و مساوئ- فأذكر من محاسنه و أعرض عمّا سوى ذلك «۱».

و روى الديلمى فى إرشاد القلوب حادثة أخرى مشابهة- هى المحاولة الثانية لأصحاب عقبة تبوك- وقعت عقب بيعة غدير خمّ و تنصيب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم الإمام علىّ عليه السّلام خليفة من بعده؛ إذ اجتمعوا.

و دار الكلام فيما بينهم و أعادوا الخطاب، و أجالوا الرأى فاتّفقوا على أن ينفروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ناقته على عقبة الهريش، و قد كانوا صنعوا مثل ذلك فى غزوة تبوك فصرف اللّه الشرّ عن نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم. فاجتمعوا فى أمر رسول اللّه من القتل و الاغتيال و استقاء السمّ على غير وجه، و قد اجتمع أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الطلقاء من قريش و المنافقين من الأنصار، و من كان فى قلبه الارتداد من العرب فى المدينة، فتعاقدوا و تحالفوا على أن ينفروا به ناقته، و كانوا أربعة عشر رجلا، و كان من عزم رسول اللّه أن يقيم عليّا عليه السّلام و ينصبه للناس بالمدينة إذا قدم، فسار رسول اللّه »، ... و ذكر واقعة غدير خمّ.

و قال: «قال حذيفة: و دعانى رسول اللّه و دعا عمّار بن ياسر و أمره أن يسوقها و أنا أقودها حتّى إذا صرنا فى رأس العقبة ثار القوم من ورائنا و دحرجوا الدباب بين قوائم الناقة فذعرت و كادت أن تنفر برسول اللّه »، ... ثمّ ذكر تفاصيل الحدث قريب ممّا جرى فى عقبة تبوك.

«قال حذيفة: فقلت- أى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم- و من هؤلاء المنافقون يا رسول اللّه! أمن المهاجرين أم الأنصار؟ فسمّاهم لى رجلا رجلا حتّى فرغ منهم، و قد كان فيهم أناس أكره أن يكونوا منهم فأمسكت عن ذلك. فقال رسول

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۱

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: يا حذيفة! كأنّك شاكّ فى بعض من سمّيت لك؟! ارفع رأسك إليهم.

فرفعت طرفى إلى القوم و هم وقوف على الثنية، فبرقت برقة فأضاءت جميع ما حولنا و ثبتت البرقة حتّى خلتها شمسا طالعة، فنظرت و اللّه إلى القوم فعرفتهم رجلا رجلا، و إذا هم كما قال رسول اللّه، و عدد القوم أربعة عشر رجلا، تسعة من قريش و خمسة من سائر الناس » «... ۱»

و قد ذكرنا فى ما سبق ما رواه مسلم فى صحيحه عن قيس بن عبّاد قال: «قلت لعمّار:

أرأيتم صنيعكم هذا فيما كان من أمر علىّ، أرأيا رأيتموه أو شيئا عهده إليكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! فقال: ما عهد إلينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافّة، و لكن حذيفة أخبرنى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: فى أصحابى اثنا عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل فى سمّ الخياط» «۲».

و من الواضح أنّ حكاية عمّار عن حذيفة حديث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن الاثنى عشر منافقا- عدد أصحاب العقبة الّذين نفروا دابّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم- فى ذلك الوقت، تعريض بأنّ بعض الصحابة كانوا من جملة الاثنى عشر، لا سيّما و أنّ عمّار و حذيفة هما اللّذان كانا مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم حينها، و أنّ تعبيره صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان: «فى أصحابى»، الذى يعطى اختصاصهم القريب بالصحبة له صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و روى مسلم فى صحيحه أيضا فى كتاب صفات المنافقين روايات أخرى فيهم نقلناها سابقا، فلتلحظ. و روى ابن عساكر فى تاريخ دمشق بسنده عن زيد بن وهب الجهنى، يحدّث عن حذيفة:

قال: مرّ بى عمر بن الخطّاب و أنا جالس فى المسجد فقال: يا حذيفة! إنّ فلانا قد مات فاشهده. قال: ثمّ مضى حتّى إذا كاد أن يخرج من المسجد

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۲

التفت إلىّ فرآنى و أنا جالس فعرف، فرجع إلىّ فقال: يا حذيفة! أنشدك اللّه أمن القوم أنا؟ قال: قلت: اللّهمّ لا، و لن أبرّئ أحدا بعدك، قال: فرأيت عينى عمر جاءتا» «۱».

و روى هذه الرواية ابن العديم فى بغية الطلب فى تاريخ حلب بسنده «۲». و جواب حذيفة فى هذه الرواية يتضمّن التعريض الشديد، كما هو طافح من ألفاظه؛ إذ ما معنى:

«و لن أبرّئ أحدا بعدك»؟! فإنّ أىّ فرد من الناس إذا لم يكن من المنافقة أصحاب العقبة فلا معنى لامتناع حذيفة من الجواب، و التعبير ب: «لن أبرّئ أحدا بعدك» يعطى: لن أبرئ أحدا من الجماعة الخاصّة التى هى أصحاب العقبة؛ فالتعبير «أبرّئ» أى: أثبت له البراءة مع كونه متورّطا فى عملية الاغتيال المدبّر فى العقبة؛ و لذلك قال بعد ذلك: «فرأيت عينى عمر جاءتا» أى: وقع فى دهشة و هلع شديد، و ذلك لكون جواب حذيفة صريح بالتخلّص الذكى؛ و هو لا يعنى تبرئة صافية عن شوب التعريض بالنفى.

مضافا إلى أنّ الرجل الميت الذى كنّى عنه حذيفة ب: «فلان» لا بدّ أن يكون من رجالات الدولة البارزين؛ حتّى سبّب حصول التساؤل لدى عمر عن حاله عند حذيفة، و عن مدى معرفة حذيفة بجميع أصحاب العقبة، و إلّا فكيف لا يعرف- و الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ «۳» - أنّه كان منهم أم لم يكن؟!! فلا بدّ و أن يكون مصبّ السؤال هو عن مدى معرفة حذيفة بتمام المجموعة.

و مثل هذا التساؤل قد يوحى و يقضى بتورّط السائل؛ لأنّ البرىء لا يحصل لديه الشكّ فى كونه من مجموعة العقبة. و السبب فى الشكّ بمعرفة حذيفة بالمجموعة هو أنّ وقت تنفيذ العملية فى العقبة كان ليلا مظلما، و كانت الجماعة ملثّمة، و عندما تصدّى لهم حذيفة و عمّار و رجعوا و اختفوا فى الناس ظنّوا و حسبوا أنّ حذيفة و عمّار لم يعرفوهم،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۳

لا سيّما و أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم نبىّ الرحمة لم يفصح و لم يشهّر بهم بأمر من اللّه تعالى، كما جاء فى كتب حديث

الفريقين و كتب السير، قال تعالى: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ «۱»، و قال تعالى: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ «۲».

و روى ابن عساكر عن النزّال بن سبرة الهلالى:

قال: وقفنا من علىّ ابن أبى طالب ذات يوم طيب نفس و مراح فقلنا: يا أمير المؤمنين! حدّثنا عن أصحابك- إلى أن قال: - فحدّثنا عن حذيفة، قال: فذاك امرؤ علم المعضلات و المفصّلات، و علم أسماء المنافقين، إن تسألوه عنها تجدوه بها عالما «۳».

و قد تكرّر تسمية علم أسماء المنافقين بعلم المعضلات فى الأحاديث الواردة فى حذيفة، و ذلك إشارة إلى خطورة الأسماء المندرجة فى تلك القائمة بحيث أنّ ذلك معضل يصعب إفشاؤه علنا أمام عامّة الناس.

و روى فى بغية الطلب فى تاريخ حلب بسنده عن النمرى:

و كان عمر بن الخطّاب يسأله عن المنافقين، و هو معروف فى الصحابة بصاحب سرّ رسول اللّه، و كان عمر ينظر إليه عند موت من مات منهم فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر «۴».

و قال:

و قتل صفوان و سعيد ابنا حذيفة بصفّين، و كانا قد بايعا عليّا بوصية أبيهما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۴

بذلك إياهما «۱».

و روى الذهبى بسنده، و غيره، عن بلال بن يحيى:

إنّ حذيفة أتى و هو ثقيل بالموت فقيل له: قتل عثمان فما تأمرنا؟ فقال:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: أبو اليقظان على الفطرة، ثلاث مرّات، لن يدعها حتّى يموت أو يلبسه الهرم «۲».

و الذيل لم يسلم من تصرّف بعض الرواة. و روى عن حذيفة بأسانيد مختلفة، قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «علىّ خير البشر فمن أبى فقد كفر» «۳».

هذا، و المتصفّح لترجمة حذيفة بن اليمان فى كتب السير و التراجم، و لرواياته فى كتب الحديث يستشرف أنّ ولاءه و هواه مع علىّ عليه السّلام و أصحابه كعمّار بن ياسر، و قد آخى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بينه و بين عمّار، و أنّه كان يتحفّظ فى تعامله مع أصحاب السقيفة، و قد مرّ لوم عثمان بن عفّان له على كلام تحدّث به فلمّا أحضره أنكر حذيفة ذلك، كعادته فى التحفّظ، كما مرّ ذلك فى كلامه المروى عنه.

و روى البخارى فى التاريخ الكبير عن قيس بن رافع، أنّه:

سمع حذيفة قال: كيف لا يضيع أمر أمّة محمّد صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم إذا ملك أمرهم من لا يزن عند اللّه جناح بعوضة «۴».

و روى ابن عدى بسنده عن حذيفة، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال:

«يكون لأصحابى بعدى زلّة فيغفر اللّه لهم بسابقتهم معى، يعمل قوم بها بعدهم يكبّهم اللّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۵

فى النار على مناخرهم» «۱».

و الحديث قد اشتمل على معنى متدافع، و هو إنّ الزلّة تغفر لجماعة و تدخل النار جماعة أخرى، و الظاهر أنّ الجملة المتوسّطة- و هى الغفران بسبب الصحبة السابقة- زيادة من يد الوضع، كما فى مقولة: «المغفرة للصحابى و إن بلغ عمله الطالح ما بلغ»، و التى تعرّضنا لزيفها فى الحلقات السابقة بدلالة آيات «الأنفال» فى واقعة بدر و آيات «آل عمران» فى واقعة أحد. و الحديث و إن اشتمل على هذه الزيادة، و على هذا المعنى المتدافع، إلّا أنّ أصله متطابق مع الأحاديث المستفيضة الواردة و جملة من الآيات الدالّة على الإحداث و

التبديل.

و لنعم ما قال الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام:

إنّ العرب كرهت أمر محمّد ٩، و حسدته على ما آتاه اللّه من فضله، و استطالت أيامه حتّى قذفت زوجته، و نفرت به ناقته مع عظيم إحسانه إليها، و جسيم مننه عندها، و أجمعت مذ كان حيّا على صرف الأمر عن بيته بعد موته، و لو لا أنّ قريشا جعلت اسمه ذريعهٔ إلى الرياسهٔ، و سلّما إلى العزّ و الإمرهٔ لما عبدت اللّه بعد موته يوما واحدا «٢».

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۴۶

* الثانيهٔ: المظاهرهٔ بالمكيدهٔ ... ص: ۲۴۶

اشارهٔ

أمّا الواقعهٔ الخطيرهٔ الثانيهٔ التى وقعت من بعض خواصّ الصحابهٔ، فهى المظاهرهٔ و المؤازرهٔ على الرسول الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورهٔ التحريم بالخصوص، و كذلك فى بعض آيات من سورهٔ محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و آيهٔ من سورهٔ البقرهٔ..

قال تعالى فى سورهٔ التحريم: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ* إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ* عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً.

إلى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ «١».

الصحابهٔ بين العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۴۷

و القرائهٔ المبتدأهٔ للسورهٔ، و التدبّر للوهلهٔ الأولى فى سياق آياتها و أسلوب خطابها يوقف الناظر على أنّ هناك حديثا أسرّه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى بعض أزواجه فقامت بإفشاء سرّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى زوجهٔ أخرى، أو بالإضافهٔ إلى جماعهٔ أخرى. و استعقب هذا الحديث مأربا لزوجتى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و القيام بتدبير مناهض له، و مكيدهٔ و احتيالا فى غايهٔ الخطورهٔ على وجود النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، ممّا استدعى نفيرا إلهيا عامّا، و تعبئهٔ شاملهٔ لجنود الرحمن، و أوجب تحذيرا و تهديدا معلنا من قبله تعالى لأصحاب المؤامرهٔ.

و لا يعقل فى الحكمهٔ العقليهٔ، فضلا عن الحكمهٔ الإلهيهٔ، أن يكون كلّ هذا الاستعراض للقوّهٔ الإلهيهٔ فى قبال خلاف فى الأمور الزوجيهٔ حدث بينه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بين زوجتيه، بل لا محالهٔ أنّ الحدث و إن ابتدأ بذلك إلّا أنّه انتهى إلى المواطأهٔ الدهياء على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و من المنطقى اتّصال هذه المواطأهٔ بأصحاب مصلحهٔ فى إجرائها، و أنّهم على مكمن إعداد و تهيّئ لتنفيذها، فهى على اتّصال محتمل بقوّهٔ مع الحادثهٔ الخطيرهٔ الأولى الواقعهٔ فى عقبهٔ تبوك. و قد توصّلنا ثمّهٔ إلى تجميع العديد من خيوط المجموعهٔ التى قامت بارتكاب محاولهٔ الاغتيال، و الملفت للنظر أنّ تلك المجموعهٔ على اتّصال وثيق بزوجتى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، اللتين نزلت السورهٔ فيهما، و كشفت هول ما عزمتا عليه تواطئا على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، هذا هو المتراءى البدوى من ألفاظ السورهٔ.

و لنستعرض أقوال المفسّرين، و الروايات الواردة من الفريقين فى ذيل السورة، ثمّ نرجع إلى متن السورة و نمعن النظر فى معانيها مرّة أخرى؛ لنتعرّف على ملابسات الحدث بصورة أوضح و أشمل.

قال فى الدرّ المنثور:

أخرج ابن سعد، و عبد بن حميد، و البخارى، و ابن المنذر، و ابن مردويه، عن عائشة: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم كان يمكث عند زينب بنت جحش و يشرب عندها عسلا، فتواصيت أنا و حفصة أن أيّتنا دخل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۸

عليها النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم فلتقل: إنّى أجد منك ريح المغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، و لن أعود. فنزلت: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ إلى: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ لعائشة و حفصة «۱».

و قال أيضا:

و أخرج النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، عن أنس: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة و حفصة حتّى جعلها على نفسه حراما، فانزل اللّه هذه الآية...

و أخرج الترمذى، و الطبرانى، بسند حسن صحيح، عن ابن عبّاس، قال:

نزلت: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ.. الآية، فى سريّته. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، عن ابن عبّاس (رض)، قال: قلت لعمر بن الخطّاب (رض): من المرأتان اللتان تظاهرتا؟! قال: عائشة و حفصة. و كان بدء الحديث فى شأن مارية أمّ إبراهيم القبطية، أصابها النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم فى بيت حفصة فى يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبىّ اللّه! لقد جئت شيئا ما جئته إلى أحد من أزواجك، فى يومى و فى دارى و على فراشى؟ فقال: ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها. قالت: بلى. فحرّمها، و قال: لا تذكرى ذلك لأحد. فذكرته لعائشة (رض)، فأظهره اللّه عليه، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ، الآيات كلّها، فبلغنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم كفّر عن يمينه و أصاب جاريته «۲».

و أخرج ابن سعد، و ابن مردويه، عن ابن عبّاس (رض)، قال: «كانت عائشة و حفصة متحابّتين، فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدّث عنده، فأرسل النبىّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۴۹

صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم إلى جاريته » ... ثمّ ذكر بقية القصّة، و فيها:

«فأسرّت إليها- أى حفصة لعائشة- أن أبشرى إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم قد حرّم عليه فتاته، فلمّا أخبرت بسرّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم أظهر اللّه النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم عليه، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا » «... ۱».

و أخرج ابن مردويه، عن أنس: أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم أنزل أمّ إبراهيم منزل أبى أيوب، قالت: عائشة (رض): فدخل النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم بيتها يوما فوجد خلوة، فأصابها فحملت بإبراهيم. قالت عائشة: فلمّا استبان حملها فزعت من ذلك، فمكث رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم حتّى ولدت، فلم يكن لأمّه لبن فاشترى له ضائنة يغذّى منها الصبى، فصلح عليه جسمه و حسن لحمه و صفا لونه، فجاء به يوما يحمله على عنقه فقال: يا عائشة! كيف ترى الشبه؟!

فقلت: أنا غيرى ما أدرى شبها. فقال: و لا باللحم؟! فقلت: لعمرى لمن تغذّى بألبان الضان ليحسن لحمه. قال: فجزعت عائشة (رض) و حفصة من ذلك، فعاتبته حفصة، فحرّمها، و أسرّ إليها سرّا فأفشته إلى عائشة (رض)، فنزلت آية التحريم، فاعتق رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم رقبة» «۲».

و يتبيّن من هذه الرواية الأخيرة التى أوردها السيوطى أنّ السرّ الذى أفشته حفصة لعائشة ليس هو تحريم مارية على نفسه صلّى اللّه

عليه و آله و سلم، بل هو أمر آخر، كما يتبيّن من الروايات السابقة التى أوردها أنّ هناك تحالفا شديدا بين حفصة و عائشة، و أنّهما كانتا تغاران بشدّة من مارية و من ولادتها إبراهيم ابنا للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّهما كانتا تمانعان من الشبه له به صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هذه بصمات لحديث الإفك.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٢٥٠

و العمدة: أنّ الرواية الأخيرة دالّة على أنّ السرّ وراء التحريم الذى تحلّل منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو أمر ما، و أنّ تسميته فى الآية و الرواية ب «السرّ» يقتضى خطورة المعلومة التى ذكرها النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لحفصة، و أنّ هذه المعلومة لا ريب فى ارتباطها الوثيق مع التظاهر الخفى المدبّر من ضدّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

ثمّ إنّ السيوطى روى روايات عديدة عن ابن مردويه، و ابن عساكر، و الطبرانى، و ابن المنذر، و عبد الرزّاق، و البخارى، و غيرهم، عن ابن عبّاس، و عائشة، و غيرهما:

أنّ السرّ الذى أسرّه النبىّ إلى حفصة هو فى أمر الخلافة من بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ الذى سيلى الأمر بعده أبويهما، إلّا أنّ ألفاظ الروايات مختلفة، ففى بعضها:

«قال: أسرّ إلى عائشة فى أمر الخلافة بعده، فحدّثت به حفصة». و فى بعضها:

«إنّ إمارة أبى بكر و عمر لفى الكتاب: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً، قال لحفصة: أبوك و أبو عائشة و اليان الناس بعدى، فإيّاك أن تخبرى أحدا». و فى بعضها: «أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال لحفصة: لا تخبرى عائشة حتّى أبشّرك بشارة، فإنّ أباك يلى الأمر بعد أبى بكر إذا أنا متّ. فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة للنبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: مَنْ أَنْبَأَكَ هذا؟ قال: نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ» «١».

و الغريب فى صياغات هذه الأحاديث أنّها تعبّر عن هذا السرّ بأنّه: «بشارة»، أو أنّه: «عهد من البارى تعالى»، و أنّه: «من فضائل الصديق و الفاروق»؛ فإذا كان جوّ المحيط و مناخ هذه المعلومة أنّها «بشارة» و «عهد إلهى» و «فضيلة عظمى» فلم تتظاهرا و تآزرا فى تدبير أمر خفىّ خطير على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، إلى درجة تستدعى النفير الإلهى، و التعبئة الشديدة المحال، و الإرباك الأمنى؟!!

من البيّن الشاهر أنّ المناخ الذى تصوّره السورة هو جوّ ملبّد بظلمة المجابهة، و المواجهة، و الاستعداد، و إثم قلوبهما و استدعائه التوبة إلى اللّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ٢٥١

تعالى.

و قد روى فى الدرّ المنثور عن مجاهد، قال:

كنّا نرى أنّ صِغَتْ قُلُوبُكُما شيء هيّن، حتّى سمعناه بقراءة عبد اللّه: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما. و فى التمثيل و التعريض فى ذيل السورة بامرأتى نوح و لوط، و أنّهما مثلا للّذين كفروا، قال الرازى فى تفسيره: «و فى ضمن هذين التمثيلين تعريض بأمّى المؤمنين، و هما: حفصة و عائشة، لما فرط منهما، و تحذير لهما على أغلظ وجه و أشدّه؛ لما فى التمثيل من ذكر الكفر» «١».

و إنّ الخيانة التى ارتكبتها امرأتى نوح و لوط كانت فى الدين، و عداوتهما للنبيّين العظيمين كانت فى رسالتيهما الإلهيّتين، فكيف يكون كلّ هذا المسار الذى ترسمه الآية هو عن بشارة خلافة والدى عائشة و حفصة؟!، بل لو كان الحال حال بشارة لاقتضى طبع الحال تعاونهما مع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ لما جبلت عليه الطباع من الميل إلى نفع الرحم، ولو كان الحال حال عهد إلهى بخلافة أبى بكر و عمر لاقتضى انشداد الابنتين إلى ذلك، مديحا منه تعالى و عطفا ربّانيا على ما قد أتيتاه؛ لأنّه ذوبان فى الإرادة الإلهية و مسارعة فى الغاية الدينية.

و كيف يكون ما فعلتاه مضادّة لدين النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على حذو مضادّة امرأة نوح و امرأة لوط، لو كان خبر خلافة أبى

بكر و عمر عهد معهود من رضا الربّ المعبود؟! ثمّ كيف يتلائم كون خلافتهما عهدا فى الكتاب و يصرّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على إخفائه و عدم تبليغه للناس، و يكون إفشاؤه من ابنتيهما مضادّة للّه و لرسوله و خيانة فى الدين؟!

و لم لا ينزل الكتاب بذلك، كما نزلت فى علىّ عليه السّلام عشرات الآيات، كقوله تعالى:

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ*

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۲

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ «۱». و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ «۲»، الذى نزل فى غدير خمّ.

نعم، كون الخبر وصول أبويهما إلى سدّة الحكم هو ظاهر اتّفاق روايات الفريقين- كما ستأتى بقيّتها- لكن هل أنّه بشارة و عهد أم أنّه نذارة و تغلّب و نزاع مع الحقّ و أهله؟! فهذا ما اختلفت فيه الروايات، و سياق السورة صدرا و ذيلا يتنافى مع الأوّل و يتوافق مع الثانى؛ و هو ما سيتبين من مواصلة البحث فى بقية فقرات السورة.

روى فى الدرّ المنثور، عن الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه:

فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ: يعنى عائشة، وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: أى بالقرآن، عَرَّفَ بَعْضَهُ: عرّف حفصة ما أظهر من أمر مارية، وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ: عمّا أخبرت به من أمر أبى بكر و عمر، فلم يبده، فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ إلى قوله:

الْخَبِيرُ، ثمّ أقبل عليهما يعاتبهما فقال: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ. الحديث «۳».

و فى هذا الحديث إلفاتة حسّاسة، هى: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم ينبئ حفصة أو عائشة عمّا فعلتاه من إفشاء الخبر المرتبط بأمر أبى بكر و عمر و ما اتّصل من أمور أخرى بذلك الأمر، ممّا عدّه القرآن الكريم تظاهر و تواطؤ على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و دين اللّه تعالى، و ممّا له صلة أمنية خطيرة بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ الذى استدعى هذا النفير و التعبئة الإلهية الشاملة.

فهذه قصاصة و ثائقية بالغة المؤدّى تقتضى أنّ التدبير الخفى الذى قامتا به هو ممّا يتّصل بأمر أبى بكر و عمر من بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و الغريب ما فى جملة من تفاسير أهل سنّة الجماعة و رواياتهم من تصوير هذه التظاهرة التى قامتا بها على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّها شأن دارج فى الحياة الزوجية، و استدعى كلّ هذا الصخب و الاهتمام منه تعالى و الإنذار الشديد

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۳

اللحن.

فقد روى السيوطى عن عبد بن حميد، و مسلم، و ابن مردويه، عن ابن عبّاس:

قال: حدّثنى عمر بن الخطّاب، قال ...: فقلت: يا رسول اللّه! ما يشقّ عليك من شأن النساء، فإن كنت طلّقتهنّ فإنّ اللّه تعالى معك و ملائكته و جبريل و ميكائيل، و أنا و أبو بكر و المؤمنون معك، و قلّما تكلّمت و أحمد اللّه بكلام إلّا رجوت أن يكون اللّه يصدق قولى الذى أقوله. و نزلت هذه الآية:

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ، و كانت عائشة (رض) بنت أبى بكر و حفصة تظاهران على سائر نساء النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم. الحديث «۱».

و آثار الوضع لائحة بيّنة على هذا الحديث؛ إذ يتضمّن المتناقضات، فإنّ المنازعة الزوجية الاعتيادية إذا استلزمت هذه النصرة المهيبة فتكون أشبه بالهزل البارد منها بالحدث الجدّى الخطير، و حاشاه تعالى عن الباطل، كما تضمّن أنّ تظاهرهما هو على بقية أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و هو مخالف لصريح القرآن الكريم من أنّ المجابهة فى تدبيرهما الخفى كانت قبال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما تضمّن أنّ «صالح المؤمنين» هو: أبو بكر و عمر، فكيف يكونا فى طرف النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى هذه

الحادثة الواقعة، و الحال أنّ ابنتيهما بشّرتاهما بأمرهما بعد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّه عهد معهود مرضى من ربّ العزّة؟!! و كيف يكونا فى الطرف المقابل لابنتيهما و لم تقوما بإفشاء السرّ إلّا بما هو بشارة لهما؟! و بطبيعة الحال إنّ مثل هذا السرّ لم تكن حفصة و عائشة لتخبر إحداهما الأخرى به دون أن تطلعا أبويهما عليه؛ كما هو مقتضى جبلّة الطبع، فإنّهما إذا كانتا متحابّتين فإنّ تحابّهما مع أبويهما أشدّ، و إذا كان هذا الخبر بشارة لهما فإنّ استبشارهما سيكون

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۴

بسبب النفع العائد لوالديهما، فكيف لا تخبرانهما بذلك؟! و ما الذى بنى عليه الأربعة و أطلق القرآن عليه: «تظاهر منهما» على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟!

و الأظرف ذكر هذه النبوءة لعمر: «قلّما تكلّمت و أحمد اللّه بكلام إلّا رجوت أن يكون اللّه يصدق قولى الذى أقوله ».. ... و إن كانت الموارد التى نزل الوحى فيها مطابقا لكلامه جميعها تحتاج إلى بحث مبسوط؛ كى يتبيّن النسيج المحبوك لهذه الموضوعات.

و روى ابن كثير فى تفسيره، عن مجاهد: إنّ «صالح المؤمنين» هو الإمام علىّ عليه السّلام، و رواه أيضا بطريق آخر «۱». و روى فى الدرّ المنثور روايات متعدّدة فى «صالح المؤمنين»: فتارة أنّه: أبو بكر و عمر، و أخرى: عمر، و ثالثة: قال:

و أخرج ابن عساكر عن مقاتل بن سليمان (رض) فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، قال: أبو بكر و عمر و علىّ (رض)، و رابعة: أنّه: الأنبياء، و خامسة: قال: «و أخرج ابن أبى حاتم ... قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، قال: هو علىّ بن أبى طالب. و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم يقول: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، قال: علىّ بن أبى طالب، و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر، عن ابن عبّاس فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، قال:

هو علىّ بن أبى طالب «۲».

و قال القرطبى- بعدما نقل الأقوال فى «صالح المؤمنين» أنّه: أبو بكر أو عمر-:

و قيل: هو علىّ؛ عن أسماء بنت عميس، قالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ: علىّ بن أبى طالب «۳».

و روى مثل ذلك الثعلبى فى تفسيره «۴». و حكى ابن الجوزى فى زاد المسير أنّه:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۵

علىّ عليه السّلام، حكاه الماوردى؛ قاله الفرّاء «۱».

و فى كون «صالح المؤمنين» عليّا عليه السّلام بالغ المعنى؛ فإنّ أبا بكر و عمر- كما مرّ- هما من الطرف الآخر فى الحادثة، لأنّهما ممّن أفشى لهما الخبر الذى نجم عنه التظاهر و التواطؤ على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ ففى الآية مقابلة بين تلك المجموعة المتواطئة على دين اللّه و نبيّه و بين معسكر الدين و التوحيد بقيادة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ «صالح المؤمنين» وليّه و حاميه بعد اللّه تعالى و جبرئيل، و هى لا تخلو من دلالة على التخالف و التقابل بين الولايتين، بين ولاية أبى بكر و عمر- التى كانت السرّ الذى أفشى و تسبّب منه حصول المظاهرة و المواطئة الأمنية على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- و بين ولاية «صالح المؤمنين» المنشعبة ولايته من ولاية اللّه و رسوله.

قال الزمخشرى فى ذيل الآية الكريمة: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ:

مثّل اللّه عزّ و جلّ حال الكفّار- فى أنّهم يعاقبون على كفرهم و عداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم، من غير إبقاء و لا محاباة، و لا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم و بينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأنّ عداوتهم لهم و كفرهم باللّه و رسوله قطع العلائق و بتّ الوصل و جعلهم أبعد من الأجانب و أبعد، و إن كان المؤمن الذى يتّصل به الكافر نبيّا من أنبياء اللّه- بحال امرأة نوح و امرأة لوط،

لمّا نافقتا و خانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحقّ ما بينهما و بينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب اللّه، وَ قِيلَ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ادْخُلَا النَّارَ مَعَ سائر الدَّاخِلِينَ الّذين لا وصلة بينهم و بين الأنبياء...

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۶

إلى أن قال: - و في طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة، و ما فرط منهما من التظاهر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم بما كرهه، و تحذير لهما على أغلظ وجه و أشدّه؛ لما في التمثيل من ذكر الكفر و نحوه في التغليظ قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ، و إشارة إلى أنّ من حقّهما أن تكونا في الإخلاص و الكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين- أي: آسية و مريم- و أن لا تتّكلا على أنّهما زوجا رسول اللّه؛ فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلّا مع كونهما مخلصتين. و التعريض بحفصة أرجح؛ لأنّ امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول اللّه، و أسرار التنزيل و رموزه في كلّ باب بالغة من اللطف و الخفاء حدّ أيدقّ عن تفطّن العالم، و يزلّ عن تبصّره...

إلى أن قال: - فإن قلت: ما كانت خيانتهما؟ قلت: نفاقهما و إبطانهما الكفر، و تظاهرهما على الرسولين؛ فامرأة نوح قالت لقومه: إنّه مجنون، و امرأة لوط دلّت على ضيافته، و لا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور؛ لأنّه سمج في الطباع، نقيصة عند كلّ أحد، بخلاف الكفر، فإنّ الكفّار لا يستسمجونه بل يستحسنونه و يسمّونه حقّا، و عن ابن عبّاس (رض): ما بغت امرأة نبيّ قط «۱».

و قد ذكر الفخر الرازي هذا التساؤل بعينه، و قرّر أنّ الخيانة هي: النفاق و إخفاء الكفر، و التظاهر على الرسولين. و روى السيوطي في الدرّ، قال:

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج (رض) في قوله: فَخانَتاهُما، قال: كانتا كافرتين مخالفتين، و لا ينبغي لامرأة نبيّ أن تفجر «۲».

و لا يخفى على الناظر في ذيل السورة مقدار شدّة اللحن من التمثيل بزوجتي

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۷

النبيّين، ممّا يتّحد مع الممثّل له و المعرّض به، و كون جهة التمثيل و التعريض هي: العداوة الدينية و النفاق و إبطان الكفر، و من ثمّ التظاهر على الرسولين؛ فأين يجد الباحث هذه الصفات في الحادثة الواقعة في أوّل السورة؟! هل هي في مجرّد الغيرة الزوجية؟! أم أنّها في السرّ المفشى من أمر أبي بكر و عمر بعد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ما استعقبه من التدبير المبطن على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟!، فما هي ملابسات الحادثة التي انطبقت عليها الخيانة الدينية العظمى؟!

كما لا يخفى أنّ ذيل السورة قد اشتمل أيضا على مقابلة بين معسكر النفاق و الكفر المبطن، و بين معسكر الصلاح و الاصطفاء. روى السيوطي في الدرّ- في ذيل السورة- قال:

و أخرج أحمد، و الطبراني، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عبّاس (رض)، قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، و مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، مع ما قصّ اللّه علينا من خبرهما في القرآن، قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ «۱» «۲».

و روى الزمخشري في الكشّاف:

و عن النبيّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، و مريم بنت عمران، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد «۳».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۸

و روى القرطبي في تفسيره، قال:

و روى من طرق صحيحة أنّه عليه السّلام قال ...: و ذكر الحديث، ثمّ ذكر طريقا آخر بألفاظ أخرى، و ثالث بغيرها «۱».

و روى قتادة، عن أنس، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، قال:

حسبك من نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد، و آسية امرأة فرعون بنت مزاحم «۲».

و روى عبد الرزّاق الصنعانى بسنده عن أنس بن مالك، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مثله «۳». و رواه الطبرى فى تفسيره عن أنس أيضا، و عن أبى موسى الأشعرى «۴». و بذلك تتبلور صورة المواجهة و أطرافها بشكل أوضح نساء و رجالا. و قال القرطبى فى ذيل السورة:

فَخانَتاهُما: قال عكرمة و الضحّاك: بالكفر، و قال سليمان بن رقية، عن ابن عبّاس: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنّه مجنون، و كانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، و عنه: ما بغت امرأة نبىّ قط. و هذا إجماع من المفسّرين. فى ما ذكر القشيرى: إنّما كانت خيانتاهما فى الدين و كانتا مشركتين. و قيل: كانتا منافقتين، و قيل: خيانتهما النميمة؛ إذ أوحى اللّه إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحّاك...

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۵۹

و قال: قال يحيى بن سلام: قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا: مثل ضربه اللّه يحذّر به عائشة و حفصة فى المخالفة حين تظاهرتا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، ثمّ ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون و مريم بنت عمران؛ ترغيبا فى التمسّك بالطاعة و الثبات على الدين «۱».

و قال الشوكانى فى قوله تعالى: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما:

و اخرج ابن جرير، و ابن مردويه، عن ابن عبّاس فى قوله: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما، قال: زاغت و أثمت «۲». و أخرج البزّار و الطبرانى- قال السيوطى:

بسند صحيح- عن ابن عبّاس، قال: قلت لعمر بن الخطّاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة و حفصة «۳».

و صغو القلب: ميله إلى الإثم، و زيغه عن سبيل الاستقامة، و عدوله عن الصواب إلى ما يوجب الإثم «۴». و حكى الطبرسى عن مقاتل- فى ذيل السورة- أنّه قال:

يقول اللّه سبحانه لعائشة و حفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح و امرأة لوط فى المعصية، و كونا بمنزلة امرأة فرعون و مريم «۵».

و روى الطبرى عن الضحّاك فى تفسير قوله تعالى: فَخانَتاهُما.

قال: «فى الدين فخانتاهما»، و قال: «و قوله: فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يقول: فلم يغن نوح و لوط عن امرأتيهما من اللّه- لمّا عاقبهما على خيانتهما أزواجهما- شيئا، و لم ينفعهما أن كان أزواجهما أنبياء»، و روى مثل ذلك

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۰

عن قتادة «۱».

و حكى ابن الجوزى فى زاد المسير عن ابن السائب تفسير الخيانة بالنفاق، و قال فى قوله عزّ و جلّ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ:

قال المفسّرون منهم: مقال هذا المثل يتضمّن تخويف عائشة و حفصة أنّهما إن عصيا ربّهما لم يغن رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم عنهما شيئا «۲».

و قال فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَظاهَرا:

و قرأ ابن مسعود، و أبو عبد الرحمن، و مجاهد، و الأعمش: تظاهرا، بتخفيف الظاء؛ أى: تعاونا على النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم بالإيذاء، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ، أى: وليّه فى العون و النصرة، وَ جِبْرِيلُ وليّه وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ «۳».

و حكى أيضا عن الزجّاج فى قوله تعالى: صَغَتْ قُلُوبُكُما: «عدلت و زاغت عن الحقّ» «۴». و قال ابن القيّم فى الأمثال فى القرآن، فى ذيل السورة:

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكافر و مثلين للمؤمنين:

فتضمّن مثل الكفّار أنّ الكافر يعاتب على كفره و عداوته للّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم و أوليائه، و لا ينفعه مع كفره ما كان بينه و بين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتّصال؛ فإنّ الأسباب كلّها تنقطع يوم القيامة إلّا ما كان منها متّصلا باللّه وحده على أيدى رسله عليهم الصلاة و السلام، فلو نفعت وصلة القرابة و المصاهرة و النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الصلة التى كانت بين نوح و لوط عليهما الصلاة و السلام و امرأتيهما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۱

إلى أن قال: - فذكر ثلاثة أصناف للنساء: المرأة الكافرة التى لها وصلة بالرجل الصالح، و المرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر، و المرأة العزبة التى لا وصلة بينها و بين أحد، فالأولى لا تنفعها وصلتها و سببها، و الثانية لا تضرّها وصلتها و سببها، و الثالثة لا يضرّها عدم الصلة شيئا.

ثمّ فى هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنّها سيقت فى ذكر أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم و التحذير من تظاهرهنّ عليه، و أنّهن إن لم يطعن اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم و يردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتّصالهن برسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، كما لم ينفع امرأة نوح و لوط اتّصالهما بهما، و لهذا ضرب لهما فى هذه السورة مثل اتّصال النكاح دون القرابة. قال يحيى بن سلام: ضرب اللّه المثل الأوّل يحذّر عائشة و حفصة، ثمّ ضرب لهما المثل الثانى يحرّضهما على التمسّك بالطاعة «۱».

و قال: فى التمثيل بامرأة نوح و لوط تحذير لها- أى عائشة- و لحفصة ممّا اعتمدتاه فى حقّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، فتضمّنت هذه الأمثال التحذير لهنّ و التخويف و التحريض لهنّ على الطاعة و التوحيد ... و أسرار التنزيل فوق هذا و أجلّ منه، و لا سيّما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلّا العالمون «۲».

و قال ابن كثير فى ذيل السورة:

ثمّ قال تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا، أى: فى مخالطتهم المسلمين و معاشرتهم لهم، إنّ ذلك لا يجدى عنهم شيئا، و لا ينفعهم عند اللّه إن لم يكن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۲

الإيمان حاصلا فى قلوبهم.

ثمّ ذكر المثل فقال: امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ، أى: نبيّين رسولين عندهما فى صحبتهما ليلا و نهارا، يؤاكلانهما و يضاجعانهما و يعاشر انهما أشدّ العشرة و الاختلاط، فَخانَتاهُما أى: فى الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان و لا صدّقتاهما فى الرسالة، فلم يجد ذلك كلّه شيئا، و لا دفع عنهما محذورا، و لهذا قال: فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: لكفرهما، و قيل للمرأتين: ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ، و ليس المراد بقوله: فَخانَتاهُما فى فاحشة بل فى الدين «۱».

و قال الشوكانى- بعدما حكى قول يحيى بن سلام، المتقدّم فى حكاية القرطبى-:

و ما أحسن من قال: فإنّ ذكر امرأتى النبيّين بعد ذكر قصّتهما- أى عائشة و حفصة- و مظاهرتهما على رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم يرشد أتمّ إرشاد و يلوّح أبلغ تلويح إلى أنّ المراد تخويفهما مع سائر أمّهات المؤمنين، و بيان أنّهما و إن كانتا تحت عصمة خير خلق اللّه و خاتم رسله، فإنّ ذلك لا يغنى عنهما من اللّه شيئا «۲».

ثمّ ذكر حديث أنّ أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة، و فاطمة، و مريم، و آسية. و حكى فى مجمع البيان عن مقاتل، فى ذيل السورة: يقول اللّه سبحانه لعائشة و حفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح و امرأة لوط فى المعصية «۳».

و غير ذلك من كلمات المفسّرين التى توضّح شدّة لحن الخطاب القرآنى فى هذه السورة الموجّه لحفصة و عائشة، و أنّ غائلة

تظاهرهما هى خيانة دينية، و نفاق معادى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۳

خطير، و مكيدة عظيمة، استدعت هذا التصعيد الشامل فى النفير و التعبئة الإلهية فى صدر السورة، و التعريض بأقصى الحدّة فى ذيل السورة.

ثمّ إنّ لفظ ظَهِيرٌ بمعنى العون و الحماية يعطى أنّ المكيدة متّصلة بمسألة تتعلّق بالحياة الأمنية لوجود النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و بضميمة كون سبب المكيدة هى أمر الخلافة بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أمر أبى بكر و عمر الذى أفشته حفصة أو عائشة إلى الأخرى- كما مرّ- و من ثمّ إلى أبويهما- كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك-.

و بلحاظ كون الحماية الإلهية المستنفرة بالغة القوّة يقتضى أنّ المكيدة لم يكن المتورّط فيها هاتين المرأتين بمفردهما بمجرّد حولهما و قوّتهما، بل كان ذلك على اتّصال و ارتباط بأطراف القضية، و من يعنيه شأن الحدث، و من له علاقة ماسّة بالخبر المفشى؛ و الذى قد تقدّم أنّ صدر السورة يعطى كون الخبر و الحديث يحمل فى طيّاته إنذارا و تحذيرا، لابشارة و استهلالا، و إلّا لما اقتضت طبيعة الخبر تولّد المكيدة الخطيرة و التسبّب لذلك.

و لعظم الخطب فى هذه الحادثة نرى الآيات الأخرى المتوسّطة فى هذه السورة، قد حملت الشدّة نفسها فى الخطاب و التعريض، و لم يحاول المفسّرون من أهل سنّة الجماعة الإلفات إليه، و تغاضوا عن مدلوله، و هى قوله تعالى: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً، فإنّ ذكر هذه الصفات تعريض بفقدها فيهما.

قيل: المراد ب مُسْلِماتٍ: مطيعات و منقادات لأمر اللّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قيل:

مخلصات؛ و المراد ب مُؤْمِناتٍ: أى: المعتقدات بحقيقة الإيمان؛ و التعريض بهذا الوصف يماثل التعريض بما فى ذيل السورة: فَخانَتاهُما بمعنى نافقتاهما و حاددتاهما فى الدين.

و ب قانِتاتٍ: المطيعات الخاضعات المتذلّلات لأمر اللّه تعالى و رسوله؛ إذ القنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع، و قد ذكر هذا فى ذيل السورة فى توصيف مريم بنت عمران،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۴

و هو تأكيد للتعريض بالصفة المقابلة فيهما.

و ب تائِباتٍ: نادمات، و هو تعريض بعنادهما و إصرارهما.

و ب عابِداتٍ: الطاعة فى العبادة، و هو التعريض بطغيان الطرف المقابل.

و ب سائِحاتٍ: قيل: الصيام، و قيل: الهجرة؛ و على الثانى يكون التعريض بهجرة جماعة النفاق و العداء للّه تعالى و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و ب ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً: فقد أكثر المفسّرون من الروايات فى ذيلها أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم وعد بالزواج من آسية و هى الثيب، و مريم و هى البكر فى الآخرة، و كذلك رووا أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أوصى خديجة عليها السّلام عند موتها بالتسليم على أظآرها آسية و مريم و كلثم، فأجابت:

بالرفاه و البنين، و فى ذلك تعريض بأنّهما ليستا زوجتاه فى الآخرة.

و الحال نفسه فى الآيات اللاحقة؛ إذ التهديد بالنار المتوقّدة و الملائكة الغلاظ الشداد، ثمّ قوله تعالى: يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا «۱» ترغيب فى الانتهاء عن الكيد و المواطأة على الدين و النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قال الشوكانى فى ذيل الآية:

و أخرج الحاكم و البيهقى فى البعث، عن ابن عبّاس فى قوله تعالى ...: الآية، قال: ليس أحد من الموحّدين إلّا يعطى نورا يوم القيامة، فأمّا المنافق فيطفأ نوره، و المؤمن مشفق ممّا رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا «۲».

و فى الدرّ المنثور عن مجاهد:

قال: قول المؤمنين حين يطفأ نور المنافقين «۳».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۵

و أعظم بها من سورة قد اشتملت على العديد من الدلالات و التلويحات؛ تعريضا بأطراف الحادثة، و بالسنن الإلهية فى مثل هذا النمط من الفتن، التى تحاك كيدا من الوسط الداخلى فى المسلمين.

و قد أفصح بذلك الزمخشرى فى ما مرّ من مقاله:

...و أسرار التنزيل و رموزه فى كلّ باب بالغة من اللطف و الخفاء حدّا يدقّ عن تفطّن العالم و يزّل عن تبصّره.

و مثله قال الرازى:

و أمّا ضرب المثل بامرأة نوح المسمّاة بواعلة، و امرأة لوط المسمّاة بواهلة، فمشتمل على فوائد متعدّدة لا يعرفها بتمامها إلّا اللّه تعالى.

إلى أن قال: - و منها التنبيه على أنّ التضرّع بالصدق فى حضرة اللّه تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب «۱».

و كذلك مقولة ابن القيّم التى تقدّمت، قال- بعد أن ذكر التعريض بهما و تحذيرهما و تخويفهما-:

و أسرار التنزيل فوق هذا و أجلّ منه، و لا سيّما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلّا العالمون.

وها قد حان أن ننقل أسرار التنزيل و لطائفه و رموزه، و أسرار الأمثال فى هذه السورة عن أئمّة الهدى من آل محمّد صلوات اللّه عليهم. فقد روى على بن إبراهيم القمّى فى تفسيره، بسند صحيح عن الصادق عليه السّلام فى ذيل الآية الأولى فى سبب نزولها:

كان سبب نزولها- و ذكر قصّة حلفه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن لا يطأ مارية، ثمّ إخباره صلّى اللّه عليه و آله و سلم حفصة باستيلاء أبيها على الأمر من بعد استيلاء أبى بكر عليه بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم لها: «فإن أنت أخبرت به فعليك لعنة اللّه و الملائكة و الناس

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۶

أجمعين»، و أنّها قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: اللّه أخبرنى- فأخبرت حفصة عائشة من يومها بذلك، و أخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إنّ عائشة أخبرتنى عن حفصة كذا، و لا أثق بقولها، فسل أنت حفصة. فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟

فأنكرت ذلك و قالت: ما قلت لها من ذلك شيئا. فقال لها عمر: إن كان هذا حقّا؟ فأخبرينا حتّى نتقدّم فيه. فقالت: نعم، قد قال ذلك رسول اللّه.

فاجتمع أربعة على أن يسمّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، فنزل جبرئيل بهذه السورة:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ ... تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ، يعنى قد أباح اللّه لك أن تكفّر عن يمينك، وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ ... فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ أى أخبرت به، وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يعنى: أظهر اللّه نبيّه على ما أخبرت به و ما همّوا به من قتله، عَرَّفَ بَعْضَهُ أى:

أخبرها و قال: «و لم أخبرت بما أخبرتك» به؟ «۱».

صالح المؤمنين و أطراف المواجهة ... ص: ۲۶۶

روى محمّد بن العبّاس، بسنده عن الصادق عليه السّلام:

قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عرّف أصحابه أمير المؤمنين عليه السّلام مرّتين، و ذلك أنّه قال لهم: أتدرون من

وليّكم من بعدى؟، قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: فإنّ اللّه تبارك و تعالى قد قال: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ يعنى أمير المؤمنين عليه السّلام، و هو وليّكم بعدى. و المرّة الثانية يوم غدير خمّ، قال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه «۲».

و قد تقدّم أنّ مقتضى الحادثة و تنازع الأطراف فيها يقتض هذا التوزيع فى طرفى المواجهة، و قد مرّ جملة من روايات أهل سنّة الجماعة فى كون «صالح المؤمنين» هو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۷

علىّ عليه السّلام. و لا يخفى سرّ التعبير بالمفرد المضاف إلى الجمع؛ إذ أنّه يختلف عمّا لو كان:

«صالح من المؤمنين»، أو: «صالحو المؤمنين»، فإنّه يقتضى التساوى فى الصلاح و الإيمان، فإفراده من بين مجموع المؤمنين و إدراجه فى سلك انتظام جبرئيل الروح الأمين و الملائكة قاض بعلوّ درجته.

و روى فى الدرّ المنثور، قال:

و أخرج الطبرانى، و ابن مردويه، بسند ضعيف عن ابن عبّاس، عن النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، قال: «السبّق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، و السابق إلى عيسى صاحب يس، و السابق إلى محمّد صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم علىّ بن أبى طالب».

و أخرج ابن عساكر من طريق صدقة القرشى، عن رجل، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: أبو بكر الصديق خير أهل الأرض إلّا أن يكون نبىّ، و إلّا مؤمن آل ياسين، و إلّا مؤمن آل فرعون. أى أنّه دون الثلاثة.

و أخرج ابن عدى، و ابن عساكر: «ثلاثة ما كفروا باللّه قط: مؤمن آل ياسين، و علىّ بن أبى طالب، و آسية امرأة فرعون».

و أخرج البخارى فى تاريخه عن ابن عبّاس، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: «الصدّيقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون، و حبيب النجّار صاحب آل ياسين، و علىّ بن أبى طالب».

و أخرج داود، و أبو نعيم، و ابن عساكر، و الديلمى، عن ابن أبى ليلى، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجّار مؤمن آل ياسين، الذى قال: يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ «۱»، و حزقيل مؤمن آل فرعون، الذى قال: أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ «۲»، و علىّ بن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۸

أبى طالب و هو أفضلهم» «۱».

و رواه الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل بعدّة طرق «۲». و رواه أحمد فى فضائل علىّ عليه السّلام من فضائل الصحابة «۳». و روى ابن كثير فى تفسيره:

قال ابن أبى نجيح: عن مجاهد، عن ابن عبّاس: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ «۴»، قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، و مؤمن آل يس سبق إلى عيسى، و علىّ بن أبى طالب سبق إلى محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم «۵».

و روى مثله السيوطى فى الدرّ المنثور، قال:

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، عن ابن عبّاس ...: و ذكر مثله.

و قال: «و أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس فى قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، قال: نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون، و حبيب النجّار الذى ذكر فى يس، و علىّ بن أبى طالب، و كلّ رجل منهم سبق أمّته، و علىّ أفضلهم سبقا» «۶».

و هذه الروايات «۷» من طرقهم قاضية بأنّ: «صالح المؤمنين» هو علىّ عليه السّلام و هو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۶۹

صدّيق هذه الأمّة الأكبر، و فاروقها الأعظم بين الحقّ و الباطل، و يقتضيه ما روى مستفيضا عند الفريقين أنّه: «قسيم الجنّة و النار».

كما أنّ الأشخاص المعنيين بالخبر المفشى تقتضى السورة و الآيات بتقابلهم و تباينهم مع موقع الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و

سلم و الـدين و صالـح المؤمنين، و أنّ «صالـح المؤمنين» مولى النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم و وليّه يلى أمره فى الـدين، و من ثمّ كانت هـذه الآيات فى السورة معلنـة لولايـة «صالـح المؤمنين»، و أنّه وليّهم بعـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم فى قبال موقع الطرف الآخر صاحب المكيدة و التدبير على الدين و الرسول الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

الملحمة القرآنية و الإسرار النبوى ... ص: ۲۶۹

الحديث الذى أسرّ به النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى حفصة- كما تشير إليه سورة التحريم- قد سبق و أن أنبأ به القرآن الكريم فى سورة البقرة و فى سورة محمّـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و الأـولى من أوائل السور المدينـة نزولا، و الثانيـة متقدّمـة نزولا على سورة التحريم أيضا..

ففى الأولى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْـهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِى قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ* وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ* وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ* وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ «۱».

الملفت للإنتباه أنّ فى هذه الآيات جرى التقابل بين طرفين و موقعين فى مجرى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۰

الأحـداث فى مسار الأمّة، و هاهنا الطرف الثانى الذى تتعرّض له الآيات بالمديح و الثناء، و بيان أنّه المؤهّل لولاية الأمر من قبله تعالى؛ بقرينـة تقريع الآيـات للطرف الأوّل، الـذى تتوقّع استيلاءه على مقاليـد الأمور، و تـذكر له العديـد من الصـفات، مثل: حلاوة المقال مع عداوة القلب، و خصامه الكثير و لجاجه، و قساوته عند تولّيه الأمور بتغريب النتاج المدنى البشرى، و الإبادة للطبيعة البشرية.

و هاهنا الآيات لم تصف النسل البشرى بصفة خاصّة، ممّا يعطى أنّ التقريع للإبادة موردها الطبيعة البشرية من حيث هى محترمة كخلق للّه تعالى، بغضّ النظر عن الحرمـة من جهـة الإيمان أو الإسـلام، و هذا مؤشّـر على موارد وقوع هذه الصـفة المتنبأ بها فى الآيات، و قد مرّت الإشارة إلى هذا البحث فى سابق.

و الحاصل إنّ الطرف الثانى الـذى تمـدحه الآيات هو فى مقابل الطرف الأوّل المـذموم لتولّى الأمر. و الممدوح هاهنا كما هو معروف من الروايات ولدى المفسّـرين هو علىّ بن أبى طالب عليه السّـلام؛ إذ فدّى نفسه للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى ليلة المبيت على فراشه.

و فى السورة الثانيـة قـال تعالى: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَـةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ* طاعَـةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَـدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ* فَهَلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ* أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ «۱».

هذه الآيات تشير إلى وقوع استيلاء على مقاليد الأمور من قبل فئة من المسلمين، و هم: الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، و هذا العنوان قد أشار القرآن الكريم إلى وجوده بين صـفوف المسـلمين منـذ بداية نشأة الإسـلام، كما فى سورة «المدّثر»، رابع سورة نزلت على النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم فى مكّة فى أوائل البعثة.

و هذا التقارن بين سورة المدّثر و سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم دالّ على أنّ هدف هذه الفئة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۱

من الـدخول فى الإسـلام منذ أوائل عهده هو الوصول إلى مسـند القدرة و زمام الأمور بعد النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، كما هو طمع و هـدف أعلن على لسان كثير من القبائل التى كان النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم يـدعوها للـدخول فى الإسـلام؛ فقد كانت مشارطتهم للدخول فى الدين اسـتخلافهم على زمام الأمور بعد النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و كان النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و

سلم يرفض هذا الشرط، و يجيب بأنّ ذلك ليس له، بل للّه عزّ و جلّ ربّ العالمين.

و مع انضمام سورة التحريم إلى السور السابقة يتّضح جليّا مفاد الإشارة فى السور القرآنية، و تتبيّن أوصاف من تعرّض به الملحمة القرآنية. و قد وقع نظير هذه الأنباء من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم حول مجريات الاستيلاء على السلطة بعده. فقد روى البخارى، عن عمر بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد:

قال: أخبرنى جدّى، قال: كنت جالسا مع أبى هريرة فى مسجد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالمدينة و معنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدّق يقول: هلكة أمّتى على يدى غلمة من قريش، فقال مروان: لعنة اللّه عليهم غلمة. فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بنى فلان بنى فلان لفعلت.

فكنت أخرج مع جدّى إلى بنى مروان حين ملكوا بالشام، فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم. قلنا: أنت أعلم «۱».

قال ابن حجر فى شرحه:

قال ابن بطّال: جاء المراد بالهلاك مبيّنا فى حديث آخر لأبى هريرة أخرجه على بن معبد، و ابن أبى شيبة من وجه آخر عن أبى هريرة، رفعه: أعوذ باللّه من إمارة الصبيان. قالوا و ما إمارة الصبيان؟ قال: إن أطعتموهم هلكتم- أى فى دينكم- و إن عصيتموهم أهلكوكم، إن فى دنياكم بإزهاق النفس، أو بإذهاب المال، أو بهما.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۲

و فى رواية ابن أبى شيبة: (إنّ أبا هريرة كان يمشى فى السوق و يقول: اللّهمّ لا تدركنى سنة ستّين و لا إمارة الصبيان)، و فى هذا إشارة إلى أنّ أوّل الأغيلمة كان فى سنة ستّين، و هو كذلك؛ فإنّ يزيد بن معاوية استخلف فيها.

إلى أن قال: - تنبيه: يتعجّب من لعن مروان الظلمة المذكورين مع أنّ الظاهر أنّهم من ولده، فكأنّ اللّه تعالى أجرى ذلك على لسانه ليكون أشدّ فى الحجّة عليهم لعلّهم يتّعظون. و قد وردت أحاديث فى لعن الحكم والد مروان و ما ولد، أخرجها الطبرانى و غيره، غالبها فيه مقال، و بعضها جيّد «۱».

و كذا ما رواه البخارى فى الباب الثانى من كتاب الفتن- و عنونه: باب قول النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «سترون بعدى أمورا تنكرونها» -: «و قال عبد اللّه بن زيد، قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: اصبروا حتّى تلقونى على الحوض»!!

ثمّ روى البخارى أحاديث فى الباب تدعو إلى السكوت عن سلاطين الجور و الإطاعة لهم، و هى أشبه بنصوص السلطة من النصوص النبوية. قال تعالى: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۲». و قال تعالى: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ «۳».

و قال تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ «۴».

و بمثل هذه الملحمة القرآنية و الإسرار النبوى ما رواه البخارى أيضا فى كتاب الفتن: الباب الأوّل و الرابع من اقتراب الفتن بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و إحداث أصحابه بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم. و كلّ ذلك خارج مخرج التحذير و الإنذار.. حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ «۵».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۳

۹ آفاق الوحدة

اشارة

إنّ مسألة الفتوحات طرحت تارة تمهيدا لعدالة الصحابة و دليلا لها كوجه تاريخى- و قد مرّ البحث عنه مبسوطا- و أخرى تمهيدا للوحدة الإسلامية بين المذاهب و الفرق. و هنا نشرع- بعون اللّه الملك العلّام- فى هذا البحث المهم و هو:

إنّ كثيرا من الضلالات ناشئة من العمى فى البصيرة، قال تعالى: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ «۱» و قال: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها «۲». و العمى فى البصيرة ينشأ من أسباب مختلفة، تارة من ضحالة فى العلم و الفقه، و أخرى من اتّباع الهوى و المصالح الدنيوية القصيرة المدى، و إذا اجتمع السببان فالطامّة الدهياء بين العمى و الازدواجية.

قال تعالى: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۳».

هذه الآية الكريمة كما تعيّن مدار وحدة المسلمين فهى تتبأ بملحمة خطيرة، هى:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۶

أنّ الوحدة الإسلامية لم و لن تتمّ و لا تتحقّق فى هذه الأمّة و تنال تلك السعادة فى ظلّ الألفة الأخوية إلّا بالاعتصام ب «حبل اللّه»، أى التمسّك بحبل اللّه، فيكون هذا الحبل عاصما عن الفرقة، و عن السقوط فى الهاوية، و عن الضياع فى المتاهات؛ فما هو «حبل اللّه»، و ما هو سرّ التعبير ب «الحبل»؟!

ل «حبل اللّه» - كما لكلّ حبل- طرفان، طرف تستمسك به الأمّة، و طرف آخر عند اللّه تعالى، أى أنّ هذا الحبل شىء رابط بين البشرية و الغيب، و سبب متّصل بين الأرض و السماء، فلا بدّ أن يكون قطب الوحدة و مركز الاتّحاد سبب موصل مطّلع على الغيب؛ و هذا يعطى أنّ سفينة الوحدة و الاتّحاد يجب أن ترسو على ما هو حقّ و حقيقة، لا التوافق على الهوى و الهوس.

و سياق الآية الثانية المتّصلة يصرّح بأنّ الوحدة يجب أن تكون على الخير و المعروف و الاجتناب عن المنكر، بحسب الواقع و الحقيقة، فلو حصلت وحدة على المنكر و اجتناب المعروف، لكانت هذه فرقة فى منطق القرآن الكريم؛ لأنّ الناس افترقوا و ابتعدوا عن الحقّ.

و هذا يدلّ على أنّ الحقّ و المعروف له وجود و حقيقة فى نفس الأمر، اتّفقت كلمة الأمّة عليه أم لم تتّفق، و ليس الحقّ ناتجا و متولّدا من اتّفاق الأمّة كى يقال: «كلّ ما اتّفقت الأمّة عليه فهو حقّ، و كلّ ما لم تتّفق عليه فهو باطل».

و من ثمّ كان الحسن و القبح فى الأفعال، و الصفات، و الاعتقادات ذاتى، تكوينى، عقلى، حقيقى؛ إذ ليس حسن الشىء بسبب رأى الأكثرية أو توافق الكلّ على مدحه، و لا قبح الشىء بسبب رأى الأكثرية أو توافق الكلّ على ذمّه، بل الحسن و المدح و الثناء ذاتى؛ للكمال، و القبح و الذمّ و الهجاء ذاتى؛ للنقص، و من ذلك يعلم أنّ الثابت الدينى ليس وليد الوفاق بل هو مرهون بالأدلّة و البراهين.

فإذا كان الحقّ ثابت فى نفسه فيجب إقامة الوحدة على أساسه، لا أن تقام الوحدة على أساس الباطل أو الحقّ الممزوج بالباطل، فنقيم الاتّحاد و لو على النهج السقيفى أو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۷

الأموى أو العبّاسى، بل هذا اتّحاد على الغواية و تعاون على الإثم و العدوان، و من ثمّ لم يبال سيّد الشهداء عليه السّلام أن يشقّ عصا المسلمين المتآلفين على النهج اليزيدى، و قال:

إنّما خرجت لطلب الإصلاح فى أمّة جدّى، أريد أن آمر بالمعروف و أنهى عن المنكر.

فالاصلاح و النصيحة للمسلمين ليس بإقرارهم على ما هم عليه من الفساد و الغواية، بل هو بأمرهم بالمعروف و الحقيقة و نهيهم عن المنكر و الباطل، و دعوتهم للتعاون على السير على نهج الحقّ و الصراط المستقيم.

و خذ مثالا لذلك: لو شاهدت مدمنا على المخدّرات و أردت أن تنصحه، فإنّ نصيحته ليست بمدحه على فعله و تحسينه له؛ فهو غشّ

و دغل و احتيال، بل نصيحته بتعليمه بسوء ما هو عليه و قبحه، و إرشاده إلى الطريق السوى..

و كما قام سيّد الشهداء بتفرقة الجماعة المتجمّعة على الباطل، قام جدّه النبيّ المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بتفرقة المجتمع المكّى القرشى، الذى كان متّحدا على عبادة الأوثان، و أرشدهم بالأسلوب التدريجى، و بالحكمة و الموعظة، و بالتى هى أحسن، و المداراة، إلى طريق الصواب و الهداية، و لم تكن مداراته بمعنى ذوبانه فى أرجاس الجاهلية و مداهنته لزيغهم و غيّهم، نعم لا يكون العلاج إلّا تدريجيا و بتعقّل و تروّى و تؤدة.

و لك أن تعتبر بسيرة سيّد الشهداء عليه السّلام، فإنّه لمّا رأى العالم الإسلامى ساكت على تولّى يزيد بن معاوية للأمور وفاقا سكوتيا أخذ فى توعية الناس فى المدينة المنوّرة، ثمّ فى مكّة عدّة أشهر، يلتقى بوفود المسلمين فى العمرة و موسم الحجّ و يخطب فيهم، إلى أن أثمرت جهوده عليه السّلام و بانت فى مخالفة أهل العراق للسلطة الأموية، فخالفوا وحدة الصفّ التى كانت فى جانب يزيد، و أخذ فى توسيع القاعدة الشعبية المخالفة كى تصبح أكثرية، ثمّ توجّه صوب العراق لإنجاز الإصلاح فى الأمّة، فلمّا رأى عودة أهل العراق عن مخالفة الصفّ اليزيدى و اتّحادهم مع الوفاق الأموى، لم يستسلم للوحدة على الباطل و الغى حتّى استشهد إحياء لفريضة الإصلاح و الأمر بالوحدة على المعروف و الانتهاء عن المنكر.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۸

فترى أنّ سيّد الشهداء عليه السّلام لم يقم وزنا للوحدة و الاتّحاد على الخطأ و الباطل، و أشاد بالوحدة على طريق الحقّ و الهداية، و هذا هو معنى أنّ الحسن و القبح للأشياء ذاتيا واقعيا، و ليس اعتباريا خاضعا لرأى الأكثرية و المجموع و توافقهم.

روى الصدوق فى معانى الأخبار عن ابن حميد رفعه، قال:

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: أخبرنى عن السنّة و البدعة، و عن الجماعة و عن الفرقة؟ فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: السنّة: ما سنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و البدعة: ما أحدث من بعده، و الجماعة: أهل الحقّ و إن كانوا قليلا، و الفرقة: أهل الباطل و إن كانوا كثيرا «۱».

و روى النعمانى بسنده فى كتاب الغيبة عن ابن نباتة، قال:

سمعت أمير المؤمنين عليه السّلام على منبر الكوفة يقول: أيّها الناس! أنا أنف الهدى و عيناه، أيّها الناس! لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلّة من يسلكه، إنّ الناس اجتمعوا على مائدة قليل شبعها كثير جوعها «۲».

و فى رواية هشام المعروفة عن موسى بن جعفر عليه السّلام:

يا هشام! ثمّ ذمّ اللّه الكثرة فقال: وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ «۳»، و قال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ «۴»، و قال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ «۵»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۷۹

يا هشام! ثمّ مدح القلّة فقال: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «۱»، و قال: وَ قَلِيلٌ ما هُمْ «۲»، و قال: وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ «۳»، و قال: وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ «۴»، و قال: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ «۵»، و قال: وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ «۶»، و قال: أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ «۷».. الحديث «۸».

و لا يخفى أنّ الروايات فى صدد بيان ضوابط و موازين البصيرة الحقّة و تمييزها عن الباطل، لا فى مقام ترك المسؤولية تجاه الأكثرية و القيام بواجب هدايتهم و إرشادهم، و العناية بأمورهم بالإصلاح و تقويم العوج و إزالة الفساد، بل هى فى مقام بيان أنّ الاعتداد بشأن موازين منطق التفكير التى هى موازين العلم و العقل و الفطرة و السنّة غير المحرّفة لا يكون بالمنطق الأكثرى بل بالقيم و المبادئ التى تتضمّن هذه الموازين.

روی فی مستطرفات السرائر بسنده عن أبی الحسن موسی علیه السّلام، قال:

قال لی: أبلغ خیرا و قل خیرا و لا تکوننّ إمّعهٔ. قلت: و ما الإمّعهٔ؟ قال: لا تقل أنا مع الناس و أنا کواحد من الناس؛ إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال: یا أیّها الناس! إنّما هما نجدان: نجد الخیر، و نجد الشرّ، فلا یکن نجد الشرّ أحبّ إلیکم من نجد الخیر «۹».

و الإمّعهٔ: الذی لا رأی له، فهو یتابع کلّ أحد علی رأیه، و الذی یقول لکلّ أحد: أنا

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۸۰

معک، أنا مع الناس.

و روی الصدوق بسنده عن أبی عبد اللّه علیه السّلام أنّه قال لرجل من أصحابه:

لا تکون إمّعهٔ، تقول: أنا مع الناس، و أنا کواحد من الناس «۱».

و هذه الأحادیث أیضا فی مقام تخطئهٔ التأثّر من رأی الأکثریهٔ بسبب الأکثریهٔ، و الحثّ علی التمسّک بما هو مقتضی البدیههٔ الفطریهٔ و الضرورهٔ الدینیهٔ، و هناک توصیات عدیدهٔ فی القرآن و السنّهٔ علی طریقهٔ التفکیر و الاعتقاد کمنهج منطقی دینی لا یسع المقام ذکرها.

ثمّ إنّ آیهٔ الاعتصام بحبل اللّه تعالی تتضمّن نبوءهٔ بملحمهٔ قرآنیهٔ مهمّهٔ، و هی: أنّ وحدهٔ الأمّهٔ الإسلامیهٔ لا و لن تتمّ إلّا بالتمسّک جمیعا بحبل اللّه، فلا تأمل هذه الأمّهٔ یوما ما فی الخلاص من ذلّ الفرقهٔ و التشتّت و الضعف أمام الأعداء بدون التمسّک بحبل اللّه.

و الرغبهٔ فی الوحدهٔ بأن تکون علی محور الاعتصام بحبل اللّه کی لا یقعوا فی الفرقهٔ؛ فحبل اللّه هو العاصم من الفرقهٔ، و بدونه سوف تکون الرغبهٔ فی الوحدهٔ حلما و شعارا أجوف و مجرّد تشدّق باللسان.

و حبل اللّه الذی یدعو إلیه القرآن الکریم هو: الثقلان؛ لأنّه حبل طرف منه عند الناس و طرف آخر عند اللّه، و هذا القرآن الکریم قد تضمّنت عدّهٔ سور قرآنیهٔ منه التشدید علی أنّ للقرآن قرینا و ملازما لا یفترق عنه، هو ثلّهٔ مطهّرهٔ من هذه الأمّهٔ، لدیها علم الکتاب؛ فقد قال تعالی فی سورهٔ الواقعهٔ: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ* وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِیمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ* فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ* لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ* أَ فَبِهذَا الْحَدِیثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ* وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَکُمْ أَنَّکُمْ تُکَذِّبُونَ «۲».

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۸۱

فذکر تعالی أنّ للقرآن وجودا علویا غیبیا غیر ما تنزّل منه، لا یصل إلی حقیقته و حقائق ذلک الوجود غیر المطهّرین- بصیغهٔ الجمع- من هذه الأمّهٔ، و هم الموصوفون بالطهارهٔ فی قوله تعالی: إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً «۱».

و کذلک قال تعالی: وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّهٍٔ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِکَ شَهِیداً عَلی هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَهًٔ وَ بُشْری لِلْمُسْلِمِینَ «۲».

و قد اعترف الفخر الرازی- و إن لم تکن أهمّیهٔ لاعترافه فأهمّیهٔ القرآن ذاتیهٔ- أنّ الآیهٔ دالّهٔ علی وجود شخص فی زمن لا یزل و لا یخطأ یکون شاهدا علی أمّهٔ کلّ قرن «۳»، و إلّا فکیف یکون شاهدا و هو مشهود علیه بالذنب أو الضلالهٔ؛ کما تبیّن الآیهٔ من سورهٔ العنکبوت: بَلْ هُوَ- أی الکتاب أو القرآن- آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ «۴» و مثله قوله تعالی فی سورهٔ الرعد: قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ «۵» و غیرها من آیات الثقلین و أنّهما مقترنان معا لا یفترقان.

و الحاصل أنّ آیهٔ الاعتصام تتبّأ بملحمهٔ مهمّهٔ، و هی: أنّ ضعف و ذلّ هذه الأمّهٔ لفرقتها لا یزول بغیر الاعتصام بحبل اللّه، و هما الثقلان: الکتاب و العترهٔ، و بذلک تتحقّق الوحدهٔ. و قد أشارت الصدّیقهٔ الزهراء علیها السّلام بنت المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلم إلی هذه الملحمهٔ القرآنیهٔ فی خطبتها:

فجعل الإیمان تطهیرا لکم من الشرک ... و طاعتنا نظاما للملّهٔ و إمامتنا أمانا

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۲۸۲

من الفرقة «۱».

و المرتضى عليه السّلام وصىّ المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى خطبته القاصعة- و هى من أعظم خطبه صلوات اللّه عليه؛ إذ يصف فيها ولاية أهل البيت عليهم السّلام أنّها توحيد للّه تعالى فى الطاعة- يقول:

فانظروا إلى مواقع نعم اللّه عليهم حين بعث إليهم رسولا؛ فعقد بملّته طاعتهم، و جمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، و أسالت لهم جداول نعيمها...

و تعطفت الأمور عليهم فى ذرى ملك ثابت، فهم حكّام على العالمين و ملوك فى أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من يملكها عليهم، و يمضون الأحكام فى من كان يمضيها فيهم...

ألا و إنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، و ثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، فإنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فى ما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التى ينتقلون فى ظلّها، و يأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة؛ لأنّها أرجح من كلّ ثمن، و أجلّ من كلّ خطر.

و اعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعرابا، و بعد الموالاة أحزابا، ما تتعلّقون من الإسلام إلّا باسمه، و لا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه، تقولون: النار و لا العار! كأنّكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكا لحريمه، و نقضا لميثاقه الذى وضعه اللّه لكم، حرما فى أرضه، و أمنا بين خلقه، و إنّكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثمّ لا جبرائيل و لا ميكائيل و لا مهاجرون و لا أنصار ينصرونكم إلّا المقارعة بالسيف حتّى يحكم اللّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۳

بينكم «۱».

فقوله عليه السّلام: «فعقد بملّته طاعتهم، و جمع على دعوته ألفتهم ... قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، و ثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم » ... إنّ منّة اللّه على جماعة و وحدة الأمّة هو بتوسّط ذلك الحبل، حبل الطاعة، و هو حبل الألفة، و إنّ فى مقابل الموالاة الأحزاب، أىّ التفرّق و الفرقة؛ فلا نصرة لهم من اللّه تعالى و ملائكته و المؤمنين، كما أنّه عليه السّلام أخبر الأمّة بملحمة مستقبلية، هى الملحمة القرآنية فى آية الاعتصام، أنّهم سيتفرّقون و يضعفون أمام الكفر و تكالب الأعداء و كثرة الحروب حتّى يقدّر اللّه تعالى النهاية، و لعلّه إشارة إلى عصر الظهور.

و لا يخفى الاقتباس فى تعبيره عليه السّلام بالحبل و إنّه الطاعة؛ إذ تضمّن الإشارة إلى آية الاعتصام من الفرقة بحبل اللّه، و أنّه طاعتهم و ولايتهم. فلا يأمل و لا يحلم المسلمون بتحقّق الألفة و الوحدة و القدرة لهم على أعدائهم من دون التمسّك بحبل اللّه، المتمثّل بولاية و طاعة أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و أنّ إنشاد الوحدة من دون ذلك ممتنع.

و هذا الإخبار من القرآن و من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أهل بيته عليهم السّلام إخبار إعجاز و تحدّ للمسلمين؛ يعضد ذلك العقل و المشاهدة العيانية الاستقرائية لأوضاع المسلمين...

أمّا العقل: فإنّ المسلمين إن لم يرجعوا فى عقائدهم، و من ثمّ فى أحكامهم و قوانينهم إلى مصدر واحد، فكيف يتمّ لهم الاتّفاق فى نظامهم السياسى و الاجتماعى و المذهبى؟!

و أمّا المشاهدة العيانية الاستقرائية: فهى حاصلة بأنّ مذاهب العامّة لا تكاد تنحصر فى عدد معيّن، و حصرها فى أربعة ما هو إلّا من فعل الخلافة العبّاسية فى القرن الرابع الهجرى، و إلّا فمذاهب فقهائهم كثيرة كاثرة، و هى لا تزال فى تشعّب مذهبى- أى فى أصول القواعد- و فقهى و اعتقادى، و لم يبق من الأربعة إلّا العدد فقط، فهناك- الآن-

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۴

مذاهب الوهّابيّة و الظاهرية و الأباظية و التكفير و الهجرة، و هلمّ جرّا؛ فكيف يرجى خلاص الأمّة و هم يتّبعون مذاهب فقهية و

اعتقادية هى فى الأصل من وضع الأمويّين و العبّاسيّين، أى فقه السلاطين و اعتقاداتهم؟!

ففقهاؤهم قاطبة- إلّا ما شذّ و ندر- يحرّمون الخروج على سلطان الجور، بلغ ما بلغ غيّه و فساده و جوره، ما لم يكن كفرا بواحا، و إن كان وصوله إلى السلطة بالتغلّب و القهر و السيف؛ فهل ترى للأمّة الإسلامية من خلاص و نصرة على عدوّها و الحال أنّ على رقاب و رؤوس المسلمين حكّاما خونة؟!

قال المزّى:

و قال أبو العبّاس ابن عقدة- و ذكر المزّى السند إلى حسن بن زياد، يقول:

سمعت أبا حنيفة و سأله: من أفقه من رأيت؟ فقال: ما رأيت أحدا أفقه من جعفر بن محمّد. لمّا أقدمه المنصور الحيرة بعث إلىّ فقال: يا أبا حنيفة! إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمّد، فهيّئ له من مسائلك الصعاب. قال: فهيأت له أربعين مسألة.

ثمّ بعث إلىّ أبو جعفر فأتيته بالحيرة، فدخلت عليه و جعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت بهما دخلنى لجعفر من الهيبة ما لم يدخل لأبى جعفر.

فسلّمت، و أذن لى، فجلست. ثمّ التفت إلى جعفر فقال: يا ابا عبد اللّه! تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة. ثمّ أتبعها: قد أتانا «۱». ثمّ قال: يا أبا حنيفة! هات من مسائلك نسأل أبا عبد اللّه.

و ابتدأت أسأله، و كان يقول فى المسألة: أنتم تقولون فيها كذا و كذا، و أهل المدينة يقولون كذا و كذا و نحن نقول كذا و كذا، فربّما تابعنا، و ربّما تابع أهل المدينة، و ربّما خالفنا جميعا، حتّى أتيت على أربعين مسألة ما أخرم منها

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۵

مسألة. ثمّ قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس «۱».

فها أنّك ترى أنّ أبا حنيفة يستخدمه الخليفة العبّاسى آلة طيّعة ليقابل تنامى نفوذ الإمام الصادق عليه السّلام فى المسلمين، و مثله الحال فى بقية فقهائهم. قال الحافظ ابن عبد البرّ:

إنّ محمّد بن سعد قال: سمعت مالك ابن أنس يقول: لمّا حجّ أبو جعفر المنصور دعانى، فدخلت عليه فحادثته، و سألنى فأجبته، فقال: إنّى عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعت (يعنى الموطّأ) فتنسخ نسخا ثمّ أبعث إلى كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، و آمرهم أن يعملوا بما فيها و لا يتعدّوها إلى غيرها! فإنّى رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة و علمهم «۲».

و قد ذكر هذه الحادثة ابن قتيبة الدينورى، و ذكر دخول أكثر فقهاء العامّة على المنصور، كسفيان الثورى، و ابن ابى ذؤيب، و ابن سمعان، و أنّ المنصور خطب فيهم ثمّ قسّم عليهم أموالا و أنّ بعضهم أخذها، و منهم مالك، و أنّ المهدى العبّاسى أمر لمالك بأربعة آلاف دينار مكافأة على كتابه الموطّأ، و لابنه بألف دينار، و أنّ هارون بالغ فى الحفاوة به أيضا «۳».

فبدون ولاية و طاعة المعصوم لا سبيل للنجاة من الفرقة؛ إذ الأهواء المتّبعة مدعاة للفرقة، و الجهل و الجهالات المتفشّية هى الأخرى موجبة لاختلاف القول و الرأى، و بالتالى اختلاف الكلمة.

و توحيد الكلمة الذى هو مظهر التوحيد الإلهى لا يتحقّق إلّا بإمامة أهل البيت عليهم السّلام؛ و ذلك لأنّ توحيد اللّه تعالى على مقامات و مواطن، فمنه توحيد الذات و الصفات و الأفعال، و التوحيد فى العبادة بالإخلاص، و التوحيد فى التشريع و هو النبوّة، و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۶

التوحيد فى الغاية و هى المعاد، و التوحيد فى الطاعة و الولاية و هى الإمامة؛ إذ أنّ الأئمّة المعصومين هم أوعية مشيئة و إرادة اللّه تعالى، فقيادتهم هى حاكمية لمشيئة اللّه تعالى و إرادته.

و لن يستكمل التوحيد حتّى يعمّ قوله تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ «۱» كلّ المواطن، و إلّا فعزل البارى عن مسرح الحياة البشرية و قصر التوحيد على الذات و الصفات- كما يصنع العلمانيون- ليس إلّا توحيد أجوف صورى، كما أنّ التوحيد فى التشريع- النبوّة- دون

التوحيد فى التطبيق هو الآخر توحيد نظرى بدون تطبيق، كما قال الإمام علىّ عليه السّلام: «احتجّوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة» «۲»، أى ثمرة النبوّة و هى الولاية لأهل البيت عليهم السّلام، فولايتهم و إمامتهم نهاية معاقل التوحيد و زبدة مواطنه، و هو الامتحان الذى فشل فيه إبليس الرجيم؛ إذ لم يكفر بتوحيد الذات و لا الصفات بحسب الظاهر و لا بالمعاد، بل كفر بولاية آدم و خلافته، أى بالتوحيد فى مقام الطاعة و الولاية، فنجم عن ذلك كفره و حبط عمله، و إلى ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السّلام فى خطبته القاصعة الطويلة، و سنشير إلى مقطعين منها.

الأوّل: «الحمد للّه الذى ليس العزّ و الكبرياء، و اختارهما لنفسه دون خلقه، و جعلهما حمى و حرما على غيره، و اصطفاهما لجلاله، و جعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده.

ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين؛ فقال سبحانه و هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغيوب: إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ «۳» اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، و تعصّب عليه لأصله، فعدوّ اللّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۷

إمام المتعصّبين، و سلف المتكبرين، الذى وضع أساس العصبية، و نازع اللّه رداء الجبرية، و ادّرع لباس التعزّز، و خلع قناع التذلّل.

ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبيره، و وضعه بترفّعه، فجعله فى الدنيا مدحورا، و أعدّ له فى الآخرة سعيرا، فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس؛ إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد- و كان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة لا يدرى أمن سنىّ الدنيا أم من سنىّ الآخرة- عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته »....

الثانى: «فاحذروا عباد اللّه! أن يعديكم بدائه، و أن يستفزّكم بندائه ... ألا و قد أمعنتم فى البغى، و أفسدتم فى الإرض، مصارحة للّه بالمناصبة، و مبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فاللّه اللّه فى كبر الحمية، و فخر الجاهلية ... ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم و كبرائكم! الّذين تكبروا عن حسبهم، و ترفّعوا فوق نسبهم، و ألقوا الهجينة على ربّهم- أى قبحوا فعل ربّهم- و جاحدوا اللّه على ما صنع بهم؛ مكابرة لقضائه، و مغالبة لآلائه، فإنّهم قواعد أساس العصبية، و دعائم أركان الفتنة، و سيوف عنزاء الجاهلية، فاتقوا اللّه...

و لا تطيعوا الأدعياء الّذين شربتم بصفوكم كدرهم، و خلطتم بصحّتكم مرضهم، و أدخلتم فى حقّكم باطلهم، و هم أساس الفسوق، و أحلاس العقوق، اتّخذهم إبليس مطايا ضلال و جندا بهم يصول على الناس، و تراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، و دخولا فى عيونكم، و نفثا فى أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، و موطئ قدمه، و مأخذ يده».

ثمّ بيّن عليه السّلام فى آخر الخطبة خصائصه الموجبة لوصايته بعد النبوّة. فبيّن عليه السّلام أنّ الخضوع لآدم و طاعته و ولايته بأمر من اللّه تعالى هى تواضع للّه، و نفى للكبر، أى نفى المخلوق استقلاليّته أمام استقلالية الذات الأزلية؛ فولاية خليفة اللّه توحيد للّه تعالى فى آخر المعاقل التى يطرد منها الكفر و يقام فيها التوحيد، و ذلك المعقل هو ذات الإنسان

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۸

نفسه، فهدم كبر الأنانية و إقامة فقر العبد للّه بتولّى الإمام المنصوب من قبل اللّه، إقامة للتوحيد فى صقع الذات الإنسانية، و إن إبليس قد فشل فى هذا الامتحان للتوحيد، فلم تنفعه دعواه التوحيد فى سائر المقامات، هذا فى المقطع الأوّل.

و أمّا المقطع الثانى فهو عليه السّلام يبيّن فيه أنّ من تقحّموا الخلافة من قبله قد ردّوا على اللّه تعالى أمره، و قبّحوا نصبه تعالى و جعله عليّا عليه السّلام خليفة و وصيّا؛ فنهجوا نهج إبليس فى الاستكبار، و أنّهم قواعد أساس العصبية و دعائم أركان الفتنة، و هذا الحكم منه عليه السّلام أشدّ ممّا ورد فى الخطبة الشقشقية و أصرح فى بيان حالهم..

ثمّ إنّه عليه السّلام بين أنّ الإفساد فى الأرض هو لكون الناس أحزابا متفرّقين غير مجتمعين على وحدة الطاعة و الولاية لخليفة اللّه فى الأرض، و هذا التفرّق عن الطاعة و الولاية يعنى مناصبة العداء للّه تعالى، و بالتالى فلا يقبل تعالى على البشر بالبركات و النعم، مضافا

إلى تأدية الخلاف إلى الخراب بدل الإعمار؛ لتخالف الهوى و المصلحة، فتصبح البشرية فى حرمان من البركات الإلهية المقدّرة لها.

و تتّضح جليّا الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى: إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ «۱»؛ فلازم كونها أمّة واحدة توحيدية بتمام التوحيد هو الربوبية للّه وحده من دون وجود طاغوت استكبارى على أوامره تعالى، و إلّا فالأمّة الإسلامية ستكون أمما كثيرة، كلّ مجموعة تتّبع هوى ما، و طاغوتا ما؛ إذ الأمّية فى اللغة و الاشتقاق من: أمّ يؤمّ، أى: قصد و اتّبع، فإذا كانت المقاصد و المناهج الأصلية مختلفة فسيكون المجموع أمما لا أمّة واحدة.

و الإشارة إلى ذلك أيضا فى قوله تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۸۹

فإن توحّد الربوبية للّه تعالى يقضى بتوحيد المنهاج و الشريعة و الطاعة و الولاية، نعم من أبجديات فقه أهل البيت عليهم السّلام أنّ أهل الكتاب فى ظلّ الحكم الشرعى لهم حقّ التعايش السلمى بضريبة الجزية، بدلا عن ضريبة الزكاة و الخمس الموضوعة على المسلمين، و أنّ من خصوصيات عقيدة الإمامة أنّ الحاكم الأوّل فى النظام الاجتماعى السياسى هو اللّه تعالى، سواء فى السلطة التنفيذية أو القضائية أو التشريعية، و سواء على الصعيد السياسى أو العسكرى أو المالى أو التقنينى، و هذه الحقيقة تتحقّق لكون الإمام وعاء مشيئة اللّه و إرادته، كما هو الحال فى حكومة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم، التى يستعرض سيرتها القرآن الكريم فى السور المدنية..

فإنّ المشاهد فى الآيات أنّه عند المنعطفات الحادّة الصعبة سياسيا، أو عسكريا من الحرب أو السلم، أو قضائيا أو ماليا يكون التدبير الجزئى و الحكم صادر منه تعالى، فالحاكم السياسى الأوّل فى حكومة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو اللّه تعالى، و حاكميّته تعالى لا تقتصر على التشريعات الكلية فحسب، كما هو المزعوم فى معتقد المذاهب الإسلامية الأخرى، و كما هو الحال فى الديانة المسيحية و اليهودية: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَـةٌ غُلَّتْ أَيْـدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَـداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ «۱»، بل تشمل جميع نواحى الحياة..

و لن تجد- إذا فتّشت- عقيدة تتبنّى حاكمية اللّه تعالى السياسية و العسكرية و ... و باقى نواحى الحياة فضلا عن حاكميّته فى مجال التشريع غير عقيدة الإمامة الإلهية؛ و هذا معنى أنّ الإمامة و الولاية باب من أبواب التوحيد و من أبواب ربوبية اللّه تعالى وحده فى النظام الاجتماعى السياسى.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۰

النبىّ هارون عليه السّلام و نموذج الوحدة ... ص: ۲۹۰

و قوله تعالى حكاية عن هارون بعد عبادة بنى إسرائيل العجل: الَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

«۱» ملحمة قرآنية يسطرها لنا القرآن الكريم تبيانا لموقف هارون وصىّ موسى عليه السّلام بعدما ضلّ كثير من بنى إسرائيل عن الهدى إلى عبادة العجل و اتّباع السامرى. ففى الوقت الذى راعى فيه هارون وحدة بنى إسرائيل و حافظ عليها، إلّا أنّه لم يتّبع ضلال أكثرية بنى إسرائيل و السامرى فى عبادة العجل لتحقيق الوحدة، بل قال لهم: يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي «۲»؛ فقام بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر..

و كان الأسلوب الذى اتّخذه لا بنحو يؤدّى إلى فرقة بنى إسرائيل و لا بنحو ذوبانه هو فى الانحراف و ترك طريق الإصلاح، لا سيّما و أنّه لم تكن لديه القدرة على الالتجاء إلى القوّة فى الإصلاح، كما قال: ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي «۳» و هو يدلّ

على مـدى رفض هـارون عليه السّلام للانحراف الحاصل لـدى بنى إسـرائيل و مقاومته السـلمية الثابتـة لهم بلا مهادنـة حتّى كادوا أن يقتلوه.

و الذى قام به هارون عليه السّلام هو الذى أوصاه به موسى عليه السّلام: وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ «۴»، فأمره بالإصـلاح و نهاه عن اتّباع سبيل المفسـدين، و من ثمّ لمّا رجع موسـى إلى قومه و قال: يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي* قالَ يَا بْنَ أُمَّ «... ۵».

و كانت مساءلة موسى عليه السّلام عن عدم اتّباع هارون عليه السّلام له، أى عن عدم مفارقة هارون لبنى إسرائيل و لحوقه بموسى كى يحلّ عليهم العذاب، أو عن عدم مقاتلته لتيار الانحراف

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۱

و الضـلال فى بنى إسـرائيل، فأجـابه بتحرّيه طريق الإصـلاح من الاهتمـام بمصـير بنى إسـرائيل، و إرشادهم إلى الصواب، و نهيهم عن الضلال، و مقاطعته و تبرّيه عن سبيل المفسدين، و رضى موسى عليه السّلام بفعله.

و فى الحقيقة إنّ مساءلة النبىّ موسـى عليه السّـلام لوصيّه النبىّ هارون عليه السّلام عن دوره فى هذا الحدث الداهية الفظيع، و كذلك أخـذه برأسه و لحيته، ليس لإدانـة أخيه و وصـيّه، أو شـكّه فى اسـتقامته، بـل هى لإجـل بيان مـدى فظاعـة الانحراف و الضـلال الـذى ارتكب، كما قال موسـى: بِئْسَـما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي «۱»، قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَـلَّهُمُ السَّامِرِيُّ «۲»، و كذلك لدفع تهمة تخاذل هارون عن الحقّ.

و هى أيضـا نظير مساءلـة اللّه تعالى للنبىّ عيسـى يوم المعاد: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُـبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَـدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِـي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِـكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ* مـا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُـدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ «۳»؛ إذ هى لبيان العظيمـة التى ارتكبها النصارى من الشرك، لا لإجل عتاب النبىّ عيسى عليه السّلام؛ كيف و هو تعالى عالم ببراءة ساحته عن انحراف النصارى؟!

و كـذلك لكون مساءلـة و محاسبـة النبىّ عيسـى عليه السّـلام تـدلّ على عظم الخطب فى الحدث، الذى يسـتدعى مساءلة كلّ أطراف الحدث عنه، حتّى مثل النبىّ؛ و لتبرئة عيسى عليه السّلام عن ضلال النصارى، و هذا الأسلوب من فنون الكلام و البيان، فكذلك الحال فى مساءلة النبىّ موسى عليه السّلام لوصيّه هارون عليه السّلام.

و كذلك فى مساءلة الصدّيقة الزهراء لوصىّ المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «اشتملت مشيمة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۲

الجنين، و قعـدت حجرة الظنين، نقضت قادمـة الأجدل، فخانك ريش الأعزل؟!» «۱»؛ فهى لم تكن- كما يوهمه عمى البصـيرة- جزعا منها عليها السّـلام أو عتابا لأمير المؤمنين، و إنّما هى عليها السّـلام فى صدد بيان انحراف القوم و شدّة ضلال ما ارتكبوه، و لكى يتبيّن أنّ عليّا عليه السّـلام لم يكن سـكوته عن مقاتلتهم تخاذلا منه أو جبنا أو نكصا عن الحقّ، بل لأنّ صـدامه المسلّح معهم يوجب تزلزل عقيـدة الناس بالـدين، و النزاع على السـلطة فى نظر و ذهنيـة عامّة الناس من أكبر أمثلة التنازع على الدنيا و أعظمها، و بالتالى سيسـرى شكّهم فى دواعى الوصـىّ عليه السّـلام إلى دواعى ابن عمّه النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم بأنّ كلّ ما جرى هو تغالب على الملك، كما قال ذلك يزيد بن معاوية:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء و لا وحى نزل «۲»

و قـال أبى سـفيان عنـد فتـح مكّـة للعبّاس: «إنّ ملك ابن اخيك لعظيم» فأجابه العبّاس: «إنّها النبوّة» «۳». فالناس ليس لـديهم الوعى و البصـيرة الكافيـة فى كون خطورة هـذا الانحراف هو شبيه الانحراف الـذى حصل فى الديانـة اليهوديـة و المسـيحية، و ليس هو محض مسند القدرة فى النظام الاجتماعى السياسى.

ثمّ إنّ من سيرة هارون عليه السّلام تستخلص العبر؛ إذ المحافظة على وحدة بنى إسرائيل أوجبت عدم المصادمة المسلّحة بين فريقى الحقّ و الباطل، لكن الوحدة لم توجب ذوبان فريق الحقّ فى فريق الباطل، و لا تركهم للنصيحة و الوعظ بأسلوب المداراة، و الوحدة التكتيكية لم توجب إيقاف الإصلاح و الأمر بالحقّ و النهى عن الباطل بأسلوب الحكمة و طريق الموعظة الحسنة، فضلا عن التنكر و الريب فى ثوابت الحقّ، و لا استحسان الباطل و موادّته، و لا كراهة الحقّ و الازدراء به.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۳

الوحدة و عناوين مختلطة ... ص: ۲۹۳

ثمّ إنّه فى بحث الوحدة هناك محور آخر يثار دائما و يحصل الخلط المتعمّد فيه.

عناوين: السبّ، اللعن، التولّى، التبرّى، المداراة، الموادّة، الاحترام، التعظيم، الخلق الحسن، المحبّة، الأدب، تحرّى و كشف الحقيقة فى الأحداث التاريخية للمسلمين، الطعن على الآخرين، و غيرها من العناوين التى تتداول، هى موضوعات و أفعال مختلفة، لكن يتوسّل بمفردات ألفاظ بعضها لإرادة بعضها الآخر تمويها، و لكلّ منها حكم شرعى و عقلى و أخلاقى يختلف عن الآخر، فترى بعضهم يدافع- بذريعة قبح السبّ- حتّى عمّن انحرف عن منهاج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و يتولّاه، و يعظّمه، و يتوادده عند ذكره، و يجعل منه قدوة تحتذى.

فاللازم تحرير معانى هذه العناوين، ثمّ بيان أحكامها:

أمّا السبّ فهو- لغة- الشتم و ذكر الشخص بعار و نقيصة، و هو- عرفا- ذكر الشخص بالألفاظ المستقبحة و الشنيعة و المستهجنة و القذرة.

و أمّا اللعن فهو: الطرد عن الرحمة؛ و قد سمّى اللّه تعالى ابليس بذلك لأنّه أبلس من رحمة اللّه، أى يئس و طرد من رحمته.

و أمّا التبرّى فهو: النفرة، و القطيعة، و التباعد، و التجافى.

و أمّا المداراة فهى: المجاملة، و إظهار حسن العشرة و اللين، و نحو ذلك على صعيد التعامل. و نحوه الخلق الحسن فى العريكة و المعشر. و كذلك الأدب فى المعاملة و المخالطة.

و أمّا المحبّة فهى: ميل قلبى و انعطاف نفسانى تجاه المحبوب، و الموادّة: بروز المحبّة أو اشتدادها.

و الاحترام و التعظيم: إبداء حرمة و عظمة الشىء- أو الشخص- و وضعه فى مكانة و منزلة مرموقة.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۴

أمّا كشف الحقائق فإنّه ضرورى لتكوين رؤية واقعية صادقة، و لاستخلاص العبر و المنهاج و إلّا كانت البصيرة زائفة، و فى هذا المجال لا معنى لطمس ورقة من الحقيقة بذريعة تحاشى الطعن على الآخرين.

أمّا الطعن على الآخرين: فهو إمّا أن يكون كاذبا غير مطابق للواقع، أو مطابقا إلّا أنّه غير هادف و ناشئ عن دواعى متدنّية.

إذا اتّضحت مفاهيم جملة من العناوين المتداولة فى البحث فاللازم بيان حكم كلّ منها.

الوحدة و التولّى و التبرّى ... ص: ۲۹۴

أمّا فريضة التبرّى من أهل الباطل و الضلال من ذوى العناد فيدلّ عليه قوله تعالى:

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ «۱».

و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ

الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ «۲».

و قوله تعالى: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ... لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «۳».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۵

و فى هذه الآيات يلاحظ الحثّ على إبراز و إظهار البرائة القلبية و النفسية على مستوى العلاقة الخارجية، نعم فى الآية اللاحقة: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «۱»، و هذا ليس تفصيل فى المودّة بل فى تجويز البرّ و المعاملة الحسنة مع غير المعادين منهم، و إلّا فالموادّة لا استثناء فيها، بخلاف المعادين منهم فاللازم إظهار الشدّة معهم: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ «۲».

و قال تعالى: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ* وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ «۳».

و قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ «۴»، و الولجة- بالتحريك- هى المكان الذى يستتر فيه المار عن المطر و غيره، و الولوج هو دخول شىء فى شىء باستتار الأوّل فى الثانى، فالوليجة هى: الجماعة التى يحتمى بها الشخص و ينضمّ إليها و يتحالف معها.

و لا يخفى تعدّد ألسن البرائة و التبرّى: الأوّل: تحريم الموادّة، و الثانى: تحريم وليجة غير المؤمنين مطلقا، و الثالث: وجوب التبرّى من الأعداء فى الدين، و الرابع: حرمة الاستغفار لهم و هو نحو من طلب الرحمة الإلهية لهم.

و قال تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ* وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۶

أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ «۱».

و يلاحظ فى هذه الآيات تقنين المحبّة- التولّى و البرائة- بتحريم محبّة الأنداد، و الندّ: كلّ من يدعى لغير طاعة اللّه تعالى، كما جاء فى الروايات، و يطابق المعنى اللغوى بقرينة السياق، و أنّ التبرّى من أهل العصيان و الطغيان فريضة، و أنّ هذا العصيان فى التولّى و التبرّى يوجب الخلود فى النار؛ و فى ذلك تعظيم لفريضة التولّى و التبرّى، و أنّها بمثابة الأصول الاعتقادية الموجبة للنجاة مع الطاعة، و للخلود فى النار مع المعصية.

و هذا لسان خامس فى هذه الفريضة؛ قال تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ «۲»، و كان طالوت إماما لبنى إسرائيل و جعل متابعته و عدمها مرتبطة بالتولّى و التبرّى.

و كذا قوله تعالى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى «۳»؛ إذ جعلت المودّة التى هى عماد التولّى لأهل البيت فى مصاف أصول الدين بمقتضى تعادل الأجر مع العمل فى ماهية المؤاجرة و المعاوضة، و العمل هو تبليغ الدين، و هذه الآية جعلت مدار التولّى فى الدين و الإسلام و الإيمان هو موالاة أهل النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ و هو ممّا يقتضى عصمتهم.

و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ* وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۷

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ... إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ* وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «۱».

و هذه الآيات كآية مودّة القربى حاصرة للتولّى فى الدين باللّه و الرسول و الأئمّة أوصياء النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و قد اتّفق الفريقان على نزولها فى عليّ عليه السّلام و تصدّقه و هو راكع فى الصلاة، كما تدلّ هذه الآيات على كون التولّى لأئمة الهدى من أهل البيت و التبرّيّ من الأعداء هو من أصول الإيمان..

و تدلّ على أنّ فئة الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ- و هى الفئة التى نشأت فى صفوف المسلمين فى أوائل البعثة النبوية فى مكّة، كما تشير إلى ذلك سورة المدّثر، رابع سورة نزلت على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم- تتولّى أهل الكتاب و الكفّار لخوفهم من انقلاب الكفّة لصالحهم على المسلمين..

كما أنّ الآية تدلّ على أنّ النصرة لهذا الدين و وليّه منحصرة بعليّ عليه السّلام و ولده عليهم السّلام بتولّيهم، و أنّهم حزب اللّه الغالبون، و أنّ من يرتدّ عن الدين بترك فريضة التولّى لهم عليهم السّلام و التبرّى من الكفّار و بقية أعدائهم فسوف يأتى اللّه بقوم يقومون بفريضة التولّى و التبرّى.

و قد روت العامّة بطرق مستفيضة حديثا بمضمون الآية نفسه عن النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «إنّ الإسلام لا يزال عزيزا ما مضى فيهم اثنا عشر خليفة، كلّهم من قريش» «۲». و فى رواية مسلم: «لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا ... كلّهم من قريش» «۳»، و فى لفظ آخر فى صحيح مسلم: «لا يزال هذا الدين عزيزا متبعا إلى اثنى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۸

عشر خليفة، كلّهم من قريش» «۱». و فى رواية أبى داود السجستاني: «لا يزال هذا الدين قائما حتّى يكون عليكم اثنا عشر خليفة... كلّهم من قريش» «۲». و فى أخرى: «لا يزال هذا الدين عزيزا إلى اثنى عشر خليفة، قال: فكبّر الناس و ضجّوا ... كلّهم من قريش» «۳»، و فى بعضها: «لا يزال أمر أمّتى صالحا حتّى يمضى اثنا عشر خليفة ... كلّهم من قريش»؛ رواه الطبرانى فى الأوسط «۴» و الكبير، و البزّار «۵»، و رجال الطبرانى رجال الصحيح..

و فى الكبير: «لا يزال الإسلام ظاهرا حتّى يكون اثنا عشر أميرا أو خليفة، كلّهم من قريش» «۶». و فى لفظ آخر: «لا يزال أمر هذه الأمّة هاديا على من ناواها حتّى يكون عليكم اثنى عشر أميرا ... كلّهم من قريش» «۷». و فى رواية أخرى: «لا يزال أمر هذه الأمّة ظاهرا »... «۸». و فى لفظ آخر: «لا يضرّ هذا الدين من ناواه حتّى يقوم اثنى عشر خليفة، كلّهم من قريش» «۹». و فى لفظ: «لا تزال أمّتى على الحقّ ظاهرين حتّى يكون عليهم اثنى عشر أميرا، كلّهم من قريش» «۱۰». و فى لفظ: «لا تبرحون بخير ما قام عليكم اثنى عشر أميرا... كلّهم من قريش» «۱۱». و فى لفظ: «لا يزال هذا الأمر عزيزا منيعا، ينصرون على من ناواهم عليه إلى اثنى عشر». ... و فى لفظ: «لن يزال هذا الدين عزيزا منيعا على من

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۲۹۹

ناوأه، لا يضرّه من فارقه أو خالفه حتّى يملك اثنا عشر، كلّهم من قريش» «۱». و فى بعضها: «كلّهم من بنى هاشم» «۲». و فى لفظ: «لا

يزال الدين قائما حتّى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنى عشـر خليفة، كلّهم من قريش» «۳». و فى لفظ: «لا يزال هذا الأمر صالحا »... «۴». و: «لا يزال هـذه الأمّة مستقيما أمرها، ظاهرة على عدوّها، حتّى يمضـى منهم اثنى عشـر خليفة، كلّهم من قريش» «۵». و: «لا يزال هذا الدين قائما » «... ۶». و لا حظ بقيّة الألفاظ فى إحقاق الحقّ «۷».

فتبيّن من آيات سورة المائـدة و الأحاديث النبويـة أنّ عزّة الـدين و الإسـلام و قوامه بالأئمّـة من أهل بيت النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم، كما أنّ صلاح أمر الأمّة الإسلامية و مضيّه و استقامته هو بالاثنى عشر عليهم السّلام، و أنّ هدى أمر الأمّة بيدهم عليهم السّلام.

كما أن غلبـة الأمّـة على أعـدائها و عزّها و بقاءها على الحقّ هو ببركـة الذى يقوم به أئمّة أهل البيت عليهم السّـلام، سواء الدور البارز على السـطح أو الدور الخفى الذى يتّخذ أشـكالا و صورا مختلفة، و سواء العلمى أو الاجتماعى أو السياسـى أو الأمنى أو العسكرى أو الاقتصادى أو الأخلاقى المعنوى أو باقى المجالات الأخرى..

و سـيأتى أنّ بهم عليهم السّـلام حصل انتشار الإسـلام و بأعـدائهم حصل توقّف انتشاره، و بهم عليهم السّـلام تفتّقت بنية الاعتقادات و المعارف الحقّة و بأعدائهم تولّد الزيغ و الضـلال، و بهم عليهم السّلام شيّد للدين منهاجه الأخلاقى و القانونى و بأعدائهم دبّت الأهواء و الميول

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۰

و حصلت الفوضى، و ذلك بيّن واضح لمن أمعن قراءة التاريخ الاجتماعى طوال الأربعة عشر قرنا.

و من الآيـات الدالّـة على التولّى و التبرّى قوله تعالى: تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَـدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُـهُمْ أَنْ سَـخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ* وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ* لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُـودَ وَ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَ لَتَجِـدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قـالُوا إِنَّا نَصـارى ذلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ «۱».

و هـذه الآيات تقابل بين المودّة و العداوة، و المودّة مقرّرة بين المؤمنين و العداوة مع الأعداء، و الولاء مع أهل الحقّ و القطيعة مع أهل الباطل، و قد تكون الوظيفة حيثية أو نسبية بقدر ما عند الطرف الآخر من اتّباع للحقّ أو اتّباع للباطل.

و مثل هذه الآيات طائفة أخرى دالّة على اتّخاذ العداوة مع الأعداء:

قوله تعالى: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ «۲».

و قال تعالى على لسان إبراهيم: قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ «۳».

و قـال تعـالى: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْـمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَـنَّدَةٌ يَحْسَـبُونَ كُلَّ صَـيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَـدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ «۴».

و قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ «۵».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۱

و قـد مرّ قوله تعـالى: قَدْ كـانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قـالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ.

هذا مضافا إلى آيات الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر:

قوله تعالى: وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۱».

و قوله تعالى: الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۲».

و قال تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَـدُونَ* كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ «۳».

و لا ـ ریب فی أنّ النهی عن منکر تبرّی منه، و الواجب فی النهی عن المنکر أن یکون بنکرانه فی القلب أوّلا و بالسعی فی إزالته ثانیا، کما أنّ الواجب فی الأمر بالمعروف برضاه و حبّه فی القلب أوّلا و بالسعی لإقامته ثانیا، و من أحبّ عمل قوم أشرک معهم؛ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «من شهد أمرا فکرهه کان کمن غاب عنه، و من غاب عن أمر فرضیه کان کمن شهده» «۴».

فالتولّی للمعروف بالقلب و العمل فریضهٔ رکنیهٔ، و التبرّی من المنکر بالقلب و العمل فریضهٔ رکنیهٔ، و من أعظم المعروف معرفهٔ الحقّ، و من أعظم المنکر جحود الحقّ و الإقرار بالباطل؛ فظهر أنّ باب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر قائم علی التولّی و التبرّی..

و لا یخفی أنّ لتولّی المعروف و الحقّ و الأمر به، و للتبرّی من الباطل و المنکر و النهی عنه، درجات و أسالیب و مقامات مشروحهٔ فی محالّها، فلیس النهی عن المنکر و التبرّی

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۰۲

من الباطل یعنی أسلوب الحدّهٔ و الشدّهٔ بل قد یکون اللین و الموعظهٔ الحسنهٔ أنفع و أنجع فی إزالهٔ الباطل و المنکر، إلّا أنّ الخلط و التشویش یقع بین کیفیهٔ أسلوب اللین و بین استحسان المنکر و استنکار المعروف، أو بین المداراهٔ و بین الرضا بالباطل، و کذلک بین مقام التعامل مع الطوائف الأخری و بین مقام الحقیقهٔ الدینیهٔ الواقعیهٔ و فی ما هو داخل الطائفهٔ. و بعبارهٔ أدقّ: الخلط فی الموازنهٔ بین المحافظهٔ علی حقائق الدین و بین تجنّب الفرقهٔ فی زمن الهدنهٔ.

و قد مرّ موقف هارون علیه السّلام من ضلال بنی إسرائیل و تبرّیه من زیغهم فی حین عدم تفریطه بوحدتهم و أنّ ردعه عن منکرهم اقتصر فیه علی ذلک لعدم قدرته علی ما هو أشدّ درجهٔ، کذلک مرّ موقف سیّد الشهداء علیه السّلام من الانحراف فی حین کان علیه السّلام یجعل مصیر الأمّهٔ و المسلمین من مسؤولیّته، و کذلک موقف سیّد الوصیّین فی حروب الجمل و صفّین و النهروان؛ فهو لم یعر أهمّیهٔ لما اقترح علیه جملهٔ ممّن زعم الحرص علی وحدهٔ المسلمین من عدم قتال الناکثین و القاسطین و المارقین، إذ أنّه علیه السّلام- بروایهٔ الفریقین- مأمور من النبیّ الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یقاتل الفئات الثلاث، و أنّه یقاتل علی التأویل فی الشریعهٔ و القرآن کما قاتل صلّی اللّه علیه و آله و سلم علی تنزیله، و أنّ القتال الثانی عین القتال الأوّل فی الأهمّیهٔ و الضرورهٔ لبناء صرح الدین، بل نشاهد علیّا علیه السّلام لم یقبل البیعهٔ لنفسه- بعد قتل عمر- عندما اشترط فیها الأخذ بسنّهٔ الشیخین، کما أنّه لم یشارک فی حروبهم رغم أنّ بسیفه فتح اللّه علی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، و به قام الإسلام فی ربوعه أمّهٔ و ملّهٔ و دولهٔ.

کذلک موقف الصدّیقهٔ البتول التی شهد القرآن بطهارتها و عصمتها، ثالثهٔ أصحاب الکساء، التی احتجّ اللّه تعالی بشهادتها لصدق النبوّهٔ علی أهل الکتاب فی واقعهٔ المباهلهٔ، و روی الفریقان أنّها سیّدهٔ نساء أهل الجنّهٔ؛ إذ قامت بالمعارضهٔ الشدیدهٔ حتّی استنهضت الأنصار للانقلاب علی حکم السقیفهٔ، مع أنّ الأوضاع بعد وفاهٔ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم کانت مضطربهٔ حسب زعم أهل السقیفهٔ، و قد أعلن علیّ علیه السّلام بطلان مشروعیهٔ الحکم بامتناعه عن بیعتهم، کما روی ذلک البخاری.

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۰۳

و فی قتل عثمان لم یمانع علیه السّلام وقوعه، و إنّما کان ینکر علی الثوّار هذا الأسلوب من جهۀ أنّه یعطی الذریعهٔ لمعاویهٔ و بنی أمیهٔ و غیرهم لزعم مظلومیهٔ عثمان، بخلاف حصره و مطالبته بخلع نفسه و تسلیم من سبّب الفتنهٔ ممّن کان فی جهته، فإنّ ذلک کان قد ارتضاه علیه السّلام، و هو مفاد الوساطهٔ التی قام علیه السّلام بها فی المرّهٔ الأولی، إلّا أنّ عثمان اتّهمه بأنّه السبب فی کلّ ذلک فاعتزل علیه السّلام.

و قد منع السیّد المرتضی فی الشافی «۱» و الشیخ فی تلخیصه «۲» ثبوت إرسال أمیر المؤمنین الحسن علیه السّلام للذبّ عن عثمان من طرقنا؛ و لو سلّم فلیس للذبّ عنه بل للوساطهٔ درءا عن تشعّب الفوضی، و إلی ذلک یشیر ما رواه الشریف المرتضی «۳» عن الواقدی، عن الحکم بن الصلت، عن محمّد بن عمّار بن یاسر، عن أبیه، قال:

رأیت علیّا علی منبر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم حین قتل عثمان و هو یقول: ما أحببت قتله و لا کرهته، و لا أمرت به و لا

نهيت عنه.

و روى البلاذرى عنه عليه السّلام أنّه قال:

و اللّه الذى لا إله إلّا هو ما قتلته و لا مالأت على قتله و لا سائنى «۴».

و روى بطرق كثيرة عنه عليه السّلام أنّه قال: «من يسائلى عن دم عثمان فإنّ اللّه قتله و أنا معه» «۵»، و فسّر بأنّ حكم اللّه هو قتله و أنّه عليه السّلام راض بحكم اللّه تعالى.

و فى خطبه له جوابا لاعتراض الأشعث بن قيس قال عليه السّلام:

و لو أنّ عثمان لمّا قال له الناس: اخلعها و نكفّ عنك، خلعها، لم يقتلوه، و لكنّه قال: لا أخلعها، فقالوا: فإنّا قاتلوك فكفّ يده عنهم حتّى قتلوه،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۴

و لعمرى لخلعه إيّاها كان خيرا له؛ لأنّه أخذها بغير حقّ، و لم يكن له فيها نصيب، و ادّعى ما ليس له، و تناول حقّ غيره.

ويلك يا ابن قيس! إنّ عثمان لا يعدوا أن يكون أحد رجلين: إمّا أن دعا الناس إلى نصرته فلم ينصرونه، و إمّا أن يكون القوم دعوه إلى أن ينصروه فنهاهم عن نصرته؛ فلم يكن يحلّ له أن ينهى المسلمين عن أن ينصروا إماما هاديا مهتديا، لم يحدث حدثا و لم يؤو محدثا، و بئس ما صنع حين نهاهم، و بئس ما صنعوا حين أطاعوه، فإمّا أن يكونوا لم يروه أهلا لنصرته؛ لجوره و حكمه بخلاف الكتاب و السنّة «... ۱»

و هكذا مواقف حواريّيه عليه السّلام تجاه عثمان، مثل أبى ذرّ و ما جرى بينهما، و موقف عمّار مع عثمان، بل إنّ مصادر القوم تنسب تدبير خلع عثمان فى الدرجة الأولى إلى عمّار و محمّد بن أبى بكر.

و غير ذلک من مواقفهم عليهم السّلام و مواقف أصحابهم- رضى اللّه عنهم- التى قد يتخيّل أنّ فيها مصادمة مع الوحدة، و لم يجدوا فى الوحدة معنى يطغى على الأمر بالحقّ و المعروف و النهى عن الباطل و المنكر، أى على تولّى الحقّ و التبرّى من الباطل.

معنى و قوام الوحدة ... ص: ۳۰۴

و يشير عليه السّلام إلى الوحدة المعنية التى هى محلّ أهمّية فى قوله عليه السّلام:

و أيم اللّه لو لا مخافة الفرقة من المسلمين أن يعودوا إلى الكفر و يعود [يبور] الدين لكنّا قد غيّرنا ذلک ما استطعنا «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۵

فهو عليه السّلام يفسّر الفرقة بمعنى اختلاف المسلمين عن الدين باختيار جملة منهم الخروج عن الإسلام و اعتناق الكفر أو ديانة أخرى..

و بيانه عليه السّلام هذا يفسّر قول هارون عليه السّلام: نِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى «۱»، أنّه بمعنى تفرّق بنى إسرائيل عن دين النبىّ موسى عليه السّلام لو اصطدم هارون معهم بالسلاح أو قاطعهم بمفارقتهم و الخروج عنهم، و هذا يوجب شدّة تعصّبهم و ارتدادهم عن دين موسى عليه السّلام؛ إذ أنّ عبادتهم للعجل بتسويل السامرى كانت بخداعه أنّ ذلک من شرع موسى عليه السّلام: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ «۲».

أمّا السبّ، فقد تقدّم افتراقه عن اللعن؛ إذ هو الفحش من القول القذر الذى يمارسه حثالى و أسافل الناس، قال تعالى: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ «۳»، و هو يفترق عن ذكر حقائق الأمور و الأحداث الواقعة فى تاريخ المسلمين، فالسبّ لا يرتبط بها، و خلط العناوين مثار مغالطة.

قال علىّ عليه السّلام- و قد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفّين-:

إنّی أکره لکم أن تکونوا سبّابین، و لکنّکم لو وصفتم أعمالهم، و ذکرتم حالهم، کان أصوب فی القول، و أبلغ فی العذر، و قلتم مکان سبّکم: اللّهمّ احقن دماءنا و دماءهم، و أصلح ذات بیننا و بینهم، و اهدهم من ضلالتهم، حتّی یعرف الحقّ من جهله، و یرعوی عن الغی من لهج به «۴».

فتراه علیه السّلام فی الوقت الذی ینهی عن السبّ، یحثّ علی وصف أعمالهم و ذکر حالهم، أی استعراض حقائق الأمور و ما علیه أهل الباطل من رداءة العمل و رذیلة الحال، و بیّن علیه السّلام الغایة من ذلک: «حتّی یعرف الحقّ من جهله» أی: لیتبیّن طریق الحقّ و أهله و

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۰۶

طریق الباطل و أهله، و تفیق الأجیال من رقدتها و سباتها، و تبصر الحقّ و الهدی، و لا یصیبها العمی و الهذیان، «و یرعوی عن الغی و العدوان من لهج به» أی: ینقطع المسلمون السالکون طریق الغی و العدوان، و لئلّا یدعون إلی ذلک الطریق الضال.

قال ابن أبی الحدید- فی ذیل الخطبة فی شرح النهج البلاغة-:

الذی کرهه علیه السّلام منهم أنّهم کانوا یشتمون أهل الشام، و لم یکن یکره منهم لعنهم إیّاهم «۱».

کما أنّه علیه السّلام یبیّن قواعد و ضوابط الوحدة الإسلامیة، بقوله علیه السّلام:

اللّهمّ احقن دماءنا و دماءهم، و أصلح ذات بیننا و بینهم، و اهدهم من ضلالتهم، حتّی یعرف الحقّ...

فالقاعدة الأولی هی: حقن الدماء و سیادة الأمن بین طوائف المسلمین.

و القاعدة الثانیة: إنّ إصلاح ذات البین بین طوائف المسلمین یجب أن یکون علی مسیر الهدایة و الحقیقة و الابتعاد عن الضلال، و لغایة معرفة الحقّ و رجوع صاحب الغی عن غیّه و رجوع صاحب العدوان عن اعتدائه و صاحب الدعوة الضالّة عن ترویجه للضلال.

و کلامه علیه السّلام طبق هدی الآیة: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ «۲».

فقد دلّت الآیة علی أنّ إصلاح ذات البین و رفع اختلاف المسلمین و وحدتهم یجب أن یرسو علی العدل و القسط و الحقّ و الهدی، لا علی الظلم و إغماط الحقّ، و أنّ الإصلاح و الوحدة یجب أن تکون علی أساس الفیء و الرجوع إلی أمر اللّه تعالی، لا إلی الأهواء و المیول و الضلالات.

ثمّ إنّ فی الآیة الناهیة عن سبّ الّذین یدعون من دون اللّه نکتة ظریفة، و هی: أنّ علّة

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۰۷

النهی هی تمادی أهل الضلال فی ضلالهم و غیّهم و ابتعادهم عن سبیل اللّه، و لم یعلل النهی بترک مباغضة المؤمنین لأهل الضلال و التبرّی من غیّهم، و لو علی مستوی القلب أو علی مستوی السلوک الداخلی فی ما بین المؤمنین، کما أنّ مورد آیة النهی عن السبّ هو صعید التعامل مع أهل الضلال، و صعید دعوتهم للهدایة.

و حیث اتّضح الفرق بین السبّ و اللعن موضوعا، فالمناسب الإشارة إلی حکم اللعن للظالمین و المعتدین، فإنّه خلق إلهی، استعرضه القرآن الکریم فی ما یزید علی الثلاثین موردا فی السور القرآنیة «۱»، و کذلک هو خلق الأنبیاء، کما فی قوله تعالی فی آیة المباهلة: ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ «۲»، و قوله تعالی: لُعِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ عَلی لِسانِ داوُدَ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ ذلِکَ بِما عَصَوْا وَ کانُوا یَعْتَدُونَ «۳».

بل فی قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَیِّناتِ وَ الْهُدی مِنْ بَعْدِ ما بَیَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِی الْکِتابِ أُولئِکَ یَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ یَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ «۴» دعوة و ندب إلی التبرّی من الکاتمین لحقائق الدین و الشرائع و لهدایة السماء بتوسّط اللعن هذا، فضلا عن عشرات الموارد التی لعن فیها سیّد المرسلین صلّی اللّه علیه و آله و سلم أشخاصا بأسمائهم، مثل لعنه أصحاب العقبة و أبی سفیان فی سبعة

مواطن «۵»، و لعن رسول اللّه قاتل الحسين عليه السّلام، كما رواه الفريقان «۶».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۸

و قد قال: سعد التفتازانى فى شرح العقائد النسفية:

و إنّما اختلفوا فى يزيد بن معاوية؛ حتّى ذكر فى الخلاصة و غيرها: أنّه لا ينبغى اللعن عليه و لا على الحجّاج؛ لأنّ النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم نهى عن لعن المصلّين و من كان من أهل القبلة، و ما نقل عن لعن النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم لبعض من أهل القبلة فلما أنّه يعلم من أحوال الناس ما لا يعلمه غيره. و بعضهم أطلق اللعن عليه لما أنّه كفر حين أمر بقتل الحسين رضى اللّه عنه، و اتّفقوا على جواز اللعن على من قتله، و أمر به، و أجازه، و رضى به.

و الحقّ أنّ رضا يزيد بقتل الحسين رضى اللّه عنه، و استبشاره بذلك، و إهانته أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم، ممّا تواتر معناه، و إن كان تفاصيله آحادا، فنحن لا نتوقّف فى شأنه بل فى إيمانه، لعنة اللّه عليه و على أنصاره و أعوانه «۱».

و لا يخفى أنّ المناط و الضابطة التى ذكرها التفتازانى تنطبق على كثير ممّن عادى أهل بيت النبوّة.

و قال الغزّالى:

الصفات المقتضية للّعن ثلاثة: الكفر و البدعة و الفسق «۲».

و قد ألّف أبو الفرج ابن الجوزى كتابا فى لعن يزيد سمّاه: الردّ على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد، و نسب فيه اللعن إلى العلماء الورعين «۳»، كما حكى القاضى أبو يعلى الفرّاء فى كتاب المعتمد عن أحمد بن حنبل- و كذا الشبراوى «۴» فى الإتحاف- أنّه جوّز

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۰۹

لعن يزيد «۱»، و استدلّ بقوله تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ «۲» و حكى الدميرى «۳» ذلك عن أبى حنيفة و مالك و أحمد و مثله ابن كثير «۴»، و الطبرى «۵»، و الآلوسى «۶». و حكى كذلك عن الحنفية «۷».

و قد وقع أهل السنّة فى حيص و بيص من لعن النبىّ جماعة بأسمائهم، فأخذوا فى توجيه ذلك بما يضحك الثكلى «۸» مع أنّهم رووا عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّه كان يلعنهم فى صلاته و يقنت عليهم «۹». و روى الحاكم عن عائشة أنّه قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

ستّة لعنتهم، لعنهم اللّه و كلّ نبىّ مجاب: الزائد فى كتاب اللّه، و المكذّب بقدر اللّه تعالى، و المتسلّط بالجبروت؛ فيعزّ بذلك من أذلّ اللّه و يذلّ من أعزّ اللّه، و المستحلّ لحرم اللّه، و المستحلّ من عترتى ما حرّم اللّه، و التارك لسنّتى «۱۰».

و قال المحقّق الكركى فى نفحات اللاهوت:

لا ريب أنّ اللعن هو الطرد و الإبعاد من الرحمة، و إنزال العقوبة بالمكلّف، و كلّ فعل أو قول اقتضى نزول العقوبة بالمكلّف من فسق أو كفر فهو مقتضى لجواز اللعن «۱۱».

نعم هذا حكم اللعن للظالمين و المعتدين فى نفسه أو فى الوسط الداخلى، و أمّا أسلوب دعوة الآخرين و إرشادهم فلا- ريب أن يتحرّى فيه ما لا يثير عصبية الطرف

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۰

الآخر، كما ينبغى الالتفات إلى فلسفة اللعن فى نفسه أو فى الوسط الداخلى؛ إذ أنّه مصداق لطبيعة التولّى و التبرّى، التى مرّ أنّها فريضة قرآنية اعتقادية، كما أنّه مصداق لطبيعة إنكار المنكر- و لو بالقلب و اللسان- و كراهة الباطل، و بالتالى فإنّه أسلوب تربوى للنفوس يقيمها على الحقّ و يبعدها عن استحسان الباطل، فإنّه من أكبر الأدواء فى المجتمعات استنكار الحقّ و استحسان الباطل و الأمر بالمنكر و النهى عن المعروف.

و قال عليه السّلام فى خطبة له:

و إنّی لعالم بما یصلحکم و یقیم أودکم و لکنّی لا أری إصلاحکم بإفساد نفسی «۱».

و هذا أصل بالغ الأهمّیة لطریقة إصلاح الآخرین: أن لا تکون علی حساب فساد المصلح نفسه؛ فقد یداری المصلح الطرف الآخر لدرجة یضیّع فیها علی نفسه و طائفته موقف الثبات علی الحقّ، و یؤدّی إلی ذوبانه فی الباطل و الانحراف باسم المداراة للإصلاح، و بادّعاء أنّ الإصلاح قد یستلزم تخلّی الطائفة المحقّة عن بعض مبادئها و ضروریاتها لتربیة الطائفة نفسها.

إنّ لمعرفة الأهمّیة البالغة للأمر بالمعروف و الحقّ و النهی عن المنکر و الباطل دور کبیر فی ثبات هویة المجتمع الدینی، و نظامه الاجتماعی، و حصانته أمام الغز و الثقافی و العقائدی الأجنبی الدخیل، الموجب للتحلّل الخلقی و لعدم التزام أفراد المجتمع تجاه مقدّسات الملّة و الأمّة و المسؤولیات الملقاة علی عاتقهم.

الوحدة و شعائر المذهب ... ص: ۳۱۰

و هذه الوظیفة التی تؤدّیها فریضة التولّی و التبرّی و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر- من إیجاد الغیرة الدینیة و حسّ المسؤولیة الاجتماعیة الدینیة- تتأدّی بآلیات

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۱۱

عدیدة، عمدتها الشعائر الدینیة، و من هنا یتفطّن لأهمیّة الشعائر و عدم التفریط بها، و لا سیّما الشعائر الإیمانیة المذهبیة؛ فإنّ التفریط بها یوجب التفریط بکیان المذهب و ذوبانه أمام هویة المذاهب الإسلامیة الأخری، القائمة علی فقه و اعتقادات السلاطین، المصنوعة من سیاسات السلطات الحاکمة، کالجبریة، و القدریة، و المجسّمة، و اجتهاد النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالظنّ و إلقاء الشیطان فی أمنیّته، و أنّ ید اللّه- و العیاذ باللّه- مقطوعة عن الأرض، و مشروعیة ولایة الحاکم المتغلّب بالقوّة، و إطلاق الاجتهاد بالرأی، و التأوّل، و القیاس، و الاستحسان، و غیرها من الأصول، و یؤکّد علماء الاجتماع کذلک علی أهمیّة الشعائر- الطقوس- الدینیة و فلسفتها.

و نظیر الخلط السابق بین العناوین، الخلط فی الموازنة بین إقامة الشعائر الإیمانیة و بین عنوان التقیة، مع أنّ موضوع التقیة «الخوفیة» حیث لا سلطة قائمة للمؤمنین، و کونهم أقلّیة قلیلة و نحو ذلک، أو الخلط بین التقیة «المداراتیة» و بین إقامة المعرفة الحقّة فی نفوس أبناء الطائفة؛ فإنّ التقیة إنّما شرّعت لحفظ الحقّ و أهله لا لطمسهما فی المجتمع.

الوحدة و طوائف الشیعة ... ص: ۳۱۱

و إنّ التساؤل الجادّ المطروح فی مشروع سیاسة الوحدة هو عن الاهتمام ببقیّة طوائف و مذاهب الشیعة غیر الإمامیة- کالإسماعیلیة و الزیدیة و مذهب العلویّین- نظیر الاهتمام بالطوائف السنّیة، مع أنّ الملاحظ قلّة العنایة بهم، بل اللازم أولویة الاهتمام بهم لعدّة أسباب:

الأوّل: إنّ تحالفهم السیاسی مع الطائفة مضمون؛ نظرا لقرب أصولهم الاعتقادیة لنا.

الثانی: قوّة و أقربیّة احتمال هدایتهم بالمقارنة مع الطوائف السنّیة.

الثالث: کبر حجمهم العددی و الخطورة الاستراتیجیة لأماکن تواجدهم.

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۱۲

فالعلویّون- مثلا- یصل تعدادهم فی جنوب ترکیا إلی ۱۳ ملیون نسمة حسب الإحصائیات الرسمیة، و لکن بعض التقاریر المحلیة تصل بعددهم إلی ۲۲ ملیون نسمة، فضلا عن تواجدهم فی سوریا و لبنان و شمال العراق.

و مثلهم الإسماعیلیة، فهم منتشرون فی لبنان و سوریا و العراق و أفغانستان و پاکستان و الهند و الیمن، و فی جنوب السعودیة یشکّلون الأکثریة فی المحافظات الجنوبیة، و الغریب أنّه فی مؤتمرات الوحدة لم توجّه إلی الآن- حسب ما قیل- أی دعوة لعلماء الإسماعیلیة

فی سوریا أو فی المناطق الأخری، و الظاهر أنّ الحال کذلک بالنسبة إلی العلویّین؛ إذ لم توجّه لهم دعوة.

و أمّا الزیدیة فهم الأکثریة فی الیمن. و کذلک الحال بالنسبة إلی الأشراف السادة من نسل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم؛ فإنّ انتشارهم فی الأصقاع کوثر کاثر، و لهم نقابات فی أکثر البلدان، و هم علی محبّة و ولاء قلبی لأئمّة أهل البیت علیهم السّلام أشدّ من غیرهم، ففی بلاد المغرب العربی و الجزائر و تونس ما یقرب من ۵ ملایین حسنی، فضلا عن مصر و لیبیا، و کذلک فی المدینة المنوّرة و مکّة المکرّمة و أندونسیا.

و الحاصل قلّما یخلو بلد من البلدان الإسلامیة من هذا النسل الطیّب، و هم أولی بإقامة الجسور معهم من أتباع بنی أمیة و مروان، بل إنّ صوفیة السنّة و فرقهم أولی بإقامة العلاقة معهم من بقیة طوائف السنّة؛ إذ أنّ غالبیّتهم یعتقدون باطنا بإمامة الاثنی عشر علیهم السّلام، و لذلک تتخوّف الطوائف السنّیة الظاهریة الرسمیة منهم.

و الحاصل: إنّ سیاسة الوحدة لم تبن علی بصیرة منهجیة، آخذة فی عین الاعتبار درجات و أقسام الطوائف الإسلامیة الموجودة، و إرساء منهج یستند علی أولویات مدروسة.

و کم فرق بین من یبطن المحبّة لک و بین من یبطن العداوة و البغضاء؛ قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِکُمْ لا یَأْلُونَکُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَکْبَرُ قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْآیاتِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ*ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۱۳

وَ لا یُحِبُّونَکُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْکِتابِ کُلِّهِ «... ۱». و قال تعالی: کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً یُرْضُونَکُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبی قُلُوبُهُمْ «... ۲».

و لا یخفی أنّ الآیات المزبورة لیست فی صدد تخشین العلاقة الخلقیة مع الآخرین المتّصفین بذلک کی یتوهّم معارضتها بنظیر قوله تعالی: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً «۳»، و قوله تعالی: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَةَ «۴»، بل هی فی صدد بیان سیاسة الانفتاح و بناء العلاقات الأساسیة المعتمدة لبناء خطوات المستقبل من التحالفات فی المجالات المختلفة.

الوحدة و حدیث الفرقة الناجیة ... ص: ۳۱۳

إنّ الحدیث المتواتر بین الفریقین عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «إنّ أمّتی ستفترق بعدی علی ثلاث و سبعین فرقة، فرقة منها ناجیة و اثنتان و سبعون فی النار» «۵» یلزم الباحث المسلم الطالب للنجاة الأخرویة الفحص عن خصوص تلک الفرقة الناجیة، و التمسّک بها دون بقیة فرق المسلمین؛ لأنّ مؤدّی الحدیث النبوی أنّ الاختلاف الواقع لیس فی دائرة الظنون و الاجتهاد المشروع، بل هو فی دائرة الأصول و الأرکان من الأمور القطعیة و الیقینیة، أی ممّا قام الدلیل القطعی و الیقینی علیها، و إن لم تکن ضروریة فی زمن أو أزمان معیّنة نتیجة التشویش أو التعتیم الذی تقوم به الفرق الأخری.

و الحدیث- مضافا إلی کونه ملحمة نبویة- یحدّد معالم الوحدة التی یجب أن تقیمها الأمّة الإسلامیة بأن تکون علی منهاج الحقّ و الهدی الذی تسیر علیه الفرقة الناجیة، و إنّ الأمّة و إن اشترکت فی الإقرار بالشهادتین و الانتماء إلی الملّة الواحدة إلّا أنّ

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۱۴

ذلک لا یعدو الأحکام بحسب ظاهر الإسلام فی النشأة الدنیویة، إلّا أنّها مفترقة بحسب واقع الإسلام و الإیمان الذی به النجاة الأخرویة؛ فهناک دیانة بحسب إقرار اللسان تترتّب علیها أحکام المواطنة فی النظام الاجتماعی السیاسی، و هناک دیانة بحسب القلب و الأعمال تترتّب علیها أحکام الآخرة من النجاة من النار و إعطاء الثواب.

و هذه الأمور المستفادة من الحدیث الشریف المتواتر إنّما هی بلحاظ الإنسان البالغ العاقل المکلّف، الذی قد اجتمعت فیه شرائط

التكليف، أمّا الصبى و المجنون و الجاهل القاصر أو المعتوه أو الأبله و حديث العهد بالإسلام و نحوهم ممّن لم تقم عليه الحجّة و تتمّ شرائط التكليف لديه، فهم معذورون، و عاقبة المعذور- كما سيأتى- موقوفة على المشيئة الإلهية الأخروية، التى فسّرت فى الروايات بإقامة امتحان إلهى له يوم القيامة إن أطاع فيه نجا و إن عصى هلك.

و قد أطلق على أفراد المعذور فى الكتاب و السنّة عدّة تسميات، ك الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا «۱»، و مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ «۲»، و أَصْحابُ الْأَعْرافِ «۳»، و الّذين خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً «۴»، و الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ «۵»، و أطلق عليهم أيضا: «الضلّال»، بمعنى: الضالّ «القاصر»؛ إذ هذا أحد معانيه، و إلّا فهو يطلق على «المقصّر» المخلّد فى النار أيضا..

لذلك لا مفرّ لهذا الإنسان- المكلّف المختار- و لا مخلص و لا نجاة له إلّا بالفحص عن الفرقة الناجية من فرق المسلمين، و ليس له أن يتعامى عن عمد و يسلك طريق الضلال و الغواية و يرجو مع ذلك النجاة، كما أنّ البحث الجادّ بين فرق المسلمين فى إطار الوحدة لا بدّ أن يتحرّى فيه- بمقتضى الحديث الشريف و التوصية النبوية- عن الحقّ الذى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۵

تسلكه الفرقة الناجية لكى تتّبعها بقيّة الفرق، فإنّ منهاج الهدى لا يرسم بضلال القاصر المستضعف.

و لكى تتمّ الفائدة من هذا الحديث المتواتر- حديث الفرقة الناجية- الذى أقرّت بمضمونه جلّ فرق المسلمين، نذكر بعض النقاط التالية:

الأولى

إنّ الكلام فى النجاة فى الحديث الشريف هو بحسب الاستحقاق و الامتثال، لا بحسب الشفاعة و الشفقة الإلهية و الرحمة الواسعة، أى بحسب ما يلزمه حكم العقل باتّباع الأدلّة و البراهين الشرعية و العقلية الأولية، فإنّ العقل يوجب التجنّب عن التعرّض للسخط الإلهى و احتمال العقوبة الأخروية، و إن لم يكن بين استحقاق العقوبة و وقوعها تلازم؛ لاحتمال الشفاعة و نحوها، فإنّ التعرّض لمثل العقوبة الأخروية التى أشفقت منها السماوات و الأرض يعدّ من الإلقاء فى الهلكة، هذا فضلا عن الأصناف الأخرى لحكم العقل من وجوب شكر المنعم و قبح التمرّد و الطغيان على المولى، و غيرها من أنماط حكم العقل و الفطرة.

الثانية

إنّ المقصود من النجاة فى الحديث الشريف هو النجاة من الدخول فى النار و من ذوق حريق العذاب، لا فى النجاة من الخلود فيها و من دوام العذاب؛ فإنّ آراء المتكلّمين تكاد تتّفق أنّ الخلود للجاحدين و أهل العناد، سواء كان الجحود فى توحيد الذات أو الصفات، أو فى التشريع و الرسالة، أو فى الولاية و الإمامة، أو فى الغاية و المعاد، و نحوها من أصول الاعتقاد.

و بعبارة أخرى: إنّ مفاد الحديث فى دخول الجنّة عند الحساب و الميزان، لا فى دخول الجنّة بعد أحقاب من العذاب فى النار.

الثالثة

إنّ معذورية أفراد المعذور- كما يأتى- لا يعنى تنجز نجاته بل هى مرهونة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۶

بالمشيئة الإلهية، و التى فسّرت فى عدّة من الأخبار بالامتحان، كما لا يعنى أنّ مسار هؤلاء هو طريق هدى بل مفروض العذرية تخبّط المعذور فى الضلال و الغواية، فلا تلازم بين العذرية و الأمان و لا بينها و بين ضمان النجاة، و لا بينها و بين اتّخاذ خطأ و ضلال المعذور منهاجا يتبجّح به. و سيأتى أنّ فى الروايات ما يدلّ على أنّه يبيّن الحقّ لأفراد المعذور فى امتحان يوم القيامة.

الرابعة

إنّ هناك جملة من الأحاديث النبوية المستفيضة و المتواترة الأخرى الدالّة على مفاد حديث الفرقة الناجية نفسه، لكن بألفاظ مختلفة و دلالات متعدّدة التزامية و مطابقية، منها: «من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» «۱»؛ و فى بعض الطرق: «و ليس فى عنقه

بيعه لإمام زمانه» «۲»، و نحو ذلك. و منها: «مثل أهل بيتى كسفينة نوح، من ركبها نجا و من تركها هلك» «۳». و منها: ذيل حديث الثقلين؛ و مفهومه:

«ما إن تمسّكتم بهما فلن تضلّوا أبدا» و غيرها من الأحاديث النبوية الواردة فى علىّ عليه السّلام و أهل بيته.

الخامسة

قد وردت جملة من الروايات المستفيضة فى امتحان أقسام المعذور يوم القيامة، منها: صحيحة هشام؛ عن أبى عبد اللّه عليه السّلام:

«سئل عمّن مات فى الفترة- أى فى زمان انقطاع الرسل و غياب الحجّة- و عمّن لم يدرك الحنث- أى البلوغ- و المعتوه، فقال:

«يحتجّ اللّه عليهم يرفع لهم نارا فيقول لهم: ادخلوها، فمن دخلها كانت عليه بردا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۷

و سلاما، و من أبى قال:ها أنتم قد أمرتكم فعصيتمونى» «۱».

و فى صحيحة أخرى قال عليه السّلام: «ثلاثة يحتجّ عليهم: الأبكم، و الطفل، و من مات فى الفترة، فيرفع لهم نار فيقال لهم: ادخلوها، فمن دخلها كانت عليه بردا و سلاما، و من أبى قال تبارك و تعالى: هذا قد أمرتكم فعصيتمونى» «۲». و فى بعض الروايات: «إنّ أولاد المشركين خدم أهل الجنّة» «۳».

و منها: صحيح زرارة؛ قال: سألت أبا جعفر عليه السّلام: «هل سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن الأطفال؟ فقال: «قد سئل فقال: اللّه أعلم بما كانوا عاملين». ثمّ قال: «يا زرارة! هل تدرى ما قوله اللّه أعلم بما كانوا عاملين؟!» قلت: لا. قال: «للّه عزّ و جلّ فيهم المشيئة؛ إنّه إذا كان يوم القيامة أتى بالأطفال، و الشيخ الكبير الذى قد أدرك السن [النبىّ] و لم يعقل من الكبر و الخرف، و الذى مات فى الفترة بين النبيّين، و المجنون، و الأبله الذى لا يعقل، فكلّ واحد يحتجّ على اللّه عزّ و جلّ، فيبعث اللّه تعالى إليهم ملكا من الملائكة و يؤجّج نارا فيقول:

إنّ ربّكم يأمركم أن تثبوا فيها. فمن وثب فيها كانت عليه بردا و سلاما، و من عصاه سبق إلى النار» «۴».

و هناك جملة عديدة من الروايات، فلاحظها فى محالّها «۵»، كما أنّ هناك جملة أخرى من الروايات دالّة على دخول أطفال المشركين مع آبائهم فى النار، لكنّها محمولة على عصيانهم فى الامتحان.

و فى رواية لزرارة، قال: قال أبو جعفر عليه السّلام- و أنا أكلّمه فى المستضعفين-: «أين

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۸

أَصْحابُ الْأَعْرافِ؟! أين المرجون لأمر اللّه؟! أين الّذين خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً؟! أين الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ؟! أين أهل تبيان اللّه؟! أين الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا؟! فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً «۱»» «۲».

و تعبيره عليه السّلام عن أفراد المعذورين ب «أهل تبيان اللّه» لعلّ المراد به أنّه يبيّن تعالى لهم الهدى من الضلال فى الامتحان المقام لهم عند الحساب.

السادسة

هناك جملة أخرى من الروايات يظهر منها دخول أفراد المعذور إلى الجنّة، و لكنّها محمولة و مقيّدة بامتحانهم و طاعتهم فيه، و من ثمّ نجاتهم، كما تقدّم حمل جملة من الروايات الواردة فى دخول أطفال المشركين النار على عصيانهم فى الامتحان؛ بمقتضى العديد من الروايات المستفيضة المفصّلة المقيّدة لدخول الجنّة أو النار بالامتحان عند الحساب.

منها: صحيح زرارة؛ قال: «دخلت أنا و حمران- أو: أنا و بكير- على أبى جعفر عليه السّلام، قال: قلت له: إنّا نمدّ المطمار؟ قال: «و ما المطمار؟!» قلت: التتر، فمن وافقنا من علوى أو غيره تولّيناه، و من خالفنا من علوى أو غيره برئنا منه..

فقال: «يا زرارة! قول اللّه أصدق من قولك؛ فأين الّذين قال اللّه عزّ و جلّ: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ ؟! ... أين المرجون لأمر اللّه؟! أين الّذين خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً؟! أين أَصْحابُ الْأَعْرافِ؟! أين الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ »...

و زاد فيه جميل، عن زرارة: فلمّا كثر بينى و بينه الكلام قال: «يا زرارة! حقّا على

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۱۹

اللّه أن [لا] يدخل الضلّال الجنّة» «۱»؛ بناء على نسخة بدون «لا» النافية. و فى رواية العيّاشى: «يا زرارة! حقّا على اللّه أن يدخلك الجنّة» «۲».

و صدر الرواية قد روى بطرق متعدّدة، و موردها فى الأصل أنّه عليه السّلام سأل زرارة:

«متأهّل أنت؟!»، فقال: لا- ثمّ ذكر زرارة أنّه لا- يستحلّ نكاح هؤلاء فذكر عليه السّلام أنّ المستضعفين لا زالوا على الولاء، لا ولاء الإيمان بل ولاء ظاهر الإسلام من المناكحة و حلّية ذبيحتهم و ... ففى رواية لحمران عنه عليه السّلام: «هم من أهل الولاية ... أما إنّها ليست بولاية فى الدين و لكنّها الولاية فى المناكحة و الموارثة و المخالطة، و هم ليسوا بالمؤمنين و لا بالكفّار، و هم المرجون لأمر اللّه عزّ و جلّ» «۳».

و الحاصل أنّ هذه الرواية و مثيلاتها محمولة على النجاة- و مقيّدة لها- بالطاعة عند الامتحان فى الحساب مع تبيان الحقّ لهم و اختيارهم له؛ لما مرّ من روايات مستفيضة دالّة على ذلك مضافا إلى كون مثل هذه الروايات متعرّضة إلى أحكام الحياة الاجتماعية مع هؤلاء.

و مثل هذا التقييد فى صحيح ضريس الكناسى: عن أبى جعفر عليه السّلام، قال: قلت له:

«جعلت فداك، ما حال الموحّدين المقرّين بنبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم من المسلمين المذنبين، الّذين يموتون و ليس لهم إمام و لا يعرفون ولايتكم؟

فقال: «أمّا هؤلاء فإنّهم فى حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان له عمل صالح و لم يظهر منه عداوة فإنّه يخدّ له خدّا إلى الجنّة التى خلقها اللّه بالمغرب- أى البرزخية لا الأخروية- فيدخل عليه الروح فى حفرته إلى يوم القيامة حتّى يلقى اللّه فيحاسبه بحسناته و سيئاته، فإمّا إلى الجنّة و إمّا إلى النار، فهؤلاء الموقوفون لأمر اللّه». قال عليه السّلام:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۰

«و كذلك يفعل بالمستضعفين، و البله، و الأطفال، و أولاد المسلمين الّذين لم يبلغوا الحلم».

الحديث «۱».

و ذيل الرواية صريح فى كون حالهم موقوفا على المشيئة الإلهية، التى قد فسرت فى روايات عديدة بالامتحان، و حاشا لعدله تعالى أن يدخل النار بغير موجب.

و مثلها رواية الأعمش، عن الصادق عليه السّلام: «أصحاب الحدود فسّاق، لا مؤمنون و لا كافرون، و لا يخلدون فى النار و يخرجون منها يوما ما، و الشفاعة لهم جائزة، و للمستضعفين إذا ارتضى اللّه دينهم» «۲». و ذيل هذه الرواية دالّ على التمييز بين «أصحاب الحدود» و بين «المستضعفين» فى كون «المستضعفين» لا تجوز لهم الشفاعة حتّى يرتضى اللّه تعالى دينهم، أى حتّى يدينوا بالعقائد الحقّة فحينئذ يكونوا على حدّ فسّاق المؤمنين من صلاح العقيدة لكنّهم أساؤوا العمل؛ فهى تدلّ على إقامة الامتحان للمستضعفين، و أنّه بالدرجة الأولى فى تبيان العقائد و الإيمان الحقّ، كما مرّ فى بعض الروايات أنّهم من: «أهل تبيان اللّه».

و من جملة هذا النمط من الروايات: رواية الصباح بن سيابة، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «إنّ الرجل ليحبّكم و ما يدرى ما تقولون فيدخله اللّه الجنّة، و إنّ الرجل ليبغضكم و ما يدرى ما تقولون فيدخله النار» «۳». و هذه الرواية تبيّن مدى أهمّية تولّى أولياء اللّه، و الهلاك فى ترك ولايتهم، و إنّ التولّى و التبرّى منشأه من الأصول الاعتقادية.

و فی بعض الروایات التقیید بمن أحبّ الشیعة لحبّهم سیّدة نساء العالمین الزهراء

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۲۱

فاطمة علیها السّلام «۱». و فی بعض الروایات الأخری أنّ ذلک بعد شفاعة المؤمنین فی من أحبّهم «۲».

و علی أی تقدیر؛ وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی «۳»، کما فی الآیة الکریمة، و رضاه بارتضاء دینه، کما مرّ فی روایة الأعمش، و فسّر بذلک فی روایات الشفاعة، فیدلّ علی أنّ الامتحان الذی یقام للمستضعفین و نحوهم من أفراد الضلّال القاصرین هو فی الدیانة و اعتناق الإیمان الحقّ.

أمّا کون الشفاعة موردها من ارتضی دینه فیدلّ علیه قوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَری إِثْماً عَظِیماً «۴».

و فی آیة أخری: إِنَّ اللَّهَ ... وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِیداً «۵»، و هو شامل للکفر؛ لأنّه ضرب من الشرک. و قد أطلق الکفر علی جحود ولایة خلیفة اللّه فی أرضه، کما فی إبلیس لعنه اللّه، فیعمّ ولایة علیّ علیه السّلام و ولده علیهم السّلام، کما وردت بذلک روایات عدیدة فی ذیل الآیتین فی تفسیری البرهان و نور الثقلین، فلاحظها.

و قوله تعالی: لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً «۶».

و قوله تعالی: یَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِیَ لَهُ قَوْلًا «۷»، أی:

معتقده. و کذا قوله تعالی: وَ إِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدی «۸»، فالآیة قیّدت المغفرة بالهدایة إضافة إلی الإیمان و العمل الصالح.

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۲۲

فالهدایة هی للولایة؛ کما عرّفت فی آیات عدیدة أنّ الهدایة الصراطیة للإیصال إلی المطلوب هی الولایة و الإمامة، کما فی: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هادٍ «۱»، و: جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ «۲»، و: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ* صِراطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ، ... و: أَ فَمَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لا یَهِدِّی إِلَّا أَنْ یُهْدی فَما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ «۳».

و قد وردت روایات مستفیضة فی ذیل الآیة فی بیان ذلک براهینا، فلاحظ تفسیر البرهان «۴» و نور الثقلین «۵»؛ فمقتضی الآیة کون الامتحان و التبیان لأهل الأعذار من الضلّال مستعقب لهدایتهم بالطاعة.

و یدلّ علیه روایة الحسین بن خالد، عن الرضا، عن أبیه، عن آبائه، عن أمیر المؤمنین علیهم السّلام، قال:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: من لم یؤمن بحوضی فلا أورده اللّه حوضی، و من لم یؤمن بشفاعتی فلا أناله اللّه شفاعتی»، ثمّ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «إنّما شفاعتی لأهل الکبائر من أمّتی، فأمّا المحسنون فما علیهم من سبیل».

قال الحسین بن خالد: فقلت للرضا علیه السّلام: یا بن رسول اللّه! فما معنی قول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی «۶»؟ قال: لا یشفعون إلّا لمن ارتضی اللّه دینه «۷».

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۲۳

و عمدة الباب ما فی صحیحة ابن أبی عمیر؛ قال: سمعت موسی بن جعفر علیه السّلام یقول:

لا یخلد اللّه فی النار إلّا أهل الکفر و الجحود، و أهل الضلال و الشرک، و من اجتنب الکبائر من المؤمنین لم یسأل عن الصغائر»،- ثمّ ذکر علیه السّلام أنّ الشفاعة لأهل الکبائر من المؤمنین- قال ابن أبی عمیر: فقلت له: یا بن رسول اللّه! فکیف تکون الشفاعة لأهل الکبائر و اللّه تعالی یقول: وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی وَ هُمْ مِنْ خَشْیَتِهِ مُشْفِقُونَ، و من یرکب الکبائر لا یکون مرتضی؟! فقال: «یا أبا أحمد! ما من مؤمن یرتکب ذنبا إلّا ساءه ذلک و ندم علیه، و قد قال النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم: کفی بالندم توبة. و قال: من سرّته حسنة و ساءته سیّئة فهو مؤمن؛ فمن لم یندم علی ذنب یرتکبه فلیس بمؤمن، و لم تجب له الشفاعة، و کان ظالما، و اللّه تعالی

يقول: ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ «۱».

فقلت له: يا بن رسول اللّه! و كيف لاـ يكون مؤمنا من لم يندم على ذنب يرتكبه؟! فقال: يا أبا أحمد! ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصى و هو يعلم أنّه سيعاقب عليها إلّا ندم على ما ارتكب، و متى ندم كان تائبا مستحقّا للشفاعة، و متى لم يندم عليها كان مصرّا، و المصرّ لا يغفر له؛ لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، و لو كان مؤمنا بالعقوبة لندم، و قد قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لا كبيرة مع الاستغفار و لا صغيرة مع الإصرار..

و أمّا قول اللّه: وَ لاـ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى، فإنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى اللّه دينه، و الدين الإقرار بالجزاء على الحسنات و السيّئات، و من ارتضى اللّه دينه ندم على ما يرتكبه من الذنوب؛ لمعرفته بعاقبته فى القيامة «۲»

فإنّه استدلال عقلى لتقييد الشفاعة بمن ارتضى اللّه دينه و هو المؤمن، و أنّ الضالّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۴

القاصر لا تناله الشفاعة إلّا بعد التبيان و الامتحان و تعرّفه على حقائق الإيمان فينخرط فى زمرة المؤمنين.

و نظير الروايات المتقدّمة: ما رواه الصدوق بسنده عن أبى عبد اللّه، عن أبيه، عن جدّه، عن علىّ عليهم السّلام، قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب ... و باب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلّا اللّه و لم يكن فى قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت» «۱». فإنّ غاية دلالتها: على عدم خلودهم فى النار، و لا تنافى ما دلّ على امتحانهم و توقّف دخولهم الجنّة على إطاعتهم بالإيمان، كما لا تنافى ما دلّ على دخولهم النار حقبة لتطهيرهم ثمّ دخولهم الجنّة؛ فهناك فرق بين الخلود فى النار و بين الدخول فيها و لو لحقبة منقطعة الأمد، و كذلك بين الدخول فى الجنّة ابتداء و بين الدخول فيها لاحقا، فحساب الأكثرية و الأقلية من الناجين يختلف بحسب المقامين، و قد ورد عنهم عليهم السّلام: «الناجون من النار قليل؛ لغلبة الهوى و الضلال» «۲»، و الرواية ناظرة للنجاة من النار لا النجاة من الخلود فيها، و قد تقدّم فى حديث الكاظم عليه السّلام أنّ طوائف المخلّدين أربع و ما عداهم لا يخلد.

السابعة قد دلّت الآيات و الروايات المتواترة على أنّ قبول الأعمال مشروط، و صحّتها كذلك مشروطة بعدّة شرائط، لا يثاب العامل على عمله إلّا بها، و إلّا يكون مردودا بالنسبة إلى الثواب الأخروى، لا سيّما مثل الدخول فى الجنّة، بل الأدلّة دالّة على أنّ صحّة الاعتقادات مشروطة بالولاية، نظير قوله تعالى المتقدّم: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى، فقد قيّد الإيمان و العمل الصالح بالهداية؛ فإنّ المغفرة- و هى النجاة من العقوبة- إذا كانت مقيّدة فكيف بالمثوبة؟!

و قوله تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «۳»، و الغاية فى تعبير الآية: أنّه قد قيّد

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۵

القبول ليس بوصف العمل بالتقوى بل بوصف العامل بذلك، و الصفة لا تصدق إلّا مع تحقّقها فى مجمل الأعمال و أركانها، و هى العقائد الحقّة.

و كذا قوله تعالى: أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ «۱»، فجعل تعالى أعمال إبليس كلّها هباء منثورا باستكباره على ولىّ اللّه و عدم إطاعته لخليفة اللّه بتولّيه، بل الملاحظ فى واقعة إبليس- التى يستعرضها القرآن الكريم فى سبع سور- أنّ كفره لم يكن شركا بالذات الإلهية و لا بالصفات و لا بالمعاد و لا بالنبوّة، بل هو جحود لإمامة و خلافة آدم عليه السّلام، فلم يقبل اللّه تعالى اعتقاد إبليس، كما لم يقبل أعماله، و أطلق عليه الكفر بدل التوحيد.

و السرّ فى ذلك أنّ ذروة التوحيد و سنامه و مفتاحه و بابه هو التوحيد فى الولاية؛ فإنّ اليهود قائلون بالتوحيد فى الذات و المعاد و هو توحيد الغاية، و بالتوحيد فى التشريع و هو النبوّة، إلّا أنّهم كافرون بالتوحيد فى الولاية؛ إذ قالوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ «۲»، فإنّهم حجبوا الذات الإلهية عن التصرّف فى النظام البشرى، و قالوا بأنّ البشر مختارين فى نظامهم الاجتماعى السياسى، و أنّ الحاكمية السياسية ليست للّه تعالى.

و إنّك و إن أجهدت و أتعبت نفسك فلن تجد دينا و مذهبا يعتقد بحاكمية اللّه تعالى السياسية و التنفيذية كحاكميته تعالى فى التشريع و القانون، كما كان حال حكومة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و سيرته السياسية، التى يستعرضها القرآن الكريم؛ فإنّ الحاكم السياسى الأوّل فى حكومته صلّى اللّه عليه و آله و سلم كان هو البارى تعالى فى المهمّات و المنعطفات فى التدبير السياسى و العسكرى و القضائى، و قد اختفت حاكمية اللّه تعالى هذه فى عهد الخلفاء الثلاثة ثمّ عاودت الظهور فى عهد الأمير عليه السّلام، فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام محالّ مشيئة اللّه تعالى و إرادته، فتصرّفاتهم منوطة بإرادته المتنزّلة عليهم.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۶

فهذه الحاكمية التوحيدية لا تجد لها أثرا فى مذاهب المسلمين، فضلا عن الأديان الأخرى المحرّفة، سوى مذهب أهل البيت عليهم السّلام، فمن ثمّ كانت الإمامة و الولاية هى مظهر و مجلى التوحيد فى الولاية، و كان الاعتقاد بها هو كمال التوحيد و ذروته و سنامه؛ إذ أنّ تمجيد التوحيد فى الذات أو فى الصفات أو فى التشريع أو فى المعاد- إنّ إليه الرجعى و المنتهى- تعطيل له، و لا تظهر ثمرته إلّا بظهوره فى الولاية و الحاكمية فى مسيرة البشر.

و يمكن ملاحظة اشتراط الولاية فى صحّة الاعتقاد، فضلا عن الأعمال، فى جلّ الآيات الواردة فى ولاية أهل البيت عليهم السّلام، و كذلك فى كثير من الروايات.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۷

* أمّا الآيات ... ص: ۳۲۷

فنظير قوله تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ «۱». فإنّه تعالى قد نفى تبليغ الرسالة- من الأساس- مع عدم إبلاغ ولاية علىّ عليه السّلام للناس، و هو يقتضى عدم الاعتداد بتوحيد الناس للذات الإلهية و بإقرارهم بالمعاد و النبوّة من دون ولاية علىّ عليه السّلام، أى أنّ التوحيد فى جميع أبوابه و أركانه وحدة واحدة: توحيد الذات، و توحيد الغاية و الخلوص، و توحيد التشريع، و توحيد الولاية.

و لازم الكفر و الإشراك فى مقام من مقامات التوحيد هو الكفر و الإشراك الخفى المبطّن فى بقية المقامات، و ذيل الآية صريح فى ترتّب الكفر على ذلك فى مقابل الإيمان، لا ما يقابل ظاهر الإسلام؛ إذ الظاهر مترتّب على الإقرار بالشهادتين لسانا.

و نظير قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «۲». فإنّ الإكمال يستعمل فى تحوّل الشىء فى الأطوار النوعية من نوع إلى نوع، و الإتمام يستعمل فى انضمام الأجزاء الخارجية بعضها إلى بعض، ففى التعبير عناية فائقة فى كون الدين لم يكتمل طوره النوعى التام إلّا بالولاية، و أمّا النعمة الدنيوية فلا تتمّ أجزاءها إلّا بها أيضا، و إن كان للأجزاء قوام مستقلّ، كمن امتنع عن المحرّمات و الفواحش فإنّه يتنعّم بالوقاية من مفاسدها الدنيوية، و هذا ممّا يبيّن الاختلاف الماهوى بين الإسلام فى ظاهر اللسان و بين الإيمان فى مكنون القلب و مقام العمل و هو الإسلام بوجوده الحقيقى.

ثمّ إنّ فى الآية تقييد رضا الربّ بكون الإسلام دينا بالولاية، فالإسلام من توحيد الذات و التشريع (النبوّة) و المعاد و توحيد الغاية معلّق رضا الربّ به بشرطية الولاية،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۸

فضلا عن العمل بفرائض الفروع.

و نظير ذلك: ما فى سورة الحمد (الفاتحة). فالمصلّى عندما يقرّ لربّه فى النصف الأوّل من السورة بالتوحيد فى الذات الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، و الصفات الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، و فى الغاية و المعاد مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، و فى التشريع إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ فى جميع الأمور فى الحياة الفردية و الاجتماعية؛ فإنّه يعود فى النصف الثانى من السورة ليطلب الهداية إلى الصراط المستقيم اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ.

فإنّ كلّ ما تقدّم من إقراره و تسليمه بالعقائد الحقّة لم يكفه حتّى يثمر ذلك فى طيّه صراط التوحيد المستقيم، و هو صراط ثلّة فى هذه الأمّة و مجموعة موصوفة بثلاث صفات: صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أى منعم عليهم بنعمة خاصّة لهم دون سائر الأمّة و هى نعمة الاصطفاء و الاجتباء، كما فى الاستعمال القرآنى لاصطفاء الأنبياء و الأوصياء.

و فى هذه الأمّة قد أنعم البارى تعالى على أهل البيت عليهم السّلام قربى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالتطهير الخاص بهم، و أنّهم الّذين يمسّون و يصلون إلى الوجود الغيبى العلوى للقرآن فى الكتاب المكنون فى اللوح المحفوظ.

و الصفة الثانية: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، و هى العصمة العملية، فلا يغضبون ربّهم قطّ. و الصفة الثالثة: وَ لَا الضَّالِّينَ، و هى العصمة العلمية. فجعل الولاية لهؤلاء ثمرة لإقرار المصلّى بالتوحيد فى المواطن الأربعة فى النصف الأوّل من السورة.

و نظير ذلك قوله تعالى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى. فإنّه جعل مودّة و اتّباع و تولّى قربى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عدل كلّ الرسالة المتضمّنة لتوحيد الذات و الصفات و التشريع و الغاية لبيان أنّ توحيد الولاية هو ثمرة التوحيد فى سائر المقامات، و هو الذروة و السنام، و قد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السّلام فى وصفه للمسلمين بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنّهم: «أخذوا بالشجرة و ضيّعوا الثمرة» «۱». و كذلك سائر الآيات الواردة فى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۲۹

ولايتهم عليهم السّلام تبيّن هذه الحقيقة الدينية.

* و أمّا الروايات ... ص: ۳۲۹

فقد روى الفريقان مستفيضا عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، أنّه قال: «لو أنّ عبدا عبد بين الركن و المقام ألف عام ثمّ ألف عام و لم يحبّنا أهل البيت أكبّه اللّه على منخريه فى النار» «۱».

و أخرج الطبرانى فى الأوسط، أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: «الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه من لقى اللّه عزّ و جلّ و هو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، و الذى نفسى بيده لا ينفع عبدا عمله إلّا بمعرفة حقّنا» «۲». و فى كثير من طرق العامّة: «و كان مبغضا لعلىّ بن أبى طالب و أهل البيت [أو: آل محمّد] أكبّه » « ... ۳»؛ نعم، فى غالب الطرق الوارد فيها: «مبغضا» جعل الجزاء دخول النار، و فى الطرق الوارد فيها: «عدم محبّتهم»، أو: «عدم معرفتهم»، أو: «عدم ولايتهم» جعل الجزاء عدم قبول عمله و صيرورته هباء منثورا.

و هكذا فى طرقنا؛ ففى صحيح محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول:

«كلّ من دان اللّه عزّ و جلّ بعبادة يجهد فيها نفسه و لا إمام له من اللّه فسعيه غير مقبول، و هو ضالّ متحيّر، و اللّه شانئ لأعماله ... و إن مات على هذه الحال مات ميتة كفر و نفاق. و اعلم يا محمّد! إنّ أئمّة الجور و أتباعهم لمعزولون عن دين اللّه قد ضلّوا و أضلّوا، فأعمالهم التى يعملونها كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۰

شَىْ‌ءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ «۱»» «۲».

و فى رواية عبد الحميد بن أبى العلاء عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى حديث، قال: «و اللّه لو أنّ إبليس سجد للّه بعد المعصية و التكبر عمر الدنيا ما نفعه ذلك، و لا قبله اللّه عزّ و جلّ؛ ما لم يسجد لآدم كما أمره اللّه عزّ و جلّ أن يسجد له، و كذلك هذه الأمّة العاصية، المفتونة بعد نبيّها صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و بعد تركهم الإمام الذى نصبه نبيّهم صلّى اللّه عليه و آله و سلم لهم، فلن يقبل اللّه لهم عملا، و لن يرفع لهم حسنة، حتّى يأتوا اللّه من حيث أمرهم، و يتولّوا الإمام الذى أمروا بولايته، و يدخلوا من الباب الذى فتحه اللّه و رسوله لهم».

و فى رواية ميسر: «ثمّ لقى اللّه بغير ولايتنا لكان حقيقا على اللّه عزّ و جلّ أن يكبّه على منخريه فى نار جهنّم» «۳». و فى رواية أخرى:

«و لم يعرف حقّنا و حرمتنا أهل البيت لم يقبل اللّه منه شيئا أبدا» «۴»، و مثلها رواية المفضّل «۵».

و فى صحيح آخر لمحمّد بن مسلم، عن أحدهما عليه السّلام، قال: «قلت: إنّا لنرى الرجل له عبادة و اجتهاد و خشوع و لا يقول بالحقّ، فهل ينفعه ذلك شيئا؟!

فقال: يا أبا محمّد! إنّما مثل أهل البيت مثل أهل بيت كانوا فى بنى إسرائيل، كان لا يجتهد أحد منهم أربعين ليلة إلّا دعا فأجيب، و إنّ رجلا منهم اجتهد أربعين ليلة ثمّ دعا فلم يستجب له، فأتى عيسى بن مريم عليه السّلام يشكو إليه ما هو فيه و يسأله الدعاء، قال:

فتطهّر عيسى و صلّى ثمّ دعا اللّه عزّ و جلّ، فأوحى اللّه عزّ و جلّ إليه: يا عيسى بن مريم! إنّ عبدى أتانى من غير الباب الذى أوتى منه، إنّه دعانى و فى قلبه شكّ منك، فلو دعانى حتّى ينقطع عنقه و تنتثر أنامله ما استجبت له. قال: فالتفت إليه عيسى عليه السّلام فقال: تدعو ربّك و

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۱

أنت فى شكّ من نبيّه؟! فقال: يا روح اللّه و كلمته! قد كان و اللّه ما قلت، فادع اللّه لى أن يذهب به عنّى. قال: فدعا له عيسى عليه السّلام فتاب اللّه عليه و قبل منه و صار فى حدّ أهل البيت» «۱».

و قد جعل تعالى مودّة ذوى القربى سبيلا إليه فقال: ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا «۲»، و قد قال تعالى: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ «۳»، فلم يكن التعبير: «فابتغوه» بل: «ابتغوا الوسيلة إليه»، و قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها «۴»، فجعل الأسماء أبوابا لدعوته، و الاسم آية للمسمّى و ليس عينه.

الثامنة

فى تحديد معنى المستضعف و ذوى العذر من الضّلال القصّر؛ فقد وردت عدّة آيات فى تحديده:

فى قوله تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا* فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً «۵»، فالآية تعدّد عدم قدرتهم على الوسيلة، و عدم دركهم السبيل إلى الحقّ.

و قوله تعالى: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۶» و قوله تعالى: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «۷».

فالآية الأولى من البرائة تحدّده بالاعتراف بالذنوب، و هذا نوع و نمط من التوبة و الإيمان بالحقّ و الإعراض عن الضلال. و وردت أيضا روايات عديدة فى تحديده:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۲

فى رواية ابن الطيّار عن أبى جعفر عليه السّلام، قال: سألته عن المستضعف، فقال: «هو الذى لا يستطيع حيلة الكفر فيكفر، و لا يهتدى سبيلا إلى الإيمان فيؤمن، لا يستطيع أن يؤمن و لا يستطيع أن يكفر، فهم الصبيان، و من كان من الرجال و النساء على مثل عقول الصبيان، و من رفع عنه القلم» «۱».

و روى أيضا، قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «المرجون لأمر اللّه قوم كانوا مشركين قتلوا حمزة و جعفر و أشباههما من المؤمنين ثمّ دخلوا بعده فى الإسلام، فوحّدوا اللّه و تركوا الشرك، و لم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنّة، و لم يكونوا على جحودهم فتجب لهم النار، فهم على تلك الحالة مرجون لأمر اللّه إمّا يعذّبهم و إمّا يتوب عليهم» «۲».

و ظاهر الرواية الثانية أنّ «المرجأ» هو الذى أسلم و لم يؤمن، نظير قوله تعالى:

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ «۳».

و روى الحلبى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «الناس على ستّ فرق: مستضعف، و مؤلّف، و مرجى، و معترف بذنبه، و ناصب، و مؤمن» «۴».

و روى عبد الغفّار الجازى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «إنّ المستضعفين ضروب يخالف بعضهم بعضا، و من لم يكن من أهل القبلة ناصبا فهو مستضعف» «۵».

و هذه الرواية تبيّن أنّ القصور على درجات عديدة، شدّة و ضعفا، و هو هكذا عقلا، و الضابطة فيه: أن لا يكون ناصبا، و هى تشير إلى اشتراط انتفاء درجات نصب العداء التى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۳

قد فسّرت فى روايات عديدة بأنّ منها: معاداة الشيعة لكونهم أتباع أهل البيت عليهم السّلام، و منها: تولّى أصحاب السقيفة و الائتمام بهم، و منها: بغض أهل البيت قلبا و إن لم يكن لسانا، و منها: إنكار و جحد فضائل أهل البيت عليهم السّلام، و ستأتى الروايات فى ذلك.

و فى رواية سفيان بن السمط، قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: «ما تقول فى المستضعفين؟ فقال لى شبها بالمفزّع: «و تركتم أحدا يكون مستضعفا؟! و أين المستضعفون؟! فو اللّه لقد مشى بأمركم هذا العواتق إلى العواتق فى خدورهنّ، و تحدّث به السقايات بطرق المدينة» «۱».

و روى عمرو بن إسحاق، قال: سئل أبو عبد اللّه عليه السّلام: «ما حدّ المستضعف الذى ذكره اللّه عزّ و جلّ؟ قال: من لا يحسن سورة من القرآن و قد خلقه اللّه عزّ و جلّ خلقة ما ينبغى له أن لا يحسن» «۲»؛ و الحدّ فى هذه الرواية من هو متخلّف عقليا.

و فى رواية حمران، قال سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ؟ قال: «هم أهل الولاية»، قلت: و أى ولاية؟! فقال: «أما إنّها ليست بولاية فى الدين و لكنّها الولاية فى المناكحة و الموارثة و المخالطة، و هم ليسوا بالمؤمنين و لا بالكفّار، و هم المرجون لأمر اللّه عزّ و جلّ» «۳».

و روى سليمان بن خالد، قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الآية؟ قال: «يا سليمان! فى هؤلاء المستضعفين من هو أثخن رقبة منك، المستضعفون قوم يصومون و يصلّون، تعفّ بطونهم و فروجهم، لا يرون أنّ الحقّ فى غيرنا [غيرها] آخذين بأغصان الشجرة، فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ؛ إذ كانوا آخذين بالأغصان و إن لم يعرفوا أولئك، فإن عفى عنهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۴

فبرحمته، و إن عذّبهم فبضلالتهم عمّا عرّفهم» «۱».

و على نسخة: «غيرها»؛ يكون المعنى: لا يرون أنّ الحقّ فى غير الأعمال الصالحة، كالصوم و الصلاة و العفّة، و لا يعرفون حقائق الإيمان و الولاية، فعسى أن يعفو اللّه تعالى عنهم بأخذهم بتلك الأعمال و بعد امتحانهم- كما تقدّم فى مستفيض الروايات- و إن لم يعرفوا أولئك أصحاب السقيفة بالباطل، فإن عفى عنهم بعد الامتحان فبرحمته، و إن عذّبهم فبضلالتهم عن حقيقة الإيمان التى عرّفها لهم، و من هو أثخن رقبة منك، أى الساذج البله..

و على نسخة: «غيرنا»؛ أى: لا يرون أنّ الحقّ فى غيرنا، و لكنّهم لم يعرفوا أصحاب السقيفة بالباطل، فلديهم تولّى ولكن ليس لديهم تبرّى.

و فى موثّق سليمان بن خالد عن أبى جعفر عليه السّلام، قال: سألته عن المستضعفين؟ فقال:

«البلهاء فى خدرها و الخادم تقول لها: صلّ فتصلّى لا تدرى إلّا ما قلت لها، و الجليب المجلوب، و هو الخادم الذى لا يدرى إلّا ما قلت له، و الكبير الفانى، و الصبى الصغير، هؤلاء المستضعفين، فأمّا رجل شديد العنق، جدل خصم، يتولّى الشراء و البيع، لا تستطيع أن تغبنه فى شىء تقول: هذا مستضعف؟! لا و لا كرامة» «۲».

و روى الصدوق عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «من عرف الاختلاف فليس بمستضعف» «۳»، و فى رواية أبى بصير: «من عرف

اختلاف الناس » «... ۴».

و فی روایهٔ سلیم بن قیس فی جواب أمیر المؤمنین علیه السّلام للأشعث بن قیس؛ قال الأشعث- رأس الفتنهٔ-: «و اللّه لئن کان الأمر کما تقول لقد هلکت الأمّهٔ غیرک و غیر

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۳۵

شیعتک؟! قال: فإنّ الحقّ و اللّه معی یا ابن قیس کما أقول، و ما هلک من الأمّهٔ إلّا الناصبین و المکابرین و الجاحدین و المعاندین، فأمّا من تمسّک بالتوحید و الإقرار بمحمّد و الإسلام، و لم یخرج من الملّهٔ، و لم یظاهر علینا الظلمهٔ و لم ینصب لنا العداوهٔ، و شکّ فی الخلافهٔ و لم یعرف أهلها و ولاتها، و لم یعرف لنا ولایهٔ و لم ینصب لنا عداوهٔ، فإنّ ذلک مسلم مستضعف یرجی له رحمهٔ اللّه و یتخوّف علیه ذنوبه» «۱».

فذکر علیه السّلام للمستضعف تسعهٔ قیود لفظا قد ترجع خمسهٔ منها إلی أن لا یتوالی أعداء أهل البیت، و الغاصبین للخلافهٔ، و یکون شاکّا، و لا یظاهر علیهم النصّاب.

و روی فی مستطرفات السرائر مسائل محمّد بن علی بن عیسی مکاتبهٔ لمولانا أبی الحسن الهادی علیه السّلام، قال: «کتبت إلیه أسأله عن الناصب، هل أحتاج فی امتحانه إلی أکثر من تقدیمه الجبت و الطاغوت و اعتقاده بإمامتهما؟! فرجع الجواب: «من کان علی هذا فهو ناصب» «۲».

و روی فی العلل، بسنده إلی عبد اللّه بن سنان، عن الصادق علیه السّلام، قال: «لیس الناصب من نصب لنا أهل البیت؛ لأنّک لا تجد رجلا یقول: أنا أبغض محمّدا و آل محمّد، و لکنّ الناصب من نصب لکم و هو یعلم أنّکم تتولّونا و أنّکم من شیعتنا» «۳».

و روی المعلّی بن الخنیس، قال: سمعت أبا عبد اللّه علیه السّلام یقول: «لیس الناصب من نصب لنا أهل البیت، لأنّک لا تجد أحدا یقول: أنا أبغض محمّدا و آل محمّد، و لکنّ الناصب من نصب لکم و هو یعلم أنّکم تتولّونا و تتبرؤون من أعدائنا» «۴».

و روی فی الأمالی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام، قال: «من سرّه أن یعلم أمحبّ لنا أم مبغض؟! فلیمتحن قلبه، فإن کان یحبّ ولیّا لنا فلیس بمبغض لنا، و إن کان یبغض ولیّا لنا

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۳۶

فلیس بمحبّ لنا» «۱».

و روی فی تفسیر العسکری عن السجّاد- علیهما السّلام- قال: «قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: ما من عبد و لا أمهٔ زال عن ولایتنا، و خالف طریقتنا، و سمّی غیرنا بأسمائنا و أسماء خیار أهلنا، الذی اختاره اللّه للقیام بدینه و دنیاه، و لقّبه بألقابنا، و هو کذلک یلقّبه معتقدا، لا یحمله علی ذلک تقّیهٔ خوف، و لا تدبیر مصلحهٔ دین، إلّا بعثه اللّه یوم القیامهٔ و من کان قد اتّخذه من دون اللّه ولیّا و حشر إلیه الشیاطین الّذین کانوا یغوونه فقال له: یا عبدی! أربّا معی هؤلاء کنت تعبد؟! و إیّاهم کنت تطلب؟! فمنهم فاطلب ثواب ما کنت تعمل، لک معهم عقاب إجرامک» «۲».

فیتحصّل أنّ الناصب علی أقسام و المستضعف علی درجات، کلّها خارجهٔ عن التقصیر، و لا یندرج فیه الموالی لأئمّهٔ الضلال، و من ثمّ روی عنهم علیهم السّلام: «الناجون من النار قلیل؛ لغلبهٔ الهوی و الضلال» «۳»، و مفاده: فی النجاهٔ من النار، لا النجاهٔ من الخلود، و بینهما بون کما مرّ.

التاسعهٔ

إنّ شرطیهٔ النجاهٔ بالولایهٔ لا تعنی التواکل فی العمل، و إنّما تعنی أهمیّهٔ الولایهٔ و أهمّیهٔ هذا المقام التوحیدی، فإنّ روح العمل و قوامه بالنیّهٔ؛ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «إنّما الأعمال بالنیّات» «۴»، و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: «نیّهٔ المؤمن خیر من عمله» «۵».

و قد روی العسکری علیه السّلام، عن آبائه علیهم السّلام، عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم، أنّه قال لبعض

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۷

أصحابه ذات يوم: «يا أبا عبد اللّه! أحبّ فى اللّه و أبغض فى اللّه، و وال فى اللّه و عاد فى اللّه؛ فإنّه لا تنال ولاية اللّه إلّا بذلك، و لا يجد رجل طعم الإيمان و إن كثرت صلاته و صيامه حتّى يكون كذلك، و قد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها فى الدنيا، عليها يتوادّون و عليها يتباغضون، و ذلك لا يغنى عنهم من اللّه شيئا» «۱».

فكما أنّ أهمّية الولاية لا تعنى التفريط فى العمل و التهاون فيه، فكذلك صلاح العمل فى صورته و قالبه لا يعنى التفريط بالولاية و الإيمان، إذ أنّ الولاية لهم عليهم السّلام هى توحيد الولاية له تعالى و إخلاص له فى التولّى.

و من ثمّ أكّدت عدّة آيات و روايات على خواء العمل بدونها، و إنّه هباء منثورا؛ قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ «۲». و قال: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «۳». و قال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً «۴». و قال: يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «۵». و قال: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ «۶».

العاشرة

إنّ مفاد الحديث النبوى المعروف بين الفريقين ب «حديث الفرقة الناجية» هو الدعوة لتمييزها و معرفتها كى تتّبع، و النهى عن اتّباع غيرها، و عن التوقّف و التبلبل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۸

و الحيرة و الاضطراب.

روى الشيخ المفيد بسنده عن سلمان رضى اللّه عنه، يقول: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

«تفترق أمّتى ثلاث فرق: فرقة على الحقّ لا ينقص الباطل منه شيئا، يحبّوننى و يحبّون أهل بيتى، مثلهم كمثل الذهب الجيّد كلّما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلّا جودة، و فرقة على الباطل لا ينقص الحقّ منه شيئا، يبغضوننى و يبغضون أهل بيتى، مثلهم مثل الحديد كلّما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلّا شرّا، و فرقة مدهدهة، على ملّة السامرى، لا يقولون: لا مساس، لكنّهم يقولون: لا قتال، إمامهم عبد اللّه بن قيس الأشعرى» «۱».

و يشير صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى اضطراب الفرقة الثالثة، و أنّ شعارهم: «لا قتال»، أى: لا فيصلة بين الحقّ عن الباطل، و يمزجون المذاهب و المسارات، مدهدهة البصيرة «۲».

و روى ذلك عن أمير المؤمنين عليه السّلام، إلّا أنّه وصف الفرقة المذبذبة بأنّها شرّ الفرق؛ فقال: «إنّ هذه الأمّة تفترق على ثلاث و سبعين فرقة، فرقة واحدة منها فى الجنّة و اثنتان و سبعون فى النار، و شرّها فأبغضها إلى اللّه و أبعدها منه السامرة، الّذين يقولون: «لا قتال» و كذبوا، و قد أمر اللّه عزّ و جلّ بقتال هؤلاء الباغين فى كتابه و سنّة نبيّه، و كذلك المارقة» «۳».

و روى فى كشف الغمّة أنّ علىّ بن الحسين عليه السّلام قال: «قد انتحلت طوائف من هذه الأمّة- بعد مفارقتها أئمّة الدين و الشجرة النبوية- إخلاص الديانة و أخذوا أنفسهم فى ضحائل الرهبانية و ... حتّى إذا طال عليهم الأمد و بعدت عليهم الشقّة و امتحنوا بمحن الصادقين رجعوا على أعقابهم ناكصين ...

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۳۹

و ذهب آخرون إلى التقصير فى أمرنا، و احتجّوا بمتشابه القرآن، فتأوّلوا بآرائهم، و اتّهموا مأثور الخبر ممّا استحسنوا، يقتحمون فى أغمار الشبهات و دياجير الظلمات بغير قبس نور من الكتاب، و لا أثرة علم من مظانّ العلم، بتحذير مثبطين زعموا أنّهم على الرشد من غيّهم..

و إلى من يفزع خلف هذه الأمّة، و قد درست أعلام الملّة، و دانت الأمّة بالفرقة و الاختلاف يكفّر بعضهم بعضا، و اللّه تعالى يقول: وَ

لا ـ تَكونُوا كَالَّذينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ «۱»؟! فمن الموثوق به على إبلاغ الحجّة و تأويل الحكمة، إلّا أهل الكتاب و أبناء أئمّة الهدى و مصابيح الدجى » «...؟! ۲».

الحادية عشرة

إنّ جملة من أتباع الشيخين قد ذهبوا إلى وجود النصّ من النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهما.

قال التفتازانى:

المبحث الرابع: الجمهور على انّه (صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم) لم ينصّ على إمام، و قيل: نصّ على أبى بكر (رض) نصّا خفيّا، و قيل: جليّا. و قالت الشيعة:

على عليّ (كرّم اللّه وجهه) خفيّا، و الإمامية منهم: جليّا أيضا «۳». انتهى.

و قال فى شرح كلامه السابق:

ذهب جمهور أصحابنا و المعتزلة و الخوارج إلى أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم لم ينصّ على إمام بعده، و قيل: نصّ على أبى بكر؛ فقال الحسن البصرى:

نصّا خفيّا، و هو تقديمه إيّاه فى الصلاة، و قال بعض أصحاب الحديث: نصّا جليّا» «۴».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۴۰

ثمّ إنّ التفتازانى يناقض نفسه؛ فمع إنكاره للقول بالنصّ يستدلّ على إمامة أبى بكر بالنصّ!! قال:

المبحث الخامس: الإمام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم أبو بكر، و قالت الشيعة: عليّ. لنا إجماع أهل الحلّ و العقد ... و قد يتمسّك بقوله تعالى: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ «... ۱» الآية، فالداعى المفترض الطاعة أبو بكر عند المفسّرين!! و عمر عند البعض!! و فيه المطلوب، و بقوله صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم: اقتدوا باللّذين من بعدى: أبى بكر و عمر ... ثمّ قال: يأبى اللّه و المسلمون إلّا أبا بكر ... و بأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه [و آله] و سلّم استخلفه فى الصلاة و لم يعزله ... و هذه ظنّيات ربّما تفيد باجتماعها القطع، مع أنّ المسألة فرعية يكفى فيها الظنّ «۲».

و استدلّ فى موضع آخر بعدّة نصوص رووها فى فضائل أبى بكر و عمر «۳».

ثمّ إنّ التفتازانى- ككثير من متكلّمى و محدّثى أهل سنّة الجماعة- عقد بحثا آخر مستقلّا فى ذيل الإمامة، و هو البحث عن الأفضلية فى هذه الأمّة لمن؟! و ترتيبها و أدلّتها، قال:

المبحث السادس: الأفضلية عندنا بترتيب الخلافة، مع تردّد فيما بين عثمان و عليّ (رضى اللّه عنه)، و عند الشيعة و جمهور المعتزلة الأفضل عليّ. لنا أجمالا «۴».

و كذلك لاحظ الأيجى فى المواقف، و الشريف الجرجانى فى شرحها فى المرصد الرابع، فإنّهما مع نفيهما للنصّ قالا فى جواب النصوص على إمامة عليّ عليه السّلام:

هذه النصوص معارضة بالنصوص الدالّة على إمامة أبى بكر، و هى من وجوه:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۴۱

الأوّل: قوله تعالى:...

ثمّ استدلّ بعدّة آيات قرآنية و نصوص روائية «۱»، كما أنّه فى المقصد الخامس من المرصد الرابع عقد البحث فى الأفضلية.

هذا، و الإمعان فى كلماتهم فى عدالة الصحابة و فضائلهم، و بالخصوص أصحاب السقيفة، و بالأخصّ الشيخين، يدلّ بوضوح على أنّهم يستدلّون بها بنحو يوازى الاستدلال بالعصمة و امتناع ارتكاب الباطل، إلّا أنّهم يغلّفوها بعبارات و عناوين عائمة غائمة تغطية للمعنى المستدلّ به بألفاظ أخرى كى تتم المغالطة و تنطوى.

و هذا النمط من الاستدلال من أوسع أنواع صناعة المغالطة مضافا إلى اضطراب حدود المعانى بتوسّط هذا النمط من الاستدلال، كما أنّهم إذا ضاق بهم الخناق فى الاستدلال و الجواب عن دلائل إمامة علىّ عليه السّلام تراهم يتأمّلون فى كون عصمة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم مطلقة، لاحظ مثلا: ما ذكر الأيجى فى المواقف عن الاستدلال ب: «فاطمة بضعة منّى» «۲».

و هذه هى عاقبة الأمر، و قد رووا: إنّ عمر محدّث هذه الأمّة!! و: لو كان نبيّا بعدى لكان عمر!!!

الثانية عشرة

هناك طوائف عديدة من الروايات بألفاظ مختلفة تنهى عن الذوبان فى المخالفين و التسيّب فى مخالطتهم، و تأمر بالتحفّظ فى كيفية التعايش معهم، و هذه الطوائف متوافقة مع الطوائف الأخرى الآمرة بالمداراة لهم و التعامل معهم بالحسن و التجمّل؛ لأنّ الأولى تحدّد هذا التعامل بكونه سطحيّا لا فى العمق، و الثانية إنّما تحثّ على حسن التعامل على صعيد السطح.

منها: صحيحة الحلبى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام: «أنّه أتاه قوم من أهل خراسان من ما وراء النهر فقال لهم: تصافحون أهل بلادكم و تناكحونهم، أما إنّهم إذا صافحتموهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۴۲

انقطعت عروة من عرى الإسلام و إذا ناكحتموهم انتهك الحجاب فيما بينكم و بين اللّه عزّ و جلّ» «۱».

و فى موثّق زرارة عن أبى جعفر عليه السّلام، قال: «كانت تحته امرأة من ثقيف و له منها ابن يقال له: إبراهيم، فدخلت عليها مولاة لثقيف فقالت لها: من زوجك هذا؟ قالت: محمّد بن على. قالت: فإنّ لذلك أصحابا بالكوفة قوم يشتمون السلف و يقولون. قال: فخلّى سبيلها، فرأيته بعد ذلك قد استبان عليه و تضعضع من جسمه شيء». الحديث «۲».

و فى صحيح عبد اللّه بن سنان، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام- فى حديث-: «و لا يتزوج المستضعف المؤمنة» «۳».

و فى موثّق زرارة عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «تزوّجوا فى الشكّاك و لا تزوّجوهم؛ فإنّ المرأة تأخذ أدب زوجها و يقهرها على دينه» «۴»؛ و رواها الصدوق بطريق صحيح «۵».

و هذه الروايات فى مورد النكاح و إن اختلفت أقوال الفقهاء فى المنع أو الكراهة أو التفصيل، إلّا أنّ مفادها إجمالا يسوس باتّجاه التحفّظ عن الذوبان فيهم، و إبقاء عازل فى ضمن نظام التعايش معهم.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۴۳

۱۰ محطّة الفتوحات

اشارة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۴۵

إنّ من الأمور التى تسترعى اهتمام كلّ مؤمن و مسلم هو حال الدين الإسلامى من حيث الانتشار فى بلاد الأرض من جهة، و حاله من حيث إقامة أحكامه و معالمه فى البلدان الإسلامية نفسها من جهة أخرى، فلماذا لم ينتشر فى كلّ أو سائر أرجاء الكرة الأرضية؟! و لماذا لا يقام الحكم العادل القويم للدين الإسلامى بتمام أركانه و أصوله و سائر جوانبه؟! إذ لم يقم حكم العدل منذ عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى الآن، سوى خمس سنين، هى مدّة حكومة أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام، مع مواجهته للعديد من الموانع التى خلّفتها السنن الجائرة التى شيّدها من سبقه فى الخلافة.

فهذان السؤالان يتحرّى كلّ طالب للحقيقة، و كلّ ذى وجدان و ضمير دينى الجواب عنهما، فلماذا لا تنعم البشرية جمعا بربيع الإسلام؟! و لماذا لا ينعم المسلمون بجميع ثمار الدين؟! و تقف بنت المصطفى- صلوات اللّه و سلامه عليهما و آلهما- مجيبة الأجيال

عن السبب فى ذلك، و ترسم لنا موطن العجز الذى أصاب المسلمين و بسببه لم يتمكّنوا من نيل هذه المنى.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الدين قد بدأ و تولّد فى المشيئة الإلهية برعاية سيّد النبيّين صلّى اللّه عليه و آله و سلم و جهود علىّ عليه السّلام، و ببركتهما ترعرع و بنى صرح نظام المسلمين، ملّة و مجتمعا و دولة، كما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم لعلىّ: «إنّى و أنت أبوا هذه الأمّة، فمن عقّنا فلعنه اللّه عليه، ألا و إنّى و أنت موليا هذه الأمّة، فعلى من أبق عنّا لعنة اللّه، ألا و إنّى و أنت أجيرا هذه

الأمّة، فمن ظلمنا أجرتنا فلعنة اللّه عليه» «۱».

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنا و علىّ أبوا هـذه الأمّة، و لحقّنا عليهم أعظم من حقّ أبوى ولادتهم؛ فإنّا ننقذهم إن أطاعونا من النار إلى دار القرار، و نلحقهم من العبودية بخيار الأحرار» «۲».

و قالت فاطمة عليها السّلام: «أبوا هذه الأمّة: محمّد و علىّ، يقيمان أودهم و ينقذانهم من العذاب الدائم إن اطاعوهما، و يبيعانهم النعيم الدائم إن وافقوهما» «۳».

كما يؤخذ بعين الاعتبار أيضا الوعد الإلهى: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ «۴».

و قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ «۵». و قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ* وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ «۶».

هـذا الوعـد الإلهى الـذى روى الفريقان متواترا أنّه سينجزه البارى تعالى على يـد المهدى من ولد فاطمة عليها السّلام، و هو من أهل البيت عليهم السّلام، فالـدين قـد بـدأ بهم، و آخره مآلا يطبق على الأرجاء بهم أيضا، إلّا أنّ السؤالين المتقدّمين يطرحان بشأن الحقب المتوسطة بين البداية و النهاية.

و نكـاد نلمس الإجابـة فى قول فاطمـة عليها السلّام فى خطبتها على رؤوس المسلمين أيام السقيفة: «و كنتم على شفا حفرة من النار، مذقـة الشارب ... فأنقـذكم اللّه تبارك و تعالى بأبى محمّـد، بعد اللتيا و اللتى، و بعد أن منى ببهم الرجال و ذؤبان العرب و مردة أهل الكتاب، كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ «۷»، أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة

من المشركين، قذف أخاه فى لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه، و يخمد لهبها بسيفه، مكدودا فى ذات اللّه، مجتهدا فى أمر اللّه، قريبا من رسول اللّه، سيّدا فى أولياء اللّه، مشمّرا، ناصحا، مجدّا، كادحا، لا تأخـذه فى اللّه لومـة لائم، و أنتم فى رفاهيـة من العيش، و ادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، و تتوكّفون الأخبار، و تنكصون عند النزال، و تفرّون من القتال.

فلمّا اختار اللّه لنبيّه دار أنبيائه و مأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، و سمل جلباب الدين، و نطق كاظم الغاوين، و نبغ خامل الأقلّين، و هـدر فنيق المبطلين، فخطر ... هـذا و العهـد قريب، و الكلم رحيب، و الجرح لمّا ينـدمل، و الرسول لمّا يقبر، ابتـدارا زعمتم خوف الفتنة؟! أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ «۱...»

حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، و درّ حلب الأيام، و خضعت نعرة الشرك، و سكنت فورة الإفك، و خمدت نيران الكفر، و هدأت دعوة الهرج، و استوسق نظام الدين، فأنّى جرتم بعد البيان؟! و أسررتم بعد الإعلان؟! و أشركتم بعد الإيمان؟! بؤسا لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم...

ألا و قـد أرى أن قـد أخلـدتم إلى الخفض، و أبعـدتم من هو أحقّ بالبسط و القبض ... ألا و قـد قلت ما قلت على معرفة منّى بالخذلة التى خامرتكم، و الغدرة التى استشعرتها قلوبكم » «... ۲».

و قالت فى خطبتها الأخرى: «ويحهم! أنّى زعزعوها عن رواسى الرسالة، و قواعد النبوّة و الدلالة، و مهبط الروح الأمين، و الطبين بأمور

الدنيا و الدين؟! أَلا ذلِکَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِینُ «۳».

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۴۸

و ما الذی نقموا من أبی الحسن؟! نقموا منه و اللّه نکیر سیفه، و قلّهٔ مبالاته بحتفه، و شدّهٔ وطأته و نکال وقعته، و تنّمره فی ذات اللّه، و تاللّه لو مالوا عن المحجّهٔ اللائحهٔ، و زالوا عن قبول الحجّهٔ الواضحهٔ، لردّهم إلیها، و لحملهم علیها، و لسار بهم سیرا سجحا، لا یکلم خشاشه، و لا- یکلّ سائره، و لا یملّ راکبه، و لأوردهم منهلا نمیرا صافیا رویّا فضفاضا، تطفح ضفتاه و لا یترنّق جانباه، و لأصدرهم بطانا، و نصح لهم سرّا و إعلانا، و لم یکن یحکی من الغنی بطائل- أی: لا یجمع لنفسه الثروهٔ- و لا یحظی من الدنیا بنائل، غیر ریّ الناهل، و شبعهٔ الکافل، و لبان لهم- أی: لظهر لهم- الزاهد من الراغب، و الصادق من الکاذب، وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ «۱...»

استبدلوا و اللّه الذنابی بالقوادم، و العجز بالکاهل ... و یحهم! أ فَمَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لا یَهِدِّی إِلَّا أَنْ یُهْدی فَما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ «۲ »...»

و بعد أن أوضحت تصویر حال الفتنهٔ بعد وفاهٔ الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم أخذت سلام اللّه علیها فی تصویر المستقبل المتوقّع للأمّهٔ الإسلامیهٔ بسبب هذا الانحراف الذی قامت به بعض رجالاتها، فقالت:

«أما لعمری لقد لقحت فنظرهٔ ریثما تنتج، ثمّ احتلبوا ملء القعب دما عبیطا، و ذعافا مبیدا، هنا لک یخسر المبطلون، و یعرف التالون غبّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طیبوا عن دنیاکم نفسا، و اطمئنوا للفتنهٔ جأشا، و أبشروا بسیف صارم، و سطوهٔ معتلّ غاشم، و بهرج شامل دائم، و استبداد من الظالمین یدع فیأکم زهیدا، و جمعکم حصیدا، فیا حسرهٔ لکم و أنّی بکم و قد عمّیت علیکم أ نُلْزِمُکُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها کارِهُونَ «۳»» «۴».

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۴۹

أی: لقد بدء تولّد انحراف الدین و النظام الإسلامی عن مسیره، و سینتج ذلک تفشّی الظلم و الفساد فی الأمّهٔ و هرج فی مسیرها. و هو ما حصل؛ فإنّ الخلیفهٔ الأوّل عیّن یزید بن أبی سفیان والیا علی الشام، کما جعل الولاهٔ و أمراء الجیش غالبهم من الحزب القرشی من مسلمهٔ الفتح و الطلقاء، الّذین لم یفتؤوا یکیدوا للإسلام عداء، و بالتالی فهو أوّل من وطّأ و أعدّ لمجیء بنی أمیهٔ إلی رأس السلطهٔ، و التسلّط علی رقاب المسلمین و التحکّم بمصیر الأمّهٔ.

و کذلک فعل الخلیفهٔ الثانی؛ إذ عیّن معاویهٔ بن أبی سفیان والیا علی الشام، و عثمان- من البطن الأموی- خلیفهٔ له من بعده؛ بتوسّط معادلهٔ شوری الستّهٔ الّذین عیّنهم، و التی کانت واضحهٔ الرجحان لصالح عثمان.

هذا مضافا إلی ما قام به کلّ من الأوّل و الثانی من السنن الجائرهٔ الحائدهٔ عن سنن اللّه و رسوله، فلم یبقیا من الإسلام إلّا اسمه و من القرآن إلّا رسمه، کما ستأتی الإشارهٔ إلی جملهٔ منها. و قد طفقت ثروات الحزب القرشی- حزب السقیفهٔ- فی عهد الأوّلین، فضلا عن الثالث، تزید من غنائم الفتوحات حتّی بلغت أرقاما خیالیهٔ، کما سنوا فیک بقائمهٔ ببعضها، و ساد التمییز الطبقی و العرقی مجتمع المسلمین؛ فقتل الخلیفهٔ الثانی بید أحد الموالی، بعد أن مات الأوّل فی ظروف مریبهٔ، بسبب الاختلاف الذی جری بین عصابهٔ أصحاب السقیفهٔ، حتّی قام أهل بلاد الفتوح- و هم أهل مصر و العراق- إضافهٔ إلی أهل المدینهٔ بقتل الثالث، بسبب وصول فساد وضع المسلمین الداخلی إلی درجهٔ المناداهٔ بتقویم أو خلع الخلیفهٔ.

روی الطبری من طریق عبد الرحمن بن یسار أنّه قال: لمّا رأی الناس ما صنع عثمان کتب من بالمدینهٔ من أصحاب النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم إلی من بالآفاق، و کانوا قد تفرّقوا فی الثغور:

«إنّکم إنّما خرجتم أن تجاهدوا فی سبیل اللّه عزّ و جلّ تطلبون دین محمّد ٩، فإنّ دین

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۵۰

محمّد قد أفسده من خلفكم و ترك، فهلمّوا فأقيموا دين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم» «۱».

و رواه ابن الأثير أيضا، إلّا أنّه بهذا اللفظ: «فإنّ دين محمّد قد أفسده خليفتكم فأقيموه» «۲». و رواه ابن أبى الحديد بلفظ: «فاخلعوه» «۳».

و هذه الصحوة التى حصلت للمسلمين فى قتل عثمان لم تكن نافعة تماما لتستأصل الداء؛ و ذلك لأنّ أسس الانحراف فى الأمّة و بنيان الفساد قد تمّ على طول عهد الثلاثة، و لم تكن تلك البنى لتزول بسهولة، كما سنشير إليها، كما لم يكن الحال الموصوف فى كلام الناس مختصّا بعهد عثمان من أنّ دين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد أفسده الخليفة، فإلى م يدعو المسلمون الآخرين فى الجهاد فى سبيل اللّه عزّ و جلّ؟! و هل هو جهاد فى سبيل اللّه أم فى سبيل الخلافة الفاسدة؟! و إلى ماذا يدعى الآخرين؟ إلى الدين الذى قد أفسده الخلفاء؟!

و يشير الإمام الصادق عليه السّلام إلى هذه الحالة التى نخرت فى داخل المسلمين و النظام الدينى فى صحيح أبى بكر الحضرمى: قال: «قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: أهل الشام شرّ أم أهل الروم؟ فقال: إنّ الروم كفروا و لم يعادونا و إنّ أهل الشام كفروا و عادونا» «۴».

يشير عليه السّلام إلى كفر إبليس لعنه اللّه؛ فكفره كان جحود خليفة اللّه آدم عليه السّلام، و لم يكن كفره بجحود الذات الإلهية، و لا بجحود المعاد، و لا بجحود شريعة اللّه تعالى، فقد كان يتعبّد.

و كذلك فى موثّق سليمان بن خالد، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام: قال: «أهل الشام شرّ من أهل الروم، و أهل المدينة شرّ من أهل مكّة، و أهل مكّة يكفرون باللّه جهرة» «۵».

قال فى مرآة العقول:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۱

و يحتمل أن يكون هذا الكلام فى زمن بنى أميّة، و أهل الشام، من بنى أميّة و أتباعهم، كانوا منافقين يظهرون الإسلام و يبطنون الكفر، و المنافقون شرّ من الكفّار و هم فى الدرك الأسفل من النار، و هم كانوا يسبّون أمير المؤمنين عليه السّلام و هو الكفر باللّه العظيم، و النصارى لم يكونوا يفعلون ذلك.

و يحتمل أن يكون هذا مبنيا على أنّ المخالفين غير المستضعفين مطلقا شرّ من سائر الكفّار، كما يظهر من كثير الأخبار، و التفاوت بين أهل تلك البلدان باعتبار اختلاف رسوخهم فى مذهبهم الباطل، أو على أنّ أكثر المخالفين فى تلك الأزمنة كانوا نواصب منحرفين عن أهل البيت عليهم السّلام، لا سيّما أهل البلدان الثلاثة، و اختلافهم فى الشقاوة باعتبار اختلافهم فى شدّة النصب و ضعفه.

و لا ريب فى أنّ النواصب أخبث الكفّار، و كفر أهل مكّة جهرة هو إظهارهم عداوة أهل البيت عليهم السّلام، و قد بقى بينهم إلى الآن، و يعدّون يوم عاشوراء عيدا لهم، بل من أعظم أعيادهم «۱».

أقول: و هذه السنن التى يجازون بها نبىّ الرحمة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا زالت منتشرة فى بلدان الشام و يسمّونه: «عيد الظفر»، و كذلك فى بعض بلدان المغرب العربى. و من ثمّ كان النظام الدينى القائم فى البلاد الإسلامية عند أئمّة أهل البيت عليهم السّلام وفقه الإمامية ليس يشكّل دار الإيمان و إنّما هو دار الإسلام صورة، و يفرّق فى الأحكام الاجتماعية و السياسية و المالية و الحقوقية و غيرها بين الدارين.

ففى رواية محمّد بن سابق بن طلحة الأنصارى قال: «كان ممّا قال هارون- العبّاسى- لأبى الحسن حين أدخل عليه: ما هذه الدار؟ فقال: هذه دار الفاسقين، قال: سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۲

فقال له هارون: فدار من هى؟ قال: هى لشيعتنا فترة، و لغيرهم فتنة. قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟ فقال: أخذت منه عامرة و لا

يأخذها إلّا معمورة. قال: فأين شيعتك؟ فقرأ أبو الحسن عليه السّلام: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ «۱». قال: فقال له: فنحن الكفّار؟! قال: لا، و لكن كما قال اللّه: الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ «۲». فغضب عند ذلك و غلظ عليه» «۳».

و روى ابن أبى يعفور عن أبى عبد اللّه عليه السّلام- فى حديث- قال: «أما تسمع لقول اللّه:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ «۴»؟! يخرجهم من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة و المغفرة لولايتهم كلّ إمام عادل من اللّه. قال اللّه: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ «۵».

قال: قلت: أليس اللّه عنى بها الكفّار حين قال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا؟! قال: فقال: و أىّ نور للكافر و هو كافر فأخرج منه إلى الظلمات؟! إنّما عنى اللّه بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام فلمّا أن تولّوا كلّ إمام جائر ليس من اللّه خرجوا بولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب لهم النار مع الكفّار فقال: أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ «۶»» «۷».

و روى فى طرقهم عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إنّما أخاف على أمّتى الأئمّة المضلّين، فاذا وضع السيف فى أمّتى لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ... و لا تزال طائفة من أمّتى على الحقّ ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم حتّى يأتى أمر اللّه و هم على ذلك» «۸». و روى أيضا فى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۳

مشكاة المصابيح «۱».

و قد أدرك المسلمون الحال المتردّى الذى وصلوا إليه، و إنّ إقامة دين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إبعاد الزيغ و الانحراف عنه فى داخل البلاد الإسلامية أوّلا مقدّم على فتح البلدان غير الإسلامية، و إنّ خلع الخليفة الفاسد و نصب الخليفة العادل هو قطب الرحى الذى يدور عليه نظام الدين و نظام المسلمين، كما قالت بنت المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و طاعتنا نظاما للملّة».

هذه الحقيقة التى أدركها المسلمون فى قتل عثمان هى التى أوجبت اشتعال حروب علىّ عليه السّلام الداخلية- حرب الجمل و صفّين و النهروان- بدل من فتح البلدان، و كذلك سيرة الحسنين عليهما السّلام؛ فإنّ إصلاح أمّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مقدّم على دعوة الكفّار إلى الإسلام.

و أى إسلام يدعى الكفّار إليه؟! أ هو الإسلام الذى لبنى أميّة فيه النصيب الأوفر؟! أم الإسلام الذى ينصّب معاوية بن أبى سفيان و يزيد بن أبى سفيان ولاة على الشام؟! أم الإسلام الذى يفرّق بين القرشى و غير القرشى، و العربى و غير العربى؟! أم الإسلام الطبقى البرجوازى، و إسلام الإقطاع و تكدّس الثروات؟! أم الإسلام الذى يحرّم الخروج على الخليفة الجائر؟! أم الإسلام الذى يرى مشروعية الخليفة المتغلّب بالقوّة على رقاب المسلمين؟! أم الإسلام الذى يسوّغ كلّ مخالفة للأحكام و الأصول تحت ذريعة: «اجتهد فأخطأ»، و: «تأوّل فيعذر»؟! أم الإسلام الذى يمنع تدوين و حفظ أحاديث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لطمس معالم الدين؟!

فالحقيقة التى يصل إليها الباحث فى التاريخ و العلوم الإسلامية هى: إنّ قريش و جملة من قبائل العرب لمّا شاهدوا بزوغ الدين الجديد و أنّه ستكون له القدرة و السلطة على كلّ الجزيرة العربية و غيرها من البلدان، أخذوا بتنظيم عملية اختراق لصفوف

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۴

المسلمين منذ السنوات الأولى لبعثة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ ففى الوقت الذى كان رؤساء قريش و غيرها قد اعتمدوا المواجهة المعلنة و المصادمة الشديدة لهذا الدين، لأنّ مصالحهم و مواقعهم القبلية مهدّدة بالخطر، اعتمدوا- فى الوقت نفسه- سياسة الاختراق هذه، التى هى طريق طبيعى مألوف، فى كلّ عصور البشر، بين أىّ قوّتين متدافعتين.

فأبو سفيان- و غيره من الحزب القرشى فى مكّة- كان يقيم علاقة فى أوائل الهجرة مع عبد اللّه بن أبى سلول فى المدينة، الذى أسلم فى الظاهر و كان من رؤوس النفاق، و لم يقم مثل هذه العلاقة مع من أسلم فى مكّة فى الأيام الأولى؛ لاختراق صفوف و نظام الإسلام

و المسلمین، و اعتمادا علی هذه السیاسة، تحسّبا لنتائج المستقبل من أنّ القوّة و السلطة فی الجزیرة قد تقع فی ید صاحب هذا الدین الجدید.

لقد کانت القبائل النائیة عن مکّة تتطلّع إلی ذلک، فکیف لا تتطلّع قریش إلیه؛ یقول الطبری: «و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یعرض نفسه فی الموسم إذا کـان علی قبائـل العرب یـدعوهم إلی اللّه، و یخبرهم أنّه نبیّ مرسـل، و یسألهم أن یصـدّقوه و یمنعوه حتّی یبیّن عن اللّه ما بعثه به..

حـدّثنا ابن حمید، قال: حدّثنا سـلمة، قال: قال محمّد بن إسـحاق: و حدّثنی محمّد بن مسـلم بن شـهاب الزهری: «أنّه أتی بنی عامر بن صعصـعة و دعاهم إلی اللّه و عرض علیهم نفسه، فقال رجل منهم یقال له: بیحرة بن فراس: و اللّه لو أنّی أخـذت هـذا الفتی من قریش لأکلت به العرب.

ثمّ قـال له: أرأیت إن نحن تابعنـاک علی أمرک ثمّ أظهرک اللّه علی من خالفـک أیکون لنـا الأـمر من بعـدک؟! قـال: الأمر إلی اللّه یضعه حیث یشاء. قال: فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونک فإذا ظهرت کان الأمر لغیرنا؟! لا حاجة لنا بأمرک. فأبوا علیه» «۱».

فإذا کانت القبائل المتوسّطة و الصغیرة تتطلّع إلی تولّی الحکم بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم،

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۵۵

فکیف لا تعتمد قریش سیاسة و تدبیر من أوائل أیام البعثة کی تکون هی الظافرة بملک محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم، لا سیّما و أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم قد کان ینبئ و یخبر بما سیکون علیه مستقبل دین الإسلام و أنّه سیسود البلدان؟!

فقـد روی الطبری و غیره: «أنّ ناسا من قریش اجتمعوا، فیهم أبو جهل بن هشام، و العاص بن وائل، و الأسود بن المطّلب، و الأسود بن عبد یغوث، فی نفر من مشـیخة قریش، فقال بعضـهم لبعض: انطلقوا بنا إلی أبی طالب فنکلّمه فیه فلینصفنا منه، فیأمره فلیکفّ عن شتم آلهتنا »....

إلی أن قال: «قال صلّی اللّه علیه و آله و سلم: أی عمّ! أو لا أدعوهم إلی ما هو خیر لهم منها؟!

قال: و إلی ما تدعوهم؟ قال: ادعوهم إلی أن یتکلّموا بکلمة تدین لهم بها العرب و یملکون بها العجم» «۱».

و المتتبّع فی کتب التاریخ و السیر یجد الکثیر من هذه النماذج التی تشیر إلی تحسّب القبائل و طمعها فی الدعوة الجدیدة و مستقبلها، و السـلطة الجدیـدة الآخـذة فی الانتشـار. و نظیره مـا کانت تتنبّأ به الکهنـة و المنجّمین، و کانت قریش تعتمـد علیهم کثیرا، و قـد ذکر إخبارهم بمسـتقبل النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم فی کتب السیر و التاریخ، بل کانت الیهود و النصاری کثیرا ما تتوعّد المشرکین بالظفر علیهم عند بعثة خاتم النبیّین من مکّة، و لذلک هاجروا من بلاد الشام و استوطنوا الحجاز انتظارا لبعثة النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم..

و قـد أشار القرآن الکریم إلی ذلک: وَ لَمَّا جاءَهُمْ کِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ کانُوا مِنْ قَبْلُ یَسْـتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمَّا جـاءَهُمْ ما عَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الْکافِرِینَ «۲»، بل قد ذکرت کتب السـیر و التاریخ أنّ الیهود- مع ذلک- کانت تترصّـد اغتیال أجداد و آباء النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

فمن کلّ ذلک یتبیّن أنّ خبر المستقبل کان متفشیّا منتشرا فی أرجاء مکّة

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۵۶

و الحجـاز، فکیف لاـ تطمع قریش فی نصـیب المسـتقبل لو قـدّر وقوعه؟! فکانت سیاسـتها علی نمطین: المواجهـة المعلنـة، و الاختراق لصفوف المسلمین؛ لکی یعضد کلّ نمط النمط الآخر.

و القرآن الکریم یشـیر إلی حصول الاـختراق فی صـفوف المسـلمین منـذ أوائـل البعثـة النبویـة، نجـد ذلـک فی رابع سورة نزلت علی الرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم، و هی سورة المـدّثر: وَ ما جَعَلْنا أَصْـحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِکَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۱».

فهذا التقسيم القرآنی فاضح لوجود فئة: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فی أوساط المسلمين المؤمنين، و هم ليسوا من الكفّار فی العلن بل فی باطنهم مرض، و قد لاحق القرآن الكريم هذه الفئة و ميّزها عن فئة المنافقين؛ إذ أنّ أهل النفاق لم يكونوا قد احترفوا الخفاء و السرية التامّة و الدهاء الذی كانت تعتمده فئة الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فی اختراق صفوف المسلمين و نظام الدين الجديد.

لاحق القرآن هذه الفئة إلی آخر حياة الرسول صلّی اللّه عليه و آله و سلم، و أشار إلی شبكة اتّصالاتهم مع الأطراف الأخری من الحزب القرشی و القبائل الأخری و اليهود و النصاری: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ ... فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ «۲».

و فی بدر: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ «۳».

و فی الخندق و الأحزاب: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً «۴».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۷

و أنّهم كانوا علی خلطة قريبة من أزواج النبیّ صلّی اللّه عليه و آله و سلم: يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ «۱».

و أنّهم كانوا أهل جبن فی الحروب: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ «۲».

و قد فسّر القرآن المرض الذی فی قلوب هذه الفئة بأنّه: الضغينة و عداوة الحسد؛ ففی تتمّة الآية السابقة: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ* فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ* أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ* أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها* إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ* فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ* وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ «۳».

فهذه الآيات تفصح عن علاقة هذه الفئة بالكفّار، و أنّها سوف تتقلّد الأمور و تتسلّط علی رؤوس المسلمين، و أنّ سيرتها الإفساد فی الأرض، نظير ما تتبأت به الآيات فی سورة البقرة: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ* وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ* وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ «۴».

و تجد فی سورة البقرة ۲: ۱۰، و التوبة ۹: ۱۲۵، و الحجّ ۲۲: ۵۳، و النور ۲۴: ۵۰ بقية الأدوار التی قاموا بها، و فی: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۸

وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ «۱» دورهم فی إعاقة سياسات الرسول صلّی اللّه عليه و آله و سلم و مسيرته.

و يشير إلی ذلك ما روی فی شرح نهج البلاغة: «قال له قائل: يا أمير المؤمنين! أرأيت لو كان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم ترك ولدا ذكرا قد بلغ الحلم و آنس منه الرشد، أ كانت العرب تسلم إليه أمرها؟

قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت. إنّ العرب كرهت أمر محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلم، و حسدته علی ما آتاه اللّه من فضله، و استطالت أيّامه حتّی قذفت زوجته، و نفّرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها، و جسيم مننه عندها، و أجمعت مذ كان حيّا علی

صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته، و لو لا أنّ قريشا جعلت اسمه ذريعة إلى الرئاسة، و سلّما إلى العزّ و الإمرة، لما عبدت اللّه بعد موته يوما واحدا، و لارتدّت فى حافرتها و عاد تارحها جذعا، و بازلها بكرا.

ثمّ فتح اللّه عليها الفتوح فأثرت بعد الفاقة، و تموّلت بعد الجهد و المخمصة، فحسن فى عيونها من الإسلام ما كان سمجا، و ثبت فى قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطربا، و قالت: لو لا أنّه حقّ لما كان كذا.

ثمّ نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها، و حسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهة قوم و خمول آخرين، فكنّا نحن ممّن خمل ذكره، و خبت ناره، و انقطع صوته وصيته حتّى أكل الدهر علينا و شرب، و مضت السنون و الأحقاب بما فيها، و مات كثير ممّن يعرف و نشأ كثير ممّن لا يعرف، و ما عسى أن يكون الولد لو كان؟!

إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لم يقرّبنى بما تعلمونه من القرب للنسب و اللحمة، بل للجهاد و النصيحة، أفتراه لو كان له ولد هل كان يفعل ما فعلت؟! و كذلك لم يكن يقرب ما قربت، ثمّ لم يكن عند قريش و العرب سببا للحظوة و المنزلة، بل للحرمان و الجفوة.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۵۹

اللّهمّ إنّك تعلم أنّى لم أرد الإمرة و لا علوّ الملك و الرئاسة، و إنّما أردت القيام بحدودك، و الأداء لشرعك، و وضع الأمور فى مواضعها، و توفير الحقوق على أهلها، و المضى على منهاج نبيّك، و إرشاد الضالّ إلى أنوار هدايتك» «۱».

فهو عليه السّلام يشير إلى أنّ ما دعا قريش إلى البقاء على ظاهر الإسلام بعد موت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو: أنّها لم تكن لتسود العرب، فضلا عن العجم، إلّا باسم نبوّة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و دينه المبعوث به، و إلّا لأبت باقى القبائل عليها ذلك، كما هو حال توزّع القدرة بين القبائل فى الجاهلية، و إلّا فقريش لم تكن تذعن بقلبها لبعثة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ما فضّله به اللّه تعالى من كرامة له عليها، كالذى حصل لجميع الأنبياء من قبله مع قومهم، أو نظير ما حصل لعيسى عليه السّلام مع قومه بنى إسرائيل؛ قال تعالى: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ «۲»، و: وَ رَسُولًا إِلى بَنِى إِسْرائِيلَ ... فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ «۳».

ثمّ إنّه عليه السّلام بيّن عاملا ثانيا لانشداد قريش لدين النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هو: غنائم الفتوح و ما جلبته من ثراء، و هو يبيّن نوايا أصحاب فتوح البلدان، كما أنّه عليه السّلام يبيّن أنّ خطط فتوح البلدان كانت من تدبير النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و أوامره و بشاراته فى عدّة مواطن، و تدبيره و رأيه هو عليه السّلام.

و أنّ أسباب الفتح ترجع إلى عوامل عدّة لا صلة لها بالخلفاء الثلاثة، كيف و الثلاثة لا عهد لهم بالحروب و إدارتها و تدبيرها؟! إذ لم يسبق لهم خوض يذكر فى القتال إلّا ما فى غزوة خيبر؛ فقد ذكر المؤرّخون أنّ الأوّل و الثانى انتدبهما النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لفتح الحصن، كلّ منهما مع سرية، فرجع كلّ منهما مع سريّته يجبّن الناس و الناس يجبّنونه «۴».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۰

و حظّهم من الفرار فى غزوة أحد و الخندق و حنين و غيرها هو الحظّ الأوفر فى مواطن عديدة «۱».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۲

و قد روى فرار عمر فى غزوة حنين البخارى فى صحيحه باب قول اللّه تعالى: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ «... ۱» «۲». و ذكر الفخر الرازى أنّ من المنهزمين: عمر و عثمان «۳». و ذكر مصحّح كتاب المغازى أنّ صاحب شرح نهج البلاغة ذكر عنه: أنّ من الفارّين ممّن ولّى: عمر و عثمان، و أبدلت النسخة ب: فلان «۴». و ذكر فرارهما الآلوسى «۵».

و فى الدرّ المنثور روى عن عمر بن الخطّاب قوله: فلقد رأيتنى أنزو كأنّنى أروى «۶».

و الطبرى «۷».

و فى غزوة خيبر روى: «أنّه بعث رسول اللّه أبا بكر فرجع منهزما و من معه، فلمّا كان من الغد بعث عمر فرجع منهزما يجبّن أصحابه و يجبّنه أصحابه» «۸». و قد عيّر و أعاب سعيد بن العاص- أخ خالد بن سعيد بن العاص- عمر بن الخطّاب خوفه و جبنه عن قتال الروم. و كان عمر يقول- إذا ذكر الروم-: «و اللّه لوددت أنّ الدرب جمرة بيننا و بينهم، لنا ما دونه و للروم ما وراءه»؛ لما كان يكره قتالهم «۹».

و فى معركة بدر كان موقف أبو بكر و عمر معروفا من تثبيط رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن حرب قريش؛ إذ قالا: «إنّها و اللّه قريش و عزّها، و اللّه ما ذلّت منذ عزّت، و اللّه ما آمنت

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۳

منذ كفرت، و اللّه لا تسلّم عزّها أبدا و لتقتلّنك، فاتّهب لذلك أهبته، و أعدّ لذلك عدّته» «۱».

و روى مسلم: «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم شاور أصحابه حين بلغه إقبال أبى سفيان فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه، ثمّ تكلّم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة » «... ۲». ثمّ قال المقداد بن عمرو: «يا رسول اللّه! امض لأمر اللّه فنحن معك، و اللّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيّها ... و لكن اذهب أنت و ربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ... و قال سعد: لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك. و أخذ عمر فى الهجر أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم» «۳».

و سنبيّن عدّة عوامل أخرى لاحقا هى الدخيلة فى تحقّق فتح البلدان، ك: مبادئ و شعارات الإسلام، من: العدالة، و نفى الطبقية، و الحرية للأفراد أمام السلطة الحاكمة. و سيرة الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم خلقا و زهدا و هديا. و رزح شعوب البلدان المجاورة لبلاد المسلمين تحت نير الملوكيات المستبدّة الغاشمة طوال قرون، و تطلّعهم إلى متنفّس للحرية، و لتبديل نظامهم السياسى و الاجتماعى.

مضافا إلى تيقّن المسلمين من صدق بشارات الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، التى هى تدبير و برمجة منه لوظائف الدولة الآتية بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلم، مضافا إلى تدبير علىّ عليه السّلام فى الموارد الحرجة التى وقع المسلمون فيها؛ و إلّا فممارسات الحزب الحاكم كانت تفتّ فى عضد الأمّة، و هى التى سبّبت وقوف انتشار الإسلام فى ما بعد.

و يشير إلى السياسة التى مارسها الحزب القرشى لاختراق صفوف المسلمين ما تعاقدت عليه: فئة الّذين فى قلوبهم مرض، و الطلقاء من قريش، و المنافقين من الأنصار، و من كان فى قلبه الارتداد من العرب فى المدينة و ما حولها؛ من تنفير ناقة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۴

لاغتياله، ثمّ لم يتمّ لهم ذلك، فكرّروا المحاولة مرّة أخرى، و لمّا لم يفلحوا تعاقدوا فى صحيفة كتبوها على إزواء الأمر بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن أهل بيته و عن أمير المؤمنين عليه السّلام، و استودعوها أحدهم، و جعلوه «الأمين» عليها، و شهدها جماعة آخرون، و كاتبها هو سعيد بن العاص الأموى.

و كان المتعاقدون: أصحاب العقبة (الجماعة الّذين أرادوا تنفير ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و اغتياله) و هم أربعة عشر رجلا، و عشرون رجلا آخر، فكان مجموعهم أربعة و ثلاثين رجلا. و كانوا هؤلاء رؤساء القبائل و أشرافها، و ما من رجل من هؤلاء إلّا و معه خلق عظيم من الناس يسمعون له و يطيعون، و قد اتّفق هواهم على عدم وصول الإمارة لعلىّ عليه السّلام، و لا تجتمع النبوّة و الخلافة فى بنى هاشم، فاتّفقت كلمتهم على تقاسم القدرة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تولية أبو بكر الخلافة كواجهة، و توزيع المناصب الأخرى فى ما بينهم «۱».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۶

و هناك شواهد تاريخية عديدة على وجود العلاقة بين فئة الّذين فى قلوبهم مرض، و هم المجموعة التى اخترقت صفوف المسلمين

فى الأيام الأولى من البعثة النبوية، و بين كفّار قريش، الّذين تحلّوا فى ما بعد إلى الطلقاء.

منها: ما رواه الواقدى، قال: «حدّثنى ابن أبى سبرة، عن أبى بكر بن عبد اللّه بن أبى جهم، و اسم أبى جهم: عبيد، قال: كان خالد بن الوليد يحدّث و هو بالشام، يقول: الحمد للّه الذى هدانى للإسلام! لقد رأيتنى و رأيت عمر بن الخطّاب حين جالوا و انهزموا يوم أحد و ما معه أحد، و إنّى لفى كتيبة خشناء فما عرفه منهم أحد غيرى، فنكبت عنه و خشيت إن أغريت به من معى أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجّها- أى فارّا- إلى الشعب» «۱»؛ فيا ترى لماذا لا يريد خالد يوم أحد قتل عمر بن الخطّاب، و يخشى على حياته!!! مع أنّ خالد يريد قتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و عليّا و حمزة؟!!!

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۷

و منها: ما رواه المفيد فى الإرشاد عن أبى بكر الهذلى، عن الزهرى، عن صالح بن كيسان: «إنّ العاص بن سعيد بن أمية عرض له عمر يوم بدر و لم يقتله، و كان عمر ينفى عن نفسه قتل العاص و يقول: إنّ قاتله علىّ عليه السّلام» «۱».

و منها: ما رواه الواقدى و غيره فى غزوة الخندق، قال: «و حمل ضرار بن الخطّاب على عمر بن الخطّاب بالرمح، حتّى إذا وجد عمر مسّ الرمح رفعه عنه و قال: نعمة مشكورة فاحفظها يا بن الخطّاب!» «۲».

و فى السيرة الحلبية: «ثمّ حمل ضرار بن الخطّاب و هبيرة بن أبى وهب على علىّ كرّم اللّه وجهه، فأقبل علىّ عليهما، فأمّا ضرار فولّى هاربا، و أمّا هبيرة ... فكرّ ضرار راجعا و حمل على عمر بالرمح ليطعنه، ثمّ أمسك و قال: هذه نعمة مشكورة أثبتها عليك، و يد لى عندك- أى: نعمة أخرى سابقة- غير مجزى بها، فاحفظها. أى: و وقع له مع عمر مثل ذلك فى أحد؛ فإنّه التقى معه، فضرب عمر بالقناة، ثمّ رفعها عنه و قال له: ما كنت لأقتلك يا بن الخطّاب» «۳»!!!!

و منها: رثاء عمر و أبى بكر قتلى كفّار قريش فى بدر:

و كأيّن بالقليب قليب بدر من الفتيان و العرب الكرام

أيوعدنى ابن كبشة أن سنحيا و كيف حياة أصداء و هام؟!

إلى آخر الأشعار التى قالاها بعد شربهما الخمر، لا سيّما و أنّ السكر يخرج خبايا النفس و الضمير «۴».

و منها: الرسائل المتبادلة بين أصحاب السقيفة و قريش فى مكّة، كالتى جرت بين

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۸

عبد الرحمن بن عوف و أمية بن خلف «۱».

و منها: ما تقدّم فى اشتراك قريش الطلقاء و أصحاب السقيفة لاغتيال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

سبب الردّة و حقيقتها ... ص: ۳۶۸

روى أبان بن تغلب «۲» قال: قلت لأبى عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق عليهما السّلام:

«جعلت فداك هل كان أحد فى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنكر على أبى بكر و جلوسه مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! فقال: «نعم، كان الذى أنكر على أبو بكر اثنى عشر رجلا، من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، و كان من بنى أمية، و سلمان الفارسى، و أبو ذرّ الغفارى، و المقداد بن الأسود، و عمّار بن ياسر، و بريدة الأسلمى، و من الأنصار:

أبو الهيثم بن التيهان، و سهل و عثمان ابنا حنيف، و خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، و أبىّ بن كعب، و أبو أيّوب الأنصارى.

- إلى أن قال عليه السّلام: - إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال لهم: فانطلقوا بأجمعكم إلى الرجل فعرّفوه ما سمعتم من قول رسولكم صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ ليكون ذلك أوكد للحجّة و أبلغ للعذر، و أبعد لهم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا وردوا عليه. فسار القوم حتّى أحدقوا بمنبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كان يوم الجمعة ...

– إلى إن قال عليه السّلام: إنّ القوم المعترضين تكلّم واحد تلو الآخر منهم– فأوّل من تكلّم به خالد بن سعيد بن العاص، و ذكّرهم بحديث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «ألا إنّ علىّ بن أبى طالب عليه السّلام أميركم بعدى و خليفتى فيكم، بذلك أوصانى ربّى، ألا و إنّكم إن لم تحفظوا فيه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۶۹

وصيّتى و تؤازروه و تنصروه اختلفتم فى أحكامكم، و اضطرب عليكم أمر دينكم، و وليكم شراركم...

فقال له عمر بن الخطّاب: اسكت يا خالد! فلست من أهل المشورة «۱» و لا ممّن يقتدى برأيه. فقال خالد: اسكت يا ابن الخطّاب! فإنّك تنطق عن لسان غيرك و أيم اللّه لقد علمت قريش أنّك من ألأمها حسبا، و أدناها منصبا، و أخسّها قدرا، و أخملها ذكرا، و أقلّهم غناء عن اللّه و رسوله، و أنّك لجبان فى الحروب، بخيل بالمال، لئيم العنصر، ما لك فى قريش من فخر، و لا فى الحروب من ذكر...

و قال سلمان الفارسى ...: يا أبا بكر! إلى من تسند أمرك إذا نزل بك ما لا تعرفه؟! و إلى من تفزع إذا سئلت عمّا لا تعلمه؟! و قام أبو ذرّ فقال: يا معشر قريش! أصبتم قباحة، و تركتم قرابة، و اللّه لترتدّن جماعة من العرب، و لتشكّن فى هذا الدين، و لو جعلتم الأمر فى أهل بيت نبيّكم ما اختلف عليكم سيفان، و اللّه لقد صارت لمن غلب، و لتطمعنّ إليها عين من ليس من أهلها، و ليسفكنّ فى طلبها دماء كثيرة. فكان كما قال أبو ذرّ.

و قال المقداد بن الأسود ...: و لا تغررك قريش و غيرها ... و قال: أبىّ بن كعب ...: و لا تكن أوّل من عصى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى وصيّه وصفيّه و صدف عن أمره، اردد الحقّ إلى أهله تسلم ... و قام عثمان بن حنيف فقال: فلا تكن يا أبا بكر أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ «۲» و لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ «۳»...»

و ما تخوّف منه هؤلاء الاثنا عشر من المهاجرين و الأنصار من تمرّد القبائل العربية مسلمة الوفود بسبب تمرّد قريش نفسها و أصحاب السقيفة على وصيّة النبىّ و أمر اللّه و رسوله، قد تحقّق؛ فإنّ عصيانهم فى الوصاية و ارتدادهم عن عهد اللّه و رسوله فى خلافة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۰

علىّ عليه السّلام فتح الباب لسائر القبائل للارتداد عن أداء الزكاة.

بل إنّ نصوص كتب التواريخ– كما سيأتى استعراضها– تنصّ على أنّ تمرّد القبائل فى الجزيرة العربية كان بسبب إبائها خلافة أبى بكر، و استهجانها مكانته و لآمة حسبه و نسبه، و أنّهم قالوا: كما خانت قريش نبيّها فى وصيّه فلم نطيع قريش و أبا بكر فى بغيهم؟!

فالزلزلة التى أصابت الإسلام بسبب خلافة أبى بكر هى أكبر شؤم على الإسلام، و قد سبّبت هلاك الحرث و النسل، كما تنبّأ القرآن الكريم بذلك، و أشارت إليه سورة المدّثر المكّية، رابع سورة نزولا؛ فقد قال تعالى فى فئة الّذين فى قلوبهم مرض، و هى الفئة التى اندسّت فى صفوف المسلمين فى أوائل البعثة، و التى كانت على ارتباط مع قريش الطلقاء فى الخفاء: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ «۱»، فى سياق آيات الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. و كذلك قوله تعالى: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ «۲»؛ فقد خفرت كثير من الذمم و العهود.

قال ابن أعثم– عند ذكر ارتداد أهل حضرموت من كندة–: «فلمّا فرغ أبو بكر من حرب أهل البحرين– و سيأتى أنّ عصيانهم هو لأبى بكر و خلافته– عزم على محاربة أهل حضرموت من كندة، و ذلك أنّ عاملهم زياد بن لبيد الأنصارى كان ولّاه عليهم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، كان مقيما بحضرموت يصلّى بهم و يأخذ منهم ما يجب عليهم من زكاة أموالهم، فلم يزل كذلك إلى أن مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لسبيله و صار الأمر إلى أبى بكر، فقال له الأشعث بن قيس: يا هذا! إنّا قد سمعنا كلامك و دعاءك إلى هذا الرجل فإذا اجتمع الناس إليه اجتمعنا. قال له زياد بن لبيد: يا هذا! إنّه قد اجتمع المهاجرون و الأنصار.

فقال له الأشعث: إنّك لا تدرى كيف يكون الأمر بعد ذلك. قال: فسكت زياد بن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۱

لبيد و لم يقل شيئا، ثمّ قام إلى الأشعث بن قيس ابن عمّ له يقال له: امرؤ القيس بن عابس من كندة، فقال له: يا أشعث! انشدك باللّه و بإيمانك و بقدومك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم إن نكصت أو رجعت عن دين الإسلام، فإنّك إن تقدّمت تقدّم الناس معك، و إنّ هذا الأمر لا بدّ له من قائم يقوم به فيقتل من خالف عليه، فاتّق اللّه في نفسك؛ فقد علمت ما نزل بمن خالف أبا بكر و منعه الزكاة» «۱».

و يظهر من هذا النصّ التاريخي أنّ أصحاب السقيفة قد حكموا بالكفر و الردّة على مجرّد مخالفة تنصيب أبا بكر و عدم تمكينه من الزكاة، و هذا التكفير و الحكم بالردّة هو بنفسه و بدوره سببا لتطوّر مخالفة خلافة أبي بكر إلى التشكيك في الدين و الرجوع حقيقه عنه.

و من تناقضات أصحاب السقيفة و تلاعبهم في الدين، أنّهم كفّروا مخالفي استخلاف أبي بكر و مانعيه من التسلّط على رقاب المسلمين و على الأموال العامّة- كالزكاة- و حكموا بإسلام عائشة و طلحة و الزبير و أصحاب الجمل، الّذين نكثوا بيعة عليّ عليه السّلام و قاموا بمحاربته، و قالوا: بأنّهم تأوّلوا و اجتهدوا و أخطؤوا.

و كذلك حكموا بإسلام معاوية و أهل الشام القاسطين في محاربتهم أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام، و قالوا: بأنّهم اجتهدوا و تأوّلوا و أخطؤوا. و كذلك حكموا بإسلام خالد بن الوليد مع استحلاله لقتل مالك بن نويرة و قومه- كما سيأتي بيانه- مع بقاء مالك و قومه على إسلامهم و إيمانهم، و استباحة خالد التزويج بزوجة مالك. فلماذا لا يحكم بكفر و ردّة أبي بكر و أصحاب السقيفة، الّذين أنكروا النصّ على خلافة عليّ عليه السّلام، و خالفوا عهد اللّه و رسوله في الوصية؟!

حكى ابن أبي الحديد عن السيّد المرتضى في الشافي قول الجاحظ: «و قد يبلغ من مكر الظالم و دهاء الماكر إذا كان أريبا و للخصومة معتادا أن يظهر كلام المظلوم و ذلّة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۲

المنتصف، و حدب الوامق و مقة المحقّ» «۱».

و قال ابن أعثم: «ثمّ تكلّم الأشعث بن قيس فقال: يا معشر كندة! إن كنتم على ما أرى فلتكن كلمتكم واحدة، و الزموا بلادكم و حوّطوا حريمكم و امنعوا زكاة أموالكم؛ فإنّي أعلم أنّ العرب لا تقرّ بطاعة بني تميم بن مرّة و تدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيره، فإنّها لنا أجود، و نحن لها أجرى و أصلح من غيرنا؛ لأنّا ملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قريشي و لا أبطحي» «۲».

و يرى الباحث صدق ما أخبر به أبو ذرّ و بقية المهاجرين و الأنصار الاثني عشر من تسبّب خيانة أبي بكر و أصحاب السقيفة، وضعة مكانة أبي بكر في تمرّد القبائل و طمعها في الخلافة، و استرابتها في الدين.

ثمّ قال ابن أعثم: «جاء لزياد بن لبيد الأنصاري العامل على كندة رجل يقال له:

الحارث بن معاوية، فقال لزياد: إنّك لتدعو إلى طاعة رجل لم يعهد إلينا و لا إليكم فيه عهد. فقال له زياد بن لبيد: يا هذا! صدقت، فإنّه لم يعهد إلينا و لا إليكم فيه عهد، و لكنّا اخترناه لهذا الأمر.

فقال له الحارث: أخبرني لم نحّيتم عنها أهل بيته و هم أحقّ الناس بها؛ لأنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ «۳»؟!

فقال له زياد بن لبيد: إنّ المهاجرين و الأنصار أنظر لأنفسهم منك. فقال له الحارث بن معاوية: لا و اللّه، ما أزلتموها عن أهلها إلّا حسدا منكم لهم، و ما يستقرّ في قلبي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم خرج من الدنيا و لم ينصب للناس علما يتّبعونه، فارحل عنّا أيّها الرجل؛ فإنّك تدعو إلى غير الرضا. ثمّ أنشأ الحارث بن معاوية يقول:

كان الرسول هو المطاع فقد مضى صلّى عليه اللّه لم يستخلف

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۳

قال: فوثب عرفجة بن عبد اللّه الذهلى فقال: صدق و اللّه الحارث بن معاوية، أخرجوا هذا الرجل عنكم فما صاحبه بأهل للخلافة و لا يستحقّها بوجه من الوجوه، و ما المهاجرون و الأنصار بأنظر لهذه الأمّة من نبيّها محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم. قال: ثمّ وثب رجل من كندة يقال له: عدى بن عوف، فقال: يا قوم! لا- تسمعوا قول عرفجة بن عبد اللّه و لا- تطيعوا أمره؛ فإنّه يدعوكم إلى الكفر و يصدّكم عن الحقّ، اقبلوا من زياد بن لبيد ما يدعوكم إليه و ارضوا بما رضى المهاجرون و الأنصار؛ فإنّهم أنظر لأنفسكم منكم»»

.فيظهر من هذا النصّ التاريخى أنّ منطق أصحاب السقيفة هو: الحكم بالكفر و الردّة على المعترضين على أبى بكر و أصحابه بخيانة عهد اللّه و رسوله فى وصيّه، و إنّ حروب الردّة هى ضدّ تلك القبائل التى تمرّدت على استخلاف أبى بكر عدا تلك التى ظهر فيها الكذّابين المدّعين للنبوّة، كمسيلمة الكذّاب و سجاح، و إنّ الردّة شعار رفعه أصحاب السقيفة ضدّ تلك القبائل لتبرير قتالهم، و إخمادا للمعارضة على تنصيب أبى بكر، و ساعد هذا التمويه و الإغراء و الخداع تقارن هذه المعارضة مع دعاوى الكذّابين الدجّالين للنبوّة، كمسيلمة و سجاح و طليحة بن خويلد، فحصل اختلاط فى الأوراق و هرج فى تصفية الحسابات و معادلة المواجهات.

و فى نصّ آخر ذكره ابن أعثم: «عندما وصل كتاب أبى بكر للأشعث ابن قيس و فيه:

و أنهاكم أن لا- تنقضوا عهده، و أن لا- ترجعوا عن دينه إلى غيره فلا- تتّبعوا الهوى فيضلّكم عن سبيل اللّه ... فأقبل الأشعث على الرسول فقال: إنّ صاحبك أبا بكر هذا يلزمنا الكفر بمخالفتنا له و لا يلزم صاحبه- أى: زياد بن لبيد- الكفر بقتله قومى و بنى عمّى! فقال له الرسول: نعم يا أشعث! يلزمك الكفر؛ لأنّ اللّه تبارك و تعالى قد أوجب عليك الكفر بمخالفتك لجماعة المسلمين» «۲».

و هذا النصّ يوضّح أنّ مبنى أصحاب السقيفة أنّ الدين يتمثّل فى جماعتهم، و أنّهم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۴

جماعة المسلمين و ما عداهم من المهاجرين و الأنصار و بنى هاشم و سعد بن عبادة و سائر القبائل ليسوا بجماعة المسلمين، و أنّ خيانة اللّه و رسوله فى عهد الوصاية و الإمامة و إنكار ما جاء به الرسول فى ذلك ليس يوجب الكفر، فهم قد جعلوا جماعة السقيفة عدل القرآن و بديل النبوّة، و هذا ممّا يكشف أوراق حروب الردّة و يفضح دجليّة شعارها.

و قال ابن أعثم: إنّ أبا بكر لمّا وصله خبر كندة و عصيانها له و ضعف الجيش الذى أرسله عن مقاومة كندة استشار جماعته «ثمّ انصرف أبو بكر إلى منزله و أرسل إلى عمر بن الخطّاب فدعاه، و قال: إنّى عزمت على أن أوجّه إلى هؤلاء القوم علىّ بن أبى طالب؛ فإنّه عدل رضا عند أكثر الناس؛ لفضله و شجاعته و قرابته و علمه و فهمه و رفقه بما يحاول من الأمور.

قال: فقال له عمر بن الخطّاب: صدقت يا خليفة رسول اللّه! إنّ عليّا كما ذكرت و فوق ما وصفت، و لكنّى أخاف عليك خصلة منه واحدة. قال له أبو بكر: و ما هذه الخصلة التى تخاف علىّ منها منه؟ فقال عمر: أخاف أن يأبى القتال فلا يقاتلهم، فإن أبى ذلك فلن تجد أحدا يسير إليهم إلّا على المكروه منه، و لكن ذر عليّا يكون عندك بالمدينة؛ فإنّك لا تستغنى عنه و عن مشورته، و اكتب إلى عكرمة بن أبى جهل» «۱».

و يظهر من هذا النصّ التاريخى أنّ عمر يتخوّف من إباء علىّ عليه السّلام قتال كندة، ممّا يدلّل على عدم تكفير علىّ عليه السّلام لكندة و عدم قوله عليه السّلام بردّتهم، و يظهر القول بإسلام كندة أيضا من أبى أيوب الأنصارى عندما استشاره أبى بكر فى كندة؛ قال: «لو صرفت عنهم الخيل فى عامك هذا و صفحت عن أموالهم لرجوت أن ينيبوا إلى الحقّ و أن يحملوا الزكاة إليك بعد هذا العام طائعين غير مكرهين، فذاك أحبّ إلىّ من محاربتك إيّاهم» «۲»، و لكنّ أبا بكر أبى ذلك، و لعلّه فطن إلى أنّ أبا أيوب الأنصارى من أنصار علىّ عليه السّلام.

بل إنّ عمر اعترف بإسلام أهل «دبا»، الّذين ناصروا كندة فى تمرّدهم؛ إذ همّ أبو

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۵

بكر بقتل المقاتلة و قسمة النساء و الذرّيّة، فقال له عمر ابن الخطّاب: «يا خليفة رسول اللّه! إنّ القوم على دين الإسلام، و ذلك أنّى أراهم يحلفون باللّه مجتهدين: ما كنّا رجعنا عن الإسلام. و لكن شحّوا على أموالهم» «۱»، و الحقيقة أنّهم أبوا إمارة أبى بكر.

و تظهر هذه الحقيقة التاريخية أيضا من بكر بن وائل فى البحرين؛ إذ أنّ سبب تمرّدهم و ردّتهم فى قولهم لكسرى: «إنّه قد مضى ذلك الرجل الذى كانت قريش و سائر مضر يعتزّون به- يعنون بذلك الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم- و قد قام من بعده خليفة له، ضعيف البدن ضعيف الرأى» «۲».

و يظهر أنّ سبب تمرّد و ردّة بنى أسد و غطفان و فزارة، و مناصرتهم لطليحة بن خويلد الكذّاب هو ضعة أبى بكر، و قولهم بعدم أهليّته للخلافة؛ إذ نادوا: «لا نبايع أبا الفصيل- يعنون أبا بكر-» «۳»، و هذه التكنية تحقيرا لأبى بكر، و إشارة إلى عمله فى الجاهلية، و هو الدلالة فى بيع و شراء الإبل.

هذه لمحة خاطفة تدلّل على أنّ تدبير الفتوحات و خططها لا تعزى إلى الثلاثة!! كيف و لا مراس لهم بالحروب و إدارتها و أمور الجيوش؟! و قد ولّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهم أسامة بن زيد فى جيش المسلمين لمحاربة الروم فى آخر أيّام حياته، و أنّ خطط الفتوح و تدبيرها راجعة إلى أسباب و عوامل أخرى.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۶

تدبير الإمام علىّ عليه السّلام فى ظفر المسلمين فى الفتوحات ... ص: ۳۷۶

هناك نصوص تاريخية عديدة تبيّن تدبير علىّ عليه السّلام فى المنعطفات الخطيرة التى عصفت بالمسلمين و دولتهم و جيوشهم، و كاد نظام المسلمين أن يتقوّض لولا حنكته و بصيرته فى تدبير الأمور العامّة، و إعزاز الإسلام، و نصر الدين، و رتقه، و لو لا ذلك أيضا لتشتّت أوضاع المسلمين؛ بسبب استخلاف أبى بكر و نبذ أصحاب السقيفة عهد اللّه و رسوله فى الإمامة، ممّا دعا سائر القبائل للتمرّد و الريبة فى الدين، و اضطرار أبى بكر و عمر و عثمان و بقية الصحابة لاستشارته عند اضطراب الأمر عليهم فى تدبير الأحوال الخطيرة.

ثمّ إنّ عمدة ما حصل من الفتوحات، و طرد الروم و القضاء على ملك كسرى كان ببركة إشرافه و تسديده و مشورته، بل فى بعض الموارد صدرت منه المعجزات لإنقاذ الموقف؛ لحكمة إلهية، و زيادة فى الامتحان لهذه الأمّة، مع ما مر من ضعف الثلاثة فى مراس التدبير، لا سيّما و أنّ الدولة الإسلامية تعيش حالة استنفار عسكرى، أى ما يصطلح عليه حاليا: «دولة حرب»، و هم أبعد ما يكونون وزنا عن التأثير فى معادلة القوى فى الحروب، كما مرّ.

و من ثمّ قال عليه السّلام- فى ما مرّ من رواية ابن أبى الحديد ...-: « ثمّ نسبت- أى قريش- تلك الفتوح إلى آراء ولاتها و حسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهة قوم و خمول آخرين، فكنّا نحن ممّن خمل ذكره، و خبت ناره، و انقطع صوته وصيته حتّى أكل الدهر علينا و شرب، و مضت السنون و الأحقاب بما فيها، و مات كثير ممّن يعرف- أى فضائله و مناقبه و ركنيته بعد الرسول فى بنيان الدين و انتظام الإسلام- و نشأ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۷

كثير ممّن لا يعرف » «... ۱».

و قد جاءت عدّة نصوص تاريخية فى ذلك:

منها: ما قاله أبو بكر لعمر عندما فشل الجيش الذى بعثه أبو بكر لقتال كندة، و لم يفلح المدد أيضا، فاضطرب لذلك أبو بكر و قال: «إنّى عزمت على أن أوجّه إلى هؤلاء علىّ بن أبى طالب؛ فإنّه عدل رضا عند أكثر الناس لفضله و شجاعته و قرابته و علمه و فهمه، و رفقه بما يحاول من الأمور »....

فهذا النصّ سواء في فقرة كلام أبي بكر أو كلام عمر يكشف النقاب عن دور عليّ عليه السّلام و مكانته في نفسية المسلمين و سائر القبائل المتمرّدة على استخلاف أبي بكر كما فيه إقرار و اعتراف من أبي بكر بالإحكام في تدبير عليّ عليه السّلام للأمور، لا سيّما هذا الأمر الذي استعصى حلّه على أبي بكر، و جزع من شدّة الورطة فلم يجد بدّا من الكتابة إلى الأشعث بن قيس بالرضا «۲».

كما أنّ في كلام عمر؛ إذ قال: «أخاف أن يأبى القتال فلا يقاتلهم، فإن أبى ذلك فلن تجد أحدا يسير إليهم إلّا على المكروه منه، و لكن ذر عليّا يكون عندك بالمدينة فإنّك لا تستغني عنه و عن مشورته» إقرار بما ذكره صاحبه و زيادة: إنّ عليّا عليه السّلام إذا أبدى قوله في عدم قتال كندة فإنّ البقية سيتأثّروا به و يمتنعوا عن مقاتلة كندة إلّا بالإكراه، و إنّ دولة السقيفة لم تستطع إدارة الأمور بدون مشورة عليّ عليه السّلام. و سيأتي في بقية النصوص الكثير ممّا يعضد ذلك.

و منها: «و أراد أبو بكر أن يغزو الروم فشاور جماعة من الأصحاب، فقدّموا و أخّروا، فاستشار عليّ بن أبي طالب، فأشار أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت. فقال:

بشّرت بخير! فقام أبو بكر في الناس خطيبا، و أمرهم أن يتجهّزوا إلى الروم» «۳».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۸

و في فتوح ابن أعثم: «فسأل أبو بكر: و من أين علمت ذلك؟! فقال عليه السّلام: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم »... «۱»، و في مكان آخر: «تسامع هرقل بأنّ نبيّ الإسلام أخبرهم بالنصر» «۲». و يظهر من هذا النصّ، و من الذي قبله، و ممّا يأتي من نصوص متعدّدة طمع السلطة في فراسة عليّ عليه السّلام الغيبية، و إخباره بالملاحم و علم المنايا و البلايا، و هي من العلوم اللدنية للأوصياء، و ما عنده عليه السّلام من عهد النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمصير الأمور و أحوال البلدان، فإنّه نقل ذلك عنه بكثرة في كتب السير و التواريخ، و استخبار أبي بكر و عمر عليّا عليه السّلام، و استخفاؤهما إيّاه أحوال الأوضاع، و في الفتوح: تهديد وفد المسلمين جبلة- حليف هرقل بالشام- ببشارة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالنصر «۳»؛ كلّ ذلك يصبّ في النهاية في رفعة اسميهما عند عامّة الناس، و نسبة الفتوح إليهما، كما قال عليه السّلام في ما مرّ من الرواية.

اعتراض و إجابة ... ص: ۳۷۸

و قد يرد اعتراض في ذهن بعض من لا بصيرة له بأوصياء الأنبياء: لماذا يسدّد عليّ عليه السّلام خلفاء الجور إلى أبواب الظفر و النصر، فيعلو كعبهم و اسمهم، و تزداد فتنة الناس بضلالتهم، و ببدعهم في الدين، و بمتاركتهم لصراط الهداية من أهل بيت النبوّة عليهم السّلام؟!، كما أنّ بعض آخر- ممّن لا يستمسك بالبيّنات و البراهين- يموّه إرشاد علي عليه السّلام لهما في تدبير الأمور على أنّه رضى منه بحالهما!!

و هؤلاء إذ تاركوا عيش اليقين نكسوا قلوبهم في الريب؛ استحبابا منهم لذلك، بدلا من نور الحقيقة؛ فإنّ الوصيّ عليه السّلام ليس غارقا في بحر الهوى، كما قال عليه السّلام في ذيل الرواية المزبورة: «اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لم أرد الإمرة، و لا علوّ الملك و الرئاسة، و إنّما أردت القيام بحدودك، و الأداء لشرعك، و وضع الأمور في مواضعها، و توفير الحقوق على أهلها، و المضي

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۷۹

على منهاج نبيّك، و إرشاد الضالّ إلى أنوار هدايتك» «۱».

فإنّه عليه السّلام ممّن طهّره اللّه من الرجس و الهوى، فلا يعيش إلّا همّ إقامة الدين و نشره و انتشاره بقدر ما يتيسّر من ذلك، و إن مانع الطامعون في الرئاسة و الملك، و الحريصون على الإمارة و العلوّ في الأرض، و الحزب القرشي و الطلقاء، عن إقامة الحقّ في جليل من الأبواب؛ فإنّ ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، و الميسور لا يسقط بالمعسور..

نظير ما قصّه اللّه تعالى من دور النبيّ يوسف عليه السّلام في ملك عزيز مصر: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحـادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ «۲»؛ فإنّ التدبير الحسن منه كان ليوسف و إن كان ينسب لملك مصـر، و لو لا يوسف لتشتّت الأمر على ملك مصر عندما عصفت السنين بهم.

و فى هـذه الحقبـة و الفترة تجلّى خلوص علىّ عليه السّلام فى تشـييد الدين؛ فأين تجد من غصب حقّه، و زحزح عن مقامه، و تقمّص مكانه من ليس بأهل له، و مع ذلك يقوم بحفظ الدين و نشـره، مع علمه بأنّ هذا الدور أيضا هو الآخر سوف يبتزّه الغاصبون و ينسبونه لأنفسهم؟!

و ممّا يشير إلى تدبير النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الفتوحات ما ذكره ابن أعثم «۳» فى الفتوح؛ إذ أورد رسالة عمر إلى معاوية، التى تضـمّنت عهده صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم للمسـلمين بتفاصيل برامج فتوح البلدان، حتّى أسماء المدن، و المهمّ منها فى حصول الظفر و النصر.

دوره عليه السّلام فى وقعة الجسر ... ص: ۳۷۹

فى وقعـة «الجسـر» - و هى أوّل وقعـة للمسـلمين مع جيوش كسـرى- اضـطرب تدبير الحرب و المسـلمين بشدّة حتّى كاد يفلت الأمر، فأغاث علىّ عليه السّلام عمر بالمشورة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۰

المفصّلة، و أمره بأن لا يصير إلى العدو: «فإنّك إن صرت إلى العراق و كان مع القوم حرب و اختلط الناس لم تأمن أن يكون عدوّ من الأعداء يرفع صوته و يقول: قتل أمير المؤمنين! فيضـطرب أمر الناس و يفشلوا ... و لكن أقم بالمدينة و وجّه برجل يكفيك أمر العدوّ، و ليكن من المهـاجرين و الأنصار البـدريّين. فقال عمر: و من تشـير علىّ أن أوجّه به يا أبا الحسن؟! فأشار عليه بسـعد بن أبى وقّاص. و انتهت الواقعة بنصر المسلمين «۱».

و من ذلك يظهر أنّ التدبير فى المفاصل الخطيرة من الفتوح كان منه عليه السّلام».

و فى هذه الواقعة ذكر ابن أعثم تهديد المسلمين يزدجرد ملك الفرس ببشارة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بفتح فارس «۲».

و من تدابير علىّ عليه السّلام البالغة الأهمّية أيضا بثّه الخلّص الأبدال من أصحابه فى جيوش الفتوح، و كان لهم الأثر البالغ فى الفتوح، كحذيفـة بن اليمـان و عمّار بن ياسـر فى فتوح فارس، و مالك الأشتر فى فتوح الروم، و لا سـيّما فى يوم اليرموك؛ إذ بارز وزير هرقل هامان فهزمه «۳»، و هـاشم بن عتبـة بن أبى وقّـاص فى فتوح الشـام و فارس أيضا، و كـذلك عبادة بن الصامت الأنصارى، و حجر بن عدى الكندى، و الجميع كانوا أمراء سـرايا و فصائل فى الكتائب، و خالد بن سعيد بن العاص و أخوه، و عدى بن حاتم الطائى، و عبد اللّه بن خليفة، و سـلمان الفارسى، و غيرهم ممّا يجده المتتبّع لتواريخ الفتوح، ذكرنا جملة منهم لا على سبيل الاستقصاء و الحصر، هذا مع أنّ أقلام التاريـخ غالبـا سـقيفية أو أمويـة أو عبّاسـية، لا ترصـد و لا تحبّ أن تكتب لأصـحاب علىّ عليه السّلام أدوارا خطيرة فى الفتوح، بل و تركّز الضوء على غيرهم لترفع ذكرهم دون تيار علىّ عليه السّلام.

و ذكر ابن أعثم: أنّ أبـا عبيـدة أرسل كتابا إلى عمر يخبره فيه أنّ أهل «إيليا» بعـدما حوصـروا فى الشامات اشترطوا الصـلح مع الخليفة كى يثقوا بالأمان، فاستشار عمر وجوه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۱

المهاجرين و الأنصار فى الخروج إلى الشام، فأشار عليه عثمان بعدم الخروج. فقال عمر:

هل عند أحد منكم غير هذا الرأى؟!

فقال علىّ بن أبى طالب عليه السّلام: نعم، عنـدى من الرأى: إنّ القوم قد سألوك المنزلة التى لهم فيها الذلّ و الصـغار، و نزولهم على حكمك عزّ لك و فتح للمسلمين ... فإذا قدمت عليهم كان الأمر و العافية و الصلح و الفتح إن شاء اللّه.

و أخرى فإنّى لست آمن الروم إن هم آيسوا من قبولک الصلح و قدومک عليهم أن يتمسّكوا بحصنهم و يلتئم إليهم إخوانهم من أهل دينهم فتشتدّ شوكتهم و يدخل على المسلمين من ذلک البلاء، و يطول أمرهم و حربهم، و يصيبهم الجهد و الجوع، و لعلّ المسلمين إن اقتربوا من الحصن فيرشقونهم بالنشاب أو يقذفونهم بالحجارة، فإن أصيب بعض المسلمين تمنّيت أن تكون قد افتديت قتل رجل مسلم من المسلمين بكلّ مشرک إلى منقطع التراب. فهذا ما عندى، و السلام.

فقال عمر: أمّا أنت يا أبا عمرو- أى عثمان- فقد أحسنت النظر فى مكيدة العدو، و أمّا أنت يا أبا الحسن! فقد أحسنت النظر لأهل الإسلام، و أنا سائر إلى الشام «۱».

و عند فتح المسلمين لمدينة السوس- بلدة بخوزستان «۲» جنوب إيران- وجدوا جثمان النبىّ دانيال و لم يكونوا يعرفوه و رأوا أهل السوس يتبرّكون و يستسقون به، و جسده لم يبلى، فكتب أبو موسى إلى عمر بذلک، فسأل عمر أكابر الصحابة عن ذلک فلم يجد عندهم فيه خبرا، و أنّى لهم بالخبر؟! و هل يوجد الخبر إلّا عند من عنده و دائع النبوّة، و هو السبب المتّصل بين الأرض و السماء، و من عنده علم الكتاب؟!

فقال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام: «بلى هذا دانيال الحكيم، و هو نبىّ غير مرسل، غير أنّه فى قديم الزمان مع بختنصر و من كان بعده من الملوک ... قال: و جعل علىّ يحدّث عمر بقصّة دانيال من أوّلها إلى آخرها إلى وقت وفاته، ثمّ قال علىّ: اكتب إلى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۲

صاحبک أن يصلّى عليه و يدفنه فى موضع لا يقدر أهل السوس على قبره، قال: فكتب عمر بن الخطّاب إلى أبى موسى الأشعرى بذلک «۱»».

دوره عليه السّلام فى معركة نهاوند ... ص: ۳۸۲

و ذكر أهل التواريخ- و النصّ لابن أعثم-: «إنّ المسلمين لمّا فتحوا خوزستان تحرّكت الفرس بأرض نهاوند، و كتب بعضهم إلى بعض أن يكون اجتماعهم بها، فاجتمعوا من مدن شتّى فكانوا خمسون ألفا و مائة ألفا مع نيف و سبعين فيلا تهويلا على خيول المسلمين، و قالوا: إنّ ملک العرب الذى جاءهم بهذا الكتاب و أقام لهم هذا الدين قد هلک- يعنون بذلک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم-.. فتعالوا بنا حتّى ننفى من بقربنا من جيوش العرب، ثمّ إنّا نسير إليهم فى ديارهم فنستأصلهم عن جديد الأرض...

فبلغ الخبر المسلمين فكتبوا بذلک إلى عمر، و أنّ الفرس قد قصدوهم ثمّ يأتون بعدها إلى المدينة، و هم جمع عتيد، و بأس شديد، و دوابّ فره، و سلاح شاک، و قد هالهم ذلک و ما أتاهم من أمرهم و خبرهم.

قال- الراوى الذى يروى عنه ابن أعثم-: فلمّا ورد الكتاب على عمر بن الخطّاب و قرأه و فهم ما فيه وقعت عليه الرعدة و النفضة حتّى سمع المسلمون أطيط أضراسه، ثمّ قام عن موضعه حتّى دخل المسجد و جعل ينادى: أين المهاجرون و الأنصار؟ ألا فاجتمعوا رحمكم اللّه، و أعينونى أعانكم اللّه.

قال: فأقبل إليه الناس من كلّ جانب حتّى إذا علم أنّ الناس قد اجتمعوا و تكاملوا فى المسجد و ثب إلى منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فاستوى عليه قائما و إنّه ليرعد من شدّة غضبه على الفرس، فحمد اللّه عزّ و جلّ و أثنى عليه، و صلّى على نبيّه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم، ثمّ قال: أيّها الناس! هذا يوم غمّ و حزن، فاستمعوا ما ورد إلىّ من العراق- ثمّ قرأ عليهم ما

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۳

وصله من الكتاب- و قال: و ليست لهم- أى الفرس- همّة إلّا المدائن و الكوفة، و لئن وصلوا إلى ذلک فإنّها بليّة على الإسلام و ثلمة لا تسدّ أبدا، و هذا يوم له ما بعده من الأيام، فاللّه اللّه يا معشر المسلمين! أشيروا علىّ رحمكم اللّه...

فقام طلحة و الزبير و أشاروا عليه أن يعمل برأيه و ما يراه، و قام عبد الرحمن بن عوف و أشار عليه بأن يخرج بنفسه و يخرجوا معه، و قام عثمان بن عفّان و أشار عليه بما أشار ابن عوف، و أن يأتيه أهل الشام من شامهم، و أهل اليمن من يمنهم، و أهل الحرمين، و أهل المصرين: البصرة و الكوفة، فقال عمر: هذا أيضا رأى يأخذ بالقلب، أريد غير هذا الرأى. قال: فسكت الناس، و التفت عمر إلى علىّ عليه السّلام فقال: يا أبا الحسن! لم لا تشير بشيء كما أشار غيرك؟!

قال: فقال علىّ: يا أمير المؤمنين! إنّك قد علمت أنّ اللّه تبارك و تعالى بعث نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ليس معه ثان، و لا له فى الأرض من ناصر، و لا له من عدوه مانع، ثمّ لطف تبارك و تعالى بحوله و قوّته و طوله فجعل له أعوانا أعزّ بهم دينه، و شدّ بهم أمره، و قصم بهم كلّ جبّار عنيد، و شيطان مريد، و أرى مؤازريه و ناصريه من الفتوح و الظهور على الأعداء مادام به سرورهم، و قرّت به أعينهم، و قد تكفّل اللّه تبارك و تعالى لأهل هذا الدين بالنصر و الظفر و الإعزاز، و الذى نصرهم مع نبيّهم و هم قليلون هو الذى ينصرهم اليوم إذ هم كثيرون، و بعد.. فأبشر بنصر اللّه عزّ و جلّ الذى وعدك، و كن على ثقة من ربّك؛ فإنّه لا يخلف الميعاد، و بعد.. فقد رأيت قوما أشاروا عليك بمشورة بعد مشورة فلم تقبل ذلك منهم، و لم يأخذ بقلبك شيء ممّا أشاروا به عليك، لأنّ كلّ مشير إنّما يشير بما يدركه عقله.

و أعلمك يا أمير المؤمنين إن كتبت إلى الشام أن يقبلوا إليك من شامهم لم تأمن من أن يأتى هرقل فى جميع النصرانية فيغير على بلادهم، و يهدم مساجدهم، و يقتل رجالهم، و يأخذ أموالهم، و يسبى نساءهم و ذرّيّتهم. و إن كتبت إلى أهل اليمن أن يقبلوا من يمنهم أغارت الحبشة أيضا على ديارهم و نسائهم و أموالهم و أولادهم..

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۴

و إن سرت بنفسك مع أهل مكّة و المدينة إلى أهل البصرة و الكوفة ثمّ قصدت بهم عدوّك انتقضت عليك الأرض من أقطارها و أطرافها، حتّى أنّك تريد بأن يكون من خلّفته وراءك أهمّ إليك ممّا تريد أن تقصده و لا يكون للمسلمين كانفة تكنفهم، و لا كهف يلجؤون إليه، و ليس بعدك مرجع و لا موئل؛ إذ كنت أنت الغاية و المفزع و الملجأ، فأقم بالمدينة و لا تبرحها؛ فإنّه أهيب لك فى عدوّك و أرعب لقلوبهم، فإنّك متى غزوت الأعاجم يقول بعضهم لبعض: إن ملك العرب قد غزانا بنفسه لقلّة أتباعه و أنصاره. فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك و على المسلمين، فأقم بمكانك الذى أنت فيه و ابعث من يكفيك هذا الأمر، و السلام.

قال: فقال عمر: يا أبا الحسن! فما الحيلة فى ذلك و قد اجتمعت الأعاجم عن بكرة أبيها بنهاوند فى خمسين و مائة ألف، يريدون استئصال المسلمين؟!

قال: فقال له علىّ بن أبى طالب عليه السّلام: الحيلة أن تبعث إليهم رجلا مجرّبا، قد عرفته بالبأس و الشدّة؛ فإنّك أبصر بجندك و أعرف برجالك، و استعن باللّه و توكّل عليه و استنصره للمسلمين، فإن استنصاره لهم خير من فئة عظيمة تمدّهم بها، فإن أظفر اللّه المسلمين فذلك الذى تحبّ و تريد، و إن يكن الأخرى و أعوذ باللّه من ذلك أن تكون ردءا للمسلمين، و كهفا لهم يلجؤون إليه، و فئة ينحازون إليها.

قال: فقال له عمر: نعم ما قلت يا أبا الحسن! و لكنّى أحببت أن يكون أهل البصرة و أهل الكوفة هم الّذين يتولّون هؤلاء الأعاجم؛ فإنّهم ذاقوا حربهم و جرّبوهم و مارسوهم فى غير موطن.

قال: فقال له علىّ عليه السّلام: إن أحببت ذلك فاكتب إلى أهل البصرة أن يفترقوا على ثلاث فرق: فرقة تقيم فى ديارهم يكونوا حرسا لهم يدفعون عن حريمهم، و الفرقة الثانية فى المساجد يعمرونها بالأذان و الصلاة؛ لكى لا تعطّل الصلاة، و يأخذون الجزية من أهل العهد؛ لكى لا ينتقضوا عليك، و الفرقه الثالثة يسيرون إلى إخوانهم من أهل الكوفة، و يصنع أهل الكوفة كصنع أهل البصرة، ثمّ يجتمعون و يسيرون إلى عدوّهم فإنّ اللّه عزّ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۵

و جلّ ناصرهم عليهم و مظفرهم بهم، فثق باللّه و لا تيأس من روح اللّه، إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «۱».

قال: فلمّا سمع عمر مقالة علىّ كرّم اللّه وجهه و مشورته أقبل على الناس و قال: و يحكم! أعجزتم كلّكم عن آخركم أن تقولوا كما قال أبو الحسن، و اللّه! لقد كان رأيه رأيى الذى رأيته فى نفسى!!! ثمّ أقبل عليه عمر فقال: يا أبا الحسن! فأشر علىّ الآن برجل ترتضيه و يرتضيه المسلمون أجعله أمير و أستكفيه من هؤلاء الفرس. فقال علىّ عليه السّلام: قد أصبته. قال عمر: و من هو؟ قال: النعمان بن مقرن المزنى. فقال عمر و جميع المسلمين:

أصبت يا أبا الحسن! و ما لها من سواه» «۲».

و معركة نهاوند تعدّ المعركة المصيرية فى مواجهة المسلمين مع دولة كسرى؛ ففى فتوح البلدان للبلاذرى: «إنّ ذلك الفتح هو فتح الفتوح» «۳». و فى المصادر التاريخية الأخرى: إنّ بعد نهاوند لم تقم لدولة الفرس قائمة بعدها، و تتالت الفتوح للمدن الأخرى بكلّ سهولة.

فالباحث يرى مدى خطورة هذه المواجهة على كلّ من دولة كسرى و دولة المسلمين؛ إذ لو قدّر النصر فى هذه المعركة للأكاسرة لربّما قضوا على المسلمين حتّى ألجؤوهم إلى المدينة، كما ذكر ذلك كتاب أهل الكوفة إلى عمر.

و كذلك يرى الباحث مدى خوف و ذعر و اضطراب الخليفة عمر فى تدبير الأمر، حتّى أنّ أسنانه أخذت تصطكّ فسمع المسلمون أطيط أضراسه و أخذته الرعدة و النفضة!! فباللّه عليك هل يصلح لقيادة المسلمين رجل بهذه الأوصاف، معروف بالفرار إذا اشتدّ البأس فى الحروب، تختلط عليه الأمور إذا حمى الوطيس؟!

و هذه اللقطة التاريخية العظيمة كافية لوقوف الباحث على كون علىّ عليه السّلام قطب

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۶

الرحى فى تدبير أمور المسلمين و الفتوح التى تتالت عليهم، و تاللّه لو لا- رأيه الثاقب فى الأمور، المسدّد بالعصمة، لا نتقض نظام المسلمين و لأكلتهم الدول المحيطة بهم. و نظير هذه الحادثة حوادث أخرى، استعرضنا فى ما سبق بعضها.

وقفة مع أصحاب كتب التاريخ ... ص: ۳۸۶

إنّ الباحث فى تاريخ المسلمين يلاحظ مدى التعتيم و التضليل لحقائق الأحداث الذى مارسه كثير من مؤرّخيهم، مثل ابن جرير الطبرى (ت ۳۱۰ ه) فى تاريخه، و البلاذرى (ت ۲۷۹ ه) فى فتوح البلدان، و ابن الأثير (ت ۶۳۰ ه) فى الكامل فى التاريخ، و أمثالهم، عندما يقارن ما أرّخوه بأقلامهم بما كتبه ابن أعثم الكوفى (ت ۳۱۴ ه) فى الفتوح، و إن كانت هناك قصاصات كثيرة متناثرة تسرّبت فى ما كتبوه رغم ما مارسوه من حذف و تعتيم..

ففى وقعة نهاوند- مثلا- ترى الطبرى يحذف مقدّمة أحداث المعركة بجملتها، و اقتصر على خصوص إجمال المعركة من دون تفصيل هولها و شدّة العناء الذى لاقاه المسلمون، حتّى كادوا أن ينهزموا فى كلّ وقعات المعركة حتّى جاء الظفر، و ما عرض على الخليفة عمر من أحوال و غير ذلك ممّا مرّ، كما لم يذكر اسم من أشار عليه بالمكث، كما هى عادته فى موارد عديدة يتابعها الباحث، و مشورة علىّ عليه السّلام على أبى بكر و عمر؛ فإنّه لا يأتى بالاسم و لا ينوّه بالقائل، بل قد لا يتعرّض لحصول المشورة و يسند الرأى إلى أبى بكر و عمر، كما أنّه لم يذكر ما جرى من مقالات بين أبى بكر و رؤوساء القبائل المتمرّدة على استخلافه، كلّ ذلك لتغطية الحقائق و حقيقة الأمور فى الأحداث.

و أمّا البلاذرى فقد ذكر مسلسل الأحداث فى ما يخص معركة نهاوند موجزا «۱»، ناسبا ذلك كلّه إلى عمر دون أن يفصح بالمشير على عمر و لا حال اضطراب عمر، مع أنّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۷

يصرّح بوجود الروايات المفصّلة للأحداث «۱»، و لكنّه لم يأت بمتنها بل بشيء من ألفاظ صدرها و ذيلها باقتضاب شديد، مع أنّه روى أنّ الفتح فيها هو: فتح الفتوح، و رغم ذلك فهو يوجز الحديث عنها و يعرض عن ذكر ما ورد من روايات بشأنها..

و لكن من بعض قصاصات فتوح البلدان للبلاذرى، و أخرى من كتاب أخبار أصبهان «۲» للحافظ الأصبهانى (ت ۴۳۰ ه)، و ثالثة من كتاب الكامل «۳» لابن الأثير، و غيرها من المصادر، و من مجموع كلّ تلك القصاصات يقف الباحث على صدق الحقيقة عند ابن أعثم الكوفى فى كتابه الفتوح، و أنّ كلّ ما ذكره له جذور فى ما كتبوه، و اعترفوا ببعض خيوط الحدث.

فعلى الأمّة الإسلامية السلام إن كان باحثوها ينساقون وراء ظاهر ما كتبه هؤلاء المؤرّخون ممّن كانت له نزعات أموية أو عبّاسية أو سقيفية؛ إذ لا تجرى على لسانه و لا على قلمه أى حقيقة تاريخية تتّصل بعلىّ بن أبى طالب عليه السّلام، و لا يقرّ بحقيقة ما كان عليه الشيخان من تشتّت الأمر فى التدبير، إلّا ما تداركه علىّ عليه السّلام بالمشورة عليهما، و اشتداد الفتن بسبب استخلاف أبى بكر، و نشوب الظواهر المتكسة عن هدى الدين الحنيف، التى زرعت فى المسلمين ثمّ تورّمت و انفجرت فى عهد عثمان، فجاء علىّ عليه السّلام إلى سدّة الحكم و القيح و القروح منتشرة فى جسم الأمّة.

الملاحم التى أنبأ عليه السّلام بها و دورها فى الفتوح ... ص: ۳۸۷

و ذكر ابن أعثم فى الفتوح: إنّ أبا موسى أراد التقدّم إلى بلاد خراسان بعد فتح المسلمين بلدان فارس و كرمان، فنهاه عمر عن ذلك و قال: ما لنا و لخراسان و ما لخراسان و لنا، و لوددت أنّ بيننا و بين خراسان جبالا من حديد و بحارا و ألف سدّ، كلّ سدّ مثل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۸

سدّ يأجوج و مأجوج.

قال: فقال له علىّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه: و لم ذلك يا أمير المؤمنين؟! فقال عمر: لأنّها أرض بعدت عنّا جدّا، و لا حاجة لنا بها «۱». قال: فقال علىّ كرّم اللّه وجهه: فإن كنت قد بعدك عنك خراسان فإنّ للّه عزّ و جلّ مدينة بخراسان يقال لها: مرو، أسّسها ذو القرنين، و صلّى بها عزير ... ثمّ ذكر عليه السّلام أسماء عدّة مدن، و الملاحم التى تقع فى كلّ مدينة منها، فذكر مدن: خوارزم، بخارا، سمرقند، الشاش، فرغانة، أبيجاب، بلخ، طالقان- و ذكر أنّ للّه عزّ و جلّ فيها كنوز لا من ذهب و لا من فضّة، يكونون أنصارا للمهدى عليه السّلام فى آخر الزمان- الترمذ، و اشجردة، سرخس، سجستان، ياسوج، نيسابور، جرجان، قومس، الدامغان، سمنان، الرى، و الديلم. ثمّ سكت عليه السّلام و لم ينطق بشيء.

فقال عمر: يا أبا الحسن! لقد رغّبتنى فى فتح خراسان. قال علىّ عليه السّلام: قد ذكرت لك ما علمت منها ممّا لا شكّ فيه، فاله عنها و عليك بغيرها؛ فإنّ أوّل فتحها لبنى أمية و آخر أمرها لبنى هاشم، و ما لم أذكر منها لك هو أكثر ممّا ذكرته، و السلام «۲». و لم يقدم عمر على فتحها.

و هذا النصّ التاريخى و أمثاله ممّا تقدّم و ممّا هو منتشر فى كتب السير و التواريخ دالّ بوضوح على أنّ مخطّط الفتوح فى تفاصيله المهمّة المحورية عهد معهود من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم إلى علىّ عليه السّلام، فضلا عن الخطوط العامّة الكلّية التى أخبر عامّة أصحابه و المسلمين بها.

و قد وقعت و صدقت جملة ممّا أخبر به عليه السّلام من الملاحم بعده، بل و بعض منها بعد عصر مؤلّف كتاب الفتوح، أى ما بعد القرن الرابع، و بعضها يقارب ظهور المهدى من آل محمّد عليهم السّلام. و قد رصدت كثير من الكتب الملاحم التى أخبر بها علىّ عليه السّلام، ككتاب شرح

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۸۹

نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى، و الفتوح لابن أعثم الكوفى، و غيرها من الكتب.

دوره عليه السّلام فى النظام الاقتصادى للفتوح ... ص: ۳۸۹

و قد شاور عمر أصحاب رسول اللّه فى سواد الكوفة فقال له بعضهم: تقسمها بيننا.
فشاور عليّا فقال: إنّ قسمتها اليوم لم يكن لمن يجىء بعدنا شىء، و لكن تقرّها فى أيديهم يعملونها فتكون لنا و لمن بعدنا. فقال: وفّقك اللّه! هذا الرأى «۱».
و أنت ترى هذه السنّة من علىّ عليه السّلام، لولاها لضاع نظام التوزيع و التقسيم فى الفىء و الأراضى.

أخلاقيات الفتوحات و انتشار الدين ... ص: ۳۸۹

اشارة

و مع كلّ ما تقدّم من كون الفتوح الإسلامية عهد من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وصيّه حملها المسلمون، و أنّ تفاصيلها الخطيرة المؤثّرة فى الظفر و النصر كان صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد أودعها عليّا عليه السّلام بتوسّط العلوم اللدنية التى ورّثها إيّاه: «علّمنى رسول اللّه ألف باب يفتح من كلّ باب ألف باب»..
و مع كون أصل الفتوح انتشارا لصورة الدين فى أرجاء المعمورة إلى الحدود الجغرافية التى انتهت إليها الفتوح، إلّا أنّ الممارسات التى اعتمدتها خلافة الشيخين- فضلا عن العيث و العبث و الخضم الذى مارسه الثالث، و فضلا عمّا فعله بنى أمية و بنى العبّاس- فى كيفية فتوح البلدان، و ما تلاها من كيفية إقامة نظام الحكم فيها، حالت دون مواصلة انتشار الإسلام إلى غيرها من البلدان، و إلى باقى أرجاء المعمورة.
و كان هذان البعدان و هاتان السياستان حائلا أمام وصول الإسلام لشعوب الأرض كافّة و تحقّق الوعد الإلهى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، و سدّا كثيفا مانعا من نفوذ شعاع
الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۰
نوره إلى نفوس البشرية، فكانت الكيفيّتان سدودا اقترنت بالفتوحات. فهنا محطّات لابدّ من الوقوف عندها؛ كى يستوفى الإمعان و التدبّر فى تحليل هذه الحقبة و ما عليه المسلمون حاليا من أوضاع.

المحطّة الأولى أسباب و عوامل الظفر فى الفتوحات ... ص: ۳۸۹

اشارة

فإنّ جمهرة من محقّقى الأديان و التاريخ قد عزوها إلى أمور:

الأوّل: انجذاب أهل البلدان إلى مبادئ الدين الإسلامى العالية ... ص: ۳۹۰

فالعدل و القسط الذى نادى به القرآن الكريم و النبىّ العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و المساواة بين البشر، و كرامة الإنسان، و الكمالات الروحية و النفسية من المعرفة و العلم، التى يسعى الدين لإيصال الإنسان إليها، و تأمين الحياة الأخروية الخالدة؛ ممّا يستحسنه الإنسان و يميل إليه بفطرته.
لا سيّما و أنّ أهداف الجهاد قد حدّدها الخالق جلّ و علا، بقوله تعالى: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْیَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً* الَّذِینَ

آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِیاءَ الشَّیْطانِ إِنَّ کَیْدَ الشَّیْطانِ کانَ ضَعِیفاً»

.فأهداف الجهاد و القتال من أجلها هی رسالات اللّه تعالی و ما تسعی لتحقیقه، من إقامهٔ العدل فی الأرض، و رفع الظلم عن الناس، و استتباب الأمن بإقامهٔ حکم اللّه تعالی، لا القتال من أجل السیطرهٔ الاستعلائیهٔ لتلبیهٔ الغرائز الشهویهٔ للحاکم من العلوّ

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۹۱

و الاستکبار، أو الإفساد بالقوهٔ الفاشیهٔ من الحکّام بتوسّط القتال.

فالغایهٔ من الجهاد هی إقامهٔ حکم اللّه فی الأرض، و الحقّ و العدل، و هدم الباطل و الظلم، لا أن یستبدل باطل بلون آخر من الباطل، و الظلم بنمط آخر من الظلم؛ بأن یخرج المستضعفین فی العقیدهٔ أو المستضعفین فی الحقوق المدنیهٔ و السیاسیهٔ من کفر إلی قسم آخر من الکفر، أو من الاضطهاد الحقوقی المدنی و السیاسی إلی اضطهاد من شکل آخر؛ إذ للکفر أبواب و أقسام، کما أنّ للظلم أنواع و ألوان، بل یتحرّر الضعیف فی المعرفهٔ إلی قوی فی الإیمان و البصیرهٔ، و الضعیف فی المعیشهٔ إلی قوی فی أسباب المعاش..

فالخطاب للمؤمنین بأن یقوموا بمسؤولیهٔ النصرهٔ و التولّی للضعفاء؛ لتحلّیهم بالقوّهٔ و الإیمان و العدالهٔ، فالقتال و الجهاد لیس هویته فی الدین هو العنف و البطش الغاشم، بل هو العنف الهادم للظلم و الاستبداد؛ محبّهٔ و رحمهٔ بالضعفاء، لا ما یعود إلی الوازع الشخصی للمقاتل، و النوازع الشهویهٔ و الغضبیهٔ و الطغیان لبناء طواغیت بشریهٔ جدیدهٔ، أو لإقامهٔ شریعهٔ محرّفهٔ و سنن باطلهٔ و أهواء ضالّهٔ، بل الخلوص من کلّ الدواعی الضیّقهٔ إلی الداعی الوسیع، و هو سبیل اللّه، الذی یعمّ خیره الجمیع؛ فلا بدّ فی حال القتال و الجهاد فی سبیل اللّه من تحدید: ما هو المطلوب إقامته بعد هدم أرکان الباطل؟!

ففی صحیحهٔ یونس بن عبد الرحمن، قال: «سأل أبا الحسن علیه السّلام رجل- و أنا حاضر- فقال له: جعلت فداک! إنّ رجلا من موالیک بلغه أنّ رجلا یعطی سیفا و فرسا فی سبیل اللّه، فأتاه فأخذهما منه [و هو جاهل بوجه السبیل]، ثمّ لقیه أصحابه فأخبروه أنّ السبیل مع هؤلاء- أی بنی العبّاس- لا یجوز، و أمروه بردّهما؟!

قال: فلیفعل. قال: قد طلب الرجل فلم یجده، و قیل له: قد قضی [مضی] الرجل.

قال: فلیرابط و لا یقاتل. قلت: فی مثل قزوین و عسقلان و الدیلم، و ما أشبه هذه الثغور؟! فقال: نعم. قال: فإن جاء العدوّ إلی الموضع الذی هو فیه مرابط، کیف یصنع؟ قال:

یقاتل عن بیضهٔ الإسلام [لا عن هؤلاء]. قال: یجاهد؟ قال: لا، إلّا أن یخاف علی دار المسلمین. قلت: أرأیتک لو أنّ الروم دخلوا علی المسلمین لم ینبغ [یسع] لهم أن

الصحابهٔ بین العدالهٔ والعصمهٔ، ص: ۳۹۲

یمنعوهم؟ قال: یرابط و لا یقاتل، فإن خاف علی بیضهٔ الإسلام و المسلمین قاتل لنفسه لا للسلطان؛ لأنّ فی دروس الإسلام دروس ذکر محمّد صلّی اللّه علیه و آله» «۱».

و فی روایهٔ طلحهٔ بن زید، عن أبی عبد اللّه علیه السّلام، قال: «سألته عن رجل دخل أرض الحرب بأمان فغزا القوم الّذین دخل علیهم قوم آخرون؟ قال: علی المسلم أن یمنع نفسه و یقاتل عن حکم اللّه و حکم رسوله، و أمّا أن یقاتل الکفّار علی الجور و سنّتهم فلا یحلّ له ذلک» «۲».

و فی روایهٔ الحسن بن محبوب، عن بعض أصحابه، قال: «کتب أبو جعفر علیه السّلام فی رسالته إلی بعض خلفاء بنی أمیّهٔ: و من ذلک: ما ضیّع الجهاد الذی فضّله اللّه عزّ و جلّ علی الأعمال ... اشترط علیهم فیه حفظ الحدود، و أوّل ذلک: الدعاء إلی طاعهٔ اللّه من طاعهٔ العباد، و إلی عبادهٔ اللّه من عبادهٔ العباد، و إلی ولایهٔ اللّه من ولایهٔ العباد ... و لیس الدعاء من طاعهٔ عبد إلی طاعهٔ عبد مثله» الحدیث «۳».

و فی روایهٔ الفضل بن شاذان عن الرضا علیه السّلام فی کتابه إلی المأمون، قال: «و الجهاد واجب مع الإمام العادل [العدل]» «۴».

و فی صحیح علی بن مهزیار، قال: «کتب رجل من بنی هاشم إلی أبی جعفر الثانی علیه السّلام: إنّی کنت نذرت نذرا منذ سنین أن أخرج إلی ساحل من سواحل البحر إلی ناحیتنا ممّا یرابط فیه المتطوّعة، نحو مرابطتهم بجدّة و غیرها من سواحل البحر؛ أفتری جعلت فداک! أنّه یلزمنی الوفاء به أو لا یلزمنی، أو أفتدی الخروج إلی ذلک بشیء من أبواب البرّ لأصیر إلیه إن شاء اللّه؟

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۹۳

فکتب إلیه بخطّه و قرأته: إن کان سمع منک نذرک أحد من المخالفین فالوفاء به إن کنت تخاف شنعته، و إلّا فاصرف ما نویت من ذلک فی أبواب البرّ، وفّقنا اللّه و إیّاک لما یحبّ و یرضی» «۱».

و فی روایة أبی عمرو الزبیری، عن أبی عبد اللّه علیه السّلام، قال: «قلت له: أخبرنی عن الدعاء إلی اللّه و الجهاد فی سبیله، أهو لقوم لا یحلّ إلّا لهم، و لا یقوم به إلّا من کان منهم، أم هو مباح لکلّ من وحّد اللّه عزّ و جلّ و آمن برسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟ و من کان کذا فله أن یدعو إلی اللّه عزّ و جلّ و إلی طاعته، و أن یجاهد فی سبیل اللّه؟

فقال: ذلک لقوم لا یحلّ إلّا لهم، و لا یقوم به إلّا من کان منهم. فقلت: من أولئک؟

فقال: من قام بشرائط اللّه عزّ و جلّ فی القتال و الجهاد علی المجاهدین فهو المأذون له فی الدعاء إلی اللّه عزّ و جلّ، و من لم یکن قائما بشرائط اللّه عزّ و جلّ فی الجهاد علی المجاهدین فلیس بمأذون له فی الجهاد و الدعاء إلی اللّه حتّی یحکم فی نفسه بما أخذ اللّه علیه من شرائط الجهاد.

قلت: بیّن لی یرحمک اللّه. فقال: إنّ اللّه عزّ و جلّ أخبر فی کتابه الدعاء إلیه، و وصف الدعاة إلیه، فجعل ذلک لهم درجات یعرّف بعضها بعضا، و یستدلّ ببعضها علی بعض؛ فأخبر أنّه تبارک و تعالی أوّل من دعا إلی نفسه و دعا إلی طاعته و اتّباع أمره، فبدأ بنفسه؛ فقال: وَ اللَّهُ یَدْعُوا إِلی دارِ السَّلامِ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ «۲».

ثمّ ثنّی برسوله؛ فقال: ادْعُ إِلی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ «۳» - یعنی: القرآن- و لم یکن داعیا إلی اللّه عزّ و جلّ من خالف أمر اللّه و یدعو إلیه بغیر ما أمر فی کتابه الذی أمر أن لا یدعی إلّا به، و قال فی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی

الصحابة بین العدالة والعصمة، ص: ۳۹۴

إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ «۱» - یقول: تدعو-

ثمّ ثلّث بالدعاء إلیه بکتابه أیضا؛ فقال تبارک و تعالی: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ- أی: یدعو- وَ یُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِینَ «۲».

ثمّ ذکر من أذن له فی الدعاء إلیه بعده و بعد رسوله فی کتابه، فقال: وَ لْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّةٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۳».

ثمّ أخبر عن هذه الأمّة و ممّن هی، و أنّها من ذرّیّة إبراهیم علیه السّلام و ذرّیّة إسماعیل علیه السّلام من سکّان الحرم، ممّن لم یعبدوا غیر اللّه قطّ، الّذین وجبت لهم الدعوة- دعوة إبراهیم و إسماعیل- من أهل المسجد، الّذین أخبر عنهم فی کتابه أنّه أذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا، الّذین وصفناهم قبل هذه فی صفة أمّة إبراهیم، الّذین عناهم اللّه تبارک و تعالی فی قوله: أَدْعُوا إِلَی اللَّهِ عَلی بَصِیرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی «۴».

یعنی: أوّل من اتّبعه علی الإیمان به و التصدیق له بما جاء من عند اللّه عزّ و جلّ من الأمّة التی بعث فیها و منها و إلیها قبل الخلق، ممّن لم یشرک باللّه قط و لم یلبس إیمانه بظلم، و هو الشرک.

ثمّ ذکر أتباع نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أتباع هذه الأمّة التی وصفها فی کتابه بالأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و جعلها داعیة إلیه، و أذن له فی الدعاء إلیه، فقال: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَسْبُکَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ «۵».

ثمّ وصف أتباع نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من المؤمنین؛ فقال عزّ و جلّ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ

بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً «۶». الآية. و قال: يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۵

النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ «۱» – يعنى: أولئك المؤمنين – و قال: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، ثمّ حلّاهم و وصفهم كيلا يطمع فى اللحاق بهم إلّا من كان منهم؛ فقال – فى ما حلّاهم به و وصفهم – الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ...* أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ «۲».

و قال فى صفتهم و حليتهم أيضا: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ «۳» – و ذكر الآيتين –، ثمّ أخبر أنّه اشترى من هؤلاء المؤمنين و من كان على مثل صفتهم أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ؛ قام رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقال: أرأيتك يا نبيّ اللّه! الرجل يأخذ سيفه فيقاتل حتّى يقتل إلّا أنّه يقترف من هذه المحارم، أشهيد هو؟

فأنزل اللّه عزّ و جلّ على رسوله: التَّائِبُونَ – من الذنوب – الْعابِدُونَ – الّذين لا يعبدون إلّا اللّه و لا يشركون به شيئا – الْحامِدُونَ – الّذين يحمدون اللّه على كلّ حال فى الشدّة و الرخاء – السَّائِحُونَ – و هم الصائمون – الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ – و هم الّذين يواظبون على الصلوات الخمس و الحافظون لها و المحافظون عليها فى ركوعها و سجودها و فى الخشوع فيها و فى أوقاتها – الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ – بعد ذلك و العاملون به – وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ – و المنتهون عنه – «۴».

قال: فبشّر من قتل و هو قائم بهذه الشروط بالشهادة و الجنّة. ثمّ أخبر تبارك و تعالى أنّه لم يأمر بالقتال إلّا أصحاب هذه الشروط؛ فقال عزّ و جلّ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ «... ۵»، و إنّما أذن للمؤمنين الّذين قاموا بشرائط الإيمان التى وصفناها، و ذلك أنّه لا يكون مأذونا فى القتال حتّى يكون مظلوما، و لا يكون مظلوما حتّى يكون مؤمنا، و لا يكون مؤمنا حتّى يكون قائما بشرائط الإيمان

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۶

التى اشترط اللّه عزّ و جلّ على المؤمنين و المجاهدين.

فإذا تكاملت شرائط اللّه عزّ و جلّ كان مؤمنا، و إذا كان مؤمنا كان مظلوما، و إذا كان مظلوما كان مأذونا له فى الجهاد؛ لقول اللّه عزّ و جلّ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. و إن لم يكن مستكملا لشرائط الإيمان فهو ظالم ممّن ينبغى و يجب جهاده حتّى يتوب، و ليس مثله مأذونا له فى الجهاد و الدعاء إلى اللّه عزّ و جلّ؛ لأنّه ليس من المؤمنين المظلومين الّذين أذن لهم فى القرآن فى القتال ... و من كان على خلاف ذلك فهو ظالم...

و لا يكون مجاهدا من قد أمر المؤمنون بجهاده و حظر الجهاد عليه و منعه منه، و لا يكون داعيا إلى اللّه عزّ و جلّ من أمر بدعائه مثله إلى التوبة و الحقّ و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به، و لا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه...

و لسنا نقول لمن أراد الجهاد و هو على خلاف ما وصفنا من شرائط اللّه عزّ و جلّ على المؤمنين و المجاهدين: لا تجاهدوا. و لكن نقول: قد علّمناكم ما شرط اللّه عزّ و جلّ على أهل الجهاد ... فليصلح امرؤ ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك، و ليعرضها على شرائط اللّه عزّ و جلّ » «... ۱».

و فى صحيح عبد الكريم بن عتبة الهاشمى، عن الصادق عليه السّلام، عن أبيه عليه السّلام ...: « أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: من ضرب الناس بسيفه و دعاهم إلى نفسه و فى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلّف» «۲».

و فى موثّق سماعة، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: «لقى عبّاد البصرى علىّ بن الحسين عليه السّلام فى طريق مكّة فقال له: يا علىّ بن الحسين! تركت الجهاد و صعوبته و أقبلت

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۷

على الحجّ ولينه، إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ «۱». الآية. فقال عليّ بن الحسين صلوات اللّه عليه: أتمّ الآية. فقال: التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ ... الآية. فقال عليّ بن الحسين عليه السّلام: إذا رأينا هؤلاء الّذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ» «۲».

و في رواية أخرى: إنّ السائل قرأ الآية إلى: وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ. قال: فقال عليّ بن الحسين عليه السّلام: «إذا ظهر هؤلاء لم نؤثر على الجهاد شيئا» «۳».

و في رواية أبي بصير، عن الصادق عليه السّلام، عن آبائه عليهم السّلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن على الحكم و لا ينفّذ في الفيء أمر اللّه عزّ و جلّ، فإنّه إن مات في ذلك المكان كان معينا لعدوّنا في حبس حقّنا، و الإشاطة بدمائنا، و ميتته ميتة جاهلية» «۴».

و روى الطوسي و المفيد بسند إلى عليّ عليه السّلام، أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال له: «يا عليّ! إنّ اللّه تعالى قد كتب على المؤمنين الجهاد في الفتنة من بعدي كما كتب عليهم جهاد المشركين معي. فقلت: يا رسول اللّه! و ما الفتنة التي كتب علينا فيها الجهاد؟

قال: فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّي رسول اللّه و هم مخالفون لسنّتي، و طاعنون في ديني. فقلت: فعلام نقاتلهم يا رسول اللّه و هم يشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّك رسول اللّه؟ فقال: على إحداثهم في دينهم، و فراقهم لأمري، و استحلالهم دماء عترتي». الحديث «۵».

و في رواية الهيثم الرمّاني عن الرضا عليه السّلام: إنّ عليّا عليه السّلام ترك جهاد أعدائه خمسا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۸

و عشرين سنة لقلّة أعوانه عليهم، مقتديا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ إذ ترك صلّى اللّه عليه و آله و سلم جهاد المشركين ثلاث عشرة سنة في مكّة، و تسعة عشر شهرا في المدينة لقلّة أعوانه عليهم «۱».

و من كلّ ذلك يتبيّن أنّ تحديد القيادة التي تقود و تحكم أمر مصيري في البديل الذي يراد بناؤه، و بالتالي الأهداف المراد إقامتها، فليس الجهاد من أجل جمع الثروات و الأموال و توسيع السلطة، بل هو لإقامة العدل و الفضيلة و الإيمان، و هذا يتوقّف على القائد و الوليّ المتّصف بذلك كي تتحقّق هذه الأهداف.

و من ثمّ أطلق على النظام البديل الذي حلّ في البلدان المفتوحة: دار الإسلام، لا دار الإيمان، في روايات وفقه أهل البيت عليهم السّلام، و قد مرّت بعض تلك الروايات، و بعضها يتضمّن تسميتها ب: دار الفاسقين؛ إذ أنّ الإسلام يجتمع مع الفسق، و التسمية تتبع نظام الحكم و صفة الحاكم. و يطلق عليها أيضا: دار التقية، كما في رواية الفضل عن الرضا عليه السّلام «۲»، و دار الهدنة، كما في صحيح محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السّلام: «إنّ القائم- عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف- إذا قام يبطل ما كان في الهدنة ممّا كان في أيدي الناس، و يستقبل بهم العدل» «۳».

و الوجه في ذلك كلّه أنّ دين الإسلام ليس شعارا أجوف خال و لقلقة لسان، بل هو نظام متكامل مجموعي موحّد.

الثاني- من أسباب الظفر- انجذاب البلدان المجاورة إلى سيرة النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم المباركة ... ص: ۳۹۹

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۳۹۹

فإنّه تسامع بها الأطراف و النواحي المختلفة من البلدان، و طار صيتها كنموذج للحاكم المثالي هديا و زهدا و خلقا، و أخذت القلوب تخفق لمثل هذا الحلم الذي لم تعهده البشرية من قبل، و في هذا المجال هناك ملف كبير جدّا من الموارد التي يقف عليها المتتبع.

الثالث: معاناة الشعوب ... ص: ۳۹۹

مكابدة الشعوب البشرية فى البلاد عبر التاريخ لأنواع الظلم و الاستعباد، و تطلّعها إلى النجاة و التحرّر من تسلّط الملوک الغاشمين، و لتبديل نظامهم الاجتماعى و السياسى المبنى على فرض الكثير من القيود و الأغلال. و قد أعانوا جيوش المسلمين فى اكتشاف مواقع الضعف و الاختراق فى جيوش كسرى و قيصر، و هناک مسلسل للشواهد على ذلک فى كتب الفتوح للبلدان.

الرابع: بشائر القرآن و النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالفتوحات ... ص: ۳۹۹

هذه البشائر كانت عهد عهد به النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم كوظيفة و مسؤولية على المسلمين، ممّا كان يبعث الأمل عند المسلمين، و يرفع من هممهم.

الخامس: تدبير النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علىّ عليه السّلام ... ص: ۳۹۹

و ذلک بعهده تفاصيل خطط الفتوح فى المواضع الشريانية إلى علىّ عليه السّلام، مضافا إلى تدبير علىّ عليه السّلام بما يشير به على الثلاثة كلمّا اضطرب عليهم الأمر و تشتّت لديهم الأمور و استعصت، كما مرّ استعراض مقتطفات من ذلک.

السادس: قوّة البناء الاجتماعى الدينى ... ص: ۳۹۹

الذى بناه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على أنقاض المجتمع الجاهلى، و الذى حمل الكثير من عناصر
الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۰
الإعجاز الحضارى، مثل: روح التضحية و الفداء و الشهادة، و التشكيلة الجديدة للعلائق الاجتماعية- و إن كان هذا البناء هو فى طوره الأوّل فى النمو، و قد اعتوره آثار و بقايا الجاهلية السابقة، المتمثّلة بتدبير السقيفة و تغيير رأس نظام المسلمين- لا سيّما و أنّ المسلمين شاهدوا أيّام الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم تحقّق الوعد الإلهى بنصر الروم، بل العرب، على الفرس و كسرى؛ فقد كانت قبائل العرب- و فيها الكثير ممّن أسلم- ترفع شعار: «يا محمّد يا محمّد» فى معركة ذى قار فهزموا عدوهم، و قال عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أوّل معركة انتصف فيها العرب من العجم، و بى نصروا» «۱».
مضافا إلى ناموس العدالة و المساواة و السوية بين آحاد المسلمين، الذى أصبح أصلا اجتماعيا عظيما يهدّد كلّ أمير أو خليفة يحاول أن يعتمد الإقطاع القبلى الجاهلى أساسا فى سياسته و حكمه للمسلمين، و إلى درجة يهابها و يحسب لها ألف حساب.
و هذه الظاهرة هى التى حاكمت الخليفة الثالث و قضت عليه، و هى التى خنقت و حاصرت حزب السقيفة و الحزب القرشى عن التلاعب فى كلّ مقدرات المسلمين إلى حدّ ما نسبيا، لكن هذه الظاهرة النيرة سرعان ما تضاءلت عند وصول الأمويّين إلى سدة الحكم، و ذلک لأنّ النور لا بدّ له من مدد، و قد ضيّع المسلمون المدد، و هو رأس السلطة الهادى إلى الحقّ، الإمام المعصوم.

المحطّة الثانية الممارسات المرتكبة فى البلدان المفتوحة ... ص: ۴۰۰

اشارة

نتعرّض- فى هذه المحطّة- إلى مقتطفات من ملف هذه الممارسات، و ما ارتكب منها فى أثناء الفتح و ما بعده، و التى عادت

بانتكاس الخطّ البيانى لانتشار الإسلام. فنذكر

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۱

نتفا من ذلك:

الأوّل: إدخال الطلقاء من قريش فى سدّة الأمور ... ص: ۴۰۱

و هؤلاء حديثو عهد بالإسلام و أحكامه، لم يسلموا طوعا و رغبة، بل رهبة منهم على نوازع الجاهلية و أخلاقها، فصبغت سلوكياتهم الأحداث. فقد ذكر اليعقوبى: أنّ أبا بكر لمّا أراد غزو الروم أشار عليه الصحابة بأن لا يفعل، و أشار عليه علىّ عليه السّلام بأن يفعل و بوقوع الظفر، فأمر الناس بالتجهّز إلى الروم و الخروج، و جعل أميرهم خالد بن سعيد، و كان خالد من عمّال رسول اللّه باليمن، فقدم و قد توفّى رسول اللّه فامتنع عن البيعة و مال إلى بنى هاشم، فلمّا عهد أبو بكر لخالد قال له عمر: أتولّى خالدا و قد حبس عنك بيعته و قال لبنى هاشم ما قد بلغك؟ فو اللّه ما أرى أن توجّهه. فحلّ لواءه، و دعا يزيد بن أبى سفيان و أبا عبيدة بن الجرّاح و شرحبيل بن حسنة و عمرو بن العاص، فعقد لهم «۱». و هذه سياسة اتّبعتها سلطة السقيفة لإبعاد المهاجرين و الأنصار و تقريب الطلقاء.

و نظيره عندما استعصى الأمر على أبى بكر فى مواجهة قبائل كندة و الأشعث بن قيس، فعزم على الاستعانة بعلىّ عليه السّلام فى المواجهة، فمنعه عمر من ذلك؛ تخوّفا من موقف علىّ عليه السّلام بعدم حكمه بردّتهم، و أمره بتأمير عكرمة بن أبى جهل «۲».

و لمّا استتمّت فتوح فارس و كان لعمّار بن ياسر الدور الكبير فى تجهيز الجيوش فيها، كتب أهل الكوفة إلى عمر يشكونه من عمّار و يسألونه أن يعزله عنهم، فقال عمر:

أيّها الناس! ما تقولون فى رجل ضعيف غير أنّه مسلم تقى، و آخر فاجر قوىّ، أيّهما أصلح للإمارة؟! فأشار عليه المغيرة بن شعبة بأنّ: القوى الفاجر فجوره على نفسه و قوّته لك و للمسلمين. فقال عمر: صدقت يا مغيرة! اذهب فقد ولّيتك الكوفة»

.الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۲

و هذا النصّ يظهر لنا منطق سلطة السقيفة فى تنصيب أمراء الجيوش و الولاة بأنّ الفجور غير ضارّ، و هو مع قوّة بطش الأمير و الوالى أصلح من التقى و المتورّع عن المحارم، و إلّا فكيف يكون عمّار بن ياسر ضعيفا فى ولايته على الكوفة مع أنّه هو الذى عبّأ أهل الكوفة مرّات و كرّات لحرب دولة الأكاسرة، و يكون المغيرة بن شعبة أصلح لولاية الكوفة مع فجوره و اشتهاره بالزنا فى البصرة؟!

و قد اعترض على عمر فى سياسته هذه؛ و تعرّض للمساءلة عن سبب استعماله سعيد بن العاص و معاوية و فلانا و فلانا من المؤلّفة قلوبهم و من الطلقاء، و تركه استعمال المهاجرين و الأنصار «۱». و اعترض حذيفة على عمر: إنّك تستعين بالرجل الفاجر. فقال عمر: إنّى لأستعمله لأستعين بقوّته، ثمّ أكون على قفائه «۲».

و قد دافع البيهقى عن فعل عمر بأنّ: «ذلك فى المنافقين الّذين لم يعرفوا بالتخذيل و الإرجاف. و اللّه أعلم» «۳». رغم أنّ عمر روى عن الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم قوله: «من استعمل فاجرا و هو يعلم أنّه فاجر فهو مثله» «۴»، و قال عمر: «نستعين بقوّة المنافق و إثمه عليه» «۵».

و المتتبّع لأمراء الجيوش و الولاة فى عهد الثلاثة يرى الكثير منهم من المؤلّفة قلوبهم و الطلقاء من قريش، أو مسلمة قبيل الفتح، كخالد بن الوليد و أمثاله، و السبب الحقيقى وراء ذلك هو أنّ جماعة السقيفة إنّما أتوا إلى السلطة بفضل قوّة الإرهاب القبلى الذى مارسه حزب قريش و بنو أمية على المسلمين فى المدينة أيام السقيفة- كما ترصده الأحداث آنذاك- و تعاقد الصحيفة التى مرّت الإشارة إليها، فمصدر قوّة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۳

الخلفاء لم يكن من المهاجرين و الأنصار بل من الحماية القبلية من قريش الطلقاء و حلفائها.

روى ابن أعثم رسالة عمر إلى يزيد بن أبى سفيان: «اعلم أنّه بعد أن مات كلّ من الأمراء أبو عبيدة بن الجرّاح و معاذ بن جبل و خالد بن الوليد فإنّ زمام أمور جيش المسلمين قد سلّمت لك، فنفّذ ما جاء فى هذه الرسالة كما هو معهود بك من شهامة كاملة و حصافة فى الرأى!!!!» «۱».

و حينما مات يزيد بن أبى سفيان والى عمر على الشام اغتمّ أبو سفيان فقال له عمر:

سأرسل ولدك الآخر معاوية. فسرّ أبو سفيان بذلك و قال ...: لقد وصلت الرحم ... و قالت هند ...: و لتكن إمارة الشام مباركة على معاوية» «۲».

و هذه نبذة ممّا يجده المتتبع فى كتب السير و التواريخ.

الثانى: التكالب على الأموال و الثروات و الشهوات ... ص: ۴۰۳

و هذا الملف أيضا حافل، نقتصر منه على نتف؛ فقد ذكر أنّه دخل عبد الرحمن بن عوف على أبى بكر فى مرضه الذى توفّى فيه فقال: «كيف أصبحت يا خليفة رسول اللّه؟! فقال: أصبحت مولّيا، و قد زدتمونى على ما بى أن رأيتمونى استعملت رجلا منكم فكلّكم قد أصبح و ارم أنفه، و كلّ يطلبها لنفسه» «۳». و ذيل كلامه و إن كان يبيّن التكالب على الخلافة نفسها فيما بين أصحاب السقيفة أنفسهم، إلّا أنّ صدره عامّ لمطلق إمارة الجيش و السرايا و الولاة.

و روى إبراهيم بن عبد الرحمن- بن عوف- أنّ رجلا- قال لأبيه: «قد جئت لأمر و قد رأيت أعجب منه؛ هل جاءكم إلّا ما جاءنا؟! أم هل علمتم إلّا ما علمنا؟! قال عبد الرحمن:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۴

لم يأتنا إلّا ما قد جاءكم، و لم نعلم إلّا ما علمتم. قال: فما لنا نزهد فى الدنيا و ترغبون فيها، و نخفّ فى الجهاد و تتشاغلون عنه، و أنتم سلفنا و خيارنا و أصحاب نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! قال عبد الرحمن: لم يأتنا إلّا ما جاءكم، و لم نعلم إلّا ما قد علمتم، و لكنّا بلينا بالضرّاء فصبرنا و بلينا بالسرّاء فلم نصبر» «۱».

و هذا النصّ التاريخى يبيّن مدى إقبال و حرص أصحاب السقيفة على الدنيا، ممّا سبّب الريبة فى الدين لدى عامّة الناس؛ إذ يرون جملة من الصحابة التى كانت تحيط بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم هم رؤوس للأطماع الدنيوية، و من ثمّ كان أحد الأسباب الكبرى لتمرّد أو ردّة القبائل العربية هو مشاهدتهم خيانة صحابة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم لعهد اللّه و رسوله فى الإمارة لعلىّ عليه السّلام.

و كتب عمر إلى عياض بن غنم بأنّه: قد بلغه أنّ يزيد بن أبى سفيان أرسل إليه مددا بقيادة بسر بن أرطأة إلّا أنّه رفض المدد. فأجابه عياض: أنّ بسر بن أرطأة قد طالبه بجزء من غنائم مدينتى الرقّة و الرها، فقال له: لا حقّ لك بالغنائم؛ لأنّهما فتحتا قبل وصوله، و وعده بالشركة فى غنائم الفتوح اللاحقة. فرفض بسر بن أرطأة و لم يرض، و خشى عياض أن يحصل شىء من التمرّد و اختلاف قلوب العساكر، فأمره بالعودة «۲».

و لمّا فتح المسلمون بعض مدن فارس، كالسوس و تستر، اختصم أهل البصرة و أهل الكوفة حتّى كاد أن يقع بينهم شىء من المكروه «۳».

و قد نازع رجل من عنز، يقال له: ضبّة بن محصن العنزى، أبا موسى الأشعرى فى الغنائم، فأرسله إلى عمر بن الخطّاب، و عنّفه عمر قبل أن يسأله عن سبب المنازعة، فغضب العنزى و أراد الانصراف، ثمّ سأله عن السبب؟ فقال: لأنّه- أى أبو موسى الأشعرى- اختار ستّين غلاما من أبناء الدهاقين فاتّخذهم لنفسه، و له جارية يقال لها: عقيلة،

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۵

يغذّيها بجفنة ملآنة عراقا- المفطام من الغنم إذا كان عليه شيء من اللحم- و يعشّيها بمثل ذلك، و ليس منّا من يقدر على ذلك، و له خاتمان يختم بهما، و له قفيزان يكتال بأحدهما لنفسه و يكيل بالآخر لغيره، و أنّه يمنع من غنيمة رامهرمز خصوص أهل الكوفة- بدعوى إعطائهم الأمان مدّة- دون أهل البصرة.

و قد تكرّرت هذه الدعوى ضدّ أبى موسى الأشعرى فى عدّة مدن، فأحضر عمر أبا موسى و ساءله عن ذلك، إلّا أنّه لم يتعدّ المشادّة فقط، و مع ذلك أبقاه عمر فى عمله، و أخذ عقيلة منه بثمنها، و كانت عند عمر إلى أن قتل عنها، كما جاء نصّ ذلك باللفظ عند ابن أعثم «۱»، و الظريف تخصيص عمر الجارية لنفسه كمعالجة للحيف و الجور الحاصل.

و عن عبد الرحمن بن أبى بكرة: أنّ أبا بكرة و زيادا و نافعا و شبل بن معبد كانوا فى غرفة و المغيرة فى أسفل الدار، فهبّت ريح فرأوا المغيرة بين رجلى امرأة- أمّ جميل- يزنى بها، فقال له أبو بكرة: إنّه قد كان من أمرك ما قد علمت فاعتزلنا. قال: و ذهب ليصلّى بالناس الظهر فمنعه أبو بكرة، و قال له: و اللّه لا تصلّى بنا و قد فعلت ما فعلت. فقال الناس: دعوه فليصلّ فإنّه الأمير، و اكتبوا إلى عمر. فلمّا شهدوا عليه عنده و بقى زياد قال عمر: ما يثنى زياد عن الشهادة. مع أنّ ما قاله زياد يلازم تحقّق الزنا «۲».

و ذكرت عدّة من المصادر عن المأمون العبّاسى إفصاحه عن هذه الظاهرة فى المناظرة التى جرت بينه و بين فقهاء العامّة؛ فقد روى صاحب كتاب البرهان بسنده المتّصل عن أبى إسماعيل «۳»، و ابن عبد ربّه فى العقد الفريد، و الصدوق فى عيون أخبار الرضا عليه السّلام «۴»، عن أبى إسماعيل بن إسحاق بن حمّاد، و اللفظ له، قال: بعث إلىّ و إلى عدّة من المشايخ يحيى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۶

ابن أكثم القاضى، فأحضرنا و قال...:

ثمّ قال المأمون: يا إسحاق! أو ما علمت أنّ جماعة من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لمّا أشاد بذكر علىّ و بفضله، و طوّق أعناقهم ولايته و إمامته، و بيّن لهم أنّه خيرهم من بعده، و أنّه لا يتمّ لهم طاعة اللّه إلّا بطاعته، و كان فى جميع ما فضّله به نصّ على أنّه ولىّ الأمر بعده، قالوا: إنّما ينطق النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن هواه، و قد أضلّه حبّه ابن عمّه و أغواه. و أطنبوا فى القول سرّا؛ فأنزل اللّه المطّلع على السرائر: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى* ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى* وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «۱»؟!

ثمّ قال: يا إسحاق! إنّ الناس لا يريدون الدين إنّما أرادوا الرئاسة، و طلب ذلك أقوام فلم يقدروا عليه بالدنيا فطلبوا ذلك بالدين، و لا حرص لهم عليه، و لا رغبة لهم فيه؛ أما تروى أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال: يذاد قوم من أصحابى عن الحوض فأقول: يا ربّ أصحابى أصحابى. فيقال لى: إنّك لا تدرى ما أحدثوا بعدك و رجعوا القهقرى؟!

الحديث الذى ذكره المأمون العبّاسى قد رواه البخارى و مسلم فى صحيحهما فى كتاب الفتن، إضافة إلى العديد من الروايات الأخرى عن إحداث الصحابة فى الدين و تبديلهم، و الحيلولة بينهم و بين الحوض.

و روى البخارى أيضا حول الفتوح حديثا بسنده عن هند بنت الحارث الراوسية، قالت: «إنّ أمّ سلمة زوج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم قالت: استيقظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليلة فزعا يقول:

سبحان اللّه! ماذا أنزل اللّه من الخزائن؟! و ماذا أنزل من الفتن؟! من يوقظ صواحب الحجرات- يريد أزواجه- لكى يصلّين؟ ربّ كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة» «۲».

و قال ابن حجر: «قال ابن بطال: فى هذا الحديث: فى الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه فيقع القتال بسببه، أو أن يبخل به فيمنع الحقّ، أو يبطر صاحبه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۷

فيسرف، فأراد صلّى اللّه عليه و آله و سلم تحذير أزواجه من ذلك كلّه، و كذا غيرهنّ ممّن بلغه ذلك» «۱». و لا- يخفى أنّ ذيل

الحديث دالّ على سوء عاقبة بعض الأزواج؛ فإنّ التعبير ب: «كاسية فى الدنيا» للدلالة على الشرف بالزواج منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و: «العارية فى الآخرة» كناية عن سوء المنقلب فى الآخرة.

و أمّا نزو خالد بن الوليد على الدماء و النساء فقد ذكرت كتب التواريخ أنّ فى حروب الردّة مع كندة أو هم مجاعة الحنفى ابن الوليد فى حرب اليمامة- التى تزعمّها مسيلمة الكذّاب، و قتل فيها أعداد كبيرة من المسلمين و قرّاء القرآن و حفّاظه- على الصلح لصالح قومه، ثمّ خطب خالد ابنة مجاعة فزوّجه إيّاها مباشرة بعد الحرب و لمّا تجفّ دماء المسلمين و من دون مراعاة للروح المعنوية و النفسية للمسلمين، و قال حسّان فى ذلك:

أترضى بأنّا لا تجفّ دماؤنا و هذا عروس باليمامة خالد «۲»

إلّا أنّ أبا بكر لم يعزله و أبقاه «۳».

و قصّة خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة مشهورة معروفة، و أنّه عرف إسلامه و صحبته لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، إلّا أنّ خالدا رأى امرأته فأعجبه جمالها فقتل مالك و جماعة من قومه و تزوّج امرأته، فاستنكر أبو قتادة على أبى بكر ذلك و حلف ألّا يسير تحت لواء خالد؛ لأنّه قتل مالكا مسلما و غدر به و فجر بامرأته «۴». و كذلك شأن خالد لمّا قتل ضرار بن الأزور فتزوّج امرأته و هى فى عدّتها «۵».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۸

و قد عقد الشيخ الأمينى قدّس سرّه فى الغدير فصلا عن الكنوز المكتنزة لدى أكابر الصحابة، ك: طلحة بن عبيد اللّه التيمى، عبد الرحمن بن عوف الزهرى، زيد بن ثابت، سعد بن أبى وقّاص قائد جيوش الفتوح، و الزبير ابن العوّام، و غيرهم ك: يعلى بن أمية، أبى سفيان، مروان، و من شاكلهم من بقية الطلقاء «۱».

فقد كان طلحة يغلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، و يغلّ بالسراة عشرة آلاف دينار، و كان غلّته كلّ يوم ألف واف، و الوافى وزن الدينار، و أنّه ترك ألفى ألف درهم- أى مليونى درهم- و مائتى ألف درهم و مائتى ألف دينار، و ذكرت أرقام كبيرة جدّا لكلّ واحد منهم؛ فلاحظ ما نقله الأمينى عن مصادر السير و التواريخ العديدة من هذه الأرقام الدالّة على ثراء فاحش جدّا «۲».

و قد تقدّم الاعتراض على عمر فى استعماله سعيد بن العاص و معاوية و غيرهم من الطلقاء، مع أنّ سعيد هذا يقول بأنّ: هذا السواد- العراق- بستان لأغيلمة من قريش. و اعترض شبل بن خالد عليهم: ما لكم يا معشر قريش؟! أما فيكم صغير تريدون أن ينبل، أو فقير تريدون غناه، أو خامل تريدون التنويه باسمه؟! علام أقطعتم هذا الأشعرى- يعنى أبا موسى- العراق يأكلها هضما.

و هذه النصوص تدلّ على مدى تحكّم الحزب القرشى الطليق فى مقاليد الحكم أيام حكومة الشيخين فضلا عن الثالث، و أنّ الثلاثة ما كانوا إلّا واجهة لتحكّم الحزب فى مقاليد الأمور، و أنّ هذا الحزب هو الذى جاء بالثلاثة ضمن مخطّط أعدّ بإتقان منذ أوائل البعثة النبوية.

إنّ نظرة سريعة إلى الثروات المتكدّسة من الفتوحات توضّح معالم الأغراض وراءها، و الأسلوب الممارس فيها، المباين للنهج المرسوم فى الكتاب و السنّة النبويّة، سيرة و أقوالا.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۰۹

قال العلّامة الأمينى «۱» فى جرده لثروات عدّة من الأسماء:

منهم: سعد بن أبى وقّاص؛ قال ابن سعد: ترك سعد يوم مات مائتى ألف و خمسين ألف درهم، و مات فى قصره بالعقيق؛ و قال المسعودى: بنى داره بالعقيق فرفع سمكها و وسع فضائها، و جعل أعلاها شرفات «۲».

و منهم: زيد بن ثابت. قال المسعودى: خلف من الذهب و الفضّة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال و الضياع بقيمة مائة

ألف دينار «۳».

و منهم: عبد الرحمن بن عوف الزهرى؛ قال ابن سعد: ترک عبد الرحمن ألف بعير و ثلاثة آلاف شاة و مائة فرس ترعى بالبقيع، و كان يزرع بالجرف على عشرين ناضحا، و قال: و كان فى ما خلّفه ذهب قطّع بالفؤوس حتّى مجلت أيدى الرجال منه، و ترک أربع نسوة فأصاب كلّ امرأة ثمانون ألفا. و قال المسعودى: ابتنى داره و وسّعها، و كان على مربطه مائة فرس، و له ألف بعير، و عشرة آلاف من الغنم، و بلغ بعد وفاته ثمن ماله أربعة و ثمانين ألفا «۴».

و منهم: يعلى بن أميّة؛ خلّف خمسمائة ألف دينار و ديونا على الناس و عقارات و غير ذلک من التركة ما قيمته مائة ألف دينار «۵».

و منهم: طلحة بن عبيد اللّه التيمى؛ ابتنى دارا بالكوفة تعرف بالكناس بدار الطلحتين، و كانت غلّته من العراق كلّ يوم ألف دينار، و قيل أكثر من ذلک، و له

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۰

بناحية سراة أكثر ممّا ذكر، و شيّد دارا بالمدينة و بناها بالآجر و الجصّ و الساج، و عن محمّد بن إبراهيم، قال: كان طلحة يغلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، و يغلّ بالسراة عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقلّ. و قال سفيان بن عيينة: كان غلّته كلّ يوم ألف وافيا. و الوافى وزنه وزن الدينار. و عن موسى بن طلحة: إنّه ترک ألفى ألف درهم و مائتى ألف درهم و مائتى ألف دينار، و كان ماله قد اغتيل. و عن إبراهيم بن محمّد بن طلحة: كان قيمة ما ترک طلحة من العقار و الأموال و ما ترک من النافىّ ثلاثين ألف ألف درهم، ترک من العين ألفى ألف و مائتى ألف درهم و مائتى ألف دينار و الباقى عروض. و عن عمرو بن العاص: إنّ طلحة ترک مائة بهار فى كلّ بهار ثلاثة قناطير ذهب، و سمعت أنّ البهار: جلد ثور، و فى لفظ ابن عبد ربّه من حديث الخشنى: وجدوا فى تركته ثلاثمائة بهار من ذهب و فضّة. و قال ابن الجوزى: خلّف طلحة ثلاثمائة جمل ذهبا. و أخرج البلاذرى من طريق موسى بن طلحة، قال: أعطى عثمان طلحة فى خلافته مائتى ألف دينار، و قال عثمان: و يلى على ابن الحضرمية (يعنى طلحة) أعطيته كذا و كذا بهارا ذهبا و هو يروم دمى يحرّض على نفسى «۱».

و منهم: الزبير بن العوّام؛ خلّف- كما فى صحيح البخارى- إحدى عشرة دارا بالمدينة، و دارين بالبصرة، و دارا بالكوفة، و دارا بمصر، و كان له أربع نسوة فأصاب كلّ امرأة بعد رفع الثلث ألف ألف و مائتا ألف، قال البخارى: فجميع ماله خمسون ألف ألف و مائتا ألف، و قال ابن الهائم: بل الصواب أنّ جميع ماله حسبما فرض: تسعة و خمسون ألف ألف و ثمانمائة ألف «۲».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۱

و منهم: عثمان بن عفّان؛ قال محمّد بن ربيعة: رأيت على عثمان مطرف خزّ ثمنه مائة دينار، فقال: هذا لنائلة كسوتها إيّاه، فأنا ألبسه أسرّها به، و قال أبو عامر سليم:

رأيت على عثمان بردا ثمنه مائة دينار. قال البلاذرى: كان فى بيت المال بالمدينة سفط فيه حلىّ و جواهر فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه فى ذلک و كلّموه فيه بكلام شديد.. و جاء إليه أبو موسى بكيلة ذهب و فضّة فقسّمها بين نسائه و بناته، و أنفق أكثر بيت المال فى عمارة ضياعه و دوره.

و قال ابن سعد: كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم و خمسمائة ألف درهم، و خمسون و مائة ألف دينار، فانتهبت و ذهبت.. و ترک ألف بعير بالربذة و صدقات ببراديس و خيبر و وادى القرى قيمة مائتى ألف دينار. و قال المسعودى: بنى فى المدينة دارا و شيّدها بالحجر و الكلس و جعل أبوابها من الساج و العرعر، و اقتنى أموالا و جنانا و عيونا بالمدينة. و ذكر عبد اللّه بن عتبة: إنّ عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون و مائة ألف دينار و ألف ألف درهم، و قيمة ضياعه بوادى القرى و حنين و غيرهما مائة ألف دينار، و خلّف خيلا كثيرا و إبلا. و قال الذهبى: كان قد صار له أموال عظيمة، و له ألف مملوک «۱».

و أمّا أعطيات عثمان إبّان حكمه فقد جردها العلّامة الأمينى فى غديره عن المصادر المزبورة، فقد أعطى:

۱. مروان، خمسمائة ألف دينار.

۲. ابن أبی سرح، مائة ألف دينار.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۲

۳. طلحة، مائتا ألف دينار.

۴. عبد الرحمن بن عوف، ألفا ألف و خمسمائة و ستّين ألف دينار.

۵. يعلى بن أميّة، خمسمائة ألف دينار.

۶. زيد بن ثابت، مائة ألف دينار.

۷. ما اقتصّه لنفسه فی بعض الموارد، مائة و خمسون ألف دينار.

۸. ما اقتصّه لنفسه فی بعض آخر من الموارد، مائتا ألف دينار.

و يبلغ المجموع أربعة ملايين و ثلاثمائة و عشرة آلاف دينار.

و فی مجموعة أخرى من الأعطيات:

۹. الحكم، ثلاثمائة درهم.

۱۰. آل الحكم، ألفا ألف و عشرون درهم.

۱۱. الحارث، ثلاثمائة درهم.

۱۲. سعيد، مائة ألف درهم.

۱۳. عبد اللّه، ثلاثمائة ألف درهم.

۱۴. الوليد بن عقبة، مائة ألف درهم.

۱۵. عبد اللّه، مرّة أخرى، ستّمائة ألف درهم.

۱۶. أبو سفيان، مائتا ألف درهم.

۱۷. مروان، مرّة أخرى، مائة ألف درهم.

۱۸. طلحة، مرّة أخرى، ألفا ألف و مائتا ألف درهم.

۱۹. طلحة، مرّة ثالثة، ثلاثون ألف ألف درهم.

۲۰. الزبير، خمسة و تسعون ألف ألف و ثمانمائة ألف درهم.

۲۱. سعد بن أبی وقّاص، مائتان و خمسون ألف درهم.

۲۲. ما اقتصّه لنفسه مرّة ثالثة، ثلاثون ألف ألف و خمسمائة ألف درهم.

و يبلغ مجموع المجموعة الثانية مائة و ستّة و عشرون مليونا و سبعمائة و سبعون

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۳

ألف درهم. انتهى ملخّصا.

فلاحظ تلك المصادر و المراجع و غيرها لاستقصاء الأعطيات و القطائع!

و قال الوليد بن عقبة يخاطب بنی هاشم فی أبيات له:

قتلتم أخی كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأجابه عبد اللّه بن أبی سفيان بن الحارث بن عبد المطلّب بأبيات طويلة منها:

و شبّهته كسرى و قد كان مثله شبيها بكسرى هديه و ضرائبه

و كان المنصور إذا أنشد هذا البيت يقول: لعن اللّه الوليد، هو الذى فرّق بين بنى عبد مناف بهذا الشعر «۱».

و روى البلاذرى: لمّا أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه، و أعطى الحارث بن الحكم بن أبى العاص ثلاثمائة ألف درهم، و أعطى زيد ابن ثابت الأنصارى مائة ألف درهم، جعل أبو ذرّ يقول: بشّر الكانزين بعذاب أليم، و يتلو قول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ «۲». فرفع ذلك مروان ابن الحكم إلى عثمان، فأرسل إلى أبى ذرّ ناتلا- مولاه: أن انته عمّا يبلغنى عنك، فقال: أينهانى عثمان عن قراءة كتاب اللّه، و عيب من ترك أمر اللّه؟! فو اللّه لأن أرضى اللّه بسخط عثمان أحبّ إلىّ و خير لى من أن أسخط اللّه برضاه.

و كان أبو ذرّ ينكر على معاوية أشياء يفعلها.. بعث إليه معاوية حبيب ابن مسلمة الفهرى بمائتى دينار، فقال: أما وجدت أهون عليك منّى حين تبعث إلىّ بمال؟! و ردّها، و بنى معاوية «الخضراء» بدمشق، فقال: يا معاوية! إن كانت هذه الدار من مال اللّه، فهى الخيانة، و إن كانت من مالك، فهذا الإسراف. و كان أبو ذرّ يقول: و اللّه لقد حدثت أعمال ما أعرفها، و اللّه ما هى فى كتاب اللّه و لا سنّة نبيّه، و اللّه إنّى لأرى حقّا يطفأ و باطلا يحيا

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۴

، و صادقا يكذب، و أثرة بغير تقى، و صالحا مستأثرا عليه، فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إنّ أبا ذرّ مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة. فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أمّا بعد، فاحمل جندبا إلىّ على أغلظ مركب و أوعره! فوجّه معاوية من سار به الليل و النهار، فلمّا قدم أبو ذرّ المدينة جعل يقول: تستعمل الصبيان، و تحمى الحمى، و تقرّب أولاد الطلقاء، ثمّ إنّ عثمان نفاه إلى «الربذة»، فلم يزل بها حتّى مات. و المقام يطول بذكر كلّ ما جرى من إنكار أبى ذرّ على عثمان و معاوية؛ فلاحظ المصادر.

و أخرج البخارى فى صحيحه من حديث زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة فقلت لأبى ذرّ: ما أنزلك هذا؟! قال: كنت بالشام فاختلفت أنا و معاوية فى هذه الآية: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ فقال: أنزلت فى أهل الكتاب، فقلت: فينا و فيهم. فكتب يشكونى إلى عثمان، فكتب عثمان: أقدم المدينة. فقدمت فكثر الناس علىّ كأنّهم لم يرونى قبل ذلك، فذكر ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحّيت فكنت قريبا؛ فذلك الذى أنزلنى هذا المنزل، قال ابن حجر فى فتح البارى فى شرح الحديث: و فى رواية الطبرى أنّهم كثروا عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام، فخشى عثمان على أهل المدينة ما خشيه معاوية على أهل الشام. و هكذا الحال فى ما جرى من إنكار عمّار و بعض أخلّائه على عثمان؛ فلاحظ المصادر.

و فى تاريخ الطبرى:

إنّ أبا بكر لمّا استخلف قال أبو سفيان: ما لنا و لأبى فصيل، إنّما هى بنو عبد مناف. فقيل له: إنّه قد ولّى ابنك. قال: وصلته رحم «۱».

و منهم: خالد بن الوليد. قال فى الإصابة: و كان سبب عزل عمر خالدا ما ذكره الزبير بن بكّار، قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسمه فى أهل الغنائم، و لم يرفع إلى أبى بكر

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۵

حسابا؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة و نكح امرأته، فكره ذلك أبو بكر و عرض الدية على متمّم بن نويرة، و أمر خالد بطلاق امرأة مالك، و لم ير أن يعزله، و فى تاريخ أبى الفداء: فقال عمر لأبى بكر: إنّ سيف خالد فيه رهق، و أكثر عليه فى ذلك، فقال: يا عمر! تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد.

و فى لفظ الطبرى: فلمّا بلغ قتلهم عمر بن الخطّاب- أى قتل مالك ابن نويرة و قومه- تكلّم فيه عند أبى بكر فأكثر، و قال: عدوّ اللّه، عدا على امرئ مسلم فقتله ثمّ نزا على امرأته. و أقبل خالد بن الوليد قافلا حتّى دخل المسجد و عليه قباء له عليه صدأ الحديد، معتجرا بعمامة له، قد غرز فى عمامته أسهما، فلمّا أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطّمها، ثمّ قال: أرئاء؟! قتلت امرأ

مسلما ثمّ نزوت على امرأته ... ثمّ ذكر أنّ أبا بكر عذره، و روى ثابت في الدلائل: إنّ خالدا رأى امرأة مالك و كانت فائقة في الجمال، فقال مالك بعد ذلك لامرأته: قتلتيني.

و قال الزمخشري و ابن الأثير و أبو الفداء و الزبيدي: إنّ مالك بن نويرة رضي اللّه عنه قال لامرأته يوم قتله خالد بن الوليد: أقتلتني؟! و كانت جميلة حسناء تزوّجها خالد بعد قتله، فأنكر ذلك عبد اللّه بن عمر، و قيل فيه:

أفي الحقّ أنّا لم تجفّ دماؤنا و هذا عروسا باليمامة خالد؟! «۱»

و في تاريخ ابن شحنة «۲»: أمر خالد ضرارا بضرب عنق مالك، فالتفت مالك إلى زوجته و قال لخالد: هذه التي قتلتني. و كانت في غاية الجمال؛ فقال خالد: بل قتلك رجوعك عن الإسلام؛ فقال مالك: أنا مسلم؛ فقال خالد: يا ضرار! اضرب عنقه! فضرب

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۶

عنقه، و في ذلك يقول أبو نمير السعدي:

ألا قل لحيّ أوطؤا بالسنابك تطاول هذا الليل من بعد مالك

قضى خالد بغيا عليه بعرسه و كان له فيها هوى قبل ذلك

فأمضى هواه خالد غير عاطف عنان الهوى عنها و لا متمالك

و أصبح ذا أهل و أصبح مالك إلى غير أهل هالكا في الهوالك

فلمّا بلغ ذلك أبا بكر و عمر قال عمر لأبي بكر: إنّ خالدا قد زنى فاجلده. قال أبو بكر: لا؛ لأنّه تأوّل فأخطأ. قال: فإنّه قتل مسلما فاقتله. قال: لا، إنّه تأوّل فأخطأ. ثمّ قال:

يا عمر! ما كنت لأغمد سيفا سلّه اللّه عليهم. ورثى مالكا أخوه متمّم بقصائد عديدة «۱».

و في تاريخ الخميس: اشتدّ في ذلك عمر و قال لأبي بكر: ارجم خالدا، فإنّه قد استحلّ ذلك؛ فقال أبو بكر: و اللّه لا أفعل، إن كان خالد تأوّل أمرا فأخطأ «۲». و في شرح المواقف: فأشار عمر على أبي بكر بقتل خالد قصاصا. فقال أبو بكر: لا أغمد سيفا شهره اللّه على الكفّار. و قال عمر لخالد: لئن وليت الأمر لأقيدنّك به «۳»؛ و في تاريخ دمشق:

قال عمر: إنّي ما عتبت على خالد إلّا في تقدّمه و ما كان يصنع في المال، و كان خالدا إذا صار إليه شيئا قسمه في أهل الغنى و لم يرفع إلى أبي بكر حسابه، و كان فيه تقدّم على أبي بكر، يفعل الأشياء التي لا يراها أبو بكر، و أقدم على قتل مالك بن نويرة و نكح امرأته، و صالح أهل اليمامة، و نكح ابنة مجاعة بن مرارة، فكره ذلك أبو بكر و لم ير أن يعزله «۴».

هذا، و قد كان مالك من أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و استعمله صلّى اللّه عليه و آله و سلم على صدقات قومه، و هو من أشراف الجاهلية و الإسلام. ثمّ إنّ ضرار بن الأزور زميل خالد بن الوليد في قتل

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۷

مالك قد شنّ الغارة على حيّ من بني أسد فأخذ امرأة جميلة فوطئها بهبة من أصحابه، ثمّ ذكر ذلك لخالد، فقال: قد طيّبتها لك؛ فكتب إلى عمر فأجاب برضخه بالحجارة «۱».

و بعد فتح الشام أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر، عن محارب بن دثار: إنّ أناسا من أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم شربوا الخمر بالشام و قالوا: شربنا لقول اللّه: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا «۲».. الآية «۳». و في كتاب من أبي بكر له: لعمري يا بن أمّ خالد! إنّك لفارغ تنكح النساء و بفناء بيتك دم ألف و مائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد كتبه إليه لمّا قال خالد لمجاعة: زوّجني ابنتك. فقال له مجاعة: مهلا، إنّك قاطع ظهري و ظهرك معي عند صاحبك. قال: أيّها الرجل! زوّجني. فزوّجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه الكتاب، فلمّا نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعيسر. يعني عمر بن الخطّاب «۴».

هذا، و قد كان خالد بن الوليد من نجوم قيادات الفتوح. و في الإصابة- في ترجمة خالد بن الوليد-: قال عمر لأبي بكر: اكتب إلى

خالـد لا- يعطى شيئا إلّا بأمرك فكتب إليه بـذلك، فأجابه خالـد: إمّا أن تـدعنى و عملى و إلّا فشأنك بعملك. فأشار عليه عمر بعزله، فقـال أبو بكر: فمن يجزى عنّى جزاء خالـد. قـال عمر: أنـا. فتجهّز عمر ... إلى أن قال- بعـد ثنى أبى بكر لعمر عن الخروج-: فلمّا قبل عمر كتب إلى خالـد: أن لا تعطى شاة و لا بعيرا إلّا بأمرى. فكتب إليه خالـد بمثل ما كتب إلى أبى بكر، فقال عمر: ما صـدقت اللّه إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفّذه. فعزله، ثمّ كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلّا أن يخلّيه يفعل ما شاء فيأبى عمر، قال مالك: و كان عمر يشبه خالدا «۵».

و عن عبد الرحمن بن عوف، قال: إنّه دخل على أبى بكر فى مرضه الذى توفّى فيه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۸

فأصابه مهتمّا ... فقال أبو بكر: إنّى ولّيت أمركم خيركم فى نفسـى، فكلّكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، و رأيتم الدنيا قد أقبلت و لمّا تقبل و هى مقبلة حتّى تتّخذوا سـتور الحرير، و نضائد الديباج، و تألموا الاضطجاع على الصوف الأذرى كما يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان، و اللّه لأن يقدّم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حدّ خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا، و أنتم أوّل ضالّ بالناس غدا فتصدّونهم عن الطريق يمينا و شمالا، يا هادى الطريق! إنّما هو الفجر أو البحر «۱».

و روى البخارى فى صحيحه، عن هند بنت الحارث: إنّ أمّ سلمة زوج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم قالت:

استيقـظ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم ليلـة فزعـا يقول: سـبحان اللّه! مـاذا أنزل اللّه من الخزائن؟! و ماذا أنزل من الفتن؟! من يوقظ صواحب الحجرات- يريد أزواجه- لكى يصلّين؟! ربّ كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة «۲»

قال ابن حجر فى فتح البارى فى شـرح الحديث: و فى رواية سـفيان: ماذا أنزل الليلة من الفتن؟! و ماذا فتح من الخزائن؟! قال ابن بطال فى هـذا الحـديث: إنّ الفتوح فى الخزائن تنشـأ عنه فتنـة المـال بـأن يتنافس فيه القتال بسـببه، و أن يبخل به فيمنع الحقّ أو يبطر صاحبه فيسرف، فأراد صلّى اللّه عليه و آله و سلم تحذير أزواجه من ذلك كلّه، و كذا غيرهنّ ممّن بلغه ذلك.

و قال ابن حجر فى شـرح «ربّ كاسية »: ... و اللفظة و إن وردت فى أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم لكنّ العبرة بعموم اللفظ؛ كاسـية للشـرف فى الدنيا لكونها أهل التشـريف و عارية يوم القيامة؛ كما قد أشـير فى أحاديث نبويّه اخرى إلى هذه الأوضاع، نظير ما رواه البخارى و مسلم فى كتاب الفتن عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۱۹

إنّكم سترون بعدى أثره و أمورا تنكرونها. «۱»

إنّ الأجواء السائـدة لدى المسـلمين فى عهود الفتوحات الأولى، و ما كان لديهم من حماس دينى ملتهب، و من قوّة نظر و إشـراف فى مراقبـة الحكم و الحـاكم، بجـانب عوامل أخرى- نتعرّض لها كلّها- من إعـداد و صـنع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، كانت سبب النصر و الظفر و الفتوحات.

و بعبارة أخرى: الخطّة المرسومة من القرآن الكريم و الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم للمسـلمين و لوظيفة الحكم من بعده، سواء على صـعيد التقنين، أو على صـعيد البناء الروحى للمسـلمين، أو على صـعيد البناء العسـكرى و القوّة الضاربـة، أو على صـعيد الوحـدة الاجتماعية المترابطة، أو على صعيد بناء الدولة و أجهزة الحكم؛ كانت تملى القيام بالجهاد و فتح البلدان. هذا كلّه بالإضافة إلى البريق النيّر الذى أوجده رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم عن الدين الإسلامى فى أسماع الملل و الأقوام المختلفة، من العدالة و كرائم الخلق فى القانون و التنفيذ، و نشدة الحقّ و النصفة..

فـإنّ نظرة تحليليـة فى الأصول الاجتماعيـة و السياسـية و القانونيـة التى كانت العرب تعيشـها قبل البعثـة النبويّـة الشـريفة مقارنـة بالنظام الاجتماعى و السياسـى و الروحى و القانونى الـذى بناه و أسّـسه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، هـذه النظرة و المقارنـة كفيلة لفهم أنّ القيـادة فى الفتوحات بعـد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم لم تكن تلعب ذلك الـدور الخطير المؤثّر فى الوصول إلى

نتائج الفتوحات، سواء القيادة السياسية، أو القيادة العسكرية.

و يستطيع القارئ أن يلمس ذلك من بعض النصوص التاريخية أو الروائية التى ذكرناها آنفا، فضلا عمّا لو تتبّع و استقصى ذلك بنفسه من خلال كتب السير و التاريخ و الحديث؛ فإنّ سرّ الفوز بتلك النتائج يكمن فى عظمة النظام الذى بنى صرحه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم على الأصعدة المختلفة. و قد أشار إلى ذلك عدّة من الباحثين فى حقل العلوم

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۰

الإسلاميّة أو العلوم الإنسانية، و لنضرب الأمثلة لنماذج تلك العوامل المزبورة:

* فأمّا رقابة المسلمين الشديدة على الحكم و الحاكم، التى ربّاهم عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و محاسبتهم لكلّ صغيرة و كبيرة، و أنّ الظروف المحيطة بالحاكم و الحكم ما كانت تسمح له بتغيير كلّ معالم النظام السياسى و الاجتماعى و المعنوى الذى شيّده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم؛ فمن أمثلة ذلك:

قول عمر بن الخطّاب لابن عبّاس: لو وليها عثمان لحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه «۱». و فى نقل آخر عنه: لو ولّيتها عثمان لحمل آل أبى معيط على رقاب الناس، و اللّه لو فعلت لفعل، و لو فعل لأوشكوا أن يسيروا إليه حتّى يجزّوا رأسه «۲» و هذا ما حدث؛ إذ ثار المسلمون على عثمان و قتلوه، بسبب الإثرة فى السلطة و فى المال و فى مقدّرات المسلمين التى خصّصها بذويه و عشيرته و بنى أميّة.

و هذه القوّة لرقابة الناس التى يصوّرها عمر فى العقد الثالث الهجرى فكيف هى فى العقد الثانى، و فى أوائل العهد الذى تلا العهد النبوى؟!

و قول علىّ عليه السّلام لعثمان؛ و قد كان فى بيت المال بالمدينة سفط فيه حلى و جوهر فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه فى ذلك، و كلّموه فيه بكلام شديد حتّى أغضبوه فقال: هذا مال اللّه، أعطيه من شئت و أمنعه من شئت، فأرغم اللّه أنف من رغم و فى لفظ آخر: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء و إن رغمت أنوف أقوام؛ فقال له علىّ عليه السّلام: إذا تمنع من ذلك و يحال بينك و بينه «۳». و قد صعد عمر المنبر يوما و قال: لو صرفناكم عمّا تعرفون إلى ما تنكرون ما كنتم؟ فأجابه علىّ عليه السّلام: إذا كنّا نستتيبك، فإن تبت قبلناك. فقال: و إن لم؟ قال: نضرب عنقك الذى فيه عيناك. فقال عمر: الحمد للّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۱

الذى جعل فى هذه الأمّة من إذا اعوججنا أقام أودنا «۱».

و الحاصل: إنّ أمثلة هذا العامل كثيرة جدّا يجدها الباحث بمجرّد رجوعه إلى ذاكرته فى أحداث العقود الهجرية الأولى التى تلت العهد النبوى الأوّل. نعم، ليس المراد من وجود هذا العامل أنّه لم تكن للتكتّلات السياسية فى صفوف الصحابة- من المهاجرين و الأنصار، و ائتلاف السقيفة، و البيت الهاشمى و أنصاره- أىّ دور، إمّا فى تغيير و تبديل الخطّة المرسومة من قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و إمّا فى المحافظة على بقائها؛ إذ الأمور نسبية، و إنّما الغرض بيان الجانب الغالب.

* و أمّا تعيين وظيفة المسلمين و الدولة من قبل النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بشأن الفتوحات؛ فقد كان إخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم بفتح المسلمين لفارس و الروم و سقوط ملك كسرى و قيصر على أيديهم، إخبارا ملأ آذان المسلمين فى مواقع عديدة أنبأ فيها بذلك، كما فى حفر الخندق فى غزوة الأحزاب «۲» و غيره، و قد كان وعدا قطعيا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بذلك للمسلمين، و هذا الوعد الصادق استيقن به المسلمون، كما رأوا صدق الوعود منه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من قبل، و كان هذا باعثا للأمل و لقوّة الروح فيهم التى لا تستجيب لليأس أو الخوف.

كما إنّ تعيين القرآن الكريم و النبىّ الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلم هذه الوظيفة للمسلمين كان بيانا لمشروعية الجهاد فى نفسه لدى العديد ممّن لم ير مشروعية لما نتج عن بيعة السقيفة. و لقد كان فى أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم- فى أيّامه الأخيرة- بتجهيز

جيش أسامـة، و حثّه على إنفاذه، و لعنه من تخلّف عنه، دلالـة على مـدى العناية الشديدة التى كان يوليها صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم لأمر الجهاد.

* و أمّا روح الفداء و طلب الشـهادة و التضـحية، و التعطّش لدرجات الآخرة و الرضوان؛ فقد كانت ما تزال ملتهبة بفضل أنوار النبوّة و قرب العهد من الوحى، و مشاهد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحيّة فى أذهانهم، و وقائع الغزوات الكبرى فى الإسلام، التى

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۲

خلّدت أسـماء نجوم الشـهادة، فلم تكن هنـاك تعبئـة من القيـادة السياسـية أو العسـكرية للجهاد بقـدر ما كانت محاولـة تـدبير للحالة الاندفاعية الموجودة و الحماس الملتهب.

سبب إخفاق الفتوح عن الوصول إلى الوعود الإلهيّة ... ص: ۴۲۲

إنّ المحاولـة فى التـدبير هى التى أضـفت لونا على الجهاد و الفتوح، و غيّرت من خلق و غايات هذا الباب، و ساهمت فى تقليل حيوية عوامله و معـدّاته، على نحو تدريجى، بسـبب الممارسات التى ارتكبت، سواء بالإضافة إلى البلدان المفتوحة و أهاليها، أو بالإضافة إلى الرموز الخاصّـة من القيـادات العسـكرية و غيرهـا، ممّن كـانت تربطه بالسـلطة علاـئق معينـة، و سواء على صـعيد المال أو الأعراض أو النفوس..

مضافا إلى إنّ الانفتاح على الأقوام الأخرى كان يتطلّب كفالـة شـرعية من مختلف الجوانب الروحيـة و العلميـة و التربويـة و القانونية و السياسـية، و غيرها من الجوانب التى لم تكن القيادة المركزيـة مؤهّلـة لتلك المهمّـة فى ظلّ التحديـد و الحصار لـدور الإمام علىّ عليه السّـلام، حامل علم النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم، و القيّم الثانى المبيّن للدين، و الوزير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى تأسيس الدعوة و تشييدها حتّى آخر لحظات حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم..

بسبب كلّ هـذا لم يكتب للوعـد الإلهى فى قوله تعالى: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ «۱»، الـذى تكرّر فى ثلاث سور- و غيره من الوعود الإلهيّـة، كقوله تعالى: وَ لَقَـدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ «۲»، و وعده تعالى فى قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «۳»، و قوله سبحانه: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ «۴» - التحقّق فى العاجل.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۳

ثمّ انّ الاهتراء الـداخلى الذى بدأ عدّه العكسـى و أخذ يدبّ فى جسد الأمّة و وحدة المسـلمين؛ و قد حذّر منه النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلم فى طوائف من الحديث، نظير قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم عندما أشرف على أطم من آطام المدينة:

هل ترون ما أرى؟!». قالوا: لا. قال: «فإنّى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر «۱».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم عندما استيقظ من النوم محمرّا وجهه:

لا إله إلّا اللّه، ويل للعرب من شرّ قد اقترب «۲».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

هلكة أمّتى على يدى غلمة من قريش.

فقال مروان: لعنة اللّه عليهم غلمة؛ رواه البخارى، عن ابن سعيد، عن جدّه، و قال:

فكنت أخرج مع جدّى إلى بنى مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا: عسى أن يكونوا منهم «۳».

و قال ابن حجر فى فتح البارى- بعد نقل الحديث؛ إذ ذكر البخارى تتمّة له من لعن مروان لأولئك الغلمة-:

تنبيه: يتعجّب من لعن مروان الغلمـة المـذكورين مع إنّ الظاهر أنّهم من ولـده، فكأنّ اللّه تعالى أجرى ذلك على لسانه ليكون أشدّ فى

الحجّة عليهم لعلّهم يتّعظون، و قد وردت أحاديث فى لعن الحكم والد مروان و ما ولد، أخرجها الطبرانى «۴»

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۴

و قد رواه مسلم فى صحيحه، عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال:

يهلك أمّتى هذا الحىّ من قريش. قالوا: فماذا تأمرنا؟ قال: لو أنّ الناس اعتزلوهم «۱».

قال النووى- فى شرحه بعد مطابقته بين الروايتين-:

إنّ المراد برواية مسلم طائفة من قريش، و هذا الحديث من المعجزات، و قد وقع ما أخبره صلّى اللّه عليه و آله و سلم «۲».

و قد تقدّم أنّ أبا بكر ابتدأ بتولية ابن أبى سفيان، و قد أمن بذلك من مواجهة أبى سفيان لتنصيبه فى السقيفة.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

أنا فرطكم على الحوض، ليرفعنّ إلىّ رجال منكم حتّى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دونى، فأقول: أىّ ربّ أصحابى، فيقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك «۳».

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:

أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، و من شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليردنّ علىّ أقوام أعرفهم و يعرفونى، ثمّ يحال بينى و بينهم، أقول:

إنّهم منّى، فيقال: إنّك لا تدرى ما بدّلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدّل بعدى «۴».

قال ابن حجر فى فتح البارى:

إن كانوا ممّن لم يرتدّ لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۵

اعتقاد القلب؛ فقد أجاب بعضهم بأنّه يحتمل أن يكون أعرض عنهم و لم يشفع لهم اتّباعا لأمر اللّه فيهم حتّى يعاقبهم على جنايتهم، و لا مانع من دخولهم فى عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمّته فيخرجون عند إخراج الموحّدين من النار، و اللّه أعلم «۱».

و قد تواصل هذا الاهتراء فى نظام الحكم إلى أن وصل إلى الحالة التى أشرنا إليها فى عهد عثمان، فقد أعطى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح- أخاه من الرضاعة- الخمس من غنائم إفريقية فى غزوها الأوّل «۲».

قال البلاذرى فى الأنساب:

لمّا قدم الوليد- ابن عقبة بن أبى معيط ابن أبى عمر و بن أميّة، الذى نزلت فيه آية: إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ «۳» - الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال، فاستقرضه مالا، و قد كانت الولاة تفعل ذلك ثمّ تردّ ما تأخذ، فأقرضه عبد اللّه ما سأله، ثمّ إنّه اقتضاه إيّاه، فكتب الوليد فى ذلك إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد اللّه بن مسعود: إنّما أنت خازن لنا، فلا تعرض للوليد فى ما أخذ من المال، فطرح ابن مسعود المفاتيح و قال: كنت أظنّ أنّى خازن للمسلمين، فأمّا إذ كنت خازنا لكم فلا حاجة لى فى ذلك. و أقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال «۴».

حتّى آل الأمر إلى ليالى بنى أميّة و بنى العبّاس و نظام حكمهم، و عن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۶

عائشة:

إنّ الخلافة سلطان اللّه يؤتيه البرّ و الفاجر «۱».

و روى البخارى، عن أيّوب، عن نافع، قال:

لمّا خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه و ولده فقال: إنّى سمعت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول: ينصب

لكلّ غادر لواء يوم القيامة، و إنّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع اللّه و رسوله، و إنّى لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع اللّه و رسوله ثمّ ينصب له القتال، و إنّى لا أعلم أحدا منكم خلعه و لا بايع فى هذا الأمر إلّا كانت الفيصل بينى و بينه «۲».

و قد قتل يزيد فى العام الأوّل من خلافته سبط الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و فى العام الثانى استباح المدينة المنوّرة و أهلها و نساءها و فى العام الثالث رجم الكعبة، بل إنّه أمر بأخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم خول له يحكم فى دمائهم و أموالهم و أهلهم بما شاء؛ مع إنّ البخارى روى فى صحيحه، عن ابن عمر، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم، قال:

السمع و الطاعة على المرء المسلم فى ما أحبّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة «... ۳».

من كلّ ما سبق يتّضح جليّا سرّ تركيز علىّ عليه السّلام فى عهده الذى تسلّم فيه مقاليد الأمور على إصلاح الداخل و البناء الذاتى؛ إذ كيف يدعو الآخرين من الملل الأخرى إلى الدين، و أبناء الدين الإسلامى أنفسهم لا يعملون به؟! و عطّلوه و محوا رسومه التى كانت على عهد النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و منطق القرآن: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ*

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۷

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ «۱» و أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أ فَلا تَعْقِلُونَ «۲» و قال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ* وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ* وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ «۳».

و ذكر ابن حجر فى فتح البارى فى شرح كتاب الفتن، الذى صدّره البخارى بالآية، قال: أخرج الطبرى من طريق الحسن البصرى، قال: قال الزبير: لقد خوّفنا بهذه الآية و نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ما ظننّا أنّا خصصنا بها، و قال: عند الطبرى من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عبّاس، قال: أمر اللّه المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمّهم العذاب.

و لهذا الأثر شاهد من حديث عدىّ بن عميرة: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقول:

إنّ اللّه عزّ و جلّ لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة حتّى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب اللّه الخاصّة و العامّة «۴».

فإذا لم يحكم العدل فى ما بين المسلمين فكيف يطالب غيرهم به؟! و قد روى- ما مضمونه-:

إنّ قائلا- قال للإمام السجّاد علىّ بن الحسين زين العابدين عليه السّلام: أتركت الجهاد فى الثغور و خشونته و أقبلت على الحجّ و نعومته؟! و قد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۸

فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «۱» الآية.

فقال له زين العابدين عليه السّلام: أكمل الآية. فقال: التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «۲» فقال له زين العابدين عليه السّلام: إذا وجدت من هم بهذا الوصف فنحن نجاهد معهم «۳»

و يا له من شرط صعب! الحفظ لحدود اللّه!

و لقد خطب الإمام علىّ عليه السّلام فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة، فقال:

ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، و كلّ مال أعطاه من مال اللّه، فهو مردود فى بيت المال؛ فإنّ الحقّ القديم لا يبطله شىء، و لو وجدته قد تزوّج به النساء، و فرّق فى البلدان، لرددته إلى حاله، فإنّ فى العدل سعة، و من ضاق عنه الحقّ فالجور عنه أضيق «۴».

فسيف عليّ عليه السّلام الذى أقيم به صرح الإسلام، و شيّد به دعائم الدولة الإسلاميّة، عاد مرّة أخرى لإزالة الأود و العوج الذى حصل فى نظام المسلمين السياسى و الاجتماعى، و بناء النموذج الداخلى المثالى للدعوة إلى الإسلام؛ بل إنّ عليّا عليه السّلام أقام- قبل تسلّمه مقاليد الأمور- مرابطا فى الخندق العلمى لوجه الدين الإسلامى، أمام تحدّيات المسائل الحرجة التى ابتليت بها الأمّة و لم يكن لها من يطّلع على حكم الشريعة فيها، و قد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من الموارد لذلك، و كذا أمام تحدّى الملل و النحل الأخرى «۵».

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۲۹

و ننتهى فى الفتوحات إلى هذه النقطة: و هى أنّ عقدة الملل الأخرى- لا سيّما الغربيّين- النفسية و الذهنية تجاه الدين الإسلامى، و عدم إقبالهم عليه، و عدم البحث عن حلّ لمشاكلهم من منظار ديننا- و إن كان له أسباب متعدّدة صاغها أعداء الإسلام و المسلمين- مضافا إلى النفسية العدوانية، و العقلية الاستعلائية التى تصعّر بخدّهم؛ إلّا إنّ شطرا مهمّا من تلك الأسباب هى ممارسات المسلمين أنفسهم، و بالخصوص و التحديد هى رواسب الممارسات التى وقعت فى فتوحات البلدان..

فإنّ سلبيّات كيفية الأداء فى هذه الفتوحات و ما رافقها من تجاوز للموازين الدينية المقرّرة، التى تحافظ على روح خلق الشريعة، فإنّ الحفظ لحدود اللّه تعالى فى باب الجهاد و غيره هو الكفيل الأمثل لدخول الناس أفواجا فى دين اللّه تعالى، و الموجب لتحقّق الوعد الإلهى- الذى تأخّر إلى هذا اليوم- بإظهار الإسلام فى كافّة أرجاء المعمورة.

سياسات الخلفاء فى بلدان الفتوح ... ص: ۴۲۹

أمّا الثالث فلا نجد حاجة للإشارة إلى عبثه و لعبه «۱». و أمّا الثانى فقد كان جملة من ولاته من هم من الطلقاء، كما تقدّم، و من ولاته أيضا: عتبة بن أبى سفيان على الطائف، و أبو هريرة على البحرين، و عمرو بن العاص على مصر، و معاوية بن أبى سفيان على الشام. و كان من جملة ولاته أيضا من هم من أصحاب السقيفة، كسعد بن أبى وقّاص على الكوفة، و أبو موسى الأشعرى على البصرة، و أبو عبيدة بن الجرّاح على موضع من الشام، و خالد بن الوليد على موضع آخر لفترة.

و لمّا رأى عمر استثراء ولاته قام بمشاطرة أموالهم، فأخذ منهم النصف و أبقى لهم النصف، فاعترض عليه أبو بكرة- و كان أحد ولاته- قال له: و اللّه لإن كان هذا المال للّه

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳۰

فما يحلّ لك أن تأخذ بعضا و تترك بعضا، و إن كان لنا فما لك أخذه. فقال له عمر: إمّا أن تكون مؤمنا لا تغلّ، أو منافقا أفك. فقال له: بل مؤمن لا أغلّ «۱». و قد تقدّم دفع عمر الحدّ عن المغيرة بن شعبة لمّا زنى بأمّ جميل.

و قام الشيخان بمنع تدوين الأحاديث النبوية و إحراق الكتب التى جمعت فيها، و المعاقبة على ذلك بشدّة، و المنع من نشر و انتشار أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الصحابة إلى سائر الأمصار و التابعين «۲»؛ كما أحرق عمرو بن العاص أكبر مكتبة فى الاسكندرية بأمر عمر؛ ذكر ذلك جرجى زيدان، و استشهد بقول عبد اللطيف البغدادى و المقريزى و الحاج خليفة «۳».

و لقد صدق قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لكعب بن عجزة: «أعاذك اللّه يا كعب من إمارة السفهاء. قال: و ما إمارة السفهاء يا رسول اللّه؟ قال: أمراء يكونون بعدى لا يهدون بهديى، و لا يستنّون بسنّتى، فمن صدقهم بكذبهم و أعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا منّى و لست منهم». الحديث «۴».

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إنّه سيكون بعدى أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم و أعانهم على ظلمهم فليس منّى و لست منه و ليس بوارد حوضى» «۵».

و قد روى الشافعى من طريق وهب بن كيسان، عن ابن الزبير، قوله: «كلّ سنن

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳۱

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد غيّرت، حتّى الصلاة» «۱».

و قد اعترض الصحابة على عمر فعله و سنّته بتقديم بعض الناس على بعض فى الأموال بمزية، كتقديم: زوجات النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمّهات المؤمنين على غيرهنّ، و البدرى على من سواه، و المهاجرين على الأنصار، و العرب على الموالى «۲». و قد كانت سياسة و سنّة عمر بن الخطّاب فى الحكم مبنية على التفريق بين العرب و العجم فى عدّة أحكام،

منها: ما تقدّم فى العطاء من بيت المال.

و منها: ما رواه مالك بسنده: أبى عمر بن الخطّاب أن يورّث أحدا من الأعاجم إلّا أحدا ولد فى العرب «۳». و هذه العصبية تجلّت فى غير هذين الموردين أيضا. و قد ذكر فى تقسيم غنائم الفتوح أنّه كان يعطى للهجين سهما و للعربى سهمين، مع أنّهم أبلوا بلاء حسنا كالعرب «۴».

و منها: منعه الموالى من دخول المدينة، و لم يكن دخول أبى لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة إلّا بالتماس من المغيرة، و كذا آحاد من الموالى.

أخلاقيات السقيفة فى الفتوح و الحكم علامات أوقفت انتشار الإسلام ... ص: ۴۳۱

الأولى: ما تقدّم مفصّلا من ريبة القبائل العربية فى الجزيرة فى الدين بسبب استخلاف أبى بكر و إزواء الخلافة عن أهل بيت النبوة عليهم السّلام، و تمرّدهم على أبى بكر، و وصول الأمر إلى ردّة بعضهم.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳۲

الثانية: عصيان أهل البلاد المفتوحة؛ و تجلّى ذلك فى قيام الموالى بقتل الخليفة الثانى بعد أن رأوا أنّهم قد خدعوا بأمل المساواة و العدالة فى ظلّ دين الإسلام؛ إذ وجدوا أنّ نظام السقيفة يستحقرهم و يعدّهم مواطنون فى الدين من الدرجات الدانية، و من ثمّ بدأت تظهر الحركات و المسارات الشعوبية منادية بإحياء النزعة القومية و العرف العرقى مقابل العرق العربى، فكأنّهم انطبع لديهم أنّ الدين الإسلامى وسيلة اتّخذها العرب للسيادة على الشعوب و القوميات الأخرى، و هذا الملف الشعوبى طويل الذيل لا يكاد يخلو منه كتاب تاريخ أو كتاب تراجم رجال.

و هكذا الحال بالنسبة لأهل مصر و العراق؛ إذ ثاروا على الخليفة الثالث فقتلوه عندما شاهدوا استئثار عشيرته بالمال، و عيثهم بمقدّسات الدين. بينما نرى أنّ من اغتال علىّ عليه السّلام ليس من أهل البلاد المفتوحة، بل هو من أصحاب الانحراف الفكرى الشذوذى من المسلمين، و هم الخوارج، أى أصحاب نظرية فكرية ممسوخة عن ثوابت الدين الحنيف. أمّا الأوّل فذكر أنّه سمّ، و قيل: لعلّه لتقاطع المصالح بين جماعة السقيفة بين بعضهم البعض، و لا مجال لذكر مؤشّرات ذلك فى المقام.

الثالثة: دخول الروم و أوربا عموما فى الدين المسيحى بعد أن كانوا و ثنيّين فى القرن الثانى الهجرى، كما تذكر المصادر التاريخية و هذه حادثة مرّة على كلّ مسلم و مؤمن.

فأين ذهب نور الدين القويم، و أين ذهبت جاذبية مبادئه العالية؟! و أين هو نور جاذبية سيرة الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلم؟! و أين هى ظاهرة: وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً «۱»؟! و أين هو الوعد الإلهى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ «۲»؟!

و الغريب أنّ الجانب و العامل المؤثّر لدخول البلدان الأوروبية فى الديانة

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳۳

المسيحية هو شعار الرحمة و العطف و اللين و السماحة، الذى رفعه القساوسة و الأساقفة من رجال المسيحية، بينما تسامع أهل الروم و

من والاهم من جيوش الفتوح سواء داخل الجزيرة أو في بلاد العراق و فارس و مصر و الشام عن سياسات نظام السقيفة في تلك البلدان، إلى أن بلغت ذروتها في عهد الأمويّين، التي مرّ علينا بعضا منها في كيفية الممارسات في كلا البعدين في خصوص عهد الشيخين.

و الغريب ممّن يبصر الفساد و الانحراف في النظام السياسي و الديني في عصر الأمويّين و العبّاسيّين و يتعامى عن جذوره في نظام السقيفة!!

الرابعة: بقاء الصورة المظلمة في أذهان كثير من شعوب دول العالم عن دين الإسلام نتيجة الممارسات القديمة على الصعيدين الداخلي و الخارجي، و كذلك الممارسات الحديثة الداخلية في البلدان الإسلامية؛ فإنّ الملاحظ أنّ عوامل ضعف المسلمين و تضعضعهم و استشراء الفساد في النظام الاجتماعي ترجع بالأساس إلى نوعية الطبقة السياسية الحاكمة، و هي وليدة عوامل عدّة تتناهى إلى عامل أخير، هو: المذاهب الدينية المبرّرة لمشروعية الحاكم مهما كانت أوصافه و أحواله ما لم يظهر منه كفرا بواحا؛ كما روى ذلك البخاري في صحيحه في كتاب الفتن: «و الخارج على جماعة المسلمين و نظامهم مهما بلغ في الفساد مهدور الدم»، إلى غير ذلك من ثوابت مذاهب السقيفة.

الصحابة بين العدالة والعصمة، ص: ۴۳۵

الفهرس التفصيلي ... ص: ۴۳۵

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهـمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائـل الدّینیّـة، تخلیف المطـالب النّـافعـة – مکـانَ البَلاـتیثِ المبتذلـة أو الرّدیئـة – فی المحـامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققین و الطّلّاب، توسـعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـَج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسـریعُ إبراز المَرافِق و التسـهیلاتِ– فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جـهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّـة لهـذا المرکز، شـَعبیّـة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنـّها لا تُوافِی الحجمَ

المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹